من نفحات فضيلة الشيخ الشعراوي

تفسير القرآن الكريم للشباب

ومعجزة المتشابهات

إعداد

د. كــامل عويـضـه

الطبعة الأولى

دار الروضة للنشر والتوزيع

القاهرة – ٢ درب الأتراك – خلف الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م
رقم الإيداع/ ١٧٢٢١-٢٠٢١
الترقيم الدولى/ ٩٧٨-٩٧٧-٤٥٨-١٠٠٨

دار الروضة

للطباعة والنشر

٢ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر
ت: ٢٥٠٦٦٨٨٤ -
٠١٢٢٣٦٠٨٩٩٥
darelrwdamms@yahoo.com

فضيلة الشيخ

فـي قريـة دقـادوس التـي تبعـد عـن مدينـة ميـت غمـر مـن أعمـال محافظـة الدقهلية، ببضع كيلو مترات، ولد العالم الجليل، وهي قرية هادئة حيث عانت مثلما عانت القرى المصرية من فداحة الضرائب، وثقل وطأة الجباة في عهد إسماعيل.

هذا غيـر الإقطـاعيين الـذين تحكمـوا فـي مصـادر النـاس، وكـان الإقطـاعي يستطيع أن يمنـع أو يمنح فرصـة للتعلم سواء داخل القرية أو خارجها. وقبل بزوغ فجر يوم الخامس عشر من شهر إبريل ١٩١١ من مولد عيسى عليه السلام كان مولد الإمام محمد متولي الشعراوي.

رحلـته العلمـية: وقد اتجه جده إلى العلم منذ نعومة أظفاره، فحفظ القرآن الكريم وهو في الثامنة من عمره، وعلى الرغم من انشغال والد الإمام بالعمل في الزراعة إلا أن الوالد الأكبر وهو جد الشيخ قام بتحفيظ ابنه الشيخ متولي القرآن الكريم، فكانت ذرية صالحة بعضها من بعض فأقبل الإمام وهو مازال طفلا يحفظ كتاب الله تعالى، حتى أن أقرانه كانوا يختبرون حفظه بأن يقوم أحدهم باختيار رقم الآية ويطلبون منه أن يأتي بها أو العكس، فكانت إجابته سريعة وصحيحة، وكان يزيد عليها رقم السورة ورقم الصفحة. وظل هكذا حتى وصل إلى مرحلة الشباب، وكان يطلق على هذه المرحلة قوله: "**لقد كبرنا مبكراً**"؛ لأنه تعود على الصراحة والاتزان حتى وهو طفل فلم يذكر يوماً لعب فيه أو نشاط مارسه.

وحينما بدا له حتمية ممارسة أي نشاط رياضي يساعده على تجديد الدماء، اهتزت مصر كما اهتز هو حينما أصدر الشيخ على عبد الرزاق كتابه "**الإسلام وأصول الحكم**" عام ١٩٥٢ م، والذي ذكر فيه أنه لابد من فصل الدين عن الدولة، وكيف يصدر هذا عن عالم ينتمي عن العلماء الذي كان محمد متولي الشعراوي يثـق فـيهم، ولكونـه قاضـي شـرعي بمدينـة المنصـورة بالإضـافة إلـى أفكـار أخـرى احتوتها صفحات الكتاب.

ويأتي العام التالي مباشرة ١٩٢٦ م وقد صدر كتاب الدكتور طـه حسين، والذي سماه "**فـي الشـعر الجـاهلي**" ومرة أخرى يتعرض الشاب للهزة التـي كـادت تفقده اتزانه بالإضافة للمعارك التي دارت في ذلك الوقت بين الشيخ محمد نجيب مفتـي الـديار المصرية الأسبق، وبين مفتـي الـديار محمد على باشا حتـى وصـل

الأمر إلى اتهام كل منهما بالكفر والنفاق والإلحاد.

لقد استوعب الشاب كل هذه القضايا وتفاعل معها سواء بالتأييد أو الاعتراض. مما جعله يتفاعل مع هذا أو ذاك؛ لأن هذه القضايا كانت كبيرة وأشخاصها كانوا رجال كبار، ولذلك كان الشاب محمد متولي الشعراوي يصف تلك الفترة "**بأنها كبرنا فيها مبكراً**".

لقد كان الشيخ يردد دائماً "**أن من حسن الحظ أن البيئة التي نشأت فيها تتسم بالصلاح والتقوى، أما عن بيئتي الخاصة فقد كان أبي رجلا له في طريق الله مجال، والبيئة التي أعيش فيها هي القرية ذات الأرض الزراعية التي يملكها قلة من الإقطاعيين**".

ومن أجل هذا فقد اتجه الكثيرون ممن ألح عليهم خاطر التعليم كبديل للواقع المتدني على التعليم الأزهري، خاصة وقد كانت الصيحات المتكررة لجمال الدين الأفغاني ومن بعده محمد عبده تملأ الأذان بالدعوة إلى ضرورة الأمة المتعلمة، بجانب أن بعض زعماء مصر السياسيين في ذلك الوقت كانوا أزهريين أو ممن ينادون بوجود رابطة إسلامية مما أتاح الفرصة للصبي أن يلتحق بكتاب القرية لطلب العلم، ثم تخطى كُتَّاب القرية إلى القرى بل والمدن المجاورة للإطلاع على الجديد فيها.

وكان الطريق الذي رسمه محمد متولي الشعراوي عدم الاكتفاء بالتنقل بين الكتاتيب في مرحلة الطفولة، ولكن عليه أن يلتحق بالمدرسة حيث ألحقه والده بالمدرسة الابتدائية نزولا على رغبته الأكيدة في التعلم. ويزوجه أبوه بعد أن حصل على الشهادة الابتدائية في أوائل الثلاثينات كما يقول: "**وبعد فترة أبا... مما جعلني لا أفكر في الخطأ.. لأنه لا توجد بدرات للفساد**"... **ونسمعه يقول أيضاً:** أن البيئة كرمتنا وأسهمت في تربيتنا بجانب انتسابنا للأزهر... كل جعل الناس يحترموننا فحرصنا ألا نفعل أي شئ يغض من هذا الاحترام. وبعد حصوله على الشهادة الابتدائية التحق بالمعهد الثانوي في الجامعة الأزهرية، ويحصل على شهادة الثانوية الأزهرية عام ١٩٣٦ م ليتيح له الالتحاق بالجامعة الأزهرية، وينال إجازة العالمية من كلية اللغة العربية عام ١٩٤١ م، ثم ينتقل بعد ذلك للحياة العملية في الزقازيق وطنطا والإسكندرية.

وحينما كان الشيخ شاباً كان عليه أن يواجه ضغوط رغبة الوالد وأعباء حياته الزوجية وكثافة المناهج الدراسية، وفي بداية حياته وقبل تخرجه بمعهد الزقازيق الأزهري تم انتخابه أميناً لاتحاد طلاب المعهد بعد أن حصل على نسبة عالية جداً من أصوات عن منافسه، فوقف بين صفوف الطلاب وأنشد عليهم قصيدة طويلة قام بتأليفها بهذه المناسبة، وذلك بعد إعلان النتيجة مباشرة، **وقال فيها:**

ما منطقي لك والحقيقة تحجل — قد جئت الدنيا وشعبل يهزل

مصر الأسيفة نجا منها صوتها — وتؤمل الاتي فيقو القبل

وارحمنا للمستجير بجائر — والزائر بشكوى لمن لا يعدل

وعقب الانتهاء من إلقاء القصيدة تعقبه رجال الملك للقبض عليه، ولكنه اختفى عن العيون البوليسية ليتم القبض على والديه وشقيقه الأصغر، ولما علم الطالب محمد متولي الشعراوي بذلك قام بتسليم نفسه ليدخل السجن بتهمة العيب في الذات الملكية.

*****

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمد ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:١) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (النساء:٩).

أما بعد: فهذا كتاب (تفسير القرآن الكريم للشباب ومعجزة المتشابهات)، وضعت به المتشابه والتفسير، ويسَّرته للقارئ المسلم الكريم، حيث لا يرى القارئ حينما يقرأ تكلف أو تصنع بل يشعر بالبلاغة والفصاحة تنساب انسياب الماء الرقراق، أو تهدر هدير الإعصار المجتاح، وفي كلا الأمرين تكون بصدد أسلوب المتقن الأسر.

والناظر في تفسيرنا يلمح ما بذلناه من جهد كبير في إتمامه، فقد اعتنيت فيه بجمع الآثار، وتحقيق الأخبار، وأحكام الشرع، وأبديت فيه بعض الرأي، موضحاً وفاتحاً المجال للاجتهاد والاختيار.

واليوم وأنا أقَدِّم هذا التفسير أقول: إنَّ من جسيم ما خصَّ الله به أمة نبينا محمد ﷺ من الفضيلة، وشرفهم به على سائر الأمم من المنازل الرفيعة، وحباهم به من الكرامة السنية، حفظه ما حفظ عليهم ـ جل ذكره وتقدَّست أسماؤه من وحيه وتنزيله، الذي جعله على حقيقة نبوة نبيهم ﷺ دلالة، وعلى ما خصَّه به من الكرامة علامة واضحة، وحجة بالغة، أبانه به من كل كاذب ومفتر، وفصل به بينهم وبين كل جاحد وملحد، وفرَّق بينهم وبين كل كافر ومشرك، الذي لو اجتمع جميع من بين أقطارها جنها وأنسها، وصغيرها وكبيرها، على أن يأتوا مثله لم يأتوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، فقد جعله الله لنا حجة، ونوراً ساطعاً في دجى الظلم، وفي

سدف الشبه شهاباً لامعا، وفي مضلة المسالك دليلاً هادياً، وإلى سبل النجاة والحق حادياً.

﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(المائدة:١٦)، حرسه الله تعالى بعين منه لا تنام، وحاطه بركن منه لا يضام، لا تهي على الأيام دعائمه، ولا تبيد على طول الزمان معالمه، ولا يجوز عن قصد المحجة تابعه، ولا يضل عن سبل الهدى مصاحبه، من اتبعه فاز وهدى، ومن حاد عنه ضلَّ وغوي، فهو موئلهم الذي إليه عند الاختلاف يألون، ومعقلهم الذي إليه عند في النوازل يعقلون، وحصنهم الذي به من وساوس الشيطان يتحصنون، وحكمة ربهم التي إليها يحتكمون، وفصل قضائه بينهم الذي عليه ينتهون، وعن الرضا به يصدرون، وحبله الذي بالمسك به من الهلكة يعتصمون.

وليعلم القارئ أنني قد وضعت اسم فضيلة الشيخ الشعراوي على كتبي لأنال به بركة الصالحين، وحبًا في هذا الشيخ الصالح إمام المعسرين في العصر الحديث، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه،
كامل عويضه
مصر. المنصورة ـ ٢٠ ش جامع نصر
الإسلام بعزبة الشال

سورة الفاتحة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مسألة:

إذا كان المراد بالبسملة الاستعانة به تعالى، فما فائدة إقحام الاسم بين الباء وبين لفظة الجلالة مع أن الاستعانة به لا بنفس الاسم؟.

أن القصد به التعظيم والإجلال لذاته تعالى، **ومنه:** (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) و (تبارك اسم ربك).

لم اختصت البسملة بهذه الأسماء الثلاثة؟

أما الأول: فلأنه اسم المعبود المستحق للعبادة دون غيره، والموجد لعباده.

والثاني والثالث: تنبيه على المقتضى لسؤال الاستعانة به، وهو سعة رحمته لعباده.

روى البُخَاري عن قتادة قال: سألت أنَساً عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: "كان يمَدّ مَدّاً [إذا] قرأ: **بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ**، يمدّ بسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم. وروى الترمذيّ عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ يُقَطِّع قراءته يقول: ﴿**ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ**﴾ ثم يقف ﴿**ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ**﴾ ثم يقف وكان يقرؤها ﴿**مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ**﴾ قال: حديث غريب وأخرجه أبو داود بنحوه.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: "أحسن الناس صوتا من إذا قرأ رأيته يخشى الله تعالى".

وروي عن زياد النميري أنه جاء مع القراء إلى أنس بن مالك فقيل له: اقرأ فرفع صوته وطرب، وكان رفيع الصوت، فكشف أنس عن وجهه، وكان على وجهه خرقة سوداء فقال: يا هذا، ما هكذا كانوا يفعلون! وكان إذا رأى شيئا ينكره كشف الخرقة عن وجهه. وروي عن قيس بن عباد أنه قال كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون رفع الصوت عند الذكر. وممن روى عنه كراهة رفع الصوت عند قراءة القرآن سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والقاسم بن محمد والحسن وابن سيرين والنخعي وغيرهم، وكرهه مالك بن أنس وأحمد بن حنبل؛ كلهم كره رفع الصوت

بالقرآن والتطريب فيه. روى عن سعيد بن المسيب أنه سمع عمر بن عبد العزيز يؤم الناس فطرب في قراءته؛ فأرسل إليه سعيد يقول: أصلحك الله! إن الأئمة لا تقرأ هكذا فترك عمر التطريب بعد. وروي عن القاسم بن محمد أن رجلاً قرأ في مسجد النبي ﷺ فطرب فأنكر ذلك القاسم وقال يقول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت:٤١/٤٢).

مسألة:

فما فائدة إعادتها ثانيا بعد الحمد؟

التنبيه على الصفات المقتضية لحمده وشكره وهي: سعة رحمته تعالى لعباده، ولطفه، ورزقه، وأنواع نعمه.

فالأول: توكيد الاستعانة، والثاني: توكيد الشكر.

وهذه الآية جمعت ما لم يجتمع في آية غيرها، وهو: أنها آية مستقلة في الفاتحة عند من قال به.

وهي بعض آية في النمل.

وربعها الأول بعض آية في: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ. ونصفها الأول بعض آية في هود: (بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا. وربعها الثاني بعض آية فى الرحمن: (**الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ**) ونصفها الثانى آية فى الفاتحة، وبعض آية فى سورة البقرة هو: (الرحمن الرحيم).

روي عن مالك أنه سئل عن النبر في قراءة القرآن في الصلاة؛ فأنكر ذلك وكرهه كراهة شديدة، وأنكر رفع الصوت به.

وروى ابن القاسم عنه أنه سئل عن الألحان في الصلاة فقال: لا يعجبني، **وقال:** إنما هو غناء يتغنون به ليأخذوا عليه الدراهم. وأجازت طائفة رفع الصوت بالقرآن والتطريب به؛ وذلك لأنه إذا حَسّن الصوتَ به كان أوقع في النفوس وأسمع في القلوب، واحتجوا بقوله عليه السلام: "زينوا القرآن بأصواتكم" رواه البراء بن عازب أخرجه أبو داود والنسائي. وبقوله عليه السلام: "ليس منّا من لم يتغن بالقرآن" أخرجه مسلم. وبقول أبي موسى للنبي ﷺ: "لو أعلم أنك تستمع لقراءتي

لحبرته لك تحبيرا" وبما رواه عبد الله بن مغفل قال: "قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسير له سورة الفتح على راحلته فرجع في قراءته".

مسألة:

(الرحمن الرحيم)؟

ذكر المفسرون في إيراد الاسمين مع اتحاد المعنى فيهما معاني كثيرة مذكورة في كتب التفسير لم نطل بها هنا.

وأحسن ما يقال مما لم أقف عليه في تفسير: أن (فعلان) صيغة مبالغة في كثرة الشيء وعظمه، والامتلاء منه، ولا يلزم منه الدوام لذلك، كغضبان، وسكران، ونومان. وصيغة (فعيل) لدوام الصفة، ككريم، وظريف.

فكأنه قيل: العظيم الرحمة، الدائمة.

ولذلك: لما تفرد الرب سبحانه بعظم رحمته لم يسم بالرحمن وبالألف واللام) غيره.

ما فائدة تقديم الرحمن على الرحيم؟.

لما كانت رحمته في الدنيا عامة للمؤمنين والكافرين: قدم الرحمن).

وفى الآخرة دائمة لأهل الجنة لا تنقطع **قيل:** الرحيم ثانيا. **ولذلك يقال:** رحمن الدنيا، ورحيم الآخرة.

مسألة:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ).

كررت إياك المفيدة للحصر إذا تقدمت: للتصريح بتوكيد حصر الإخلاص في العبادة له، وحصر الاستعانة أيضا به تعالى.

عن أبي هريرة قال رسول الله (ﷺ) قال الله تعالى: قسمت الصلاة أي سورة الفاتحة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل. فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى أثنى علي عبدي. وإذ قال: مالك يوم الدين، قال: مجدني عبدي، وقال مرة: فوض إلي عبدي فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي

ما سأل، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل.

ففي هذا الحديث تنبيه على ما في نظم فاتحة الكتاب من خصوصية التقسيم إذ قسم الفاتحة ثلاثة أقسام. وحسن التقسيم من المحسنات البديعية. مع ما تضمنه ذلك التقسيم من محسن التخلص في قوله فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي إذ كان ذلك مزيجا من القسمين الذي قبله والذي بعده.

مسألة:

(صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ).

تصريح بإضافة النعم إليه دون الغضب، فلذلك لم يقل: غير الذين غضبت عليهم كما قال أنعمت عليهم، وهو من باب الأدب من السائل في حال السؤال ومنه: ببيدك الخير ولم يقل والشر، ونبه على ضده بقوله: إنك على كل شيء قدير.

*****

سورة البقرة

مسألة:

قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وقد أخبر الله بشك الكفار فيه وريبهم في مواضع؟.

أنه لظهور أدلته ظاهر عند من نظر فيه لا ريب فيه عنده، وريبهم فيه لعدم نظرهم في أدلة صحته وفيه. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الهاء عائدة للقرآن، أي لا شك فيه أي في نزول من قبل الله تعالى. وكلمة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[البقرة:٢] تؤكد لنا صِدْق الرسول في البلاغ عن الله، وصَدْق الملك الذي حمله من اللوح المحفوظ إلى رسول الله، وقد مدحه الله بقوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[التكوير:٢٠]. وقال عن سيدنا رسول الله في شأن تبليغ القرآن: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[الحاقة:٤٤-٤٦]. إذن: فالقرآن كما نزل من عند الله، لم يُغيَّر فيه حرف واحد، وسيظل كذلك محفوظاً بحفظ الله له إلى أنْ تقوم الساعة، وسنظل نقرأ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[البقرة:٢]. ويقرؤها مَنْ بعدنا إلى قيام الساعة، فقد حكم الحق سبحانه بأنه لا ريْب في هذا القرآن منذ نزل إلى قيام الساعة، فإنْ شككونا في شيء من كتاب ربنا فعلينا أن نقرأ: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة:٢].

قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾، وما لا يعلم كيف يؤمن به.

جوابه: أن المراد: الغيب الذي دل البرهان على صحته ووقوعه كالقيمة مثلا والجنة والنار. لما أبطلت الآيات السابقة إلهية أصنام المشركين بالأدلة المتظاهرة فانقطع دابر عقيدة الإشراك ثني عنان الإبطال إلى أثر من آثار الشرك وهو ادعاء علم الغيب بالكهانة وإخبار الجن، كما كان يزعمه الكهان والعرافون وسدنة الأصنام. ويؤمن بذلك المشركون. وفي (معالم التنزيل) وغيره: نزلت في المشركين حين سألوا رسول الله (ﷺ) عن وقت قيام الساعة فما كان سؤالهم عن ذلك إلا لظنهم أن ادعاء العلم بوقتها من شأن النبوءة توصلاً لجحد النبوءة إن لم يعين لهم وقت الساعة فأبطلت الآية هذه المزاعم إبطالاً عاماً معياره الاستثناء بقوله) إلا الله. (وهو عام مراد به الخصوص أعني خصوص الكهان وسدنة بيوت الأصنام.

وإنما سلك مسلك العموم لإبطال ما عسى أن يزعم من ذلك، ولأن العموم أكثر فائدة وأوجز، فإن ذلك حال أهل الشرك من بين من في السماوات والأرض. فالقصد هنا تزييف آثار الشرك وهو الكهانة ونحوها.

واستثناء (إلا الله (منه لتأويل) من في السماوات والأرض (بمعنى: أحد، فهو استثناء متصل على رأي المحققين وهو واقع من كلام منفي. فحق المستثنى أن يكون بدلاً من المستثنى منه في اللغة الفصحى فلذلك جاء اسم الجلالة مرفوعاً ولو كان الاستثناء منقطعاً لكانت اللغة الفصحى تنصب المستثنى.

وبعد فإن دلائل تنزيه الله عن الحلول في المكان وعن مماثلة المخلوقات متوافرة فلذلك يجري استعمال القرآن والسنة على سنن الاستعمال الفصيح للعلم بأن المؤمن لا يتوهم ما لا يليق بجلال الله تعالى. ومن المفسرين من جعل الاستثناء منقطعاً وقوفاً عند ظاهر صلة) من في السماوات والأرض؛ (لأن الله ينزّه عن الحلول في السماء والأرض).

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ - الآية)، وفي لقمان: ﴿**هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ**﴾.

لما ذكر هنا مجموع الإيمان، ناسب: (**الْمُتَّقِينَ**)، ولما ذكر ثم الرحمة ناسب: (المحسنين).

قوله تعالى: ﴿**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ صرح في هذه الآية بأن هذا القرآن ﴿**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾، ويفهم من مفهوم الآية - أعني مفهوم المخالفة المعروف بدليل الخطاب- أن غير المتقين ليس هذا القرآن هدى لهم، وصرح بهذا المفهوم في آيات أخر كقوله: ﴿**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً**﴾.

والهدى: هو الإرشاد والبيان، ومعناه: الدلالة الموصلة إلى الحق. والمتقي: من جعل بينه وبين مقت الله وقاية، وله ثلاث درجات:

* حفظ الجوارح من المخالفات.

* وحفظ القلوب من المساوئ والهفوات.

* وحفظ السرائر من الوقوف مع المحسوسات، فالأولى لمقام الإسلام، وإليه توجه الخطاب بقوله: ﴿**فَاتَقُواْ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾[التّغَابُن:١٦]، والثانية لمقام الإيمان، وإليه توجه الخطاب بقوله: ﴿**فَاتَّقُواْ اللَّهَ يَأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾ [المَائدة:١٠٠]، والثالثة لمقام الإحسان، وإليه توجه الخطاب بقوله: ﴿**اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾[آل عِمرَان:١٠٢].

يقول الحقّ جلّ جلاله: ﴿ذَلِكَ الكِتَابُ﴾ الذي لا يقرب ساحتَه شكٌّ ولا ارتياب، هو عين الهداية لأهل التقى من ذوي الألباب، فلا يزالون يَتَرَقَّوْنَ به في المقامات والأحوال حتى يسمعوه من الكبير المتعال، بلا واسطة تبليغ ولا إرسال، قد انمحت في حقهم الرسوم والأشكال، وهذه غاية الهداية، وتحقيق سابق العناية.

قال جعفر الصادق: (والله لقد تجلّى الله تعالى لخلقه في كلامه ولكن لا يشعرون).

وقال أيضاً – وقد سألوه عن حالة لحقَته في الصلاة حتى خرّ مغشيّاً عليه، فلما سُرِّيَ عنه، قيل له في ذلك فقال: (ما زلت أرددت الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته).

مسألة:

قوله تعالى: سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ وفى يس (وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ) بواو العطف).

أنه هنا في جملة اسمية، وفى يس جملة مستقلة معطوفة على جمل فجاءت بواو العطف. لما تضمن قوله: ﴿**وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ**﴾ (يس:١٠) أن الإنذار في جانب الذين حق عليهم القول أنهم لا يؤمنون هو وعدمه سواء وكان ذلك قد يُوهم انتفاء الجدوى من الغير وبعض من فضل أهل الإيمان أعقب ببيان جدوى الإنذار بالنسبة لمن اتبع الذكر وخشي الرحمان بالغيب.

عن ابن شهاب: أن عمر بن عبدالعزيز أحضر غيلان القدري فقال: يا غيلان بلغني أنك تتكلم بالقدر؛ فقال: يكذبون على يا أمير المؤمنين. ثم قال: يا أمير المؤمنين أرأيت قول الله تعالى: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الأِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً**﴾[الإنسان:٢] قال: أقرأ يا غيلان فقرأ حتى انتهى إلى قوله: ﴿**فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً**﴾ [الإنسان:٢٩]، **فقال اقرأ فقال:** ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**﴾[الإنسان:٣٠] فقال:

والله يا أمير المؤمنين إن شعرت أن هذا في كتاب الله قط. فقال له: يا غيلان أقرأ أول سورة [يس] فقرأ حتى بلغ ﴿**وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**﴾، فقال غيلان: والله يا أمير المؤمنين لكأني لم أقرأها قط قبل اليوم؛ اشهد يا أمير المؤمنين أني تائب. قال عمر: اللهم إن كان صادقا فتب عليه وثبته، وإن كان كاذبا فسلط عليه من لا يرحمه واجعله آية للمومنين؛ فأخذه هشام فقطع يديه ورجليه وصلبه. وقال ابن عون: فأنا رأيته مصلوبا على باب دمشق.

فقلنا: ما شأنك يا غيلان؟ فقال: أصابتني دعوة الرجل الصالح عمر بن عبدالعزيز.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ**﴾ – الآية)، وكذلك في جميع القرآن قدم السمع على البصر، ما فائدته؟.

أن السمع أشرف لأن به تثبت النبوات، وأخبار الله تعالى، وأوامره، ونواهيه، وأدلته، وصفاته تعالى، بخلاف البصر. وكذلك لم يبعث الله نبيا أصم أصلا، وفي الأنبياء من كان مكفوفا.

لا يخفى أن الواو في قوله: ﴿**وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ**﴾ محتملة في الحرفين أن تكون عاطفة على ما قبلها، وأن تكون استئنافية. ولم يبين ذلك هنا، ولكن بين في موضع آخر أن قوله ﴿**وَعَلَى سَمْعِهِمْ**﴾، معطوف على قوله: ﴿**عَلَى قُلُوبِهِمْ**﴾، وأن قوله ﴿**وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ**﴾ استئناف، والجار والمجرور خبر المبتدأ الذي هو ﴿**غِشَاوَةٌ**﴾ وسوغ الابتداء بالنكرة فيه اعتمادها على الجار والمجرور قبلها.

قوله تعالى: ﴿**مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾.

كرر العامل مع حرف العطف في الإثبات؟.

أنه حكاية قول المنافق، أنه أكد ذلك نفيا للتهمة عن نفسه فأكذبهم الله تعالى بقوله: (**وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**)، وأكده بالياء.

روى ابن جريج عن مجاهد قال: نزلت أربع آيات من سورة البقرة في المؤمنين، واثنتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة في المنافقين. وروى أسباط عن السدي في قوله: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ**﴾ قال: هم المنافقون. وقال علماء الصوفية: الناس

اسم جنس، واسم الجنس لا يخاطب به الأولياء.

واختلف النحاة في لفظ الناس، فقيل: هو اسم من أسماء الجموع، جمع إنسان وإنسانة، على غير اللفظ، وتصغيره نويس. فالناس من النوس وهو الحركة، يقال: ناس ينوس أي تحرك، ومنه حديث أم زرع: "أناسَ من حُليٍّ أذني". وقيل: أصله من نسي، فأصل ناس نسي قلب فصار نيس تحركت الياء فانفتح ما قبلها فانقلبت ألفا، ثم دخلت الألف واللام فقيل: الناس. قال ابن عباس: نسي آدم عهد الله فسمي إنسانا. وقال عليه السلام: "نسي آدم فنسيت ذريته". وفي التنزيل: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ**﴾[طه:١١٥].

لما ذكر الله جل وتعالى المؤمنين أولا، وبدأ بهم لشرفهم وفضلهم، ذكر الكافرين في مقابلتهم، إذ الكفر والإيمان طرفان. ثم ذكر المنافقين بعدهم وألحقهم بالكافرين قبلهم، لنفي الإيمان عنهم بقوله الحق: ﴿**وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**﴾. ففي هذا رد على الكرَّامية حيث قالوا: إن الإيمان قول باللسان وإن لم يعتقد بالقلب، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿**فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا**﴾[المائدة:٨٥]. ولم يقل: بما قالوا وأضمروا، وبقوله عليه السلام: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم". وهذا منهم قصور وجمود، وترك نظر لما نطق به القرآن والسنة من العمل مع القول والاعتقاد، وقد قال رسول الله ﷺ: "الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان". أخرجه ابن ماجة في سننه. فما ذهب إليه محمد بن كرام السجستاني وأصحابه هو النفاق وعين الشقاق، ونعوذ بالله من الخذلان وسوء الاعتقاد.

﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ**﴾[البقرة:٨].

هذه أول صفات المنافقين في القرآن الكريم، يعلنون الإيمان وفي قلوبهم الكفر، ولذلك فإن إيمانهم كله تظاهر، إذا ذهبوا للصلاة لا تكتب لهم؛ لأنهم يتظاهرون بها، ولا يؤدونها عن إيمان، وإذا أدوا الزكاة، فإنها تكون عليهم حسرة، لأنهم ينفقونها وهم لها كارهون، لأنها في زعمهم نقص من مالهم. لا يأخذون عليها ثوابا في الآخرة، وإذا قتل واحد منهم في غزوة، انتابهم الحزن، والأسى، لأنهم أهدروا حياتهم ولم يقدموها في سبيل الله. وهكذا يكون كل ما يفعلونه شقاء بالنسبة لهم.

أما المؤمن فحين يصلي أو يؤدي الزكاة أو يستشهد في سبيل الله فهو يرجو الجنة، وأما المنافقون فإنهم يفعلون كل هذا، وهم لا يرجون شيئا. فكأنهم بنفاقهم قد حكم عليهم الله سبحانه وتعالى بالشقاء في الدنيا والآخرة، فلا هم في الدنيا لهم متعة المؤمن فيما يفعل في سبيل الله، ولا هم في الآخرة لهم ثواب المؤمن فيما يرجو من الله.

مسألة:

كيف طابق قوله تعالى: ﴿**وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ وهو نفى الصفة لقوله: (**آمَنَّا**) وطباقه: وما آمنوا؟. أن الفعل المضارع مؤذن بالصفة في قول من يقول، فطابقه نفي الصفة التي ادعوها بقوله: وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ.

لما ذكر الله جل وتعالى المؤمنين أولا، وبدأ بهم لشرفهم وفضلهم، ذكر الكافرين في مقابلتهم، إذ الكفر والإيمان طرفان. ثم ذكر المنافقين بعدهم وألحقهم بالكافرين قبلهم، لنفي الإيمان عنهم بقوله الحق: ﴿**وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**﴾. ففي هذا رد على الكرَّامية حيث قالوا: إن الإيمان قول باللسان وإن لم يعتقد بالقلب، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿**فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا**﴾ [المائدة:٨٥]. ولم يقل: بما قالوا وأضمروا، وبقوله عليه السلام: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم". وهذا منهم قصور وجمود، وترك نظر لما نطق به القرآن والسنة من العمل مع القول والاعتقاد، وقد قال رسول الله ﷺ: "الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان". أخرجه ابن ماجة في سننه. فما ذهب إليه محمد بن كرام السجستاني وأصحابه هو النفاق وعين الشقاق، ونعوذ بالله من الخذلان وسوء الاعتقاد.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ**﴾، ولم يقل خسرت مع أن الخسران أبلغ في التوبيخ؟. أن هم المشترى للتجارة حصول الربح، وسلامة رأس المال، فبدأ بالأهم فيه وهو نفى الربح، ثم أتى بما يدل على الخسران بقوله: ﴿**وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ**﴾ فنفى ما هما المقصودان بالتجارة.

قال السدي: على ما ضيعنا أي من عمل الجنة. وفي الخبر عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: "يرى أهل النار منازلهم في الجنة

فيقولون: ﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾".

مسألة:

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾، ثم قال: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، ولم يقل بضيائهم مع ما فيه من بديع المطابقة؟. أن الضياء أبلغ من النور ولا يلزم من ذهابه ذهاب النور، بخلاف عكسه فذهاب النور أبلغ في نفى ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ يدل على أنهم خسروا كل شيء لأنهم لم يربحوا، فكأنهم لم يحققوا شيئا له فائدة، وخسروا الهدى، أي خسروا الربح ورأس المال. ما ربحت تجارتهم ربما يكونون لم يكسبوا ولم يخسروا، ولكن هم قدموا الهدى ثمنا للضلال فلم يربحوا وضاع منهم الهدى، أي رأس مالهم.

ونفسية المنافق إذا أردت أن تحددها، فهو إنسان بلا كرامة، بلا رجولة لا يستطيع المواجهة، بلا قوة، يحاول أن يمكر في الخفاء، ولذلك تكون صورته حقيرة أمام نفسه، حتى لو استطاع أن يخفي عيوبه عن الناس، فيكفي أنه كاذب أمام نفسه لتكون صورته حقيرة أمام نفسه.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ جمع الظلمات، وأفرد الرعد والبرق؟.

أن المقتضى للرعد والبرق واحد وهو: السحاب، والمقتضى للظلمة متعدد وهو: الليل والسحاب والمطر، فجمع لذلك. وكان العرب يخافون الصواعق. ولقبوا خويلد بن نفيل الصَعِق لأنه أصابته صاعقة أحرقته.

ومن هذا القبيل قول النبي: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوّف الله بهما عباده، أي بكسوفهما فاقتصر في آيتهما على الإنذار إذ لا يترقب الناس من كسوفهما نفعاً.

وجملة وهم يجادلون في الله (في موضع الحال؛ لأنه من متممات التعجب الذي في قوله: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾(الرعد:٥) الخ. فضمائر الغيبة كلها عائدة إلى الكفار الذين تقدم ذكرهم في صدر السورة بقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (الرعد:١)، وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾(الرعد:٥)، وقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ (الرعد:٧). وقد أعيد الأسلوب هنا إلى

ضمائر الغيبة لانقضاء الكلام على ما يصلح لموعظة المؤمنين والكافرين فتمحض تخويف الكافرين.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ**﴾، وفى يونس: (**بسورة مثله**) وفى هود: (**بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ**).

لما قال هنا: ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا**﴾، أنه من عند الله فأتوا بسورة من أمى مثله لا يكتب ولا يقرأ. وفى يونس لما قال: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ**﴾، أي: فأنتم الفصحاء البلغاء فأتوا بسورة مثل القرآن في بلاغته وفصاحته، واقرءوا مثله وبذلك علم الجواب في هود.

فأفحموا عن الجواب وتقطعت بهم الأسباب وعدلوا إلى الحروب والعناد وآثروا سبي الحريم والأولاد ولو قدروا على المعارضة لكان أهون كثيرا وأبلغ في الحجة وأشد تأثيرا هذا مع كونهم أرباب البلاغة واللحن وعنهم تؤخذ الفصاحة واللسن.

فبلاغة القرآن في أعلى طبقات الإحسان وأرفع درجات الإيجاز والبيان بل تجاوزت حد الإحسان والإجادة إلى حيز الإرباء والزيادة هذا رسول الله ﷺ مع ما أوتي من جوامع الكلم واختص به من غرائب الحكم إذا تأملت قوله ﷺ في صفة الجنان وإن كان في نهاية الإحسان وجدته منحطا عن رتبة القرآن وذلك في قوله عليه السلام: "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر". فأين ذلك من قوله عز وجل: ﴿**وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ**﴾، وقوله: ﴿**فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ**﴾. هذا أعدل وزنا وأحسن تركيبا وأعذب لفظا وأقل حروفا على أنه لا يعتبر إلا في مقدار سورة أو أطول آية لأن الكلام كلما طال اتسع فيه مجال المتصرف وضاق المقال عن القاصر المتكلف وبهذا قامت الحجة على العرب إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة كما قامت الحجة في معجزة عيسى عليه السلام على الأطباء ومعجزة موسى عليه السلام على السحرة؛ فإن الله سبحانه إنما جعل معجزات الأنبياء عليهم السلام بالوجه الشهير أبرع ما يكون في زمان النبي الذي أراد إظهاره؛ فكان السحر في زمان موسى عليه السلام قد انتهى إلى غايته وكذلك الطب في زمن عيسى عليه السلام

والفصاحة في زمن محمد ﷺ.

باب التنبيه عن أحاديث وضعت في فضل سور القرآن وغيره، لا التفات لما وضعه الواضعون واختلقه المختلقون من الأحاديث الكاذبة والأخبار الباطلة في فضل سور القرآن وغير ذلك من فضائل الأعمال قد ارتكبها جماعة كثيرة اختلفت أغراضهم ومقاصدهم في ارتكابها فمن قوم من الزنادقة مثل المغيرة بن سعيد الكوفي ومحمد بن سعيد الشامي المصلوب في الزندقة وغيرهما وضعوا أحاديث وحدثوا بها ليوقعوا بذلك الشك في قلوب الناس فمما رواه محمد بن سعيد عن أنس بن مالك في قوله ﷺ: "أنا خاتم الأنبياء لا نبي بعدي إلا ما شاء الله". فزاد هذا الاستثناء لما كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾، كأنه يقول: إن ادعيتم أن هذا القرآن من نظم محمد ﷺ وعمله فاعملوا عشر سور من جنس نظمه فإذا عجزتم بأسركم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من نظمه ولا من عمله لا يقال إن المعجزات المقيدة بالشروط الخمسة لا تظهر إلا على أيدي الصادقين وهذا المسيح الدجال فيما رويتم عن نبيكم ﷺ يظهر على يديه من الآيات العظام والأمور الجسام ما هو معروف مشهور فإنا نقول ذلك يدعي الرسالة وهذا يدعي الربوبية وبينهما من الفرقان ما بين البصراء والعميان وقد قام الدليل العقلي على أن بعثة بعض الخلق إلى بعض غير ممتنعة ولا مستحيلة فلم يبعد أن يقيم الله تعالى الأدلة على صدق مخلوق أتى عنه بالشرع والملة.

ودلت الأدلة العقلية أيضا على أن المسيح الدجال فيه التصوير والتغيير من حال إلى حال، وثبت أن هذه الصفات لا تليق إلا بالمحدثات تعالى رب البريات عن أن يشبه شيئا أو يشبه شيء ليس كمثله شيء هو السميع البصير.

إذا ثبت هذا فاعلم أن المعجزات على ضربين: الأول- ما اشتهر نقله وانقرض عصره بموت النبي ﷺ والثاني- ما تواترت الأخبار بصحته وحصوله واستفاضت بثبوته ووجوده ووقع لسامعها العلم بذلك ضرورة ومن شرطه أن يكون الناقلون له خلقا كثيرا وجما غفيرا، وأن يكونوا عالمين بما نقلوه علما ضروريا وأن يستوي في النقل أولهم وآخرهم ووسطهم في كثرة العدد حتى يستحيل عليهم التواطؤ على الكذب، وهذه صفة نقل القرآن ونقل وجود النبي عليه الصلاة والسلام؛ لأن

الأمة رضي الله عنها لم تزل تنقل القرآن خلفا عن سلف والسلف عن سلفه إلى أن يتصل ذلك بالنبي عليه السلام المعلوم وجوده بالضرورة وصدقه بالأدلة والمعجزات، والرسول أخذه عن جبريل عليه السلام عن ربه عز وجل فنقل القرآن في الأصل رسولان معصومان من الزيادة والنقصان، ونقله إلينا بعدهم أهل التواتر الذين لا يجوز عليهم الكذب فيما ينقلوه ويسمعونه لكثرة العدد ولذلك وقع لنا العلم الضروري بصدقهم فيما نقلوه من وجود محمد ﷺ ومن ظهور القرآن على يديه وتحديه به، ونظير ذلك من علم الدنيا علم الإنسان بما نقل إليه من وجود البلدان كالبصرة والشام والعراق وخرسان والمدينة ومكة وأشباه ذلك من الأخبار الكثيرة الظاهرة المتواترة، فالقرآن معجزة نبينا ﷺ الباقية بعده إلى يوم القيامة ومعجزة كل نبي انقرضت بانقراضه أو دخلها التبديل والتغيير كالتوراة والإنجيل.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ**﴾ وفى النازعات: ﴿**وَالأرض بعد ذلك دحاها**﴾.

ظاهر آية البقرة، وحم السجدة تقدم خلق الأقوات، وظاهر النازعات تأخره.

أن (ثم) هنا لترتيب الأخبار لا لترتيب الوقوع، ولا يلزم من ترتيب الأخبار ترتيب الوقوع، كقوله تعالى: ﴿**ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ**﴾.

ولا ريب في تقديم إيتاء موسى الكتاب على وصيته لهذه الأمة.

قوله تعالي: ﴿**هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ**﴾.

هذا، إما استدلال ثانٍ على شناعة كفرهم بالله تعالى وعلى أنه مما يقضي منه العجب فإن دلائل ربوبية الله ووحدانيته ظاهرة في خلق الإنسان وفي خلق جميع ما في الأرض فهو ارتقاء في الاستدلال بكثرة المخلوقات، وفصْل الجملةِ السابقة يجوز أن يكون لمراعاة كمال الاتصال بين الجملتين لأن هذه كالنتيجة للدليل الأول لأن في خلق الأرض وجميع ما فيها وفي كون ذلك لمنفعة البشر إكمالاً لإيجادهم المشار إليه بقوله: ﴿**وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ**﴾[البقرة:٢٨] كأنهم لما قيل

لهم: إنكم تموتون موتة تعقبها حياة، كما تقدمتكم كذلك، أنكروها، وقالوا: ما هي إلا موتتنا الأولى، وأما الثانية فلا حياة تعقبها، أوْ: ليست الموتة إلا هذه الموتة، دون الموتة التي تعقب حياة القبر كما تزعمون، ﴿**وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ**﴾ بمبعوثين، ﴿**فَأْتُوا بِآبَائِنَا**﴾ خطاب لمَن كان بعدهم النشر، من الرسول والمؤمنين، ﴿**إِنْ كُنْتُم صَادِقِين**﴾ أي: إن صدقتم فيما تقولون، فعجِّلوا لنا إحياء مَن مات من آبائنا بسؤالكم ربكم، حتى يكون دليلاً على أن ما تعدونه من البعث حق.

والصحيح في معنى قوله تعالى: ﴿**خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ**﴾ الاعتبار. يدل عليه ما قبله وما بعده من نصب العبر: الإحياء والإماتة والخلق والاستواء إلى السماء وتسويتها، أي الذي قدر على إحيائكم وخلقكم وخلق السموات والأرض، لا تبعد منه القدرة على الإعادة.

فإن قيل: إن معنى "لكم" الانتفاع، أي لتنتفعوا بجميع ذلك، قلنا المراد بالانتفاع الاعتبار لما ذكرنا. فان قيل: وأي اعتبار في العقارب والحيات، قلنا: قد يتذكر الإنسان ببعض ما يرى من المؤذيات ما أعد الله للكفار في النار من العقوبات فيكون سببا للإيمان وترك المعاصي، وذلك أعظم الاعتبار. قال ابن العربي: وليس في الإخبار بهذه القدرة عن هذه الجملة ما يقتضي حظرا ولا إباحة ولا وقفا، وإنما جاء ذكر هذه الآية في معرض الدلالة والتنبيه ليستدل بها على وحدانيته.

وقال أرباب المعاني في قوله: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً**﴾ لتتقووا به على طاعته، لا لتصرفوه في وجوه معصيته. وقال أبو عثمان: وهب لك الكل وسخره لك لتستدل به على سعة جوده، وتسكن إلى ما ضمن لك من جزيل عطائه في المعاد، ولا تستكثر كثير بره على قليل عملك، فقد ابتدأك بعظيم النعم قبل العمل وهو التوحيد. الرابعة- روى زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه، فقال رسول الله ﷺ: "ما عندي شيء ولكن ابتع علي فإذا جاء شيء قضينا"، فقال له عمر: هذا أعطيت إذا كان عندك فما كلفك الله ما لا تقدر. فكره رسول الله ﷺ قول عمر، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله: "أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا".

فتبسم رسول الله ﷺ، وعرف السرور في وجهه لقول الأنصاري. ثم قال

رسول الله ﷺ: "بذلك أمرت". قال العلماء: فخوف الإقلال من سوء الظن بالله، لأن الله تعالى خلق الأرض بما فيها لولد آدم، وقال في تنزيله: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً**﴾، ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ**﴾[الجاثية:١٣].

فهذه الأشياء كلها مسخرة للآدمي قطعا لعذره وحجة عليه، ليكون له عبدا كما خلقه عبدا، فإذا كان العبد حسن الظن بالله لم يخف الإقلال لأنه يخلف عليه، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾[سبأ:٣٩]، وقال: ﴿**فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾[النمل:٤٠]، وقال رسول الله ﷺ "قال الله تعالى: سبقت رحمتي غضبي يا ابن آدم أنْفِق أنفق عليك يمين الله ملأى سحّا لا يغيضها شيء الليل والنهار".

وقال رسول الله ﷺ: "ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا. ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا". وكذا في المساء عند الغروب يناديان أيضا، وهذا كله صحيح رواه الأئمة والحمد لله. فمن استنار صدره، وعلم غنى ربه وكرمه أنفق ولم يخف الإقلال، وكذلك من ماتت شهواته عن الدنيا واجتزأ باليسير من القوت المقيم لمهجته، وانقطعت مشيئته لنفسه، فهذا يعطي من يسره وعسره ولا يخاف إقلالا.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾، فجاء هنا مجملا وفى بقية السور مفصلا؟. لما تقدم التفصيل في السورة المكية أجمله في السورة المدنية، وهي البقرة اكتفاء بما تقدم علمه من التفصيل في المكيات.

واذكر -أيها الرسول- للناس تكريم الله لآدم حين قال سبحانه للملائكة: اسجدوا لآدم إكرامًا له وإظهارًا لفضله، فأطاعوا جميعًا إلا إبليس امتنع عن السجود تكبرًا وحسدًا، فصار من الجاحدين بالله، العاصين لأمره.

واختلف الناس في كيفية سجود الملائكة لآدم بعد اتفاقهم على أنه لم يكن سجود عبادة، فقال الجمهور: كان هذا أمرا للملائكة بوضع الجباه على الأرض، كالسجود المعتاد في الصلاة؛ لأنه الظاهر من السجود في العرف والشرع، وعلى هذا قيل: كان ذلك السجود تكريما لآدم وإظهارا لفضله، وطاعة لله تعالى، وكان

آدم كالقبلة لنا. ومعنى "لآدم": إلى آدم، كما يقال صلى للقبلة، أي إلى القبلة. وقال قوم: لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم الذي هو وضع الجبهة على الأرض ولكنه مبقى على أصل اللغة، فهو من التذلل والانقياد، أي اخضعوا لآدم وأقروا له بالفضل. ﴿**فَسَجَدُوا**﴾ أي امتثلوا ما أمروا به.

واختلف أيضا هل كان ذلك السجود خاصا بآدم عليه السلام فلا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا لله تعالى، أم كان جائزا بعده إلى زمان يعقوب عليه السلام، لقوله تعالى: ﴿**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً**﴾ [يوسف:١٠٠]، فكان آخر ما أبيح من السجود للمخلوقين؟ والذي عليه الأكثر أنه كان مباحا إلى عصر رسول الله ﷺ، وأن أصحابه قالوا له حين سجدت له الشجرة والجمل: نحن أولى بالسجود لك من الشجرة والجمل الشارد، فقال لهم: "لا ينبغي أن يسجد لأحد إلا لله رب العالمين". روى ابن ماجة في سننه والبستي في صحيحه عن أبي واقد قال: لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: "ما هذا" فقال: يا رسول الله، قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم، فأردت أن أفعل ذلك بك، قال: "فلا تفعل فإني لو أمرت شيئا أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها حتى لو سألها نفسها وهي على قتب لم تمنعه". لفظ البستي. ومعنى القتب أن العرب يعز عندهم وجود كرسي للولادة فيحملون نساءهم على القتب عند الولادة. وفي بعض طرق معاذ: ونهى عن السجود للبشر وأمر بالمصافحة.

قوله تعالى: ﴿**أَبَى**﴾ معناه امتنع من فعل ما أمر به، ومنه الحديث الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: "إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول يا ويله – وفي راوية: يا ويلي – أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار". خرجه مسلم. يقال: أبي يأبى إباء، وهو حرف نادر جاء على فعل يفعل ليس فيه حرف من حروف الحلق، وقد قيل: إن الألف مضارعة لحروف الحلق.

قال الزجاج: سمعت إسماعيل بن إسحاق القاضي يقول: القول عندي أن الألف مضارعة لحروف الحلق. قال النحاس: ولا أعلم أن أبا إسحاق روى إسماعيل نحوا غير هذا الحرف.

قوله تعالى: ﴿**وَاسْتَكْبَرَ**﴾ الاستكبار: الاستعظام، فكأنه كره السجود في حقه واستعظمه في حق آدم، فكان ترك السجود لآدم تسفيها لأمر الله وحكمته. وعن هذا الكبر عبر عليه السلام بقوله "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر". في رواية فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة. قال: "إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس". أخرجه مسلم. ومعنى بطر الحق: تسفيهه وإبطاله. وغمط الناس: الاحتقار لهم والازدراء بهم. ويروى: "وغمص" بالصاد المهملة، والمعنى واحد، يقال: غمصه يغمصه غمصا واغتمصه، أي استصغره ولم يره شيئا. وغمص فلان النعمة إذا لم يشكرها. وغمصت عليه قولا قاله، أي عبته عليه. وقد صرح اللعين بهذا المعنى فقال: ﴿**أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾[ص:٧٦]. ﴿**أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً**﴾[الإسراء:٦١]. ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ﴾[الحجر:٢٦]، فكفره الله بذلك. فكل من سفه شيئا من أوامر الله تعالى أو أمر رسوله عليه السلام كان حكمه حكمه، وهذا ما لا خلاف فيه. وروى ابن القاسم عن مالك أنه قال بلغني أن أول معصية كانت الحسد والكبر، حسد إبليس آدم، وشح آدم في أكله من الشجرة. وقال قتادة: حسد إبليس آدم، على ما أعطاه الله من الكرامة فقال: أنا ناري وهذا طيني. وكان بدء الذنوب الكبر، ثم الحرص حتى أكل آدم من الشجرة، ثم الحسد إذ حسد ابن آدم أخاه.

قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾، قيل: كان هنا بمعنى صار، ومنه قوله تعالى: ﴿**فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ**﴾.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا**﴾، وفى الأعراف: (فكلا) بالفاء؟. قيل: إن السكنى فى البقرة: للإقامة، وفى الأعراف اتخاذ المسكن.

فلما نسب القول إليه تعالى: ﴿**وَقُلْنَا يَا آدَمُ**﴾ ناسب زيادة الإكرام بالواو الدالة على الجمع بين السكنى والأكل، ولذلك قال فيه: (رغدا)، وقال: ﴿**حَيْثُ شِئْتُمَا**﴾ لأنه أعم.

وفى الأعراف: ﴿**وَيَا آدَمُ**﴾، فأتى بالفاء الدالة على ترتيب الأكل على السكنى المأمور باتخاذها، لأن الأكل بعد الاتخاذ، و(من حَيْثُ) لا يعطى عموم

معنى ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ﴾ لا خلاف أن الله تعالى أخرج إبليس عند كفره وأبعده عن الجنة، وبعد إخراجه قال لآدم: اسكن، أي لازم الإقامة واتخذها مسكنا، وهو محل السكون. وسكن إليه يسكن سكونا. والسكن: النار، والسكن: كل ما سكن إليه. والسكين معروف سمي به لأنه يسكن حركة المذبوح، ومنه المسكين لقلة تصرفه وحركته. وسكان السفينة عربي، لأنه يسكنها عن الاضطراب. قوله تعالى: ﴿اسْكُنْ﴾ تنبيه على الخروج، لأن السكنى لا تكون ملكا، ولهذا قال بعض العارفين: السكنى تكون إلى مدة ثم تنقطع، فدخولهما في الجنة كان دخول سكنى لا دخول إقامة. وإذا كان هذا فيكون فيه دلالة على ما يقول الجمهور من العلماء: إن من أسكن رجلا مسكنا له أنه لا يملكه بالسكنى، وأن له أن يخرجه إذا انقضت مدة الإسكان. وكان الشعبي يقول: إذا قال الرجل داري لك سكنى حتى تموت فهي له حياته وموته، وإذا قال: داري هذه اسكنها حتى تموت فإنها ترجع إلى صاحبها إذا مات. ونحو من السكنى العمرى، إلا أن الخلاف في العمرى أقوى منه في السكنى. قال الحربي: سمعت ابن الإعرابي يقول: لم يختلف العرب في أن هذه الأشياء على ملك أربابها ومنافعها لمن جعلت له العمرى والرقبى والإفقار والإخبال والمنحة والعرية والسكنى والإطراق. وهذا حجة مالك وأصحابه في أنه لا يملك شيء من العطايا إلا المنافع دون الرقاب، وهو قول الليث بن سعد والقاسم بن محمد، ويزيد بن قسيط.

والعمرى: هو إسكانك الرجل في دار لك مدة عمرك أو عمره. ومثله الرقبى: وهو أن يقول: إن مت قبلي رجعت إلي وإن مت قبلك فهي لك، وهي من المراقبة. والمراقبة: أن يرقب كل واحد منهما موت صاحبه، ولذلك اختلفوا في إجازتها ومنعها، فأجازها أبو يوسف والشافعي، وكأنها وصية عندهم.

وفي الباب حديثان أيضا بالإجازة والمنع ذكرهما ابن ماجة في سننه، الأول رواه جابر بن عبدالله قال قال رسول الله ﷺ: "العمرى جائزة لمن أعمرها والرقبى جائزة لمن أرقبها" ففي هذا الحديث التسوية بين العمرى والرقبى في الحكم. الثاني رواه ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: "لا رقبى فمن أرقب شيئا فهو له حياته ومماته". قال: والرقبى أن يقول هو للآخر: مني ومنك موتا. فقوله: "لا رقبى" نهي يدل على المنع، وقوله: "من أرقب شيئا فهو له" يدل على الجواز، وأخرجهما أيضا

النسائي. وذكر عن ابن عباس قال: العمرى والرقبى سواء. قوله تعالى: ﴿**وَزَوْجُكَ**﴾ لغة القرآن "زوج" بغير هاء، وقد جاء في صحيح مسلم: "زوجة" حدثنا عبدالله بن مسلمة بن قعنب قال حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس أن النبي ﷺ كان مع إحدى نسائه فمر به رجل فدعاه فجاء فقال: "يا فلان هذه زوجتي فلانة": فقال يا رسول الله، من كنت أظن به فلم أكن أظن بك، فقال رسول الله ﷺ: "إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم". وزوج آدم عليه السلام هي حواء عليها السلام، وهو أول من سماها بذلك حين خلقت من ضلعه من غير أن يحس آدم عليه السلام بذلك، ولو ألم بذلك لم يعطف رجل على امرأته، فلما انتبه قيل له: من هذه؟ قال: امرأة قيل: وما اسمها؟ قال: حواء، قيل: ولم سميت امرأة؟ قال: لأنها من المرء أخذت، قيل: ولم سميت حواء؟ قال: لأنها خلقت من حي. روي أن الملائكة سألته عن ذلك لتجرب علمه، وأنهم قالوا له: أتحبها يا آدم؟ قال: نعم، قالوا لحواء: أتحبينه يا حواء؟ قالت: لا، وفي قلبها أضعاف ما في قلبه من حبه. قالوا: فلو صدقت امرأة في حبها لزوجها لصدقت حواء.

وقال ابن مسعود وابن عباس: لما أسكن آدم الجنة مشى فيها مستوحشا، فلما نام خلقت حواء من ضلعه القصرى من شقه الأيسر ليسكن إليها ويأنس بها، فلما انتبه رآها فقال: من أنت؟ قالت: امرأة خلقت من ضلعك لتسكن إلي، وهو معنى قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾ [الزمر:٦].

قال العلماء: ولهذا كانت المرأة عوجاء؛ لأنها خلقت من أعوج وهو الضلع. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: "إن المرأة خلقت من ضلع – في رواية: وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه – لن تستقيم لك على طريقة واحدة فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها".

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ**﴾، وفى طه: ﴿**فَمَنْ اتبِعَ هُدَايَ**﴾.

يحتمل والله أعلم أن: فعل التي جاء على وزنها: تبع).

لا يلزم منه مخالفة الفعل قبله. وافتعل التي جاء على وزنها: اتبع) يشعر

بتجديد الفعل. وبيان قصة آدم هنا لفعله، فجئ ب تَبِعَ هُدَايَ* وفى طه جاء بعد قوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾، ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾: فناسب من اتبع، أي: جدد قصد الاتباع. وهذا عهد لكل البشر، والمسلمون عاهدوا رسول الله ﷺ في العقبة بأن ينصروه ويمنعوا عنه ما يمنعون عن أنفسهم. وعاهدوا الرسول في الحديبية.

إن الحق سبحانه يأمر بالوفاء بكل العقود، وكل ما نتج عن قمة العقائد وهو الإيمان بالله؛ فما جاء من الله الذي آمنت به يُعتبر عقداً أنت شريك فيه، لأن العقد يكون دائماً بين طرفين، ولم يرغم الله أحداً على الإيمان به، ولكن الإنسان يؤمن بالله اختياراً. ومادام المؤمن قد آمن بالله من طوع اختياره، فلا بد أن يتبع منهجه.

ومن آمن هو الذي يذهب إلى الحق قائلاً: يارب إن ما تأمر به سأفعله. وهذا اعتراف بالعقد. وكتابة أي عقد إيماني هو تنفيذ لهذا العقد والتوقيع مع الله، وبذلك يشترك العبد مع الله في هذا التعاقد؛ لأن إيمان العبد بالله يجعله طرفاً في العقد. والإله يشرع له، وينفذ العبد التشريع ليلتقي الجزاء الأوفى.

العقد إذن قد يكون بين العبد وربِّه، أو بين العبد وخلق الله المساوين له، أو بين العبد ونفسه، لكنهم أطلقوا على العقد الذي بين الإنسان ونفسه اسماً هو «العهد» وهو النذر، كأن ينذر العبد الصيام أو الصلاة، ويجب على العبد تنفيذ ما نذر به مادام عاهد الله على ذلك.

والعقد الذي بين العبد وغيره من البشر وكذلك العقد بينه وبين نفسه إنما ينبعان من العقد الأساسي وهو العقد الأول. إنّه الإيمان بالله.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾.

الخطاب ليهود المدينة، وقد قال تعالى لأهل مكة قبلهم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ الضمير في "به" قيل هو عائد على محمد ﷺ، قال ابن جريج: هو عائد على القرآن، إذ تضمنه قوله: ﴿بِمَا أَنْزَلْتُ﴾. وقيل: على التوراة، إذ تضمنها قوله: ﴿لِمَا مَعَكُمْ﴾ فإن قيل كيف قال "كافر" ولم يقل كافرين. قيل: التقدير ولا تكونوا أول فريق كافر به.

قوله تعالى: ﴿**وَآَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآَيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ**﴾، بعد أن ذَكَّرَ الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل بالعهود التي قطعوها على أنفسهم سواء بعدم التبديل والتغيير في التوراة. لإخفاء أشياء وإضافة أشياء، وذكرهم بعهدهم بالنسبة للإيمان برسول الله ﷺ الذي ذكر الله سبحانه وتعالى أوصافه في التوراة، حتى أن الحَبْر اليهودي ابن سلام كان يقول لقومه في المدينة: لقد عرفته حين رأيته كمعرفتي لابني ومعرفتي لمحمد أشد. أي أنه كان يُذَكِّرُ قومه. أن أوصاف الرسول ﷺ الموجودة في التوراة. لا تجعلهم يخطئونه. قال الحق تبارك وتعالى: ﴿**وَآمِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ**﴾؛ لأن القرآن مصدق للتوراة. والقصد هنا التوراة الحقيقية قبل أن يحرفوها. فالقرآن ليس موافقا لما معهم من المحرف أو المبدل من التوراة، بل هو موافق للتوراة التي لا زيف فيها.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**وَلاَ تكونوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ**﴾، ولقد قلنا: أن اليهود لم يكونوا أول كافر بمحمد ﷺ، وإنما كانت قريش قد كفرت به في مكة. المقصود في هذه الآية الكريمة أول كافر به من أهل الكتاب. لماذا؟ لأن قريشا لا صلة لها بمنهج السماء، ولا هي تعرف شيئا عن الكتب السابقة، ولكن أحبار اليهود كانوا يعرفون صدق الرسالة، وكانوا يستفتحون برسول الله ﷺ على أهل المدينة ويقولون: «جاء زمن رسول سنؤمن به ونقتلكم قتل عاد وإرم». ولما جاء رسول الله ﷺ بدلا من أن يسارعوا بالإيمان به، كانوا أول كافر به. والله سبحانه وتعالى لم يفاجئ أهل الكتاب بمجيء محمد ﷺ. وإنما نبههم إلى ذلك في التوراة والإنجيل، ولذلك كان يجب أن يكونوا أول المؤمنين وليس أول الكافرين؛ لأن الذي جاء يعرفونه. وقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً**﴾: الحق سبحانه وتعالى حينما يتحدث عن الصفقة الإيمانية. يستخدم كلمة الشراء وكلمة البيع وكلمة التجارة. اقرأ قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة**﴾[التوبة:١١١].

وفي آية أخرى يقول: ﴿**هَلْ أَدُلُّكمْ على تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ**﴾[الصف ١٠/١١].

إن الحق سبحانه وتعالى استعمل كلمة الصفقة والشراء والبيع بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿**ياأيها الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى**

ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع﴾[الجمعة:٩].

ونعلم أن التجارة هي وساطة بين المنتج والمستهلك، المنتج يريد أن يبيع إنتاجه، والمستهلك محتاج إلى هذا الإنتاج. والربح عملية تطول فترة، وتقصر فترة مع عملية تحرك السلعة والإقبال عليها إن كان سريعا أو بطيئا.

وعملية الاتجار استخدمها الله سبحانه وتعالى ليبين لنا أنها أقصر طريق إلى النفع، فالتجارة تقوم على يد الإنسان. يشتري السلعة ويبيعها، ولكنها مع الله سيأخذ منك بعضا من حرية نفسك، ليعطيك أخلد وأوسع منها.

وكما قلنا: لو قارنا بين الدنيا بعمرها المحدود عمر كل واحد منا كم سنة؟ خمسين، ستين، سبعين!! نجد أن الدنيا مهما طالت ستنتهي والإنسان العاقل هو الذي يضحي بالفترة الموقوته والمنتهية ليكون له حظ في الفترة الخالدة، وبذلك تكون هذه الصفقة رابحة. إن النعيم في الدنيا على قدر قدرات البشر، والنعيم في الآخرة على قدر قدرات الله سبحانه وتعالى. يأتي الإنسان ليقول: لماذا أضيق على نفسي في الدنيا؟ لماذا لا أتمتع؟ نقول له: لا. إن الذي ستناله من العذاب والعقاب في الآخرة لا يساوي ما أخذته من الدنيا. إذن الصفقة خاسرة. أنت اشتريت زائلا، ودفعته ثمنا لنعيم خالد. والله سبحانه وتعالى يقول لليهود: ﴿**وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً**﴾، أي: لا تدفعوا الآيات الإيمانية التي أعطيت لكم لتأخذوا مقابلها ثمنا قليلا، وعندما يأخذ الإنسان أقل مما يعطي، فذلك قلب للصفقة، والقلب تأتي من الخسارة دائما. وكأن الآية تقول: تدفعون آيات الله التي تكون منهجه المتكامل لتأخذوا عرضا من أعراض الدنيا، قيمته قليلة ووقته قصير. هذا قلب للصفقة. ولذلك جاء الأداء القرآني مقابلا لهذا القلب. ففي الصفقات الأثمان دائما تدفع والسلعة تؤخذ، ولكن في هذه الحالة التي تتحدث عنها الآية في قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً**﴾، قد جعلت الثمن الذي يجب أن يكون مدفوعا جعلته مشتري وهذا هو الحمق والخطأ. الله يقول: ﴿**وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً**﴾، أي: لا تقبلوا الصفقة، الشيء الذي كان يجب أن تضحوا به لا تجعلوه ثمنا؛ لأنك في هذه الحالة تكون قد جعلت الثمن سلعة. مادمت ستشتري الآيات بالثمن، فقد جعلت آيات الله ثمنا لتحصل على مكاسب دنيوية، وليتك جعلتها ثمنا غاليا، بل جعلتها ثمنا رخيصا.

لقد تنكرت لعهدك مع الله ليبقى لك مالك أو مركزك!! أما إذا ضحى

الإنسان بشيء من متع الدنيا؛ ليأخذ متع الآخرة الباقية، فتكون هذه هي الصفقة الرابحة، ذلك لأن الإنسان في الدنيا ينعم على قدر تصوره للنعيم. ولكنه في الآخرة ينعم على قدر تصور الله سبحانه وتعالى في النعيم.

بعض الذين لا يريدون أن يحملوا أنفسهم على منهج الله يستعجلون مكاسب الصفقة، استعجالا أحمق، إنهم يريدون المتعة حراما أو حلالا، نقول لكل واحد منهم: إن كنت مؤمنا بالآخرة: أو غير مؤمن فالصفقة خاسرة؛ لأنك في كلتا الحالتين ستعذب في النار، فكأنك اشتريت بإيمانك ودينك متعة زائلة. وجعلت الكفر ومعصية الله هما الثمن فقلبت الآية، وجعلت الشيء الذي كان يجب أن يشتري بمنهج الله وهو نعيم الآخرة يباع، ويباع بماذا؟ بنعيم زائل! وعندما يأخذ الإنسان أقل مما يعطي، يكون هذا قلبا للصفقة.

فكأن الآية تقول: إنكم تدفعون آيات الله وما تعطيكم من خَيْرَيْ الدنيا والآخرة لتأخذوا عرضا زائلا من أعراض الدنيا وثمنه قليل. والثمن يكون دائما من الأعيان كالذهب والفضة وغيرهما، وهي ليست سلعة. فهب أن معك كنز قارون ذهبا. وأنت في مكان منعزل وجائع، ألا تعطي هذا الكنز لمن سيعطيك رغيفا حتى لا تموت من الجوع؟ ولذلك يجب ألا يكون المال غاية أو سلعة. فإن جعلته غاية يكون معك المال الكثير.

ولا تشتري به شيئا لأن المال غايتك. فيفسد المجتمع.

إن المال عبد مخلص، ولكنه سيد رديء، هو عبدك حين تنفقه، ولكن حين تخزنه وتتكالب عليه يشقيك ويمرضك؛ لأنك أصبحت له خادما.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا**﴾، ما فائدة قليلا، والكثير كذلك؟. فيه مزيد الشناعة عليهم؛ لأن من يشترى الخسيس بالنفيس لا معرفة له ولا نظر. والآية الكريمة تعطينا فكرة عن اليهود؛ لأن محور حياتهم وحركتهم هو المال والذهب. فالله سبحانه وتعالى حرم الربا لأن المال في الربا يصبح سلعة. فالمائة تأخذ بمائة وخمسين مثلا، وهذا يفسد المجتمع؛ لأنه من المفروض أن يزيد المال بالعمل. فإذا أصبحت زيادة المال بدون عمل فسدت حركة الحياة، وزاد الفقير فقرا، وزاد الغني غنى، وهذا ما نراه في العالم اليوم.

فالدول الفقيرة تزداد فقرا لأنها تقترض المال وتتراكم عليها فوائده حتى تكون الفائدة أكثر من الدين نفسه، وكلما مر الوقت زادت الفوائد، فيتضاعف الدين. ويستحيل التسديد، والدول الغنية تزداد غنى؛ لأنها تدفع القرض وتسترده بأضعاف قيمته.

وإذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً**﴾ يجب ألا نفهم أنه يمكن شراء آيات الله بثمن أعلى. لا؛ لأنه مهما ارتفع الثمن وعلا سيكون قليلا، وقليلا جدا؛ لأنه يقابل آيات الله، وآيات الله لا تقدر بثمن. فالصفقة خاسرة مهما كانت قيمتها.

وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**وَإِيَّايَ فاتقون**﴾، وفي الآية السابقة قال: ﴿**وَإِيَّايَ فارهبون**﴾ وهي وعيد، ولكن ﴿**وَإِيَّايَ فاتقون**﴾ واقع. فقوله تعالى: ﴿**وَإِيَّايَ فارهبون**﴾ هي وعيد وتحذير لما سيأتي في الآخرة، ولكن ﴿**وَإِيَّايَ فاتقون**﴾، يعني اتقوا صفات الجلال من الله تعالى. وصفات الجلال هي التي تتعلق ببطش الله وعذابه، ومن هذه الصفات الجبار والقهار والمتكبر والقادر والمنتقم والمذل، وغيرها من صفات الجلال.

الله سبحانه وتعالى يقول: «اتقوا الله»، ويقول: «اتقوا النار»، كيف؟ نقول: إن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نجعل بيننا وبين النار وهي أحد جنود العذاب لله سبحانه وتعالى وقاية. ويريدنا أن نجعل بيننا وبين عذاب النار وقاية، ويريدنا أيضا أن نجعل بيننا وبين صفات الجلال في الله وقاية. فقوله تعالى: ﴿**وَإِيَّايَ فاتقون**﴾، أي: اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال في الله وقاية، حتى لا يصيبكم عذاب عظيم. وكيف نجعل بيننا وبين صفات الجلال في الله وقاية؟ أن تكون أعمالنا في الدنيا وفقا لمنهج الله سبحانه وتعالى، إذن فالتقوى مطلوبة في الدنيا.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ**﴾. وقال بعد ذلك: ﴿**وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ**﴾. ما فائدة التقديم والتأخير والتعبير بقبول الشفاعة، تارة، والنفع أخرى؟. جوابه: أن الضمير في منها راجع في الأولى إلى (النفس) الأولى، وفي الثانية راجع إلى (النفس) الثانية. كأنه بين في الآية الأولى أن النفس الشافعة الجارية عن

غيرها لا تتقبل منها شفاعة، ولا يؤخذ منها عدل؛ ولأن الشافع يقدم الشفاعة على بذل العدل عنها. ويبين في الآية الثانية أن النفس المطلوبة بجرمها لا يقبل منها عدل عن نفسها، ولا تنفعها شفاعة شافع فيها، وقد بذل العدل للحاجة إلى الشفاعة عند رده.

فلذلك كله قال في الأولى: لا يقبل منها شفاعة، وفى الثانية: ولا تنفعها شفاعة؛ لأن الشفاعة إنما تقبل من الشافع، وإنما تنفع المشفوع له.

قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً**﴾ أمر معناه الوعيد، وقد مضى الكلام في التقوى. "يوماً" يريد عذابه وهوله وهو يوم القيامة. وانتصب على المفعول بـ "اتقوا". ويجوز في غير القرآن يوم لا تجزي على الإضافة. وفي الكلام حذف بين النحويين فيه اختلاف.

واعلم أن العرف لا يسمي الشفيع ناصراً، بدليل قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ**﴾ (البقرة:٤٨)، ففرق تعالى بين الشفيع والناصر فلا يلزم من نفي الأنصار نفي الشفعاء. والجواب الثاني: ليس لمجموع الظالمين أنصار، فلم قلتم ليس لبعض الظالمين أنصار. فإن قيل: لفظ الظالمين ولفظ الأنصار جمع، والجمع إذا قوبل بالجمع توزع الفرد على الفرد، فكان المعنى: ليس لأحد من الظالمين أحد من الأنصار. قلنا: لا نسلم أن مقابلة الجمع بالجمع توجب توزع الفرد على الفرد لاحتمال أن يكون المراد مقابلة الجمع بالجمع فقط لا مقابلة الفرد بالفرد.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ**﴾، وفى إبراهيم: ﴿**وَيُذَبِّحُونَ**﴾ بالواو وفى الأعراف: (يقتلون). أنه جعل (يذبخون – هنا بدلا من يسومونكم، وخص الذبح بالذكر لعظم وقعه عند الأبوين، ولأنه أشد على النفوس. وفى سورة إبراهيم تقدم قوله تعالى: ﴿**وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ**﴾ فناسب العطف على سوم العذاب للدلالة على أنه نوع آخر، كأنه قال: يعذبونكم ويذبحون، ففيه يعدد أنواع النعم التي. أشير إليها بقوله تعالى: ﴿**وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ**﴾. وقد يقال: آية البقرة والأعراف من كلام الله تعالى لهم فلم يعدد المحن.

وآية إبراهيم من كلام موسي عليه السلام فعددها. وقوله تعالى: (يقتلون، هو

في تنوع الألفاظ، ويحتمل أنه لما تعدد هنا ذكر النعم أبدل: (يذتحون) من (يسومون)، وفي إبراهيم عطفه ليحصل نوع من تعدد النعم ليناسب قوله تعالى: اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ.

قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ**﴾ "إذ" في موضع نصب عطف على ﴿**اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ**﴾ وهذا وما بعده تذكير ببعض النعم التي كانت له عليهم أي اذكروا نعمتي بإنجائكم من عدوكم وجعل الأنبياء فيكم. والخطاب للموجودين والمراد من سلف من الآباء كما قال: ﴿**إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ**﴾ [الحاقة:١١]، أي: حملنا آباءكم وقيل إنما قال "نجيناكم" لأن نجاة الآباء كانت سببا لنجاة هؤلاء الموجودين. ومعنى "نجيناكم" ألقيناكم على نجوة من الأرض وهي ما ارتفع منها هذا هو الأصل ثم سمى كل فائز ناجيا فالناجي من خرج من ضيق إلى سعة وقرىء "وإذ نجيتكم" على التوحيد. قوله تعالى: ﴿**مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ**﴾ "آل فرعون" قومه وأتباعه وأهل دينه، وكذلك آل الرسول ﷺ من هو على دينه وملته في عصره وسائر الأعصار سواء كان نسيبا له أو لم يكن. ومن لم يكن على دينه وملته فليس من آله ولا أهله وإن كان نسيبه وقريبه. خلافا للرافضة حيث قالت: إن آل الرسول الله ﷺ فاطمة والحسن والحسين فقط. دليلنا قوله تعالى: ﴿**وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ**﴾ [البقرة:٥٠] ﴿**أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾[غافر:٤٦]،أي آل دينه إذ لم يكن له ابن ولا بنت ولا أب ولا عم ولا أخ ولا عصبة، ولأنه لا خلاف أن من ليس بمؤمن ولا موحد فإنه ليس من آل محمد وإن كان قريبا له، ولأجل هذا يقال: إن أبا لهب وأبا جهل ليسا من آله ولا من أهله وإن كان بينهما وبين النبي ﷺ قرابة ولأجل هذا قال الله تعالى في ابن نوح: ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**﴾[هود:٤٦].

وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ جهارا غير سر يقول: "ألا إن آل أبي – يعني فلانا – ليسوا لي بأولياء إنما وليي الله وصالح المؤمنين"، وقالت طائفة: آل محمد أزواجه وذريته خاصة لحديث أبي حميد الساعدي أنهم، قالوا: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ قال: "قولوا اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته كما صلت على آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد" رواه مسلم.

وقالت طائفة من أهل العلم: الأهل معلوم، والآل الأتباع. والأول أصح لما

ذكرناه ولحديث عبدالله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ كان إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: "اللهم صل عليهم"، فأتاه أبي بصدقته، فقال: "اللهم صل على آل أبي أوفى".

قوله تعالى: ﴿**فِرْعَوْنَ**﴾، قيل: إنه اسم ذلك الملك بعينه. وقيل: إنه اسم كل ملك من ملوك العمالقة مثل كسرى للفرس وقيصر للروم والنجاشي للحبشة، وأن اسم فرعون موسى قابوس في قول أهل الكتاب. وقال وهب: اسمه الوليد بن مصعب بن الريان ويكنى أبا مرة وهو من بني عمليق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. قال السهيلي: وكل من ولى القبط ومصر فهو فرعون وكان فارسيا من أهل اصطخر. قال المسعودي: لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية. قال الجوهري: فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر وكل عات فرعون والعتاة الفراعنة وقد تفرعن، وهو ذو فرعنة أي دهاء ونكر. وفي الحديث "أخذنا فرعون هذه الأمة".

قوله تعالى: ﴿**يَسُومُونَكُمْ**﴾، قيل: معناه يذيقونكم ويلزمونكم إياه. وقال أبو عبيدة: يولونكم، يقال: سامه خطة خسف إذا أولاه إياها. وقيل: يديمون تعذيبكم والسوم الدوام ومنه سائمة الغنم لمداومتها الرعي.

قوله تعالى: ﴿**سُوءَ الْعَذَابِ**﴾ مفعول ثان لـ "يسومونكم" ومعناه أشد العذاب، ويجوز أن يكون بمعنى سوم العذاب، وقد يجوز أن يكون نعتا بمعنى سوما سيئا فروي أن فرعون جعل بني إسرائيل خدما وخولا وصنفهم في أعماله فصنف يبنون وصنف يحرثون ويزرعون وصنف يتخدمون، وكان قومه جندا ملوكا ومن لم يكن منهم في عمل من هذه الأعمال ضربت عليه الجزية فذلك سوء العذاب.

قوله تعالى: ﴿**يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ**﴾، "يذبحون" بغير واو على البدل من قومه "يسومونكم". نسب الله تعالى الفعل إلى آل فرعون وهم إنما كانوا يفعلون بأمره وسلطانه لتوليهم ذلك بأنفسهم وليعلم أن المباشر مأخوذ بفعله، قال الطبري: ويقتضي أن من أمره ظالم بقتل أحد فقتله المأمور فهو المأخوذ به.

وقد اختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال: يقتلان جميعا هذا بأمره والمأمور بمباشرته، هكذا قال النخعي. وقال الشافعي ومالك في تفصيل لهما: قال الشافعي: إذا أمر السلطان رجلا بقتل رجل والمأمور يعلم أنه أمر بقتله ظلما كان عليه وعلى الإمام القود كقاتلين معا، وإن أكرهه الإمام عليه وعلم أنه يقتله

ظلما كان على الإمام القود وفي المأمور، قولان: أحدهما: أن عليه القود، والآخر لا قود عليه وعليه نصف الدية، حكاه ابن المنذر.

وقال علماؤنا: لا يخلو المأمور أن يكون ممن تلزمه طاعة الآمر ويخاف شره كالسلطان والسيد لعبده فالقود في ذلك لازم لهما، أو يكون ممن لا يلزمه ذلك فيقتل المباشر وحده دون الآمر وذلك كالأب يأمر ولده أو المعلم بعض صبيانه أو الصانع بعض متعلميه إذا كان محتلما فان كان غير محتلم فالقتل على الآمر وعلى عاقلة الصبي نصف الدية. وقال ابن نافع: لا يقتل السيد إذا أمر عبده وإن كان أعجميا بقتل إنسان. قال ابن حبيب: وبقول ابن القاسم أقول إن القتل عليهما فأما أمر من لا خوف على المأمور في مخالفته فإنه لا يلحق بالإكراه بل يقتل المأمور دون الآمر ويضرب الآمر ويحبس.

وقال أحمد: في السيد يأمر عبده أن يقتل رجلا يقتل السيد. وروي هذا القول عن علي بن أبي طالب وأبي هريرة رضي الله عنهما. وقال علي: ويستودع العبد السجن. وقال أحمد: ويحبس العبد ويضرب ويؤدب. وقال الثوري: يعزر السيد. وقال الحكم وحماد: يقتل العبد. وقال قتادة: يقتلان جميعا. وقال الشافعي: إن كان العبد فصيحا يعقل قتل العبد وعوقب السيد، وإن كان العبد أعجميا فعلى السيد القود.

وقال سليمان بن موسى: لا يقتل الآمر ولكن تقطع يديه ثم يعاقب ويحبس وهو القول الثاني، ويقتل المأمور للمباشرة. وكذلك قال عطاء والحكم وحماد والشافعي وأحمد وإسحاق في الرجل يأمر الرجل بقتل الرجل، وذكره ابن المنذر. وقال زفر: لا يقتل واحد منهما وهو القول الثالث حكاه أبو المعالي في البرهان، ورأى أن الآمر والمباشر ليس كل واحد منهما مستقلا في القود فلذلك يقتل لا واحد منهما عنده والله أعلم.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ**﴾.

وفي الأعراف: ﴿**وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ**﴾.

جوابه: هي اختلاف ألفاظ الآيتين، وفائدة مناسبتهما مع قصد التنويع في الخطاب. أما آية البقرة: فلما افتتح ذكر بنى إسرائيل بذكر نعمه عليهم بقوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**﴾، ناسب ذلك نسبة القول إليه، وناسب قوله: (رغدا لأن النعم به أتم). وناسب تقديم ﴿**وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا**﴾، وناسب

(خطاياكم)؛ لأنه جمع كثرة، وناسب الواو في ﴿**وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ**﴾؛ لدلالتها على الجمع بينهما وناسب الفاء في (فكلوا)؛ لأن الأكل مترتب على الدخول فناسب مجيئه بالواو.

وأما آية الأعراف: فافتتحت بما فيه توبيخهم وهو قولهم:

﴿**اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ**﴾، ثم اتخاذهم العجل، فناسب ذلك (وإذ قيل لهم). وناسب ترك (رغدا)، والسكنى بجامع الأكل، فقال: (كلوا). وناسب تقديم ذكر مغفرة الخطايا، وترك الواو في (سنريد).

فالكيان العام واحد ونجد خلافاً في الألفاظ واللقطات عن الآية التي وردت في سورة الأعراف. أول خلاف ﴿**وَإِذْ قُلْنَا**﴾، و: ﴿**وَإِذْ قِيلَ**﴾، وشاء الحق ذلك ليأتي لنا بلقطة مختلفة كنا أوضحنا من قبل. ففي آية سورة البقرة يقول سبحانه: ﴿**ادخلوا**﴾ وفي آية سورة الأعراف، يقول: ﴿**اسكنوا**﴾، ونعلم أن الدخول يكون لغاية وهي السكن أي ادخلوا لتسكنوا، وأوضح ذلك بقوله في سورة الأعراف: ﴿**اسكنوا**﴾؛ ليبين أن دخولهم ليس للمرور بل للإقامة.

قوله تعالى: ﴿**فَكُلُوا**﴾ إباحة ﴿**رَغَداً**﴾ كثيرا واسعا وهو نعت لمصدر محذوف أي أكلاً رغداً، ويجوز أن يكون في موضع الحال على ما تقدم وكانت أرضا مباركة عظيمة الغلة فلذلك قال: "رغدا".

قوله تعالى: ﴿**وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً**﴾ الباب يجمع أبوابا وقد قالوا: أبوبة للازدواج، ولو أفرده لم يجز. ومثله قول عليه السلام: "مرحبا بالقوم – أو بالوفد – غير خزايا ولا ندامى"، وتبوبت بوابا اتخذته. وأبواب مبوبة كما قالوا: أصناف مصنفة. وهذا شيء من بابتك أي يصلح لك. والباب الذي أمروا بدخول هو باب في بيت المقدس يعرف اليوم بـ "باب حطه" عن مجاهد وغيره. وقيل: باب القبة التي كان يصلي إليها موسى وبنو إسرائيل و"سجدا". قال ابن عباس: منحنين

ركوعا، وقيل: متواضعين خشوعا لا على هية متعينة. قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا﴾ عطف على أدخلوا ﴿حِطَّةٌ﴾ بالرفع قراءة الجمهور على إضمار مبتدأ أي مسألتنا حطة أو يكون حكاية. وقرئت "حطة" بالنصب على معنى احطط عنا ذنوبنا حطة. قال النحاس: الحديث عن ابن عباس أنه قيل لهم: قولوا لا إله إلا الله وفي حديث آخر عنه قيل لهم قولوا مغفرة – تفسير للنصب، أي قولوا شيئا يحط ذنوبكم كما يقال: قل خيرا والأئمة من القراء على الرفع. وهو أولى في اللغة لما حكي عن العرب في معنى بدل. قال أحمد بن يحيى: يقال بدلته، أي غيرته ولم أزل عينه. وأبدلته أزلت عينه وشخصه.

وقال ابن فارس في المجمل: "حطة" كلمة أمر بها بنو إسرائيل لو قالوها لحطت أوزارهم وقاله الجوهري أيضا في الصحاح. يحتمل أن يكونوا تعبدوا بهذا اللفظ بعينه وهو الظاهر من الحديث روى مسلم عن أبي هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ: "قيل لبني إسرائيل أدخلوا الباب سجدا وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وقالوا حبة في شعرة"، وأخرجه البخاري. وقال: "فبدلوا وقالوا حطة حبة في شعرة" في غير الصحيحين: "حنطة في شعر". وقيل: قالوا هطا سمهانا وهي لفظة عبرانية تفسيرها: حنطة حمراء حكاها ابن قتيبة وحكاه الهروي عن السدي ومجاهد، وكان قصدهم خلاف ما أمرهم الله به فعصوا وتمردوا واستهزؤوا فعاقبهم الله بالرجز وهو العذاب.

وقال ابن زيد: كان طاعونا أهلك منهم سبعين ألفا. وروي أن الباب جعل قصيرا ليدخلوه ركعا فدخلوه متوركين على أستاههم والله أعلم. واستدل بعض العلماء بهذه الآية على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها في الشريعة لا يخلو أن يقع التعبد بلفظها أو بمعناها فإن كان التعبد وقع بلفظها فلا يجوز تبديلها لذم الله تعالى من بدل ما أمره بقوله، وإن وقع بمعناها جاز تبديلها بما يؤدي إلى ذلك المعنى ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنه. وقد اختلف العلماء في هذا المعنى فحكي عن مالك والشافعي وأبي حنيفة وأصحابهم أنه يجوز للعالم بمواقع الخطاب البصير بآحاد كلماته نقل الحديث بالمعنى لكن بشرط المطابقة للمعنى بكماله وهو قول الجمهور.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾.

وفى الأعراف: فبدل الذين ظلموا منهم. وقال: (فأرسلنا عليهم). وقال هنا: (يفسقون وفى الأعراف: (يظلمون). لما سبق في الأعراف تبعيض الهادين بقوله تعالى: ﴿**وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ**﴾، ناسب تبعيض الظالمين منهم بقوله تعالى: ﴿**الذين ظلموا منهم**﴾. ولم يتقدم مثله في البقرة.

وقوله: عليهم. ليس فيه تصريح بنجاة غيرهم. وفى البقرة إشارة إلى سلامة غير (الذين ظلموا) لتصريحه بالإنزال على المتصفين بالظلم والإرسال أشد وقعا من الإنزال. فناسب سياق ذكر النعمة ذلك في البقرة. وختم آية البقرة ب (يفسقون)، ولا يلزم منه الظلم، والظلم يلزم منه الفسق، فناسب كل لفظ منهما سياقه.

الله جل وعلا يقول في محكم كتابه في سورة البقرة: ﴿**فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**﴾ [البقرة:٥٩]، ويقول في الأعراف: ﴿**فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ**﴾[الأعراف:١٦٢]، فالقول الذي قاله الله لهم، هو قوله: ﴿حِطَّةٌ﴾، وهي فعلة من الحط بمعنى الوضع خبر مبتدأ محذوف أي دعاؤنا ومسألتنا لك حطة لذنوبنا أي حط ووضع لها عنا فهي بمعنى طلب المغفرة، وفي بعض روايات الحديث في شأنهم أنهم بدلوا هذا القول بأن زادوا نونا فقط فقالوا حنطة وهي القمح.

قوله تعالى: ﴿**بَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً**﴾ "الذين" في موضع رفع أي فبدل الظالمون منهم قولا غير الذي قيل لهم. وذلك أنه قيل لهم: قولوا حطة فقالوا حنطة، على ما تقدم فزادوا حرفا في الكلام فلقوا من البلاء ما لقوا تعريفا أن الزيادة في الدين والابتداع في الشريعة عظيمة الخطر شديدة الضرر. هذا في تغير كلمة هي عبارة عن التوبة أوجبت كل ذلك من العذاب فما ظنك بتغيير ما هو من صفات المعبود هذا والقول أنقص من العمل فكيف بالتبديل والتغيير في الفعل. وتبديل الشيء أيضا تغييره وإن لم يأت ببدل. واستبدل الشيء بغيره، وتبدل به إذا أخذه مكانه. والمبادلة التبادل.

والأبدال: قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم إذا مات واحد منهم أبدل الله مكانه بآخر. قال ابن دريد: الواحد بديل والبديل البدل. وبدل الشيء: غيره يقال: بدل وبدل لغتان مصل: شبَه وشِبْه ومثَلَ ومِثْل ونكَلَ ونِكْل قال أبو عبيد: لم يسمع في فعَلَ وفِعْل غير هذه الأربعة اليدين والرجلين. وقد بدل "بالكسر" يبدل بدلا.

قوله تعالى: ﴿**فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾ كرر لفظ "ظلموا" ولم يضمره تعظيما للأمر. والتكرير يكون على ضربين أحدهما استعماله بعد تمام الكلام كما في هذه الآية وقوله: ﴿**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ**﴾[البقرة:٧٩] ثم قال بعد: ﴿**فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾، ولم يقل: مما كتبوا وكرر الويل تغليظا لفعلهم.

قوله تعالى: ﴿**رِجْزاً**﴾ قراءة الجماعة "رجزا" بكسر الراء وابن محيصن بضم الراء والرجز: العذاب "بالزاي" و"بالسين" النتن والقذر، ومنه قوله تعالى: ﴿**فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ**﴾ [التوبة:١٢٥]، أي: نتنا إلى نتنهم. قال الفراء: وذكر بعضهم أن الرجز "بالضم" اسم صنم كانوا يعبدونه، وقرئ بذلك في قوله تعالى: ﴿**وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ**﴾، والرجز "بفتح الراء والجيم" نوع من الشعر، وأنكر الخليل أن يكون شعرا وهو مشتق من الرجز وهو داء يصيب الإبل في أعجازها فإذا ثارت ارتعشت أفخاذها. قوله تعالى: ﴿**بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**﴾ أي بفسقهم والفسق الخروج.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا**﴾. وفي الأعراف: ﴿**فانبجست**﴾. قيل إن الانبجاس دون الانفجار، وأن الانفجار أبلغ في كثرة الماء فعلى هذا: أن سياق ذكر نعمته اقتضى ذكر الانفجار، ونسبه. وقيل: هما بمعنى واحد، فيكون من تنويع الألفاظ والفصاحة.

يقول الحقّ جلّ جلاله: واذكروا يا بني إسرائيل حين عطشتم في التيه، فطلبتم من موسى السقي، فاستسقى لكم، ﴿**فقلنا**﴾ له: ﴿**اضرب بعصاك**﴾ التي أخذتها من شعيب عليه السلام، وكانت من آس الجنة، وورثت عن آدم عليه السلام، فيها عشرة أذرع، فضرب ﴿**فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً**﴾ على عدد أسباطكم، فكل عين تجري إلى سبط ﴿**قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ**﴾ مُعَيناً، لا يعدو أحد على أحد، فقلنا لهم: ﴿**كُلُوا**﴾ من المن والسلوى، ﴿واشربوا﴾ من الماء الذي

رزقناكم، ولا تطغوا بالنعم فتفسدا في الأرض بالمعاصي والذنوب، فيكون ذلك كفراً مستوجباً للسلب بعد العطاء، رُوِيَ أنهم كانوا ستمائة ألف، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً. والله تعالى أعلم. الإشارة: اعلم أن الأرواح إذا تطهرت من الأكدار، وتحررت من الأغيار، وأشرقت عليها الأنوار والأسرار، وكمل تطهيرها، وتمت تصفيتها، كان صاحبها آية من آيات الله، وحجة من حجج الله، إذا ضرب بعصا همته القلوب القاسية أو الأنفس الأبية، لانت وانفجرت بالعلوم القدسية، كل واحد بما يليق به، فمنها من تنبع بالعلوم الوهبية، ومنها من تنبع بالعلوم الرسمية، ومنها من تنبع بالكرامات وخوارق العادات، ومنها من تنبع منها المكاشفات والاطلاعات، قد علم كل أناس مشربهم، على حسب ما سبق لهم، فيقول الحق تعالى لهم: كلوا من ثمرات ما اجتنيتم من العلوم والمعارف التي أوليناكم، واشربوا من مناهل المنازل التي فيها أقمناكم أو كلوا من ثمرات المعرفة ما تتقوى به معانيكم، واشربوا من خمر الحبيب ما تغيبوا به عن وجودكم، ولا تتعدوا أطواركم من القيام بوظائف العبودية، ومعرفة عظمة الربوبية، فتكونوا لسلب ما أولاكم متعرضين، ولعقوبته مستحقين، عائذاً بالله من السلب بعد العطاء. آمين.

إن انفجار الماء من ضربة العصا دليل على أن العصا أشارت فقط إلى الصخرة فتفجر منها الماء، وحتى لو كانت العصا من حديد، هل تكون قادرة على أن تجعل الماء ينبع من الحجر؟ فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه كان من الممكن أن ينزل الماء من السماء، ولكن الله أرادها نعمة مركبة؛ ليعلموا أنه يستطيع أن يأتي الماء من الحجر الصلب، وأن نبع الماء من متعلقات «كن».

هنا لابد أن ننظر إلى تعنت بني إسرائيل. قالوا لموسى: هب أننا في مكان لا حجر فيه، من أين ينبع الماء؟ لابد أن نأخذ معنا الحجر حتى إذا عطشنا نضرب الحجر بالعصا. ونسوا أن هناك ما يتم بالأسباب وما يتم بكلمة «كن»، ولذلك تجد مثلا كبار الأطباء يحتارون في علاج مريض ثم يشفى على يد طبيب ناشئ حديث التخرج، هل هذا الطبيب الناشئ يعرف أكثر من أساتذته الذين علموه؟ الجواب طبعا لا. إن التلميذ لا يتفوق على أستاذه الذي علمه فليس العلاج بالأسباب وحدها ولكن بقدرة المسبب، ولذلك جاء موعد الشفاء على يد هذا الطبيب الناشئ، فكشف الله له الداء وألهمه الدواء. يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿**فانفجرت مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْناً**﴾ لماذا اثنتا عشرة عينا؛ لأن اليهود كانوا يعيشون حياة

انعزال. كل مجموعة منهم كانت تسمى «سبطا» لها شيخ مثل شيخ القبيلة، والحق تبارك وتعالى يقول: ﴿**قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ**﴾ أي كل سبط أو مجموعة ذهبت لمشرب. نبعت العيون من الحجر امتدت متشعبة إلى الأسباط جميعا كل في مكانه، فإذا ما أخذوا حاجتهم ضرب موسى الحجر فيجف. ولذلك نعرف أن الحجر كان يعطيهم الماء على قدر الحاجة، وكانت الجهة السفلى من الحجر الملامسة للأرض، والجهة العليا التي ضرب عليها بالعصا لم ينبع منهما شيء، أما باقي الجهات الأربع فقد نبع منها كل منها ثلاثة ينابيع.

وهناك شيء في اللغة يسمونه اللفظ المشترك، وهو الذي يستخدم في معانٍ متعددة، فإذا قلت سقى القوم دوابهم من العين، العين هنا عين الماء، وإذا قلت أرسل الأمير عيونه في المدينة يعني أرسل جنوده، وإذا قلت اشتريته بعين أي بذهب، وإذا قلت نظر إلي بعينه شذرا أي ببصره، إذن كلمة عين تستخدم في أشياء متعددة، ومعناها هنا عين الماء الجارية. قوله تعالى: ﴿**قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ**﴾ أي أن كل سبط عرف مكانه الذي يلزمه، حتى لا يضيع من كل منهم الماء. ولكن الإنسان حينما يكون مضطرا يلتزم بما يطلبه الله منه ويكون ملتزما بالأداء، فإذا فرج الله كربه وعادت إليه النعمة يعود إلى طغيانه.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾، وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا**﴾. في سورة غافر. وفي هذا الأمر أمثلة كثيرة، فالقرآن حينما يقص على رسول الله ﷺ أحوال اليهود ويوضح له: ﴿**وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ الحق**﴾ [البقرة:٦١]. أليس هذا القول يدفع في خاطره احتمال أن يقتلوه؟ بلى فهم ما دامت عندهم الجرأة على قتل الأنبياء فما الذي يمنعهم من قتله؟ لكن الحق يطمئنه ويكبتهم ويقطع عندهم الأمل، ويأتي قوله الحق: ﴿**فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ اللهِ مِن قَبْلُ**﴾[البقرة:٩١].

وأيضاً حين يأتي القرآن بشيء في نيتهم أن يفعلوه، ولم يفعلوا بعد، ويفضحهم القرآن بإعلان ما في نيتهم، ومن غبائهم فهم يفعلون الأمر المفضوح، ولو كان عندهم قليل من ذكاء لامتنعوا عن فعل ما فضحهم به القرآن.

ويتمثل ذلك في أحد المواقف التي يحلفون فيها، ولو كان فيهم رجل رشيد

يملك التفكير المتوازن لقال لهم: إنكم سوف تحلفون: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الحسنى﴾ فلا تحلفوا حتى يشك المسلمون في القرآن، ومن غبائهم أيضا أنهم حلفوا في أمر لهم فيه اختيار أن يفعلوه أو لا يفعلوه.

كما قال تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾ فإن قيل: قررتم أن الضمير في ينصره، عائد إليه ﷺ، وهو لم يجر له ذكر، فكيف قررتم رجوع. فالجواب: هو ما قاله غير واحد: من أنه ﷺ، وإن لم يجر له ذكر، فالكلام دال عليه؛ لأن الإيمان في قوله في الآية التي قبلها تليها: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ**﴾. هو الإيمان بالله، وبمحمد ﷺ، والانقلاب عن الدين المذكور في قوله: ﴿**انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ**﴾ انقلاب عما جاء به محمد ﷺ.

وفي الحديث عن أبي الدرداء وبعض المحدثين يقول عن النبي ﷺ قال: "من رد عن عرض أخيه المسلم كان حقا على الله عز وجل أن يرد عنه نار جهنم"، ثم تلا: ﴿**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا**﴾. وعنه عليه السلام أنه قال: "من حمى مؤمنا من منافق يغتابه بعث الله عز وجل يوم القيامة ملكا يحميه من النار ومن ذكر مسلما بشيء يشينه به وقفه الله عز وجل على جسر من جهنم حتى يخرج مما قال". ﴿**وَيَوْمَ**﴾ بدل من يوم الأول. ﴿**لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ**﴾، قرأ نافع والكوفيون ﴿**يَنْفَعُ**﴾ بالياء. الباقون بالتاء. ﴿**وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾، ﴿**اللعنة**﴾ البعد من رحمة الله، و﴿**سُوءُ الدَّارِ**﴾ جهنم.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾.

وقد قال في آل عمران: ﴿**بغير حق**﴾.

فعرف هنا ونكر ذلك.

أن آية البقرة: نزلت في قدماء اليهود بدليل قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ**﴾. والمراد "بغير الحق" الموجب للقتل عندهم، بل قتلوهم ظلما وعدوانا.

وآيات آل عمران: في الموجودين زمن النبي ﷺ. بدليل قوله تعالى: فبشرهم

بعذاب أليم، وبقوله تعالى: إن الذين يكفرون بآيات الله ويقولون، وبدليل قوله تعالى في الثانية: لن يضروكم إلي أذى – الآية.

لأنهم كانوا حرصاء على قتل النبى ﷺ، ولذلك سموه، ولكن الله تعالى. عصمه منهم فجاء منكرا ليكون أعم فتقوى الشناعة عليهم والتوبيخ لهم، لأن قوله تعالى: (بغير حق) بمعنى قوله ظلما وعدوانا.

وهذا هو جواب من قال: ما فائدة قوله: بغير الحق، أو: بغير حق والأنبياء لا يقتلن إلا بغير حق.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ**﴾.

وقال فى المائدة والحج: ﴿**والصابئون وَالنَّصَارَى**﴾. قدم النصارى فى البقرة، وأخرهم فى المائدة والحج. أن التقديم قد يكون بالفضل والشرف، وقد يكون بالزمان.

فروعي في البقرة تقديم الشرف بالكتاب، لأن الصابئين لا كتاب لهم مشهود ولذلك قدم: ﴿**الَّذِينَ هَادُوا**﴾ في جميع الآيات. وإن كانت الصابئة متقدمة في الزمان.

وأخر النصارى في بعضها: لأن اليهود موحدون. والنصارى مشركون، ولذلك قرن النصارى فى الحج بالمجوس والمشركين، فأخرهم لإشراكهم بمن بعدهم في الشرك،

وقدمت الصابئون عليهم في بعض الآيات لتقدم زمانهم عليهم.

وقول بعض الفقهاء: إن الصابئة فرقة من النصارى باطل لا أصل له.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ أي صدقوا بمحمد ﷺ. وقال سفيان: المراد المنافقون. كأنه قال: الذين آمنوا في ظاهر أمرهم، فلذلك قرنهم باليهود والنصارى والصابئين، ثم بين حكم من آمن بالله واليوم الآخر من جميعهم.

قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هَادُوا**﴾ معناه صاروا يهودا، نسبوا إلى يهوذا وهو أكبر ولد يعقوب عليه السلام، فقلبت العرب الذال دالا؛ لأن الأعجمية إذا عربت غيرت

عن لفظها. وقيل: سموا بذلك لتوبتهم عن عبادة العجل. هاد: تاب. والهائد: التائب، أي تائب. وفي التنزيل: ﴿**إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ**﴾ [الأعراف:١٥٦] أي تبنا. وهاد القوم يهودون هودا وهيادة إذا تابوا. وقال ابن عرفة: "هدنا إليك" أي سكنا إلى أمرك. والهوادة السكون والموادعة. قال: ومنه قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا**﴾، وقرأ أبو السمال: "هادوا" بفتح الدال.

يقول الحق: ﴿**إِنَّ الذين آمَنُواْ والذين هَادُواْ والنصارى والصابئين مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة:٦٢]. ولنلحظ أن كلمة «الصابئين» في هذه الآية منصوبة.

وفي سورة المائدة نجد قول الحق: ﴿**إِنَّ الذين آمَنُواْ والذين هَادُواْ والصابئون والنصارى مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[المائدة:٦٩].

ولنلحظ أن كلمة «الصابئون» هنا مرفوعة ومقدمة على كلمة «النصارى». وفي آية سورة الحج يقول الحق: ﴿**إِنَّ الذين آمَنُواْ والذين هَادُواْ والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إِنَّ الله يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [الحج:١٧].

هنا إخبار عن أربعة، وزاد الحق عليهم اثنين في آية الحج، ونجد أن الإخبار يختلف، وكذلك يختلف الأسلوب، فمرة تتقدم النصارى على الصابئين، ومرة تتقدم الصابئون على النصارى، ومرة تكون الصابئون مرفوعة، ومرة تكون منصوبة بالياء.

وأما اختلاف الإخبار، فهو سبحانه يخبرنا في سورة البقرة فيقول: ﴿**مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة:٦٢].

والخبر في سورة المائدة هو: ﴿**مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [المائدة:٦٩]. والخبر في سورة الحج هو: ﴿**إِنَّ الله يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [الحج:١٧].

والآيات الثلاث في مجموعها تتعرض لمعنى واحد، ولكن الأساليب مختلفة

وكذلك الغايات فيها مختلفة. ونلحظ هنا أن الحق قال: «آمنوا» والإيمان هنا هو الإيمان اللفظي أي بالفم وليس بالقلب، والمتصفون بذلك هم المنافقون والذين هادوا، هم أتباع موسى، والنصارى هم أتباع عيسى، والصابئون ليسوا أتباعاً لأحد فقد كانوا أتباعاً لنوح ثم صبأوا عن ديانة نوح وعبدوا الكواكب، أو هم قوم عدلوا عن اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة. والمجوس وهم عبدة النار. إذن الحق يريد أن يجري تصفية إيمانية في الكون، فمن يبادر ويدخل في هذه التصفية. يسلم من شر ما فعله قبل ما مجيء الإسلام، ذلك أنهم أضلُّوا أناساً أو حكموا بالظلم.

والحق في سورة البقرة يقول: ﴿**فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ أي أنه – سبحانه – غفر لهم ما فعلوا من سوء وجزاهم على عملهم الصالح الذي لم يحبطوه ويذهبوه بعمل السيئات والآثام. هذا ما يتعلق بالآيتين، آية سورة البقرة، وآية سورة المائدة، ونلاحظ أن آية سورة المائدة لم يرد فيها قوله: ﴿**فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ ولعل ذلك راجع إلى الاكتفاء بذكرها في سورة البقرة، وذلك له نظير في القرآن الكريم.

مسألة:

ثم قال: ﴿**مَنْ آمَنَ بِاللَّـهِ**﴾. المراد: من استمر على إيمانه، أو من أظهر منهم الإيمان ولم يعمل به. والمراد بمن آمن: من عمل بتكميل إيمانه ومات عليه.

قوله تعالى: ﴿**مَنْ آمَنَ**﴾ بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم "أي صدق. و"من" في قوله: ﴿**مَنْ آمَنَ**﴾ في موضع نصب بدل من "الذين". والفاء في قوله ﴿**فَلَهُمْ**﴾ داخلة بسبب الإبهام الذي في "من". و"لهم أجرهم" ابتداء وخبر في موضع خبر إن. ويحسن أن يكون "من" في موضع رفع بالابتداء، ومعناها الشرط. و"آمن" في موضع جزم بالشرط، والفاء الجواب. و"لهم أجرهم" خبر "من"، والجملة كلها خبر "إن"، والعائد على "الذين" محذوف، تقديره من آمن منهم بالله. وفي الإيمان بالله واليوم الآخر اندراج الإيمان بالرسل والكتب والبعث.

وأن من آمن بالله وأقر بالتوحيد والنبوة، فقد أحسن بدليل أن الصبي إذا بلغ وقت الضحوة، وآمن بالله ورسوله واليوم الآخر ومات قبل الوصول إلى الظهر فقد أجمعت الأمة على أنه دخل تحت قوله: ﴿**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى**﴾ (يونس:٢٦). ومعلوم أن هذا الشخص لم يأت بشيء من الطاعات سوى المعرفة والإقرار؛ لأنه لما بلغ بعد الصبح لم تجب عليه صلاة الصبح، ولما مات قبل الظهر لم تجب

عليه صلاة الظهر، وظاهره أن سائر العبادات لم تجب عليه. فثبت أنه محسن، وثبت أنه لم يصدر منه إلا المعرفة والإقرار، فوجب كون هذا القدر إحساناً، فيكون فاعله محسناً.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾.

ما فائدة: هم؟

أن العطف على الجملة الاسمية أفصح وأنسب. دلت آية البقرة على انتفاء الخوف والحزن عنه، وذلك في قوله تعالى: ﴿**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة:٣٨].

ولا شك أن انتفاء الضلال والشقاوة والخوف والحزن عن متبعي الوحي، المصرح به في القرآن، لا يتحقق فيمن يقلد عالما ليس بمعصوم، لا يدري أصواب ما قلده فيه أم خطأ، في حال كونه معرضا عن التدبر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ولا سيما إن كان يظن أن آراء العالم الذي قلده، كافية مغنية، عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. والآيات القرآنية الدالة على لزوم اتباع الوحي، والعمل به، لا تكاد تحصى، وكذلك الأحاديث النبوية الدالة على لزوم العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لا تكاد تحصى، لأن طاعة الرسول طاعة الله.

﴿**وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ حين يحزن المفرطون والأشرار؛ إذ لا يلحقهم وبال ولا يفوتهم نوال. وبالله التوفيق.

الإشارة: إن الذين آمنوا إيماناً لا يختلجه وهم، ولا يطرق ساحته شك ولا ريب، إما عن برهان قاطع، أو عن شهود ساطع، والذين تابوا عن هواجس الخواطر وغفلات الضمائر، والذين نصروا الدين، وشيّدوا منار شريعة المسلمين، والذين صبوا إلى الحبيب، ومالوا عن كل بعيد وقريب، فهؤلاء الذين سبقت لهم من الله العناية، وهبت عليهم ريح الهداية، جمعوا بين تزيين البواطن بأنوار الإيقان، وتزيين الظواهر بأنواع الطاعة والإذعان، فلا جرم أنهم، إذا قدموا على ربهم، أجلَّ منصبهم، وأجزل ثوابهم، وأعلى مقامهم، فأولئك أولياء الله. قوله: ﴿**فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ**

رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ "هم أصحاب الخيل". قال رسول الله ﷺ: "المنفق على الخيل كباسط يده بالصدقة لا يقبضها وأبوالها وأرواثها عند الله يوم القيامة كذكي المسك". وروي عن ابن عباس أنه قال: نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كانت معه أربعة دراهم فتصدق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً وبدرهم سراً وبدرهم جهراً.

مسألة:

قوله تعالى: **﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾**، بعد قوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾**، والأمر بذبحها بعد القتل، فما فائدة تقديم الذبح في الذكر؟

جوابه: أن آيات البقرة سيقت لبيان النعم كما تقدم، فناسب تقدم ذكر النعمة على ذكر الذنب. قوله تعالى: **﴿قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾** هذا الكلام مقدم على أول القصة، التقدير: وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها. فقال موسى: إن الله يأمركم بكذا. وهذا كقوله: **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا قِيَماً﴾** [الكهف:١/٢] أي أنزل على عبده قيما ولم يجعل له عوجا، ومثله كثير.

أما قوله تعالى: **﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءاْتُمْ فِيهَا﴾** فاعلم أن وقوع ذلك القتل لا بد وأن يكون متقدماً لأمره تعالى بالذبح. أما الإخبار عن وقوع ذلك القتل وعن أنه لا بد وأن يضرب القتيل ببعض تلك البقرة فلا يجب أن يكون متقدماً على الإخبار عن قصة البقرة، فقول من يقول: هذه القصة يجب أن تكون متقدمة في التلاوة على الأولى خطأ؛ لأن هذه القصة في نفسها يجب أن تكون متقدمة على الأول في الوجود، فأما التقدم في الذكر فغير واجب لأنه تارة يتقدم ذكر السبب على ذكر الحكم وأخرى على العكس من ذلك، فكأنه لما وقعت لهم تلك الواقعة أمرهم تعالى بذبح البقرة فلما ذبحوها قال: وإذ قتلتم نفساً من قبل واختلفتم وتنازعتم فإني مظهر لكم القاتل الذي سترتموه بأن يضرب القتيل ببعض هذه البقرة المذبوحة، وذلك مستقيم. فإن قيل: هب أنه لا خلل في هذا النظم، ولكن النظم الآخر كان مستحسناً فما الفائدة في ترجيح هذا النظم؟

قلنا: إنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ولو كانت قصة واحدة لذهب الغرض من بينية التفريع.

مسألة:

الرب تعالى قادر على إحياء الميت دون البقرة، فما فائدة الأمر بذبحها لذلك؟

قد يكون فائدة الأمر لترتيب الأشياء على أسبابها لما اقتضته الحكمة القديمة، ولجبر اليتيم صاحب البقرة بما حصل له من ثمنها.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً**﴾.

وفى آل " عمران"، معدودات.

ومعدودة: جمع كثرة، ومعدودات: جمع قلة؟

جوابه: أن قائلي ذلك من اليهود فرقتان: إحداهما قالت: إنما نعذب بالنار سبعة أيام، وهي عدد أيام. الدنيا. وقالت فرقة: إنما نعذب أربعين يوما، وهي أيام عبادتهم العجل. فآية البقرة يحتمل قصد الفرقة الثانية، وآية آل عمران يحتمل قصد الفرقة الأولى.

قال ابن مقسم: يعني توحيدا، بدليل قوله تعالى: ﴿**إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً**﴾ [مريم:٨٧] يعني لا إله إلا الله ﴿**فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة:٨٠] ثم أكذبهم، فقال: ﴿**بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [البقرة:٨٢/٨١]. فبين تعالى أن الخلود في النار والجنة إنما هو بحسب الكفر والإيمان، لا بما قالوه. قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا**﴾ يعني اليهود. ﴿**لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً**﴾ اختلف، في سبب نزولها، فقيل: إن النبي ﷺ قال لليهود: "من أهل النار". قالوا: نحن، ثم تخلفونا أنتم. فقال: "كذبتم لقد علمتم أنا لا نخلفكم" فنزلت هذه الآية، قال عكرمة عن ابن عباس: قدم رسول الله ﷺ المدينة واليهود تقول: إنما هذه الدنيا سبعة آلاف، وإنما يعذب الناس في النار لكل ألف سنة من أيام الدنيا يوم واحد في النار من أيام الآخرة، وإنما هي سبعة أيام، فأنزل الله الآية، وهذا قول مجاهد.

وقالت طائفة: قالت اليهود إن في التوراة أن جهنم مسيرة أربعين سنة، وأنهم

يقطعون في كل يوم سنة حتى يكملوها وتذهب جهنم. وعن ابن عباس: زعم اليهود أنهم وجدوا في التوراة مكتوبا أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم. وقالوا: إنما نعذب حتى ننتهي إلى شجرة الزقوم فتذهب جهنم وتهلك. وعن ابن عباس أيضا وقتادة: أن اليهود قالت إن الله أقسم أن يدخلهم النار أربعين يوما عدد عبادتهم العجل، فأكذبهم الله، كما تقدم.

في هذه الآية رد على أبي حنيفة وأصحابه حيث استدلوا بقوله عليه السلام: "دعي الصلاة أيام أقرائك" في أن مدة الحيض ما يسمى أيام الحيض، وأقلها ثلاثة وأكثرها عشرة، قالوا: لأن ما دون الثلاثة يسمى يوما ويومين، وما زاد على العشرة يقال فيه أحد عشر يوما ولا يقال فيه أيام، وإنما يقال أيام من الثلاثة إلى العشرة، قال الله تعالى: ﴿**فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ**﴾ [البقرة:١٩٦]، ﴿**تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ**﴾ [هود:٦٥]، ﴿**سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً**﴾[هود:٧].

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا**﴾.

وفى الجمعة: ﴿**وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا**﴾.

لما كانت دعواهم أن الدار الآخرة لهم خاصة: أكد نفى ذلك ب [لن] لأنها أبلغ في النفى من [لا] لظهورها في الاستغراق. وفى الجمعة: ادعوا ولاية الله، ولا يلزم من الولاية لله اختصاصهم بثواب الله وجنته فأتى ب [لا] النافية للولاية. وكلاهما مؤكد بالتأبيد، لكن في البقرة أبلغ، وأيضا: أن آية البقرة وردت بعد ما تقدم منهم من الكفر والعصيان وقتل الأنبياء: فناسب حرف المبالغة في النفي لتمنيهم الموت لما يعلمون ما لهم بعده من العذاب؛ لأن [لن] أبلغ في النفى عند كثير من أئمة العربية، وآية الجمعة لم يتقدمها ذلك، جاءت ب [لا] الدالة على مطلق النفى من غير مبالغة. فإن قيل: فالتمني يكون باللسان تارة وبالقلب أخرى، فمن أين علم أنهم لم يتمنوه بقلوبهم؟ قيل له: نطق القرآن بذلك بقول ﴿**وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً**﴾ ولو تمنوه بقلوبهم لأظهروه بألسنتهم ردا على النبي ﷺ وإبطالا لحجته، وهذا بين. وقال تعالى: ﴿**خَالِصَةً**﴾ نصب علي خبر كان، وإن شئت كان حالاً، ويكون "عند الله" في موضع الخبر ﴿**أَبَداً**﴾ ظرف زمان يقع على القليل والكثير، كالحين والوقت، وهو هنا من أول العمر إلى الموت. و"ما" في قوله "بما" بمعنى الذي والعائد

محذوف، والتقدير قدمته، وتكون مصدرية ولا تحتاج إلى عائد. و"أيديهم" في موضع رفع، حذفت الضمة من الياء لثقلها مع الكسرة، وإن كانت في موضع نصب حركتها؛ لأن النصب خفيف، ويجوز إسكانها في الشعر.﴿**وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾ ابتداء وخبر.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى**﴾.

وفى آل عمران: ﴿**إِنَّ الهُدَى هُدَى اللَّهِ**﴾.

أن المراد بالهدى في البقرة: تحويل القبلة، لأن الآية نزلت فيه.

والمراد بالهدى في آل عمران: الدين لتقدم قوله تعالى: ﴿**لمن تبع دينكم**﴾، ومعناه: أن دين الله الإسلام.

﴿**قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى**﴾ بمعنى أن هدى الله هو الذي يهدي إلى الإسلام وهو الهدي الحق والذي يصلح أن يسمى هدى وهو الهدى كله ليس وراءه هدى، وما يدعون إلى اتباعه ما هو بهدى إنما هو هوى، ألا ترى إلى قوله: ﴿**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم**﴾ أي أقوالهم التي هي أهواء وبدع، ﴿**بَعْدَ الَّذِي جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**﴾ أي من الدين المعلوم صحته بالدلائل القاطعة. ﴿**مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ**﴾ أي معين يعصمك ويذب عنك، بل الله يعصمك من الناس إذا أقمت على الطاعة والاعتصام بحبله قالوا: الآية تدل على أمور منها أن الذي علم الله منه أنه لا يفعل الشيء يجوز منه أن يتوعده على فعله، فإن في هذه الصورة علم الله أنه لا يتبع أهواءهم ومع ذلك فقد توعده عليه. ونظيره قوله: ﴿**لئن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**﴾ (الزمر:٦٥)، وإنما حسن هذا الوعيد لاحتمال أن الصارف له عن ذلك الفعل هو هذا الوعيد أو هذا الوعيد أحد صوارفه. وثانيها: أن قوله: ﴿**بَعْدَ الَّذِي جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**﴾ يدل على أنه لا يجوز الوعيد إلا بعد نصب الأدلة وإذا صح ذلك فبأن لا يجوز الوعيد إلا بعد القدرة أولى فبطل به قول من يجوز تكليف ما لا يطاق. وثالثها: فيها دلالة على أن اتباع الهوى لا يكون إلا باطلاً، فمن هذا الوجه يدل على بطلان التقليد. ورابعها: فيها دلالة على أنه لا شفيع لمستحق العقاب لأن غير الرسول إذا اتبع هواه لو كان يجد شفيعاً ونصيراً لكان الرسول أحق بذلك وهذا ضعيف؛ لأن اتباع أهوائهم كفر، وعندنا لا شفاعة في الكفر.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**﴾، وقال في – القبلة–: مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ بغير (من) [في الأولى].

أن (الذى) أبلغ من (ما) في باب الموصول فى الاستغراق، فلما تضمنها الآية الأولى اتباع عموم أهوائهم في كل ما كانوا عليه، بدليل: ﴿**وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾، ناسب لفظ (الذى) التي هي أبلغ في بابها من (ما). والآيتان الآخرتان في باب بعض معروف.

أما آية البقرة: ففي اتباعهم في القبلة.

وأما آية الرعد: ففي البعض الذى أنكروه لتقدم قوله: ومن الأحزاب من ينكر بعضه

أي: لئن اتبعت أهواءهم في بعض الذي أنكروه.

ودخلت (من) في آية القبلة: لأنه في أمر مؤقت معين، وهو: الصلاة التي نزلت الآية فيها أي: من بعد نسخ القبلة؛ لأن (من) لابتداء الغاية.

بغير (من) [في الأولى].

أن (الذى) أبلغ من (ما) في باب الموصول فى الاستغراق، فلما تضمنها الآية الأولى اتباع عموم أهوائهم في كل ما كانوا عليه، بدليل: ﴿**وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾.

ناسب لفظ (الذى) التي هي أبلغ في بابها من (ما).

والآيتان الآخرتان في باب بعض معروف.

أما آية البقرة: ففي اتباعهم في القبلة.

وأما آية الرعد: ففي البعض الذى أنكروه لتقدم قوله: ومن الأحزاب من ينكر بعضه

أي: لئن اتبعت أهواءهم في بعض

الذي أنكروه.

ودخلت (من) في آية القبلة: لأنه في أمر مؤقت معين

وهو: الصلاة التي نزلت الآية فيها أي: من بعد نسخ القبلة

لأن (من) لابتداء الغاية.

مسألة:

قوله تعالى: (رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا).

وفى إبراهيم: (هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا).

أن البقرة دعي بها عند ترك إسماعيل وهاجر في الوادي قبل

بناء مكة وسكنى جرهم فيها.

وآية إبراهيم بعد عوده إليها وبناها.

قوله تعالى: ﴿بَلَداً آمِناً﴾ يعني مكة، فدعا لذريته وغيرهم بالأمن ورغد العيش. فروي أنه لما دعا بهذا الدعاء أمر الله تعالى جبريل فاقتلع الطائف من الشام فطاف بها حول البيت أسبوعا، فسميت الطائف لذلك، ثم أنزلها تهامة، وكانت مكة وما يليها حين ذلك قفرا لا ماء ولا نبات، فبارك الله فيما حولها كالطائف وغيرها، وأنبت فيها أنواع الثمرات، على ما يأتي بيانه في سورة "إبراهيم" إن شاء الله تعالى.

اختلف العلماء في مكة هل صارت حرما آمنا بسؤال إبراهيم أو كانت قبله كذلك على قولين: أحدهما: أنها لم تزل حرما من الجبابرة المسلطين، ومن الخسوف والزلازل، وسائر المثلات التي تحل بالبلاد، وجعل في النفوس المتمردة من تعظيمها والهيبة لها ما صار به أهلها متميزين بالأمن من غيرهم من أهل القرى. ولقد جعل فيها سبحانه من العلامة العظيمة على توحيده ما شوهد من أمر الصيد فيها، فيجتمع فيها الكلب والصيد فلا يهيج الكلب الصيد ولا ينفر منه، حتى إذا خرجا من الحرم عدا الكلب عليه وعاد إلى النفور والهرب. وإنما سأل إبراهيم ربه أن يجعلها آمنا من القحط والجدب والغارات، وأن يرزق أهله من الثمرات، لا على ما ظنه بعض الناس أنه المنع من سفك الدم في حق من لزمه القتل، فإن ذلك يبعد كونه مقصودا لإبراهيم ﷺ حتى يقال: طلب من الله أن يكون في شرعه تحريم قتل من التجأ إلى الحرم، هذا بعيد جدا.

الثاني: أن مكة كانت حلالا قبل دعوة إبراهيم عليه السلام كسائر البلاد، وأن بدعوته صارت حرما آمنا كما صارت المدينة بتحريم رسول الله ﷺ أمنا بعد أن كانت حلالا.

احتج أهل المقالة الأولى بحديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: "إن هذا البلد حرمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاها"، فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم، فقال: "إلا الإذخر". ونحوه حديث أبي شريح، أخرجهما مسلم وغيره. وفي صحيح مسلم أيضا عن عبدالله بن زيد بن عاصم أن رسول الله ﷺ قال: "إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة وإني دعوت في صاعها ومدها بمثلي ما دعا به إبراهيم لأهل مكة". قال ابن عطية: "ولا تعارض بين الحديثين؛ لأن الأول إخبار بسابق علم الله فيها وقضائه، وكون الحرمة مدة آدم وأوقات عمارة القطر بإيمان. والثاني إخبار بتجديد إبراهيم لحرمتها وإظهاره ذلك بعد الدثور، وكان القول الأول من النبي ﷺ ثاني يوم الفتح إخبارا بتعظيم حرمة مكة على المؤمنين بإسناد التحريم إلى الله تعالى، وذكر إبراهيم عند تحريم المدينة مثالا لنفسه، ولا محالة أن تحريم المدينة هو أيضا من قبل الله تعالى ومن نافذ قضائه وسابق علمه". وقال الطبري: كانت مكة حراما فلم يتعبد الله الخلق بذلك حتى سأله إبراهيم فحرمها.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ**﴾.

وقال في آل عمران والتوبة (من أنفسهم) و(من أنفسكم).

جوابه: أن آية البقرة في سياق دعاء إبراهيم.

وفى آل عمران والتوبة في سياق المنة عليهم، والرحمة والإشفاق منه عليهم، فناسب ذكر ومن أنفسهم لمزيد الحنو والمنة، وكذا بالمؤمنين رءوف رحيم.

وإذ قد كان هذا هو المقصود فمحمل الكلام أنّ هذا الدّين دين إبراهيم، أي أنّ الإسلام احتوى على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام. ومعلوم أن للإسلام أحكاماً كثيرة ولكنه اشتمل على ما لم يشتمل عليه غيره من الشرائع الأخرى من دين إبراهيم، جعل كأنه عين ملّة إبراهيم، فعلى هذا الاعتبار يكون انتصاب) ملة أبيكم إبراهيم (على الحال من) الدّين باعتبار أن الإسلام حوى ملّة إبراهيم.

ثم إن كان الخطاب موجّهاً إلى الذين صحبوا النبي ﷺ، فإضافة أبوة إبراهيم إليهم باعتبار غالب الأمة؛ لأنّ غالب الأمة يومئذ من العرب المُضَرية وأمّا الأنصار فإن نسبهم لا ينتمي إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأنّهم من العرب القحطانيين؛ على أن أكثرهم كانت لإبراهيم عليهم ولادة من قِبل الأمهات.

قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ**﴾ يعني محمدا ﷺ. وفي قراءة أبي "وابعث في آخرهم رسولا منهم". وقد روى خالد بن معدان: أن نفرا من أصحاب النبي ﷺ قالوا له: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك، قال: "نعم أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى". و"رسولا" أي مرسلا، وهو فعول من الرسالة. قال ابن الأنباري: يشبه أن يكون أصله من قولهم: ناقة مرسال ورسلة، إذا كانت سهلة السير ماضية أمام النوق. ويقال للجماعة المهملة المرسلة: رسل، وجمعه أرسال. يقال: جاء القوم أرسالا، أي بعضهم في أثر بعض، ومنه يقال للبن رسل؛ لأنه يرسل من الضرع.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ**﴾.

كررها مع قرب العهد بالأولى فما فائدة ذلك؟

أن الأولى: وردت تقريرا لإثبات ما نفوه من دين الإسلام الذي وصى به إبراهيم ويعقوب، ومعناه أن أولئك أدوا ما عليهم من التبليغ والوصية فلهم أجر ذلك، ولكم من الوزر والإثم بما خالفتموهم ما يعود عليكم وباله.

وأما الثانية: فوردت نفيا لما ادعوه من أن إبراهيم ومن ذكر

بعده كانوا هودا أو نصارى.

ومعناه: أن أولئك فازوا بما تدينوا به من دين الإسلام،

وعليكم إثم مخالفتهم، وما اقترفتم عليهم من التهود والتنصر الذي هم براء منه.

قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ**﴾ "تلك" مبتدأ، و"أمة" خبر، "قد خلت" نعت لأمة، وإن شئت كانت خبر المبتدأ، وتكون "أمة" بدلا من "تلك". ﴿**لَهَا مَا كَسَبَتْ**﴾ "ما" في موضع رفع بالابتداء أو بالصفة على قول الكوفيين. "ولكم ما كسبتم" مثله، يريد من خير وشر. وفي هذا دليل على أن العبد يضاف إليه أعمال وإكساب، وإن كان الله تعالى أقدره على ذلك، إن كان خيرا فبفضله وإن كان شرا فبعدله، وهذا مذهب أهل السنة، والآي في القرآن بهذا المعنى كثيرة. فالعبد مكتسب لأفعاله، على معنى أنه خلقت له قدرة مقارنة للفعل، يدرك بها الفرق بين حركة الاختيار وحركة الرعشة مثلا، وذلك التمكن هو مناط التكليف.

وقالت الجبرية بنفي اكتساب العبد، وإنه كالنبات الذي تصرفه الرياح. وقالت القدرية والمعتزلة خلاف هذين القولين، وإن العبد يخلق أفعاله. قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ**﴾ فهو إشارة إلى من ذكرهم الله تعالى في الآية المتقدمة، وهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وبنوه الموحدون. و(الأمة) الصنف. (خلت) سلفت ومضت وانقرضت، والمعنى أني اقتصصت عليكم أخبارهم وما كانوا عليه من الإسلام والدعوة إلى الإسلام فليس لكم نفع في سيرتهم دون أن تفعلوا ما فعلوه، فإن أنتم فعلتم ذلك انتفعتم وإن أبيتم لم تنتفعوا بأفعالهم، والآية دالة على مسائل:

الأولى: الآية دالة على بطلان التقليد؛ لأن قوله: ﴿**لَهَا مَا كَسَبَتْ**﴾ يدل على أن كسب كل أحد يختص به ولا ينتفع به غيره، ولو كان التقليد جائزاً لكان كسب المتبوع نافعاً للتابع، فكأنه قال: إني ما ذكرت حكاية أحوالهم طلباً منكم أن تقلدوهم، ولكن لتنبهوا على ما يلزمكم فتستدلوا وتعلموا أن ما كانوا عليه من الملة هو الحق.

الثانية: الآية دالة على ترغيبهم في الإيمان، واتباع محمد عليه الصلاة والسلام، وتحذيرهم من مخالفته.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا**﴾.

وفى آل عمران: ﴿**قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا**﴾.

لما صدر آية البقرة بقوله: **(قُولُوا)** وهو خطاب المسلمين ردا على قول أهل الكتاب: ﴿**كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى**﴾ قال: (إلينا). ولما صدر آية آل عمران بقوله: قل قال: (علينا). والفرق بينهما: أن (إلى) ينتهي بها من كل جهة، و(على) لا ينتهى بها إلا من جهة واحدة وهي: العلو. والقرآن يأتي المسلمين من كل جهة يأتي مبلغه إياهم منها، وإنما أتى النبى ﷺ ـ من جهة العلو خاصة، فحسن وناسب قوله: (علينا لقوله: قل مع فضل تنويع الخطاب. وكذلك أكثرها جاء في جهة النبى ﷺ ـ ب (على)، وأكثر ما جاء ق جهة الأمة ب (إلى). قوله تعالى: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ**﴾ خرج البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل" الآية.

وقال محمد بن سيرين: إذا قيل لك أنت مؤمن؟ فقل: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ**﴾ الآية. وكره أكثر السلف أن يقول الرجل: أنا مؤمن حقا. وسئل بعض المتقدمين عن رجل قيل له: أتؤمن بفلان النبي، فسماه باسم لم يعرفه، فلو قال نعم، فلعله لم يكن نبيا، فقد شهد بالنبوة لغير نبي، ولو قال لا، فلعله نبي، فقد جحد نبيا من الأنبياء، فكيف يصنع؟ فقال: ينبغي أن يقول: إن كان نبيا فقد آمنت به. والخطاب في هذه الآية لهذه الأمة، علمهم الإيمان. قال ابن عباس: جاء نفر من اليهود إلى النبي ﷺ: ﴿**فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾. قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا**﴾ الخطاب لمحمد ﷺ وأمته. المعنى: فإن آمنوا مثل إيمانكم، وصدقوا مثل تصديقكم فقد اهتدوا، فالمماثلة وقعت بين الإيمانين، وقيل: إن الباء زائدة مؤكدة. وكان ابن عباس يقرأ فيما حكى الطبري: "فإن آمنوا بالذي آمنتم به فقد اهتدوا" وهذا هو معنى القراءة وإن خالف المصحف، "فمثل" زائدة كما هي في قوله: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى:١١] أي ليس كهو شيء.

مسألة:

قوله تعالى. ﴿**وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ**﴾.

وفى آل عمران: ﴿**النَّبِيُّونَ**﴾.

أن آل عمران تقدم فيها: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ**﴾، فأغنى عن إعادة إيتائهم ثانيا، ولم يتقدم مثل ذلك فى البقرة، فصرح فيه بإيتائهم ذلك. قوله تعالى: ﴿**النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ**﴾، أمر الله النبي ﷺ والمسلمين في هذه الآية أن يؤمنوا بما أوتيه جميع النبيين وأن لا يفرقوا بين أحد منهم، حيث قال: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا**﴾ إلى قوله: ﴿**وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ**﴾، ولم يذكر هنا هل فعلوا ذلك أو لا؟ ولم يذكر جزاءهم إذا فعلوه ولكنه بين كل ذلك في غير هذا الموضع. فصرح بأنهم امتثلوا الأمر بقوله: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ**﴾، وذكر جزاءهم على ذلك بقوله: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً**﴾.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾، كرر ذلك مرات. فما فائدته؟

أن الأول: إعلام بنسخ استقبال بيت المقدس له ولأمته. والثانية: لبيان المسبب وهو: اتباع الحق، لقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ**﴾.

والثالثة: إعلام بالعلة، وهو: ﴿**لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ**﴾.

وبعموم الحكم في سائر الناس والأقطار والجهات، وسائر الأزمنة لاحتمال تخيل أن ذلك مخصوص بجهة المدينة، وما ولاها وهي جهة الجنوب، أو أنه خاص بمن

يشاهد الكعبة، أو قصد بتكراره مزيد التوكيد في استقبال الكعبة والتمسك به، لأن النسخ في مظان تطرق الشبهة وأبعد على ضعفاء النظر كما قالوا: مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، فلذلك بالغ في التأكيد بتكرار الأمر.

قوله تعالى: ﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾[البقرة:١٤٤] أي تلقاءه، حكاه أبو عيسى الترمذي. روي عن مجاهد والضحاك أنها محكمة، المعنى: أينما

كنتم من شرق وغرب فثم وجه الله الذي أمرنا باستقباله وهو الكعبة. وعن مجاهد أيضا وابن جبير لما نزلت ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ قالوا: إلى أين؟ فنزلت: ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾، وعن ابن عمر والنخعي: أينما تولوا في أسفاركم ومنصرفاتكم فثم وجه الله. وقيل: هي متصلة بقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ**﴾ [البقرة:١١٤] الآية، فالمعنى أن بلاد لله أيها المؤمنون تسعكم، فلا يمنعكم تخريب من خرب مساجد الله أن تولوا وجوهكم نحو قبلة الله أينما كنتم من أرضه. وقيل: نزلت حين صد النبي ﷺ عن البيت عام الحديبية فاغتم المسلمون لذلك.

قوله تعالى: ﴿**فَوَلِّ**﴾ أمر ﴿**وَجْهَكَ شَطْرَ**﴾ أي ناحية ﴿**الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ يعني الكعبة، ولا خلاف في هذا. قيل: حيال البيت كله، عن ابن عباس. وقال ابن عمر: حيال الميزاب من الكعبة، قال ابن عطية. والميزاب: هو قبلة المدينة وأهل الشام، وهناك قبلة أهل الأندلس. قد روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "البيت قبلة لأهل المسجد والمسجد قبلة لأهل الحرم والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي".

قوله تعالى: ﴿**شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ الشطر له محامل: يكون الناحية والجهة، كما في هذه الآية، وهو ظرف مكان، كما تقول: تلقاءه وجهته. وانتصب الظرف لأنه فضلة بمنزلة المفعول [به]، وأيضا فإن الفعل واقع فيه. وقال داود بن أبي هند: إن في حرف ابن مسعود: "فول وجهك تلقاء المسجد الحرام".

وشطر الشيء: نصفه، ومنه الحديث: "الطهور شطر الإيمان". ويكون من الأضداد، يقال: شطر إلى كذا إذا أقبل نحوه، وشطر عن كذا إذا أبعد منه وأعرض عنه. فأما الشاطر من الرجال فلأنه قد أخذ في نحو غير الاستواء، وهو الذي أعيا أهله خبثا، وقد شطر وشطر "بالضم" شطارة فيهما وسئل بعضهم عن الشاطر، فقال: هو من أخذ في البعد عما نهى الله عنه.

لا خلاف بين العلماء أن الكعبة قبلة في كل أفق، وأجمعوا على أن من شاهدها وعاينها فرض عليه استقبالها، وأنه إن ترك استقبالها وهو معاين لها وعالم بجهتها فلا صلاة له، وعليه إعادة كل ما صلى ذكره أبو عمر. وأجمعوا على أن كل من غاب عنها أن يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاءها، فإن خفيت عليه فعليه أن

يستدل على ذلك بكل ما يكنه من النجوم والرياح والجبال وغير ذلك مما يمكن أن يستدل به على ناحيتها.

ومن جلس في المسجد الحرام فليكن وجهه إلى الكعبة وينظر إليها إيمانا واحتسابا، فإنه يروى أن النظر إلى الكعبة عبادة، قاله عطاء ومجاهد. واختلفوا هل فرض الغائب استقبال العين أو الجهة، فمنهم من قال بالأول. قال ابن العربي: وهو ضعيف؛ لأنه تكليف لما لا يصل إليه. ومنهم من قال بالجهة، وهو الصحيح لثلاثة أوجه: **الأول:** أنه الممكن الذي يرتبط به التكليف. **الثاني:** أنه المأمور به في القرآن، لقوله تعالى: ﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ**﴾ يعني من الأرض من شرق أو غرب ﴿**فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾. **الثالث:** أن العلماء احتجوا بالصف الطويل الذي يعلم قطعا أنه أضعاف عرض البيت. الخامسة: في هذه الآية حجة واضحة لما ذهب إليه مالك ومن وافقه في أن المصلي حكمه أن ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده. وقال الثوري وأبو حنيفة والشافعي والحسن بن حي: يستحب أن يكون نظره إلى موضع سجوده. وقال شريك القاضي: ينظر في القيام إلى موضع السجود، وفي الركوع إلى موضع قدميه، وفي السجود إلى موضع أنفه، وفي القعود إلى حجره. قال ابن العربي: إنما ينظر أمامه إن حنى رأسه ذهب بعض القيام المفترض عليه في الرأس وهو أشرف الأعضاء، وإن أقام رأسه وتكلف النظر ببصره إلى الأرض فتلك مشقة عظيمة وحرج. وما جعل علينا في الدين من حرج، أما إن ذلك أفضل لمن قدر عليه.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾. وقال: ﴿**أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾. وقال في المائدة: ﴿**مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾، وقال: ﴿**لَا يَعْلَمُونَ**﴾.

جوابه: ما (ألفينا) و (وجدنا)، فمعناهما واحد واختلاف لفظهما للتفنن فى الفصاحة والإعجاز. وأما: (يعقلون) هنا، فلأن سياقه فى اتخاذهم الأصنام والأنداد وعبادتها من دون الله ومحبتها والعقل الصحيح يأبى ذلك عند نظره.

وأما: (يعلمون) فجاء في سياق التحريم والتحليل بعد ما افتتح الكلام بقوله تعالى: (لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم، وفى اتخاذ البحيرة والسائبة والوصيلة

والحامى).

والتحليل والتحريم من باب العلم والنقل.

وأيضا: فلما ختم الآية قبله في المائدة بقوله تعالى: (وأكثرهم لا يعقلون) ختم هذه الآية ب (يعلمون)، وكان الجمع بين نفى العقل والعلم عنهم أبلغ.

قال الله تعالى: ﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام**﴾. والمراد بالوجه هو الذات كلها وكلمة شطر معناها الجهة، والشطر معناه النصف، وكلا المعنيين صحيح لأنه حين يوجد الإنسان في مكان يصبح مركزاً لدائرة ينتهي بشيء اسمه الأفق وهو مدى البصر، وما يخيل إليك عنده أن السماء انطبقت على الأرض. إن كل إنسان منا له دائرة على حسب نظره فإذا ارتفع الإنسان تتسع الدائرة، وإذا كان بصره ضعيفا يكون أفقه أقل، ويكون هو في وسط دائرة نصفها أمامه ونصفها خلفه.

إذن الذي يقول الشطر هو النصف صحيح والذي يقول أن الشطر هو الجهة صحيح. وقوله تعالى: ﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام**﴾، أي اجعل وجهك جهة المسجد الحرام أو اجعل المسجد الحرام في نصف الدائرة التي أمامك، وفي الزمن الماضي كانت العبادات تتم في أماكن خاصة إلى أن جاء رسول الله ﷺ فجعل الله له الأرض كلها مسجدا. إن المسجد هو مكان السجود ونظراً لأن السجود هو منتهى الخضوع لله فسمي المكان الذي نصلي فيه مسجدا.

مسألة:

قوله تعالي: ﴿**وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ**﴾.

وفى المائدة والأنعام والنحل: (لغير الله به)؟

أن آية البقرة وردت في سياق المأكول وحله وحرمته، فكان تقديم ضميره، وتعلق الفعل به أهم. وآية المائدة وردت بعد تعظيم شعائر الله وأوامره، والأمر بتقواه، وكذلك آية النحل بعد قوله: تعالى (واشكروا نعمة الله) فكان تقديم اسمه أهم. وأيضا: فآية النحل والأنعام نزلتا بمكة فكان تقديم ذكر الله بترك ذكر الأصنام على ذبائحهم أهم لما يجب من توحيده، وإفراده بالتسمية على الذبائح. وآية البقرة نزلت بالمدينة على المؤمنين لبيان ما يحل وما يحرم، فقدم الأهم فيه والله أعلم.

في "البقرة": ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ**

اللَّهِ﴾، وقال في "المائدة": ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ**﴾. وجمهور العلماء يقولون بحمل المطلق على المقيد في هذه الحالة التي هي اتّحاد السبب والحكم معًا، ولذلك كانوا لا يرون بالحمرة التي تعلو القدر من أثر تقطيع اللحم بأسًا؛ لأنه دم غير مسفوح، قالوا: وحمله عليه أسلوب من أساليب اللغة العربية، لأنهم يثبتون ثم يحذفون اتّكالاً على المثبت. قوله تعالى: ﴿**وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ**﴾ أي ذكر عليه غير اسم اللّه تعالى، وهي ذبيحة المجوسي والوثني والمعطل. فالوثني يذبح للوثن، والمجوسي للنار، والمعطل لا يعتقد شيئا فيذبح لنفسه. ولا خلاف بين العلماء أن ما ذبحه المجوسي لناره والوثني لوثنه لا يؤكل، ولا تؤكل ذبيحتهما عند مالك والشافعي وغيرهما وإن لم يذبحا لناره ووثنه، وأجازهما ابن المسيب وأبو ثور إذا ذبح لمسلم بأمره.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾، وكذلك في المائدة والنحل.

وفى الأنعام: ﴿**فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾.

لما صدر آية الأنعام بقوله تعالى: ﴿**قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ**﴾ ناسب قوله:، قل، وإلى،: (فإن ربك).

وبقية الآيات المذكورات خطاب من الله تعالى للناس، فناسب: (فإن الله غفور رحيم، أي: فإن الله المرخص لكم في ذلك.

فإن قيل: فلم لم يقل: فإن ربكم؟ قلنا: لأن إيراده في خطاب النبى ﷺ لا يوهم غيره، لاسيما والخطاب عام. والحق سبحانه قال: ﴿**فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيم**﴾، وهذا القول يلفتنا إلى أن الإنسان إذا ما عزم على اتخاذ أمر في مسألة الوصية فعليه أن يستشير من حوله، وأن يستقبل كل مشورة من أهل العلم والحكمة، وذلك حتى لا تنشأ الضغائن بعد أن يبرم أمر الوصية إبراماً نهائياً. أي: بعد وفاته، والحق قد وضع الاحتياطات اللازمة لإصلاح أمر الوصية إن جاء بها ما يورث المشاكل؛ لأن الحق يريد أن يتكاتف المؤمنون في وحدة إيمانية، لذلك فلابد من معالجة الانحراف بالوقاية منه وقبل أن يقع. ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «مثل القائم على حدود الله

والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا: لو أننا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوْا ونجوْا جميعاً».

والحديث الشريف يضرب المثل على ضرورة التآزر والتواصي بين المؤمنين حماية لهم. فهؤلاء قوم اقتسموا سفينة بالقرعة، والاستهام هو قرعة لا هوى لها، وسكن بعضهم أسفل السفينة حسب ما جاء من نتيجة الاستهام، وسكن بعضهم أعلى السفينة. لكن الذين سكنوا أسفل السفينة أرادوا بعضاً من الماء، واقترح بعضهم أن يخرقوا السفينة للحصول على الماء، وبرروا ذلك بأن مثل هذا الأمر لن يؤذي من يسكنون في النصف الأعلى من السفينة، ولو أنهم فعلوا ذلك، ولم يمنعهم الذين يسكنون في النصف الأعلى من السفينة لغرقوا جميعاً، لكن لو تدخل الذين يسكنون في النصف الأعلى من السفينة لمنعوا الغرق، وكذلك حدود الله، فعلى المؤمنين أن يتكاتفوا بالتواصي في تطبيقها، فلا يقولن أحد: «إن ما يحدث من الآخرين لا شأن لي به»؛ لأن أمر المسلمين يهم كل مسلم، ولذلك جاءت آية قال فيها سيدنا أبو بكر رضي الله عنه: «هناك آية تقرؤونها على غير وجهها»، أي: تفهمونها على غير معناها.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ**﴾ الآية. وفى آل عمران فإن منذ – ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ**﴾ الآية.

فوعد في البقر بأكل النار. وفى آل عمران بأنه لا خلاق لهم أي: لاحظ ولا نصيب؟

أن الذنب في البقرة أكبر فكان الوعيد أشد لأن في كتمانهم إضلال غيرهم مع كفرهم في أنفسهم. وآية آل عمران: لا يتضمن ظاهر لفظها ذلك لظهور اللفظ في معنى تأثير ليس كعدمه. قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ**﴾، يعني علماء اليهود، كتموا ما أنزل اللّه في التوراة من صفة محمد ﷺ وصحة رسالته. ومعنى "أنزل": أظهر، كما قال تعالى: ﴿**وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ**﴾ [الأنعام:٩٣]، أي سأظهر. وقيل: هو على بابه من النزول، أي ما

أنزل به ملائكته على رسله. ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ﴾ أي بالمكتوم ﴿ثَمَناً قَلِيلاً﴾ يعني أخذ الرشاء. وسماه قليلا لانقطاع مدته وسوء عاقبته. وقيل: لأن ما كانوا يأخذونه من الرشاء كان قليلا. قلت: وهذه الآية وإن كانت في الأخبار فإنها تتناول من المسلمين من كتم الحق مختارا لذلك بسبب دنيا يصيبها.

مسألة: قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾.

وقال فيها بعد ذلك: ﴿فلا تعتدوها﴾.

أن الحدود في الأولى: هي عبارة عن نفس المحرمات في الصيام والاعتراف من الأكل والشرب والوطء – والمباشرة فناسب: (فلا تقربوها. والحدود في الثانية: أوامر في أحكام الحل والحرمة في نكاح المشركات، وأحكام الطلاق والعدة والإيلاء والرجعة وحصر الطلاق في الثلاث والخلع، فناسب: (فلا تعتدوها أي: لاتتعدوا أحكام الله تعالى إلى غيرها مما لم يشرعه لكم فقفوا عندها، ولذلك قال بعدها: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾.

وقال تعالى في الأنفال: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾؟ أن آية البقرة نزلت في أول سنة من الهجرة في سرية عبد الله بن جحش لعمرو بن الحضرمي وصناديد مكة أحياء، ولم يكن للمسلمين رجاء في إسلامهم تلك الحال.

وأية الأنفال: نزلت بعد وقعة بدر، وقتل صناديدهم، فكان المسلمون بعد ذلك أرجى لإسلام أهل مكة عامة وغيرهم، فأكد سبحانه وتعالى رجاءهم ذلك بقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ أي: لا يعبد سواه.

قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٣]. وفي "الأنفال": ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩]، فقوله: ﴿حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، أي: حتى لا يبقى شرك على أصح التفسيرين، ويدل على صحته قوله بعده: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾؛ لأن الدين لا يكون كله لله حتى لا يبقى شرك، كما ترى. ويوضح ذلك قوله ﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلاه إلا الله"، كما لا يخفى.

إطلاق الفتنة على الحجة في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**﴾ [الأنعام:٢٣]، أي: لم تكن حجتهم، كما قال به بعض أهل العلم.

والأظهر عندي: أن الفتنة في قوله هنا: ﴿**أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ**﴾، أنه من النوع الثالث من الأنواع المذكورة. وأن معناه أن يفتنهم الله، أي: يزيدهم ضلالا بسبب مخالفتهم عن أمره، وأمر رسوله ﷺ.

وهذا المعنى تدل عليه آيات كثيرة من كتاب الله تعالى؛ كقوله جل وعلا: ﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [المطففين:١٤]، وقوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**﴾ [الصف: ٥]، وقوله تعالى: ﴿**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً**﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ**﴾ [التوبة: ١٢٥]، والآيات بمثل ذلك كثيرة، والعلم عند الله تعالى.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ**﴾ الآية. ومثله في الأنعام، ومعناه: ينتظرون. وإنما ينتظر الإنسان ما يعلم، أو يظن وقوعه ولم يكونوا كذلك لأنهم لم يصدقوا بذلك؟

لما كان واقعا لا محالة كانوا في الحقيقة كالمنتظرين له في المعنى، ولذلك جاء تهديدا لهم.

قوله: ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ**﴾.

﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ**﴾ يعني التاركين الدخول في السلم، و﴿**هَلْ**﴾ يراد به هنا الجحد، أي ما ينتظرون: ﴿**إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ**﴾. نظرته وانتظرته بمعنى. والنظر الانتظار. وقرأ قتادة وأبو جعفر يزيد بن القعقاع والضحاك ﴿**فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ**﴾. وقرأ أبو جعفر "والملائكةِ" بالخفض عطفا على الغمام، وتقديره مع الملائكة، تقول العرب: أقبل الأمير في العسكر، أي مع العسكر. ﴿**ظُلَلٍ**﴾ جمع ظلة في التكسير، كظلمة وظلم وفي التسليم ظللات.

قال الأخفش سعيد: و(الملائكة) بالخفض بمعنى وفي الملائكة. قال: والرفع أجود، كما قال: ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ**﴾[الأنعام:١٥٨]، ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً**﴾[الفجر:٢٢]. قال الفراء: وفي قراءة عبدالله: ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ والملائكة فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ**﴾. قال قتادة: الملائكة يعني تأتيهم لقبض أرواحهم، ويقال يوم القيامة، وهو أظهر. قال أبو العالية والربيع: تأتيهم الملائكة في ظلل من الغمام ويأتيهم الله فيما شاء. وقال الزجاج: التقدير في ظلل من الغمام ومن الملائكة. وقيل: ليس الكلام على ظاهره في حقه سبحانه، وإنما المعنى يأتيهم أمر الله وحكمه. وقيل: أي بما وعدهم من الحساب والعذاب في ظلل، مثل: ﴿**فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا**﴾[الحشر:٢]، أي بخذلانه إياهم، هذا قول الزجاج، والأول قول الأخفش سعيد. وقد يحتمل أن يكون معنى الإتيان راجعا إلى الجزاء، فسمي الجزاء إتيانا كما سمى التخويف والتعذيب في قصة نمروذ إتيانا فقال: ﴿**فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ**﴾ [النحل: ٢٦]. وقال في قصة النضير: ﴿**أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب**﴾، وقال: ﴿**وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا**﴾ [الأنبياء:٤٧]. وإنما احتمل الإتيان هذه المعاني لأن أصل الإتيان عند أهل اللغة هو القصد إلى الشيء، فمعنى الآية: هل ينظرون إلا أن يظهر الله تعالى فعلا من الأفعال مع خلق من خلقه يقصد إلى مجازاتهم ويقضي في أمرهم ما هو قاض، وكما أنه سبحانه أحدث فعلا سماه نزولا واستواء كذلك يحدث فعلا يسميه إتيانا، وأفعاله بلا آلة ولا علة، سبحانه! وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: هذا من المكتوم الذي لا يفسر. وقد سكت بعضهم عن تأويلها، وتأولها بعضهم كما ذكرنا. وقيل: الفاء بمعنى الباء، أي يأتيهم بظلل، ومنه الحديث: "يأتيهم الله في صورة"، أي بصورة امتحانا لهم ولا يجوز أن يحمل هذا وما أشبهه مما جاء في القرآن والخبر على وجه الانتقال والحركة والزوال؛ لأن ذلك من صفات الأجرام والأجسام، تعالى الله الكبير المتعال، ذو الجلال والإكرام عن مماثلة الأجسام علوا كبيرا.

والغمام: السحاب الرقيق الأبيض، سمي بذلك لأنه يغم، أي يستر. وقرأ معاذ بن جبل: "وقضاء الأمر". وقرأ يحيى بن يعمر "وقضي الأمور" بالجمع. والجمهور "وقضي الأمر"، فالمعنى وقع الجزاء وعذب أهل العصيان. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي "ترجع الأمور" على بناء الفعل للفاعل، وهو الأصل، دليله

﴿أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾[الشورى:٥٣]، ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾[المائدة:٤٨/١٠٥]. وقرأ الباقون "ترجع" على بنائه للمفعول، وهي أيضا قراءة حسنة، دليله ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾[التوبة:٩٤]،﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾[الأنعام:٦٢]، ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي﴾[الكهف:٣٦]. والقراءتان حسنتان بمعنى، والأصل الأولى، وبناؤه للمفعول توسع وفرع، والأمور كلها راجعة إلى الله قبل وبعد. وإنما نبه بذكر ذلك في يوم القيامة على زوال ما كان منها إلى الملوك في الدنيا.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. وفى سورة الطلاق: ﴿ذَلِكَم يُوعَظُ بِهِ﴾. حيث قال (ذلك) فالخطاب للنبى ﷺ وقدم تشريفا له، ثم عمم فقال: ذلكم أزكى لكم وأطهر. وفى الطلاق: فالخطاب له ولأمته جميعا، وقدم تشريفه بالنداء لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ – الآية. قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ﴾ ولم يقل "ذلكم"؛ لأنه محمول على معنى الجمع. ولو كان "ذلكم" لجاز، مثل ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أي ما لكم فيه من الصلاح. ﴿وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ [وَلَمَّا يَأْتِكُمْ] ﴾ الآية.

وفى آل عمران: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ الآية.

وفى التوبة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ الآية.

أن آية البقرة في الصبر على ما كان النبى ﷺ وأصحابه عليه من أذى الكفار وتسلية لهم عنه، وكذلك قال: (في الذين خلوا مستهم البأساء والضراء) ليكون الصحابة مثلهم في الصبر وانتظار الفرج.

وآية آل عمران: وردت فى حق المجاهدين وما حصل لهم يوم أحد من القتل والجراحات والهزيمة، فوردت الآية تصبيرا لهم على ما نالهم ذلك اليوم مما ذكرناه والآية الثالثة في التوبة: وردت في الذين كانوا يجاهدون مع النبى ﷺ، ويباطنون أقاربهم وأولياءهم من الكفار المعاندين لرسول الله ﷺ.

ولذلك قال: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾،

وقال بعده ﴿**لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ**﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾ [آل عمران:١٤٣] وقوله تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ**﴾ [محمد:٣١] إلى غير ذلك من الآيات وكقوله تعالى في حكمة الابتلاء المذكور، وتسهيل الشهادة في سبيله: ﴿**إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ**﴾ [آل عمران:١٤٠-١٤١].

ومعنى الآية: أي أظننتم أنكم تدخلون الجنة بدون ابتلاءات تحدث لكم؟ إن الحق سبحانه ينفي هذا الظن ويقول: ليس الأمر كذلك، بل لابد من تحمل تبعات الإيمان، فلو كان الإيمان بالقول لكان الأمر سهلا، لكن الذي يُصَعِبُ الإيمان هو العمل، أي حمل النفس على منهج الإيمان. لقد استكبر بعض من الذين عاصروا محمداً ﷺ أن يقولوا: «لا إله إلا الله» لأنهم فهموا مطلوبها؛ لأن الأمر لو اقتصر على مجرد كلمة تقال بلا رصيد من عمل يؤديها، لكان أسهل عليهم أن يقولوها، لكنهم كانوا لا يقولون إلا الكلمة بحقها، ولذلك أيقنوا تماما أنهم لو قالوا: «لا إله إلا الله» لانتهت كل معتقداتهم السابقة، لكنهم لم يقولوها؛ لأنهم أبوا وامتنعوا عن القيام بحقها وأداء مطلوبها.

إن الحق يقول: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ البأسآء والضرآء**﴾. فما العلاقة بين هذه الآية وما سبق من الآيات؟ لقد كان الحديث عن بني إسرائيل الذين حسبوا أنهم يدخلون الجنة بدون أن يبتلوا، وصارت لهم أهواء يحرفون بها المنهج. أما أمة رسول الله ﷺ فعليهم أن يستعدوا للابتلاء، وأن يعرفوا كيف يتحملون الصعاب.

يقول الحق: ﴿**قَالَتِ الأعراب آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِي قُلُوبِكُمْ**﴾[الحجرات:١٤]، وعندما سمع الأعراب ذلك قالوا: نحمد الله، فمازال هناك أمل أن نؤمن. لقد أراد الله أن يكون الأعراب صادقين مع أنفسهم، وقد نزلت هذه الآية كما يقول بعض المفسرين في قوم من بني أسد، جاءوا إلى المدينة في سنة جدب، وأعلنوا الشهادة لرسول الله ﷺ وقالوا: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وكانوا يطلبون الصدقة، ويحاولون أن يمنوا على الرسول ﷺ

بأنهم لم يقاتلوه كما فعل غيرهم، فجاءت هذه الآية لتوضح أن الإيمان درجة أرقى من إظهار الإسلام. لكن ذلك لا يعني أنهم منافقون، ولذلك يوضح القرآن الكريم أن إظهار الإسلام لا يعني الإيمان؛ لأن الإيمان عملية قلبية.

لقد أعلنوا الخضوع لله، وأرادوا أن يقوموا بأعمال المسلمين نفسها لكن ليس هذا هو كل الإيمان. وهم قالوا: ﴿**آمَنَّا**﴾، فقال الحق لهم: لا لم تؤمنوا وكونوا صادقين مع أنفسكم فالإيمان عملية قلبية، ولا يقال إنك آمنت؛ لأنها مسألة في قلبك، ولكن قل أسلمت، أي خضعت وفعلت مثلما يفعل المؤمنون، فهل فعلت ذلك عن إيمان أو غير إيمان.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ**﴾.

أن المراد بالآية الأولى ما شرعه الله تعالى من الأحكام، ولذلك عرفه بالألف واللام وبالإلصاق.

وفيما فعلن: أي من التعرض للخطاب بالمعروف.

والمراد بالثانية: أفعالهن بأنفسهن من مباح مما يتخيرنه من تزين للخطاب، وتزويج أو قعود وسفر أو غير ذلك مما لهن فعله، ولذلك نكره، وجاء فيه بـ "من".

إذن فالحق سبحانه وتعالى فَصَلَ بآية: ﴿**حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ**﴾ بين قضية واحدة هي قضية الفراق بين الزوجين وقسمها قسمين، وأدخل بينهما الحديث عن الصلاة، وذلك لينبهنا إلى وحدة التكاليف الإيمانية، ونظرا لأن الحق يتكلم هنا عن أشياء كل مظاهرها إما شقاق اختياري بالطلاق، وإما افتراق قدري بالوفاة، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يدخل الإنسان في العملية التعبدية التي تصله بالله الذي شرع الطلاق والصلاة وقدر الوفاة.

ولماذا اختار الله الصلاة دون سائر العبادات لتقطع سياق الكلام عن تشريع الطلاق والفراق؟ لأن الصلاة هي التي تهب المؤمنين الاطمئنان، إن كانت أمور الزواج والطلاق حزبتهم وأهمتهم في شقاق الاختيار في الطلاقات التي وقعت أو عناء الافتراق بالوفاة. ولن يربط على قلوبهم إلا أن يقوموا لربهم ليؤدوا الصلاة، وقد كان رسول الله ﷺ أول من يفعل ذلك، كان إذا ما حزبه أمر قام إلى الصلاة.

إن المؤمن يذهب إلى الخالق الذي أجرى له أسباب الزواج والطلاق والفراق؛ ليسأله أن يخفف عنه الهم والحزن. ومادام المؤمن قد اختار الذهاب إلى من يُجري الأقدار فله أن يعرف أن الله الذي أجرى تلك الأقدار عليه لم يتركها بلا أحكام، بل وضع لكل أمر حكما مناسبا، وما على المؤمن إلا أن يأخذ الأمور القدرية برضا ثم يذهب إلى الله قانتا وخاشعا ومصليا؛ لأن المسألة مسألة الطلاق أو الوفاة فيها فزع وفراق اختيار أو فراق الموت القدري.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ**﴾.

وقال بعد ذلك: ﴿**حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾.

أن الآية الأولى: في مطلقة قبل الفرض والدخول، فالإعطاء في حقها إحسان لا في قبالة شيء لا تسمية ولا دخول.

وهو وإن أوجبه قوم فهو في الصورة مجرد إحسان، فناسب: (المحسنين).

والآية الثانية: في المطلقة الرجعية، والمراد بـ (المتاع) عند المحققين النفقة، ونفقة الرجعية واجبة والمراد بـ (المتاع) عند المحققين، فناسب: حقا على المتقين، ورجح أن المراد به النفقة: أنه ورد عقيب قوله: ﴿**مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ**﴾، والمراد به: النفقة، وكانت واجبة قبل النسخ، ثم قال: "وللمطلقات"، فظهر أنه النفقة في عدة الرجعية بخلاف المطلقة البائن بخلع فإن الطلاق من جهتها فكيف تعطى المتعة التي شرعت جبرا للكسر بالطلاق وهي الراغبة فيه وباذلة المال فيه، فظهر أن المراد بـ (المتاع) هنا: النفقة زمن العدة لا المتعة. وللعلماء في هاتين الآيتين اضطراب كثير، وما ذكرته أظهر، والله تعالى أعلم، لأنه تقدم حكم الخلع، وحكم عدة الموت، وحكم المطلقة بعد التسمية، وبقي حكم المطلقة الرجعية فيحمل عليه. قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ**﴾ ثم قال: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا**﴾. ما فائدة تكرار ذلك؟. قيل: هو تأكيد للأول تكذيبا لمن ينكر أن يكون ذلك بمشيئة الله تعالى. والأحسن: أن (اقتتلوا) أولا مجاز في الاختلاف لأنه كان سبب اقتتالهم، فأطلق اسم المسبب على السبب، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِم نَارا**﴾.

فمعناه: ولو شاء الله ما اختلفوا بعد أنبيائهم لكن اختلفوا، ولو شاء الله بعد اختلافهم لما اقتتلوا. المطلقات أربع: مطلقة مدخول بها مفروض لها وقد ذكر الله حكمها قبل هذه الآية وأنه لا يسترد منها شيء من المهر، وأن عدتها ثلاثة قروء. ومطلقة غير مفروض لها ولا مدخول بها فهذه الآية في شأنها ولا مهر لها بل أمر الرب تعالى بإمتاعها وبين في سورة "الأحزاب" أن غير المدخول بها إذا طلقت فلا عدة عليها. ومطلقة مفروض لها غير مدخول بها ذكرها بعد هذه الآية إذ قال: ﴿**وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً**﴾ البقرة:٢٣٧]، ومطلقة مدخول بها غير مفروض لها ذكرها الله في قوله: ﴿**فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ**﴾[النساء:٢٤]؛ فذكر تعالى هذه الآية والتي بعدها مطلقة قبل المسيس وقبل الفرض، ومطلقة قبل المسيس وبعد الفرض؛ فجعل للأولى المتعة، وجعل للثانية نصف الصداق لما لحق الزوجة من دحض العقد، ووصم الحل الحاصل للزوج بالعقد؛ وقابل المسيس بالمهر الواجب.

الثالثة: لما قسم الله تعالى حال المطلقة هنا قسمين: مطلقة مسمى لها المهر، ومطلقة لم يسم لها دل على أن نكاح التفويض جائز وهو كل نكاح عقد من غير ذكر الصداق ولا خلاف فيه، ويفرض بعد ذلك الصداق فإن فرض التحق بالعقد وجاز وإن لم يفرض لها وكان الطلاق لم يجب صداق إجماعا قاله القاضي أبو بكر بن العربي. وحكى المهدوي عن حماد بن أبي سليمان أنه إذا طلقها ولم يدخل بها ولم يكن فرض لها أجبر على نصف صداق مثلها. وإن فرض بعد عقد النكاح وقبل وقوع الطلاق فقال أبو حنيفة: لا يتنصف بالطلاق لأنه لم يجب بالعقد وهذا خلاف الظاهر من قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً**﴾ [البقرة:٢٣٧]، وخلاف القياس أيضا؛ فإن الفرض بعد العقد يلحق بالعقد فوجب أن يتنصف بالطلاق؛ أصله الفرض المقترن بالعقد. الرابعة: إن وقع الموت قبل الفرض فذكر الترمذي عن ابن مسعود "أنه سئل عن رجل تزوج امرأة لم يفرض لها ولم يدخل بها حتى مات فقال ابن مسعود: لها مثل صداق نسائها لا وكس ولا شطط وعليها العدة ولها الميراث فقام معقل بن سنان الأشجعي فقال: قضى رسول الله ﷺ في بروع بنت واشق امرأة منا مثل الذي قضيت ففرح بها ابن مسعود". قال الترمذي: حديث ابن مسعود حديث حسن صحيح، وقد روي عنه من غير وجه، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ

وغيرهم، وبه يقول الثوري وأحمد وإسحاق، وقال بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ منهم علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وابن عباس وابن عمر: "إذا تزوج الرجل امرأة ولم يدخل بها ولم يفرض لها صداقا حتى مات قالوا: لها الميراث ولا صداق لها وعليها العدة" وهول قول الشافعي. وقال: ولو ثبت حديث بروع بنت واشق لكانت الحجة فيما روي عن النبي ﷺ. ويروى عن الشافعي أنه رجع بمصر بعد عن هذا القول، وقال بحديث بروع بنت واشق.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ الآية.

وقال تعالى في براءة ﴿**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**﴾.

وقال تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ**﴾، وآيات القتال كثيرة.

جوابه: من وجوه:

أحدها: لا إكراه قسرا من غير إقامة دليل، بل قد بين الله سبحانه الدلالة على توحيده، وبعث رسوله لمن ينظر فيه. ويدل عليه قوله تعالى بعده: ﴿**قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ وهذا قول المعتزلة. **والثاني:** أنه منسوخ بآيات السيف.

والثالث: أنه مخصوص بأهل الكتاب.

قوله تعالى: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ الدين في هذه الآية المعتقد والملة بقرينة قوله: ﴿**قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾. والإكراه الذي في الأحكام من الإيمان والبيوع والهبات وغيرها ليس هذا موضعه، وإنما يجيء في تفسير قوله: ﴿**إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ**﴾ [النحل:١٠٦]. وقرأ أبو عبدالرحمن "قد تبين الرشد من الغي"، وكذا روي عن الحسن والشعبي؛ يقال: رَشَد يَرْشُد رُشْداً، ورَشِدَ يرْشَد رَشَدا: إذا بلغ ما يحب. وغوى ضده، و﴿**الْغَيِّ**﴾ مصدر من غوى يغوي إذا ضل في معتقد أو رأي؛ ولا يقال الغي في الضلال على الإطلاق.

قال السدي: نزلت الآية في رجل من الأنصار يقال له أبو حصين كان له ابنان، فقدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت، فلما أرادوا الخروج أتاهم ابنا الحصين فدعوهما إلى النصرانية فتنصرا ومضيا معهم إلى الشام، فأتى أبوهما رسول الله ﷺ مشتكيا أمرهما، ورغب في أن يبعث رسول الله ﷺ من يردهما فنزلت:

﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾، ولم يؤمر يومئذ بقتال أهل الكتاب، وقال: "أبعدهما الله هما أول من كفر" فوجد أبو الحصين في نفسه على النبي ﷺ حين لم يبعث في طلبهما فأنزل الله جل ثناؤه ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**﴾ [النساء:٦٥] الآية ثم إنه نسخ ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ فأمر بقتال أهل الكتاب في سورة [براءة]. والصحيح في سبب قوله تعالى: ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ**﴾ حديث الزبير مع جاره الأنصاري في السقي.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ الآية.

أفرد النور وجمع الظلمات، وذلك في مواضع.

أن الكفر أنواع وملل مختلفة، ودين الحق واحد، فلذلك أفرده.

وإذا كان السائر في الطريق في ظلمة ضل عن الطريق فإذا استنار له اهتدى إلى الطريق، فالنّور وسيلة الاهتداء، ولكن إنما يَهتدي به من لا يكون له حائل دون الاهتداء وإلا لم تنفعه وسيلة الاهتداء.

قال قتادة: الظلمات الضلالة، والنور الهدى، وبمعناه قال الضحاك والربيع. وقال مجاهد وعبدة بن أبي لبابة: قوله: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ نزلت في قوم آمنوا بعيسى. فلما جاء محمد ﷺ كفروا به، فذلك إخراجهم من النور إلى الظلمات.

قال ابن عطية: فكأن هذا المعتقد أحرز نوراً في المعتقد خرج منه إلى الظلمات، ولفظ الآية مستغن عن هذا التخصيص، بل هو مترتب في كل أمة كافرة آمن بعضها كالعرب، وذلك أن من آمن منهم فالله وليه أخرجه من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن كفر بعد وجود النبي ﷺ الداعي المرسل فشيطانه مغويه، كأنه أخرجه من الإيمان إذ هو معه معد وأهل للدخول فيه، وحكم عليهم بالدخول في النار لكفرهم؛ عدلا منه، لا يسأل عما يفعل. وقرأ الحسن "أولياؤهم الطواغيت" يعني الشياطين، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿**الله وَلِيُّ الذين آمَنُواْ يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور**﴾ إنه سبحانه يخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان؛ لأن الظلمات عادة تنطمس فيها المرائي، فلا يمكن أن ترى شيئاً إلا إذا كان هناك ضوء يبعث لك من المرئي

أي أشعة تصل إليك، فإن كانت هناك ظلمة فمعنى ذلك أنه لا يأتي من الأشياء أشعة فلا تراها، وعندما يأتي النور فأنت تستبين الأشياء، هذه في الأمور المُحسَّة؛ وكذلك في مسائل القيم، ﴿ **يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور والذين كفروا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطاغوت يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النور إِلَى الظلمات**﴾[البقرة:٢٥٧].

هل هم دخلوا النور يا ربنا؟ لنا أن نفهم أن المقصود هنا هم المرتدون الذين وسوس لهم الشيطان فأدخلهم في ظلمات الكفر بعد أن كانوا مؤمنين، أو ﴿**يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النور إِلَى الظلمات**﴾، أي يحولون بينهم وبين النور فيمنعونهم من الإيمان كما يقول واحد: أما دريت أن أبي أخرجني من ميراثه؟ إن معنى ذلك أنه كان له الحق في التوريث، وأخرجه والده من الميراث. وهذا ينطبق على الذين تركوا الإيمان، وفضلوا الظلمات. والقرآن يوضح أمر الخروج من الظلمة إلى النور ومن الكفر إلى الإيمان في مواقع أخرى، كقول سيدنا يوسف للشابين اللذين كانا معه في السجن: ﴿**وَدَخَلَ مَعَهُ السجن فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إني أراني أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخر إِنِّي أراني أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطير مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين * قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذلكما مِمَّا عَلَّمَنِي ربي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بالله وَهُمْ بالآخرة هُمْ كَافِرُونَ**﴾ [يوسف:٣٦-٣٧].

فهل كان سيدنا يوسف في ملة القوم الكافرين ثم تركها؟ لا، إنه لم يدخل أساساً إلى ملة القوم الذين لا يؤمنون بالله. إن هذه الملة كانت أمامه، لكنه تركها ورفض الدخول فيها وتمسك بملة إبراهيم عليه السلام.

وفي التعبير ما فيه من تأكيد حرية الاختيار. وهناك آية أخرى يقول فيها الحق: ﴿**والله خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ الله عَلِيمٌ قَدِيرٌ**﴾[النحل:٧٠].

إن معنى الآية أن الله قد خلقنا جميعاً، وقدر لكل منا أجلاً، فمنا من يموت صغيراً، ومنا من يبلغ أرذل العمر، فيعود إلى الضعف وتقل خلايا نشاطه فلا يعلم ما كان يعلمه. وليس معنى الآية أن الإنسان يوجد في أرذل العمر ثم يرد إلى الطفولة.

وعندما يقول الحق: ﴿**والذين كفروا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطاغوت يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النور**

إِلَى الظلمات﴾ فالحق أورد هنا كلمة أولياء عن الطاغوت، لأن الطاغوت كما قلنا: ألوان متعددة، الشيطان طاغوت، والدجال طاغوت، والساحر طاغوت.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ**﴾ الآية.

وقال في سورة الأنعام: ﴿**فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾.

أن هذه خاصة في النفقة في سبيل الله. وأية الأنعام: في مطلق الحسنات من الأعمال، وتطوع الأموال. قوله تعالى: (لا يقدرون على).

وفي سورة إبراهيم: ﴿**لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا**﴾.

وفي سورة إبراهيم ﴿**لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ**﴾.

أن المثل هنا للعامل، فكان تقديم نفى قدرته وصلتها أنسب، لأن (على) من صلة القدرة. وآية إبراهيم عليه السلام: "المثل" للعمل، لقوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ**﴾ تقديره: مثل أعمال الذين كفروا، فكان تقديم (مما) تقديم نفى ما كسبوا أنسب؛ لأنه صلة (شيء) وهو الكسب.

لما قص الله سبحانه ما فيه من البراهين، حث على الجهاد، وأعلم أن من جاهد بعد هذا البرهان الذي لا يأتي به إلا نبي فله في جهاده الثواب العظيم. روى البستي في صحيح مسنده عن ابن عمر قال: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: "رب زد أمتي" فنزلت: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً**﴾ [البقرة:٢٤٥]، قال رسول الله ﷺ: "رب زد أمتي" فنزلت: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر:١٠]. وهذه الآية لفظها بيان مثال لشرف النفقة في سبيل الله ولحسنها، وضمنها التحريض على ذلك. وفي الكلام حذف مضاف تقديره مثل نفقة الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة. وطريق آخر: مثل الذين ينفقون أموالهم كمثل زارع زرع في الأرض حبة فأنبتت الحبة سبع سنابل، يعني أخرجت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، فشبه المتصدق بالزارع وشبه الصدقة بالبذر فيعطيه الله بكل صدقة له سبعمائة حسنة، ثم قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ يعني على سبعمائة، فيكون مثل المتصدق مثل الزارع، إن

كان حاذقا في عمله، ويكون البذر جيدا وتكون الأرض عامرة يكون الزرع أكثر، فكذلك المتصدق إذا كان صالحا والمال طيبا ويضعه موضعه فيصير الثواب أكثر.

روي أن هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهما، وذلك أن رسول الله ﷺ لما حث الناس على الصدقة حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك جاءه عبدالرحمن بأربعة آلاف فقال: يا رسول الله، كانت لي ثمانية آلاف فأمسكت لنفسي ولعيالي أربعة آلاف، وأربعة آلاف أقرضتها لربي. فقال رسول الله ﷺ: "بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت". وقال عثمان: يا رسول الله علي جهاز من لا جهاز له، فنزلت هذه الآية فيهما. وقيل: نزلت في نفقة التطوع. وقيل: نزلت قبل آية الزكاة ثم نسخت بآية الزكاة، ولا حاجة إلى دعوى النسخ؛ لأن الإنفاق في سبيل الله مندوب إليه في كل وقت. وسبل الله كثيرة وأعظمها الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا.

مسألة:

قوله تعالى في آية الربا ﴿**وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ**﴾. وفى الآية الأولى من النساء: ﴿**مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا**﴾. وكذلل في الحديد. وكذلك جاء في لقمان بعد قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا**﴾، وفى الحديد بعد قوله تعالى: ﴿**وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ**﴾. وأما آية النساء الثانية: فنزلت قي طعمة بن أبيرق لما سرق درع قتادة بن النعمان رضى الله عنه وحلف عليه، ورمى به اليهود، ثم ارتد ولحق بمكة، فناسب: (خوانا).

وأيضا: فلتقدم قوله تعالى: ﴿**عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ**﴾.

قوله: ﴿**وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً**﴾ [الإسراء:٣٧] ما فيه كفاية. وقال الإمام أبو بكر الطرسوسي وسئل عن مذهب الصوفية فقال: وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري؛ لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون؛ فهو دين الكفار وعباد العجل. وقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ**﴾ [القصص:٧٦]. ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ**﴾، قيل: المراد الذين عقروا الناقة. وقيل: التسعة الرهط الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون. قال السدي وغيره: أوحى الله تعالى إلى صالح: إن قومك سيعقرون ناقتك؛ فقال لهم ذلك.

فقالوا: ما كنا لنفعل. فقال لهم صالح: إنه سيولد في شهركم هذا غلام يعقرها ويكون هلاككم على يديه؛ فقالوا: لا يولد في هذا الشهر ذكر إلا قتلناه. فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر فذبحوا أبناءهم، ثم ولد للعاشر فأبى أن يذبح ابنه وكان لم يولد له قبل ذلك. وكان ابن العاشر أزرق أحمر فنبت نباتا سريعا؛ وكان إذا مر بالتسعة فرأوه قالوا: لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا. وغضب التسعة على صالح؛ لأنه كان سبب قتلهم أبناءهم فتعصبوا وتقاسموا بالله لنبيتنه وأهله.

قالوا: نخرج إلى سفر فترى الناس سفرنا فنكون في غار، حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه، ثم قلنا ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون؛ فيصدقوننا ويعلمون أنا قد خرجنا إلى سفر. وكان صالح لا ينام معهم في القرية وكان يأوي إلى مسجده، فإذا أصبح أتاهم فوعظهم، فلما دخلوا الغار أرادوا أن يخرجوا فسقط عليهم الغار فقتلهم، فرأى ذلك ناس ممن كان قد أطلع على ذلك، فصاحوا في القرية: يا عباد الله! أما رضي صالح أن أمر بقتل أولادهم حتى قتلهم؛ فأجمع أهل القرية على قتل الناقة.

وقال ابن إسحاق: إنما اجتمع التسعة على سب صالح بعد عقرهم الناقة وإنذارهم بالعذاب على ما يأتي بيانه في سورة (النمل) إن شاء الله تعالى.

﴿**قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ**﴾ هو من السحر في قول مجاهد وقتادة على ما قال المهدوي. أي أصبت بالسحر فبطل عقلك؛ لأنك بشر مثلنا فلم تدع الرسالة دوننا. وقيل: من المعللين بالطعام والشراب؛ قاله ابن عباس والكلبي وقتادة ومجاهد أيضا فيما ذكر الثعلبي. وهو على هذا القول من السحر وهو الرئة أي بشر لك سحر أي رئة تأكل وتشرب مثلنا.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ**﴾ ومثله في آل عمران. وقال في النحل والزمر: (ما عملت). هو من باب التفنن في الألفاظ والفصاحة. وأيضا: لما تقدم في الزمر لفظ الكسب في مواضع مثل (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا، وَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عملوا. فعدل إلي لفظ (عملوا) تركا للتكرار، ولم يتقدم ذلك في البقرة وآل عمران. والإنجيل نزلا دفعة واحدة فحسن التخفيف لعدم التكرار. فإن قيل: قد قال بعده: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ**﴾.

أمام الفرقان فقيل: هو نصره على أعدائه. وقيل: هو القرآن، فعلى هذا: لما قال: ﴿**وَأَنْـزَلَ التَّـوْرَاةَ**﴾. حسن وأنزل الفرقان وأنزل عليك الكتاب: أي كما أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى أنزل عليك القرآن والكتاب. ولأن التلون في اللفظ مع قرب العهد أحسن من إعادته بلفظه وإن اتحد قصده. عن ابن عباس قال: آخر ما نزل من القرآن ﴿**وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ**﴾.

قيل: إن هذه الآية نزلت قبل موت النبي ﷺ بتسع ليال ثم لم ينزل بعدها شيء، قاله ابن جريج. وقال ابن جبير ومقاتل: بسبع ليال. وروي بثلاث ليال. وروي أنها نزلت قبل موته بثلاث ساعات، وأنه عليه السلام قال: "اجعلوها بين آية الربا وآية الدين". وحكى مكي أن النبي ﷺ قال: "جاءني جبريل فقال اجعلها على رأس مائتين وثمانين آية".

وحكي عن أبي كعب وابن عباس وقتادة أن آخر ما نزل: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ**﴾[التوبة:١٢٨] إلى آخر الآية. والقول الأول أعرف وأكثر وأصح وأشهر. ورواه أبو صالح عن ابن عباس قال: آخر ما نزل من القرآن ﴿**وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾ فقال جبريل للنبي ﷺ "يا محمد ضعها على رأس ثمانين ومائتين من البقرة".

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّـهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ**﴾. وفى آخر السورة ﴿**إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ**﴾.

أن الأول: خبر من الله تعالى بتحقيق البعث والقيامة.

والثاني: في سياق السؤال والجزاء، فكان الخطاب فيه أدعى إلى الحصول.

والمعنى: أي باعثهم ومحييهم بعد تفرقهم، وفي هذا إقرار بالبعث ليوم القيامة. قال الزجاج: هذا هو التأويل الذي علمه الراسخون وأقروا به، وخالف الذين اتبعوا ما تشابه عليهم من أمر البعث حتى أنكروه. والريب الشك، وقد تقدمت محامله في البقرة. والميعاد مفعال من الوعد. وعندما يقول الحق: ﴿**رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ الناس لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ الله لاَ يُخْلِفُ الميعاد**﴾؛ لأن الذي يخلف الميعاد إنما

تمنعه قوة قاهرة تأتيه؛ ولو من تغير نفسه تمنعه أن يفعل، أما الله فلا تأتي قوة قاهرة لتغير ما يريد أن يفعل، ولا يمكن أن يتغير؛ لأن التغير ليس من صفات القديم الأزلي.

وحين يؤكد الحق أنه سيتم جمعنا بمشيئته في يوم لا ريب فيه، وأن الله لا يخلف الميعاد، فمن المؤكد أننا سنلتقي. وسنلتقي لماذا؟ لقد قال الراسخون في العلم: عملنا بالمحكم، وآمنا بالمتشابه، ودعوا الله أن يثبت قلوبهم على الهداية رحمة من عنده، وأن يبعد قلوبهم عن الزيغ؛ لأنهم خائفون من اليوم الذي سيجمع الله الناس فيه، إننا سنلتقي للحساب على أفعالنا وإيماننا. وبعد ذلك يقول الحق جل شأنه: ﴿**إِنَّ الذين كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ الله شَيْئاً...**﴾.

*****

سورة آل عمران

مسألة:

قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، وقال: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾.

أن القرآن نزل منجما مرة بعد مرة فحسن التضعيف، والتوراة أول ما جاء به هذا الكتاب هو إيمان القمة، بأنه لا إله إلا الله الواحد الأحد، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**الم * الله لا إله إلاَّ هُوَ الحي القيوم * نَزَّلَ عَلَيْكَ الكتاب بالحق مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التوراة والإنجيل**﴾[آل عمران:١/٣]، وهكذا نعرف أن الكتاب نزل ليؤكد لنا، أن الله واحد أحد، لا شريك له، وأن القرآن يشتمل على كل ما تضمنته الشرائع السماوية من توراة وإنجيل، وغيرها من الكتب.

فالقرآن نزل ليفرق بين الحق الذي جاءت به الكتب السابقة، وبين الباطل الذي أضافه أولئك الذي ائتمنوا عليها. ثم يحدد الحق تبارك وتعالى لنا مهمتنا في أن هذا الكتاب مطلوب أن نبلغه للناس جميعاً، واقرأ قوله سبحانه: ﴿**المص * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأعراف:١/٢] فالخطاب هنا لرسول الله ﷺ، وكل خطاب لرسول الله ﷺ في القرآن الكريم، يتضمن خطابا لأمته جميعاً، فالرسول ﷺ كلف بأن يبلغ الكتاب للناس، ونحن مكلفون بأن نتبع المنهج نفسه ونبلغ ما جاء في القرآن للناس حتى يكون الحساب عدلا، وأنهم قد بلغوا منهج الله، ثم كفروا به أو تركوه، إذن فإبلاغ الكتاب من المهمات الأساسية التي حددها الله سبحانه وتعالى بالنسبة للقرآن.

والكتاب فيه رد على حجج الكفار وأباطيلهم. واقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿**الر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب الحكيم * أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَآ إلى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ الناس وَبَشِّرِ الذين آمنوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الكافرون إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ**﴾ [يونس:١/٢]، وفي هذه الآيات الكريمة: يلفتنا الله سبحانه وتعالى إلى حقيقتين. الحقيقة الأول: هي أن الكفار يتخذون من بشرية الرسول حُجة بأن هذا الكتاب ليس من عند الله، وكان الرد هو: أن كل الرسل السابقين كانوا بشراً، فما هو العجب في أن يكون محمد ﷺ رسولاً بشراً. واللافتة الثانية هي أن هذا القرآن مكتوب بالحروف نفسها التي خلقها الله لنا لنكتب بها، ومع ذلك فإن القرآن الكريم نزل مستخدماً لهذه الحروف التي يعرفها الناس جميعاً، معجزاً في ألا

يستطيع الانس والجن، مجتمعين أن يأتوا بسورة واحدة منه. ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى لفتة أخرى إلى أن هذا الكتاب محكم الآيات، ثم بينه الله لعباده، واقرأ قوله جل جلاله في سورة هود: ﴿**الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ الله إِنَّنِي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ**﴾[هود:١/٢].

هذه هي بعض الآيات في القرآن الكريم، التي أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا فيها إلى معنى الكتاب، فآياته من عند الله الحكيم الخبير، وكل آية فيها إعجاز مُتَحدَّى به الإنس والجن، وهذا الكتاب لابد أن يبلغ للناس جميعاً، فالكتاب ينذرهم ألا يعبدوا إلا الله، ليكون الحساب عدلا في الآخرة، فمن أنذر وأطاع كان له الجنة، ومن عصى كانت له النار والعياذ بالله. ثم يلفتنا الله إلى أن هذا الكتاب فيه قصص الأنبياء السابقين منذ آدم عليه السلام، يقول جل جلاله: ﴿**الر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب المبين * إِنَّآ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هذا القرآن وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين**﴾ [يوسف:١/٣]، وهكذا نجد أن القرآن الكريم، قد جاء ليقص علينا أحسن القصص بالنسبة للأنبياء السابقين، والأحداث التي وقعت في الماضي، ولم يأت القرآن بهذه القصص للتسلية أو للترفيه، وإنما جاء بها للموعظة ولتكون عبرة إيمانية، ذلك أن القصص القرآني يتكرر في كل زمان ومكان. ففرعون هو كل حاكم طغى في الأرض، ونصب نفسه إلها، وقارون هو كل من أنعم الله عليه فنسب النعمة إلى نفسه، وتكبر وعصى الله، وقصة يوسف هي قصة كل أخوة حقدوا على أخ لهم، وتآمروا عليه، وأهل الكهف هم كل فتية آمنوا بربهم، فنشر الله لهم من رحمته في الدنيا والآخرة، ما عدا قصة واحدة هي قصة مريم وعيسى عليهما السلام، فهي معجزة لن تتكرر ولذلك عرف الله سبحانه وتعالى إبطالها، فقال عيسى بن مريم وقال مريم ابنة عمران.

والكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالى فيه لفتة إلى آيات الله في كونه. واقرأ قوله تعالى: ﴿**المر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب والذي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحق ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ * الله الذي رَفَعَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ استوى عَلَى العرش وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأمر يُفَصِّلُ الآيات لَعَلَّكُمْ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ**﴾[الرعد:١ – ٢].

وهكذا بين لنا الله في الكتاب آياته في الكون ولفتنا إليها، فالسماء مرفوعة

بغير عمد نراها، والشمس والقمر مسخران لخدمة الإنسان، وهذه كلها آيات لا يستطيع أحد من خلق الله أن يدعيها لنفسه أو لغيره، فلا يوجد، حتى يوم القيامة من يستطيع أن يدعي أنه رفع السماء بغير عمد، أو أنه خلق الشمس والقمر وسخرهما لخدمة الإنسان. ولو تدبر الناس في آيات الكون لآمنوا ولكنهم في غفلة عن هذه الآيات. ثم يحدد الحق سبحانه وتعالى مهمة هذا الكتاب وكيف أنه رحمة للناس جميعاً، فيقول جل جلاله: ﴿**الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ الناس مِنَ الظلمات إِلَى النور بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إلى صِرَاطِ العزيز الحميد* الله الذي لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**﴾.

أو نفي للشك وجزم مطلق أنه كتاب حكيم منزل من الخالق الأعلى. وحتى نفهم المنطلق الذي نأخذ منه قضايا الدين، والتي سيكون دستورنا في الحياة، فلابد أن نعرف ما هو الهدى ومن هم المتقون؟ الهدى هو الدلالة على طريق يوصلك إلى ما تطلبه. فالإشارات التي تدل المسافر على الطريق هي هدى له لأنها تبين له الطريق الذي يوصله إلى المكان الذي يقصده. والهدى يتطلب هاديا ومهديا وغاية تريد أن تحققه. فإذا لم يكن هناك غاية أو هدف فلا معنى لوجود الهدى لأنك لا تريد أن تصل إلى شيء، وبالتالي لا تريد من أحد أن يدلك على طريق.

إذن لابد أن نوجد الغاية أولا ثم نبحث عمن يوصلنا إليها. وهنا نتساءل من الذي يحدد الهدف ويحدد لك الطريق للوصول إليه؟ إذا أخذنا بواقع حياة الناس فإن الذي يحدد لك الهدف لابد أن تكون واثقا من حكمته، والذي يحدد لك الطريق لابد أن يكون له من العلم ما يستطيع به أن يدلك على أقصر الطرق لتصل إلى ما تريد.

فإذا نظرنا إلى الناس في الدنيا نجد أنهم يحددون مطلوبات حياتهم ويحددون الطريق الذي يحقق هذه المطلوبات، فالذي يريد أن يبني بيتا مثلا يأتي بمهندس يضع له الرسم.

ولكن الرسم قد يكون قاصرا على أن يحقق الغاية المطلوبة فيظل يغير ويبدل فيه. ثم يأتي مهندس على مستوى أعلى فيضع تصوراً جديداً للمسألة كلها، وهكذا يكون الهدف متغيرا وليس ثابتا.

وعند التنفيذ قد لا توجد المواد المطلوبة فنغير ونبدل لنأتي بغيرها ثم فوق ذلك كله قد تأتي قوة أعلى فتوقف التنفيذ أو تمنعه.

إذن فأهداف الناس متغيرة تحكمها ظروف حياتهم وقدراتهم، والغايات التي يطلبونها لا تتحقق لقصور علم البشر وإمكاناته. إذن فكلنا محتاجون إلى كامل العلم والحكمة ليرسم لنا طريق حياتنا.

وأن يكون قادرا على كل شيء، ومالكا لكل شيء، والكون خاضعا لإرادته حتى نعرف يقينا أن ما نريده سيتحقق، وأن الطريق الذي سنسلكه سيوصلنا إلى ما نريده. وينبهنا الله سبحانه وتعالى إلى هذه القضية فيقول: ﴿**قُلْ إِنَّ هُدَى الله هُوَ الهدى**﴾ [البقرة:١٢٠].

أن الله يريد أن يلفت خلقه إلى أنهم إذا أرادوا أن يصلوا إلى الهدف الثابت الذي لا يتغير فليأخذوه عن الله. وإذا أرادوا أن يتبعوا الطريق الذي لا توجد فيه أي عقبات أو متغيرات فليأخذوا طريقهم عن الله تبارك وتعالى. إنك إذا أردت باقيا فخذ من الباقي، وإذا أردت ثابتا فخذ من الثابت. ولذلك كانت قوانين البشر في تحديد أهدافهم في الحياة وطريقة الوصول إليها قاصرة.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ**﴾ الآية.

ما فائدة تكرير لفظ التوحيد؟.

أن الأول: منشهود به، والثاني: حكم بما تمت به الشهادة.

فالأول: بمنزلة قيام البينة، والثانية: بمنزلة الحكم بذلك.

وفى مريم: قدم ذكر المرأة؟.

لتناسب رؤوس الآية في مريم بقوله: عتيا، وعشيا، وجنيا. وأيضا: لما قدمه بقوله: ﴿**وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي**﴾ وَ ﴿**كَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا**﴾ أخره ثانياً تفننا في الفصاحة.

قال سعيد بن جبير: كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما، فلما نزلت هذه الآية خررن سجدا. وقال الكلبي: لما ظهر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام؛ فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان. فلما دخلا على النبي ﷺ عرفاه بالصفة والنعت، فقالا له: أنت محمد؟ قال "نعم". قالا: وأنت أحمد؟ قال: "نعم". قالا: نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك. فقال لهما

رسول الله ﷺ: "سلاني". فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله. فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ**﴾.

فأسلم الرجلان وصدقا برسول الله ﷺ. وقد قيل: إن المراد بأولي العلم الأنبياء عليهم السلام. وقال ابن كيسان: المهاجرون والأنصار. في هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم؛ فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء. وقال في شرف العلم لنبيه ﷺ: ﴿**وقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً**﴾ [طه:١١٤]. فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيده من العلم. وقال ﷺ: "إن العلماء ورثة الأنبياء". وقال: "العلماء أمناء الله على خلقه". وهذا شرف للعلماء عظيم، ومحل لهم في الدين خطير. عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: "العلماء ورثة الأنبياء يحبهم أهل السماء ويستغفر لهم الحيتان في البحر إذا ماتوا إلى يوم القيامة".

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ**﴾ وفي مريم، ﴿**أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ**﴾.

لتقدم قوله في مريم ﴿**لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا**﴾.

قوله تعالى: ﴿**قَالَتْ رَبِّ**﴾ أي يا سيدي. تخاطب جبريل عليه السلام؛ لأنه لما تمثل لها قال لها: إنما أنا رسول ربك ليهب لك غلاما زكيا. فلما سمعت ذلك من قوله استفهمت عن طريق الولد فقالت: أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر؟ أي بنكاح. في سورتها ﴿**وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً**﴾ [مريم:٢٠] ذكرت هذا تأكيدا؛ لأن قولها ﴿**لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ**﴾ يشمل الحرام والحلال. تقول: العادة الجارية التي أجراها الله في خلقه أن الولد لا يكون إلا عن نكاح أو سفاح.

وقيل: ما استبعدت من قدرة الله تعالى شيئا، ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد: أمِن قِبل زوج في المستقبل أم يخلقه الله ابتداء؟ فروي أن جبريل عليه السلام حين قال لها: ﴿**قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ**﴾، ﴿**قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ**﴾ [مريم:٩]. نفخ في جيب درعها وكمها؛ قاله ابن جريج. قال ابن عباس: أخذ

جبريل رُدْن قميصها بأصبعه فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى. وقال بعضهم: وقع نفخ جبريل في رحمها فعلقت والطير يذكر ويؤنث. ﴿**فَأَنْفُخُ فِيهِ**﴾ أي في الواحد منه أو منها أو في الطين فيكون طائرا. وطائر وطير مثل تاجر وتجر. قال وهب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ليتميز فعل الخلق من فعل الله تعالى. وقيل: لم يخلق غير الخفاش لأنه أكمل الطير خلقا ليكون أبلغ في القدرة لأن لها ثديا وأسنانا وأذنا، وهي تحيض وتطهر وتلد. ويقال: إنما طلبوا خلق خفاش لأنه أعجب من سائر الخلق؛ ومن عجائبه أنه لحم ودم يطير بغير ريش ويلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور، فيكون له الضرع يخرج منه اللبن، ولا يبصر في ضوء النهار ولا في ظلمة الليل، وإنما يرى في ساعتين: بعد غروب الشمس ساعة وبعد طلوع الفجر ساعة قبل أن يُسفر جدا، ويضحك كما يضحك الإنسان، ويحيض كما تحيض المرأة.

ويقال: إن سؤالهم كان له على وجه التعنت فقالوا: أخلق لنا خفاشا واجعل فيه روحا إن كنت صادقا في مقالتك؛ فأخذ طينا وجعل منه خفاشا ثم نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض؛ وكان تسوية الطين والنفخ من عيسى والخلق من الله، كما أن النفخ من جبريل والخلق من الله.

ونريد أن نقف وقفة ذهنية تدبرية عند قولها: ﴿**قَالَتْ رَبِّ أنى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ**﴾ فلو أنها سكتت عند قولها: ﴿**أنى يَكُونُ لِي وَلَدٌ**﴾ لكان أمرا معقولا في تساؤلها، ولكن إضافتها: ﴿**وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ**﴾ تثير سؤالا، من أين أتت بهذا القول: ﴿**وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ**﴾؟ هل قال لها أحد: إنك ستلدين ولدا من غير أب؟ إن الملائكة لم تخبرها بذلك، لذلك انصرف ذهنها إلى مسألة المس. إنها فطرة وفطنة المهيأة والمعدة للتلقي عن الله، عندما قال لها: «المسيح عيسى ابن مريم».

قالت لنفسها: إن نسبته بأمر الله هي لي، فلا أب له، لقد قال الحق: إنه «ابن مريم» ولذلك جاء قولها: ﴿**وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ**﴾ ذلك أنه لا يمكن أن ينسب الطفل للأم مع وجود الأب. هكذا نرى فطنة التلقي عن الله في مريم البتول. لقد مر بها خوف عندما عرفت أن عيسى منسوب إليها وقالت لنفسها، إن الحمل بعيسى لن يكون بوساطة أب، وكيف يكون الحمل دون أن يمسسني بشر. وقال الخالق الأكرم: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي لن يمسك بشر، ولم يقل لها: لقد نسبناه لك لأنك

منذورة لخدمة البيت، ولكن الحق قال: ﴿**كَذَلِكَ**﴾ تأكيدا لما فهمته عن إنجاب عيسى دون أن يمسسها بشر. وتتجلى طلاقة القدرة في قوله سبحانه: ﴿**الله يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ**﴾. إنها طلاقة القدرة، وطلاقة القدرة في الإنسال أو الإنجاب أو في عدم التكثير بالنسبة للإنسان وطلاقة القدرة لا تتوقف على إيجاد ذكورة وأنوثة، ولو كانت طلاقة القدرة في الخلق لا تتوقف على إيجاد ذكورة وأنوثة، إنه الحق الأعلى القادر على أن يخلق دون ذكورة أو أنوثة، كخلقه لآدم عليه السلام، ويخلق الحق سبحانه بواحد منهما، كخلقه سبحانه لحواء وخلق عيسى عليه السلام، ويخلق الخالق الأعلى الذكورة والأنوثة يمكن أن يُحقق الخلق، فقد توجد الذكورة والأنوثة ولا يوجد إنجاب، ها هو ذا القول الحق: ﴿**لِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور *أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ**﴾[الشورى:٤٩-٥٠].

هذه هي إرادة الحق، إذن فلا تقل: إن اكتمال عنصري الذكورة والأنوثة هو الذي يحدث الخلق؛ لأن الخلق يحدث بإرادة الحق: ﴿**كَذَلِكَ الله يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾. فأنتم أيها المحدثون تفعلون بالأسباب. لكن الذي خلقكم وخلق الأسباب لكم هو الذي بيده أن يوجد بلا أسباب، لأنه أنشأ العالم أول ما أنشأ بدون أسباب.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾.

وفى المائدة: ﴿**فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي**﴾ ذكرها وأنث في المائدة.

أن آية آل عمران من كلام المسيح عليه السلام في ابتداء تحديه بالمعجزة المذكورة ولم تكن صورة بعد فحسن التذكير والإفراد. وآية المائدة من كلام الله تعالى له يوم القيامة معددا نعمه عليه بعد ما مضت وكان قد اتفق ذلك منه مرات، فحسن التأنيث لجماعة ما صوره من ذلك ونفخ فيه. إن خصائص عيسى ابن مريم لا تكون إلا بإذن من الله، فقدرة عيسى عليه السلام أن يصنع من الطين ما هو على هيئة الطير، وإذا نفخ فيه بإذن الله لأصبح طيرا، وكذلك إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، إن ذلك كله بإذن ممن؟ بإذن من الله. وكذلك كان الأمر في تجربة سيدنا إبراهيم، لذلك قال له الحق: ﴿**واعلم أَنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾. إن الله

عزيز أي لا يغلبه أحد. وهو حكيم أي يضع كل شيء في موقعه. وكذلك يبسط الحق قصة الحياة وقصة الموت في تجربة مادية؛ ليطمئن قلب سيدنا إبراهيم، وقد جاءت قصة الحياة والموت؛ لأن الشك عند الذين عاصروا الدعوة المحمدية كان في مسألة البعث من الموت، وكل كلامهم يؤدي إلى ذلك، فهم تعجبوا من حدوث هذا الأمر: ﴿**قالوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ**﴾[المؤمنون:٨٢].

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾.

وفى المائدة: ﴿**وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ**﴾.

أن آية المائدة في خطاب الله تعالى لهم أولا، وفى سياق تعدد نعمه عليهم أولا، فناسب سياقه تأكيد انقيادهم إليه أولا عند إيحائه إليهم.

وآية آل عمران في خطابهم المسيح لا في سياق تعدد النعم

فاكتفى ثانيا بـ (أنَّا) لحصول المقصود.

ونحن هنا أمام معسكرين معسكر الإيمان، ومعسكر الكفر. لقد سأل عيسى ﴿**مَنْ أنصاري إِلَى الله**﴾ أي أنه يسأل عن الذين بإمكانهم أن ينضموا إلى غاية هي الله ونتفهم نحن هذا المعنى على ضوء ما قاله الحق: ﴿**ياأيها الذين آمنوا إِن تَنصُرُواْ الله يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾[محمد:٧]. ونعرف أيضا أن هناك نصراً من المؤمن لله، وهناك نصر من الله للمؤمن. وهكذا يكون سؤال عيسى ابن مريم ﴿**مَنْ أنصاري إِلَى الله**﴾؟ فقد أفاد المعنيين معاً. وكانت الإجابة: ﴿**قَالَ الحواريون نَحْنُ أَنْصَارُ الله آمَنَّا بالله واشهد بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾.

والحواريون مأخوذة من الحور، وهو شدة البياض وهم جماعة أشرقت في وجوههم سيماء الإيمان فكأنها مشرقة بالنور. ونور الوجه لا يقصد به البشرة البيضاء، ولكن نور الوجه في المؤمن يكون بإشراقة الإيمان في النفس، ولذلك يصف الحق المؤمنين برسالة رسول الله محمد ﷺ: ﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ الله وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود**﴾.

فهل يكون إعلانهم للإيمان، يعني إيمانهم بتشريعات رسالة سابقة، لا، إن

الإيمان هنا مقصود به ما جاء به عيسى من عند الله؛ لأن كل رسول جاء بشيء من الله، فوراء مجيء رسول جديد أمر يريد الله إبلاغه للناس، ونحن نعلم أن العقائد لا تغيير فيها؛ وكذلك الأخبار؛ وكذلك القصص، ولكن الأحكام هي التي تتغير. فكأن إعلان الحواريين هو إعلان بالإيمان بما جاء سابقا على عيسى ابن مريم من عقائد وبما جاء به عيسى ابن مريم من أحكام وتشريعات.

وقولهم: ﴿**رَبَّنَآ آمَنَّا بِمَآ أَنزَلَتَ**﴾ كلمة ﴿**بِمَآ أَنزَلَتَ**﴾ تدل على منهج منزل من أعلى إلى أدنى، ونحن حين نأخذ التشريع فنحن نأخذه من أعلى. ولذلك قلنا سابقا: إن الله حينما ينادي من آمن به ليتبع مناهج الإيمان يقول: «تعالوا» أي ارتفعوا إلى مستوى التلقي من الإله وخذوا منه المنهج ولا تظلوا في حضيض الأرض، أي لا تتبعوا أهواء بعضكم وآراء بعضكم أو تشريع بعضكم، وما دام المؤمن يريد العلو في الإيمان، فليذهب بسلوكه في الأرض إلى منهج السماء.

وقولهم: ﴿**رَبَّنَآ آمَنَّا بِمَآ أَنزَلَتَ واتبعنا الرسول**﴾. إن المتبع عادة يقتنع بمن اتبعه أولا، حتى يكون الإتباع صادرا من قيم النفس لا من الإرغام قهرا أو قسرا، فنحن قد نجد إنسانا يرغم إنسانا آخر على السير معه، وهنا لا يقال عن المُرغَم: إنه «اتبع» إنما الذي يتبع، أي الذي يسير في نفس طريق صاحبه يكون ذلك بمحض إرادته ومحض اختياره. فلو سار شخص في طريق شخص آخر بالقهر أو القسر لكان ذلك الاتباع بالقالب، لا بالقلب. ولذلك فمن الممكن لمتجبر أن يمسك سوطا ويقهر مستضعفا على السير معه، وفي ذلك إخضاع لقالب المستضعف، لكنه لم يخضع قلبه، فالإكراه يخضع القالب لكنه لا يخضع القلب. ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ* إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السماء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**﴾ [الشعراء:٣-٤].

إن الحق يخبر رسوله أن أحدا من العباد. لا يستعصي على خالقه، وأنه سبحانه القادر على الإحياء والإماتة، ولو أراد الله أن ينزل آية تخضع أعناق كل العباد لَفَعَل، لكن الحق لا يريد أعناق الناس، ولكنه يطلب القلوب التي تأتي طواعية وبالاختيار، وأن يأتي العبد إلى الإيمان وهو قادر ألا يجيء. هذه هي العظمة الإيمانية. وقال الحواريون بعد إعلانهم الإيمان بما جاء به عيسى: ﴿فاكتبنا مَعَ الشاهدين﴾ إنه الطلب الإيماني العالي الواعي، الفاهم.

إنهم يحملون أمانة التبليغ عن الرسول، ويشهدون كما يشهد الرسل لأممهم، ويطلبون أن يكتبهم الله مع الذين يشهدون أن الرسل يبلغون رسالات الله وأنهم يحملونها من بعدهم؛ ولذلك قلنا عن أمة محمد عليه الصلاة والسلام: إنها الأمة التي حملها الله مهمة وصل بلاغ الرسالة المحمدية إلى أن تقوم الساعة.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾.

ومثله في النحل: ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ الآية.

وفى لقمان: ﴿**إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾،

وفيها: ﴿**إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا**﴾ الآية.

لما تقدم في السورتين ذكر الاختلاف ناسب ذكر الحكم.

بخلاف سورة لقمان لأنها عامة في الأعمال.

إن الذي اتبع واحدا على ضلال يأتي يوم القيامة ليجد أن صاحب الضلال يتبرأ منه، فيقول المتبعون سائلين الله: يارب ارجعنا إلى الدنيا لننتقم ممن خدعونا، هذا من ناحية علاقة البشر بالبشر. أما من ناحية الجسد الواحد نفسه، فسوف نجد شهادة الجلود والألسنة والأيدي، بعد أن تسقط عنها إرادة الإنسان ويسقط تسخير الحق لهذه الجوارح والحواس لخدمة الإنسان، تقول الجوارح والحواس: لقد كانت لصاحبي إرادة ترغمني على أن أفعل ما لا أحب، لكن ها هو ذا يوم القيامة، فلا قهر ولا إرغام ولا تسخير لأن الملك كله لله. لذلك تشهد الألسنة والجلود ولهذا يقول الحق: ﴿**ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾.

إن الحق يحكم فيما كانوا فيه يختلفون لتكون ثمرة الحكم هي ماذا؟ هل هناك تكليف بعد ذلك؟ لا. لكن ثمرة الحكم هي الجزاء. ففي الآخرة لا عمل هنالك، والحكم فيها للجزاء، وكما قلنا: مادام هناك متبعون وكافرون، وجماعة فوق جماعة، وإلى الله مرجعهم، فلا بد لنا أن نرى ما هو الحكم الذي سوف يكون؟ ها هو ذا القول الحكيم: ﴿**فَأَمَّا الذين كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدنيا والآخرة**﴾.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾. وفى البقرة: ﴿**فَلَا تَكُنْ**﴾.

أن آية البقرة تقدمها ﴿**فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا**﴾. فناسب: ولا تكونن، ولم يتقدم هنا ما يقتضيه. قوله تعالى: ﴿**فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾ أي من الشاكين. والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته. يقال: امترى فلان في كذا إذا اعترضه اليقين مرة والشك أخرى فدافع إحداهما بالأخرى، ومنه المراء لأن كل واحد منهما يشك في قول صاحبه. والامتراء في الشيء الشك فيه، وكذا التماري.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا**). وفى الأعراف: ﴿**مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا**﴾ بزيادة (به وبالواو).

أن ﴿**تَصُدُّونَ**﴾ هنا: حال، وإذا كان الفعل حالا لم يدخله الواو.

قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ أي تصرفون عن دين الله ﴿**مَنْ آمَنَ**﴾. وقرأ الحسن "تُصِدون" بضم التاء وكسر الصاد وهما لغتان: صَدّ وأصَدّ؛ مثل صل اللحم وأصَلَّ إذا أنتن، وخم وأخم أيضا إذا تغير. ﴿**تَبْغُونَهَا عِوَجاً**﴾ تطلبون لها، فحذف اللام؛ مثل ﴿**وَإِذَا كَالُوهُمْ**﴾ [المطففين:٣]. يقال: بغيت له كذا أي طلبته. وأبغيته كذا أي أعنته. والعوج: الميل والزيغ "بكسر العين" في الدِّين والقول والعمل وما خرج عن طريق الاستواء. و"بالفتح" في الحائط والجدار وكل شخص قائم؛ عن أبي عبيدة وغيره. ومعنى قوله تعالى: ﴿**يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ**﴾[طه:١٠٨] أي لا يقدرون أن يعوجوا عن دعائه. وعاج بالمكان وعوج أقام ووقف. والعائج الواقف.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾.

معرفا. وفى الأنفال: ﴿**مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ منونا.

أن آية الأنفال نزلت في قتال بدر أولا، وآية آل عمران نزلت في وقعة أحد وثانيا. فبين أولا: أن النصر من عنده لا بغيره من كثرة عَددٍ أو عُددٍ، ولذلك علله

بعزته وقدرته وحكمته المقتضية لنصر من يستحق نصره. وأحال في الثانية على الأولى بالتعريف، كأنه قيل: إنما النصر من عند الله العزيز الحكيم الذي تقدم إعلامكم أن النصر من عنده، فناسب التعرف بعد التنكير.

﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ**﴾ يعني نصر المؤمنين، ولا يدخل في ذلك نصر الكافرين؛ لأن ما وقع لهم من غلبة إنما هو إملاء محفوف بخذلان وسوء عاقبة وخسران ﴿**لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ أي بالقتل. ونظم الآية: ولقد نصركم الله ببدر ليقطع. وقيل: المعنى وما النصر إلا من عند الله ليقطع. ويجوز أن يكون متعلقا بـ "يمددكم"، أي يمددكم ليقطع.

والمعنى: من قتل من المشركين يوم بدر، عن الحسن وغيره. يعني به من قتل من المشركين يوم أحد وكانوا ثمانية عشر رجلا. ومعنى ﴿**يَكْبِتَهُمْ**﴾ يحزنهم؛ والمكبوت المحزون. وروى أن النبي ﷺ جاء إلى أبي طلحة فرأى ابنه مكبوتا فقال: "ما شأنه"؟.

فقيل: مات بعيره. وأصله فيما ذكر بعض أهل اللغة "يكبدهم" أي يصيبهم بالحزن والغيظ في أكبادهم، فأبدلت الدال تاء، كما قلبت في سَبَتَ رأسه وسبده أي حلقه. كبت الله العدو كبتا إذا صرفه وأذله، كبده، أصابه في كبده؛ يقال: قد أحرق الحزن كبده، وأحرقت العداوة كبده.

وتقول العرب للعدو: أسود الكبد.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**﴾.

وفى العنكبوت: ﴿**نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**﴾ بغير واو فى (نِعْمَ).

لما تقدم عطف الأوصاف المتقدمة وهى قوله: (وَالْكَاظِمِينَ، وَالْعَافِينَ، وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا، وَلَمْ يُصِرُّوا، جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ، وَجَنَّاتٌ، وخلود).

ناسب ذلك العطف بالواو المؤذنة بالتعدد والتفخيم. ولم يتقدم مثله في العنكبوت فجاءت بغير واو، كأنه تمام الجملة. مع بيان أوصاف المتقين في قوله: ﴿**الذين يُنفِقُونَ فِي السَّرَّآءِ والضرآء والكاظمين الغيظ والعافين عَنِ الناس والله يُحِبُّ المحسنين**﴾ [آل عمران:١٣٤]. إنهم ينفقون في السراء نفقة الشكر. وينفقون

في الضراء نفقة الذكر والتضرع؛ لأن النعمة حين توجد بسرّاء تحتاج إلى شكر لهذه النعمة، والنعمة حين تنفق في الضراء تقتضي ضراعة إلى الله ليزحزح عن المنفق آثار النقمة والضراء. إذن فهم ينفقون سواء أكانوا في عسر، أم كانوا في يسر.

إن كثيراً من الناس ينسيهم اليسر أن الله أنعم عليهم ويظنون أن النعمة قد جاءت عن علم منهم. وبعض الناس تلهيهم النعمة عن أن يحسوا بآلام الغير ويشغلوا بآلام أنفسهم. لكن المؤمنين لا ينسون ربهم أبداً، وأمره بالإنفاق في العسر واليسر. ولذلك قولوا: فلان لا يقبض يده في يوم العرس ولا في يوم الحبس.

وتتابع أوصاف المتقين: ﴿**والذين إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظلموا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ الله فاستغفروا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذنوب إِلاَّ الله وَلَمْ يُصِرُّواْ على مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [آل عمران:١٣٥]. وفي ذلك لون من تطمين المؤمن على أغيار نفسه، وعلى أنه عندما يستجيب مرة لنزغات الشيطان، فهذه لا تخرجه من حظيرة التقوى؛ لأن الله جعل ذلك من أوصاف المتقين. فالفاحشة التي تكون من نزغ الشيطان وذكر العباد لله بعدها، واستغفارهم مع الإصرار على عدم العودة، لا تخرجهم أبداً عن وصفهم بأنهم متقون. لأن الحق هو الغفور: ﴿**وَمَن يَغْفِرُ الذنوب إِلاَّ الله**﴾. إنهم قد أُخبروا بذلك، فلم يجرم الحق أحداً إلا بنص، ولم يعاقب إلا بجريمة.

وقول الحق سبحانه: ﴿**أولئك جَزَآؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ**﴾ هو إشارة لكل ما سبق. ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى جعل للعاملين بهذا العمل من التقوى قوسين: القوس الأول الذي ابتدأ به هو قوله الحق: ﴿**وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السماوات والأرض أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾.

والقوس الثاني هو الذي أنهى الأمر: ﴿**أولئك جَزَآؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار**﴾. فالجنة الأولى التي ذكرها الله إلهاباً للعواطف النفسية لتقبل على ما يؤدي لهذه الجنة، وبعد ذلك ذكر الأوصاف والأصناف وجعل الجنة أجراً. ﴿**وَنِعْمَ أَجْرُ العاملين**﴾.

والأجر عادة هو ما يأخذه العامل نتيجة العمل. والأجر حين يأخذه العامل نتيجة لعمل يتوقف على تقييم العمل عند صاحب العمل نفسه. فزيادة الأجر ونقصه تقدير من صاحب العمل، وأيضاً تقدير للعامل. فإن طلب أصحاب عمل

متعددون عاملاً محدداً فله أن يطلب زيادة وإن لم يطلبه أحد فهو يقبل أول عرض من الأجر نظير أداء العمل.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ**). وفى فاطر: ﴿**بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ**﴾ بالباء في الثلاثة؟ أن آية آل عمران سياقها الاختصار والتخفيف بدليل حذف الفاعل في "كذب" وورود الشرط ماضيا وأصله المستقبل، فحذف الجار تخفيفا لمناسبة ما تقدم.

قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ**﴾ في موضع خفض بدلا من "الذين" في قوله عز وجل ﴿**لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا**﴾ أو نعت "للعبيد" أو خبر ابتداء، أي هم الذين قالوا. وقال الكلب وغيره. نزلت في كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، ووهب بن يهوذا وفنحاص بن عازوراء وجماعة أتوا النبي ﷺ؛ فقالوا له: أتزعم أن الله أرسلك إلينا، وإنه أنزل علينا كتابا عهد إلينا فيه ألا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن جئنا به صدقناك. فأنزل الله هذه الآية. فقيل: كان هذا في التوراة، ولكن كان تمام الكلام: حتى يأتيكم المسيح ومحمد فإذا أتياكم فآمنوا بهما من غير قربان. وقيل: كان أمر القرابين ثابتا إلى أن نسخت على لسان عيسى ابن مريم. وكان النبي منهم يذبح ويدعو فتنزل نار بيضاء لها دوي وحفيف لا دخان لها، فتأكل القربان. فكان هذا القول دعوى من اليهود؛ إذ كان ثم استثناء فأخفوه، أو نسخ، فكانوا في تمسكهم بذلك متعنتين، ومعجزات النبي ﷺ دليل قاطع في إبطال دعواهم، وكذلك معجزات عيسى؛ ومن وجب صدقه وجب تصديقه.

ثم قال تعالى: إقامة للحجة عليهم. ﴿**قُلْ**﴾ يا محمد ﴿**قَدْ جَاءَكُمْ**﴾ يا معشر اليهود ﴿**رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ**﴾ من القربان ﴿**فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ يعني زكريا ويحيى وشعيا، وسائر من قتلوا من الأنبياء عليهم السلام ولم تؤمنوا بهم. أراد بذلك أسلافهم. وهذه الآية هي التي تلاها عامر الشعبي رضي الله عنه، فاحتج بها على الذي حسن قتل عثمان رضي الله عنه كما بيناه. وإن الله تعالى سمى اليهود قتلة لرضاهم بفعل أسلافهم، وإن كان بينهم نحو من سبعمائة

سنة. والقربان ما يتقرب به إلى الله تعالى من نسك وصدقة وعمل صالح؛ وهو فعلان من القربة.

ويكون اسما ومصدرا؛ فمثال الاسم السلطان والبرهان. والمصدر العدوان والخسران. وكان عيسى بن عمر يقرأ "بقربان" بضم الراء اتباعا لضمة القاف؛ كما قيل في جمع ظلمة: ظلمات، وفي حجرة حجرات. ثم قال تعالى معزيا لنبيه ومؤنسا له. ﴿**فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ**﴾ أي بالدلالات. ﴿**وَالزُّبُرِ**﴾ أي الكتب المزبورة، يعني المكتوبة. والزبر جمع زبور وهو الكتاب. وأصله من زبرت أي كتبت. وكل زبور فهو كتاب؛ وقيل: الزبور من الزبر بمعنى الزجر. وزبرت الرجل انتهرته. وزبرت البئر: طويتها بالحجارة. وقرأ ابن عامر ﴿**بِالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ**﴾ بزيادة باء في الكلمتين. وكذلك هو في مصاحف أهل الشام. ﴿**وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ**﴾ أي الواضح المضيء؛ من قولك: أنرت الشيء أنيره، أي أوضحته: يقال: نار الشيء وأناره ونوره واستناره بمعنى، وكل واحد منهما لازم ومتعد. وجمع بين الزبر والكتاب – وهما بمعنى – لاختلاف لفظهما، وأصلها كما ذكرنا.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ**).

وفي يونس: ﴿**إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ**﴾.

قدم هنا خلق السموات، وأخر عنه في يونس.

لما قال هنا ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ أتبعه بخلقها، ثم ب: ﴿**اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**﴾. وفي يونس لما قال: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا**﴾ إلى قوله: ﴿**لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ**﴾، وإنما ذلك باختلافهما: ناسب ذلك اتباعه بذكر اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

مسألة:

قوله تعالى هنا: ﴿**ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ**﴾ بثم.

وفى غيره: ((**وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ**)) بالواو؟.

لما تقدم قوله تعالى: تقلبهم فى البلاد و ﴿**مَتَاعٌ قَلِيلٌ**﴾ والمراد في الدنيا، وجهنم إنما هي في الآخرة، فناسب: (ثم التي للتراخي. وأية الوعد: عطف جهنم على (سوء الحساب) وهما جميعا في الآخرة، فناسب العطف بالواو.

*****

سورة النساء

مسألة:

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

وفى الأعراف ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

أن آية النساء في آدم وحواء عليهما السلام لأنها خلقت منه، وآية الأعراف، قيل: في قصي، أو غيره من المشركين ولم تخلق زوجته منه، فقال: (وَجَعَلَ)؛ لأن الجعل لا يلزم منه الخلق، فمعناه: جعل من جنسها زوجها.

هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يسمع له ويطاع، لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة. ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة إلا ما روي عن الأصم حيث كان عن الشريعة أصم، وكذلك كل من قال بقوله واتبعه على رأيه ومذهبه، قال: إنها غير واجبة في الدين بل يسوغ ذلك، وأن الأمة متى أقاموا حجهم وجهادهم، وتناصفوا فيما بينهم، وبذلوا الحق من أنفسهم، وقسموا الغنائم والفيء والصدقات على أهلها، وأقاموا الحدود على من وجبت عليه، أجزأهم ذلك، ولا يجب عليهم أن ينصبوا إماما يتولى ذلك. ودليلنا قول الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة:٣٠]، وقوله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾[ص:٢٦]، وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾[النور:٥٥] أي يجعل منهم خلفاء، إلى غير ذلك من الآي.

وأجمعت الصحابة على تقديم الصديق بعد اختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة في التعيين، حتى قالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير، فدفعهم أبو بكر وعمر والمهاجرون عن ذلك.

وقالوا لهم: إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش، ورووا لهم الخبر في ذلك، فرجعوا وأطاعوا لقريش. فلو كان فرض الإمام غير واجب لا في قريش ولا في غيرهم لما ساغت هذه المناظرة والمحاورة عليها، ولقال قائل: إنها ليست بواجبة لا في قريش ولا في غيرهم، فما لتنازعكم وجه ولا فائدة في أمر ليس بواجب. ثم إن الصديق رضي الله عنه لما حضرته الوفاة عهد إلى عمر في الإمامة، ولم يقل له

أحد هذا أمر غير واجب علينا ولا عليك، فدل على وجوبها وأنها ركن من أركان الدين الذي به قوام المسلمين، والحمد لله رب العالمين. يدخل في الشيء لله فإذا اطلع عليه غير الله نشط، فهذا إذا تاب يزيد أن يعيد جميع ما عمل. والثالث: دخل في العمل بالإخلاص وخرج به لله فعرف بذلك ومدح عليه وسكن إلى مدحهم؛ فهذا الرياء الذي نهى الله عنه.

قال سهل: قال لقمان لابنه: الرياء أن تطلب ثواب عملك في دار الدنيا، وإنما عمل القوم للآخرة. قيل له: فما دواء الرياء؟ قال كتمان العمل، قيل له: فكيف يكتم العمل؟

قال: ما كلفت إظهاره من العمل فلا تدخل فيه إلا بالإخلاص، وما لم تكلف إظهاره أحب ألا يطلع عليه إلا الله. قال: وكل عمل اطلع عليه الخلق فلا تعده من العمل. وقال أيوب السختياني: ما هو بعاقل من أحب أن يعرف مكانه من عمله. قال القرطبي: قول سهل.

"والثالث دخل في العمل بالإخلاص" إلى آخره، إن كان سكونه وسروره إليهم لتحصل منزلته في قلوبهم فيحمدوه ويجلوه ويبروه وينال ما يريده منهم من مال أو غيره فهذا مذموم؛ لأن قلبه مغمور فرحا باطلاعهم عليه، وإن كانوا قد اطلعوا عليه بعد الفراغ.

فأما من أطلع الله عليه خلقه وهو لا يحب إطلاعهم عليه فيسر بصنع الله وبفضله عليه فسروره بفضل الله طاعة؛ كما قال تعالى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾.

وبسط هذا وتتميمه في كتاب "الرعاية للمحاسبي"، فمن أراده فليقف عليه هناك. وقد سئل سهل عن حديث النبي ﷺ "أني أسر العمل فيطلع عليه فيعجبني.

قال: يعجبه من جهة الشكر لله الذي أظهره الله عليه أو نحو هذا. فهذه جملة كافية في الرياء وخلوص الأعمال.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ**﴾ الآية. وقال في المائدة: ﴿**وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ**﴾.

لما تقدم في المائدة تفصيل الوضوء وتفصيل واجباته ناسب ذكر واجبات التيمم بقوله: (مِنْهُ)، وأن إيصال بعضه بالبدن شرط.

وآية النساء جاءت تبعا للنهى عن قربان الصلاة مع شغل الذهن، فناسب حذفه. هذه آية التيمم، نزلت في عبدالرحمن بن عوف أصابته جنابة وهو جريح؛ فرخص له في أن يتيمم، ثم صارت الآية عامة في جميع الناس.

وقيل: نزلت بسبب عدم الصحابة الماء في غزوة "المريسيع" حين انقطع العقد لعائشة. أخرج الحديث مالك من رواية عبدالرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة. وترجم البخاري هذه الآية في كتاب التفسير: حدثنا محمد قال: أخبرنا عبدة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: هلكت قلادة لأسماء فبعث النبي ﷺ في طلبها رجالا، فحضرت الصلاة وليسوا على وضوء ولم يجدوا ماء فصلوا وهم على غير وضوء؛ فأنزل الله تعالى آية التيمم.

وهذا بيان لحديث مالك إذا قال: انقطع عقد لعائشة، ولحديث البخاري إذ قال: هلكت قلادة لأسماء.

وفيه أن المكان يقال له الصلصل. وأخرجه الترمذي حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة أنها سقطت قلادتها ليلة الأبواء، فأرسل رسول الله ﷺ رجلين في طلبها؛ وذكر الحديث.

ففي هذه الرواية عن هشام أيضا إضافة القلادة إليها، لكن إضافة مستعير بدليل حديث النسائي. وقال في المكان: "الأبواء"كما قال مالك، إلا أنه من غير شك. وفي حديث مالك قال: وبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العقد تحته. وجاء في البخاري: أن رسول الله ﷺ وجده. وهذا كله صحيح المعنى، وليس اختلاف النقلة في العقد والقلادة ولا في الموضع ما يقدح في الحديث ولا يوهن شيئا منه؛ لأن المعنى المراد من الحديث والمقصود به إليه هو نزول التيمم، وقد ثبتت الروايات في أمر القلادة. وأما قوله في حديث الترمذي: فأرسل رجلين قيل: أحدهما أسيد بن حضير. ولعلهما المراد بالرجال في حديث البخاري فعبر عنهما بلفظ الجمع، إذ أقل الجمع اثنان، أو أردف في أثرهما غيرهما فصح إطلاق اللفظ والله أعلم. فبعثوا في طلبها فطلبوا فلم يجدوا شيئا في وجهتهم، فلما رجعوا أثاروا البعير فوجدوه تحته.

وقد روي أن أصحاب رسول الله ﷺ أصابتهم جراحة ففشت فيهم ثم ابتلوا بالجنابة فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية. وهذا أيضا ليس بخلاف لما ذكرنا؛ فإنهم ربما أصابتهم الجراحة في غزوتهم تلك التي قفلوا منها إذ كان فيها قتال فشكوا، وضاع العقد ونزلت الآية. وقد قيل: إن ضياع العقد كان في غزاة بني المصطلق.

وهذا أيضا ليس بخلاف لقول من قال في غزاة المريسيع، إذ هي غزاة واحدة؛ فإن النبي ﷺ غزا بني المصطلق في شعبان من السنة السادسة من الهجرة، على ما قال خليفة بن خياط وأبو عمر بن عبدالبر، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري. وقيل: بل نميلة بن عبدالله الليثي. وأغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارون، وهم على ماء يقال له المريسيع من ناحية قديد مما يلي الساحل فقتل من قتل وسبى من سبى من النساء والذرية وكان شعارهم يومئذ: أمت أمت.

وقد قيل: إن بني المصطلق جمعوا لرسول الله ﷺ وأرادوه، فلما بلغه ذلك خرج إليهم فلقيهم على ماء. فهذا ما جاء في بدء التيمم والسبب فيه. وقد قيل: إن آية المائدة آية التيمم، على ما يأتي بيانه هناك. قال أبو عمر: فأنزل الله تعالى آية التيمم، وهي آية الوضوء المذكورة في سورة "المائدة"، أو الآية التي في سورة "النساء". ليس التيمم مذكورا في غير هاتين الآيتين وهما مدنيتان.

إذن فكلمة: ﴿**فامسحوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ**﴾ ليس ذلك معناه أن التيمم خَلَف وبديل عن الوضوء فحسب، ففي الوضوء كنت أتمضمض، وكنت أستنشق، وكنت أغسل الوجه، وكنت أغسل اليدين، وأمسح الرأس والأذنين. مثلاً، وأنا أتكلم عن الأركان والسنن. وفي هذه الآية يوضح الحق: ما دامت المسألة بصعيد طيب وتراب فذلك يصح سواء أكانت للحدث الأصغر أم للجنابة، إذن فيكفي أن تمسح بالوجه واليدين. ﴿**فامسحوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ**﴾، وبعض العلماء قال: ضربة واحدة، وبعضهم قال ضربتان وكلها تيسير. وهذا التخفيف مناسب لكلمة العفو، فيقول الحق: ﴿إِنَّ الله كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً﴾ ولكن ماذا حدث هنا ليذكر المغفرة؟ لأنه غفر وستر علينا المشقة في ضرورة البحث عن الماء ويسر ورخص لنا في التيمم.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ وقال في الآية الثانية: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾. أن الآية الأولى نزلت في اليهود، ونخريفهم الكلم افتراء على الله، وقولهم: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ – فناسب ختم الآية بذكر الافتراء العظيم. إن الله يغفر ما دون الشرك بالله، فالشرك بالله قمة الخيانة العظمى؛ وهذا لا غفران فيه وبعد ذلك يغفر لمن يشاء. ويقول الحق في آية أخرى: ﴿قُلْ ياعبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم﴾[الزمر:٥٣].

فهناك بعض من الناس يقولون: إن الله قال: إنه لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، حتى إنهم قالوا: إن ابن عباس ساعة جاءت هذه الآية التي قال فيها الحق: ﴿إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً﴾، قال: «إلا الشرك» وذلك حتى لا تصطدم هذه الآية من الآية الأخرى.

والواقع أنه حين يدقق أولو الألباب فلن نجد اصطداما؛ لأن الذين أسرفوا على أنفسهم. هم من عباد الله الذين آمنوا ولم يشركوا بربهم أحداً، ولكنهم زلُّوا وغووا ووقعوا في المعاصي فهؤلاء يقال عنهم: إنهم مذنبون؛ لأنهم مؤمنون بالله ومعترفون بالذي أنزله، أما المشرك فلم يعترف بالله ولا بما شرع وقنن من أحكام، فما هو عليه لا يسمى ذنبا وإنما هو كفر وشرك. فلا تعارض ولا تصادم في آيات الرحمن. وعندما يقول الحق: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ والذين مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ الله بِذُنُوبِهِمْ والله شَدِيدُ العقاب﴾[آل عمران:١١]. فهذا القول الحكيم متوازن ومُتّسِق، فالذنب يأتي بعد نص، والعقاب من بعد ذلك.

ويقول الحق آمرا رسوله ببلاغ الكافرين: ﴿قُلْ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المهاد﴾. وكل مؤمن يحيا في كنف آخر، أو يهاجر إلى مكان بعيد. فهل يمكن أن يأتي هذا البلاغ إلا ممن يملك مطلق الأسباب؟ لقد قالها الرسول مبلغا عن الله، والمسلمون في حالة من الضعف واضحة ومادام قد قالها، فهي حجة عليه، لأنّ مَن أبلغه إياها وهو الله قادر على أن يفعلها.

﴿قُلْ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ﴾ ليس العقاب في الدنيا فقط، ولكن في الآخرة أيضا ﴿وَتُحْشَرُونَ إلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المهاد﴾ هذه المسألة بشارة لرسول الله ولأصحابه وإنذار للكافرين به، ويتم تحقيقها في موقعة بدر. فسيدنا عمر بن

الخطاب لما نزل قول الله: ﴿**سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر**﴾[القمر:٤٥].

تساءل عمر بن الخطاب: أي جمع هذا؟ إنه يعلم أن المسلمين ضعاف لا يقدرون على ذلك، وأسباب انتصار المسلمين غير موجودة، ولكن رسول الله لم يكن يكلم المؤمنين بالأسباب، إنما برب الأسباب، فإذا ما تحدى وأنذرهم، مع أنه وصحبه ضعاف أمامهم، فقد جاء الواقع ليثبت صدق الحق في قوله: ﴿**سَتُغْلَبُونَ**﴾ ويتم انتصار المسلمين بالفعل، ويغلبون الكافرين.

ألا يُجعل صدق بلاغ الرسول ﷺ فيما يحدث في الدنيا دليل صدق على ما يحدث في الآخرة؟ إن تحقيق ﴿**سَتُغْلَبُونَ**﴾ يؤكد ﴿**وَتُحْشَرُونَ إلى جَهَنَّمَ**﴾. وفي هذه الآية شيئان: الأول؛ بلاغ عن هزيمة الكفار في الدنيا وهو أمر يشهده الناس جميعا، والأمر الآخر هو في الآخرة وقد يُكذبه بعض الناس. وإذا كان الحق قد أنبأ رسوله بأنك يا محمد ستغلب الكافرين وأنت لا تملك أسباب الغَلَبَة عليهم. ومع ذلك يأتي واقع الأحداث فيؤكد أن الكافرين قد تمت هزيمتهم. ومادام قد صدق الرسول ﷺ في البلاغ عن الأولى ولم يكن يملك الأسباب فلابد أن يكون صادقا في البلاغ في الثانية وهي البلاغ عن الحشر في نار جهنم. وبعض المفسرين قد قال: إن هذه المقولة لليهود؛ لأن اليهود حينما انتصر المسلمون في بدر زُلزِلوا زِلزَالا شديدا، فلم يكن اليهود على ثقة في أن الإسلام والمسلمين سينتصرون في بدر، فلما انتصر الإسلام في بدر؛ قال بعض اليهود: إن محمداً هو الرسول الذي وَعَدَنا به الله والأَوْلَى أن نؤمن به فقال قوم منهم: انتظروا إلى معركة أخرى. أي لا تأخذوها من أول معركة، فانتظروا، وجاءت معركة أحد، وكانت الحرب سجالا.

ولنا أن نقول: وما المانع أن تكون الآية لليهود وللمشركين ولمطلق الذين كفروا؟ فاللفظ عام وإن كان قد ورد أن رسول الله ﷺ قد جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال لهم: يا معشر اليهود احذروا مثل ما نزل بقريش وأسْلِموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، فقد عرفتم أني نبيّ مرسل.

فماذا قالوا له؟ قالوا له: لا يَغُرنَّك أنك لقيت قوما أغماراً أي قوما من غمار الناس لم يجربوا الأمور لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، لئن قاتلتنا لعلمت أنّا نحن الناس، فأنزل الله قوله: ﴿**قُلْ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ**﴾.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ**﴾، وقال تعالي في التغابن: ﴿**فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ**﴾.

قدم هنا المؤمن، وأخره ثمة.

أنه لما سمى إبراهيم وآله ناسب تقديم (مؤمن) بخلاف آية التغابن لعموم اللفظ فيه.

قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ**﴾ الآية. نزلت في يهود المدينة وما والاها. قال ابن إسحاق: وكان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظماء يهود، إذا كلم رسول الله ﷺ لوى لسانه وقال: أرعنا سمعك يا محمد حتى نفهمك؛ ثم طعن في الإسلام وعابه فأنزل الله عز وجل: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ**﴾ إلى قوله ﴿**قَلِيلاً**﴾. ومعنى ﴿**يَشْتَرُونَ**﴾ يستبدلون فهو في موضع نصب على الحال، وفي الكلام حذف تقديره يشترون الضلالة بالهدى؛ كما قال تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى**﴾ قاله القتبي وغيره. ﴿**وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ**﴾ عطف عليه، والمعنى تضلوا طريق الحق.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا**﴾.

قال في الأولى: ﴿**وَإِنْ تُحْسِنُوا**﴾.

وفى الثانية: ﴿**وَإِنْ تُصْلِحُوا**﴾.

وختم الأولى: ﴿**بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾.

وختم الثانية بقوله: ﴿**غَفُورًا**﴾؟.

أما الأول: فالمراد به أن يتصالحا على مال تبذله المرأة من مهر أو غيره ليطلقها، فإنه خير من دوام العشرة بالنشوز والإعراض، ثم عذر النساء بقوله تعالى: ﴿**وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ**﴾، ثم قال: (وإن تحسنوا معاشرتهن بترك النشوز

والإعراض فإنه خبير بذلك فيجازيكم عليه.

وعن الثاني: أن العدل بين النساء عزيز ولو حرصتم؛ لأن الميل إلى بعضهن يتعلق بالقلب وهو غير مملوك للإنسان، وإذا كان كذلك فلا تميلوا كل الميل فتصير المرأة كالمعلقة التي لا مزوجة ولا مطلقة، ثم قال: ﴿**وَإِنْ تُصْلِحُوا**﴾ معاشرتهن بقدر الإمكان، وتقوموا بحقوقهن المقدور عليها، فإن الله تعالى يتجاوز عما لا تملكونه من الميل بمغفرته ورحمته.

وإذا كان الكتاب هو القرآن، أليس القرآن مصدقا لما معهم؟

إذن فعندما يدعون ليتم التصديق على ما جاء في كتبهم، فالدعوة هنا لأن يسود حكم القرآن. وما معنى ﴿**يُدْعَوْنَ إلى كِتَابِ الله**﴾، إن الداعي هو الرسول ﷺ، وهم المدعون، وما دام الحق قد قال: ﴿**أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الكتاب**﴾ فهل كان خلافهم في النصيب الذي بين أيديهم أم النصيب المحذوف؟ إنه خلاف بينهم في النصيب الذي بين أيديهم، ليكون ذلك حجة على أنهم غير مأمونين حتى على ما وصل إليهم وما هو مكتوب عندهم.

وعندما تكلم العلماء عن هذه المسألة أوردوا لذلك الأمر حادثة. لقد اختلفوا في أمر سيدنا إبراهيم، وقالوا: إن سيدنا إبراهيم يهودي وقال بعضهم: إنه نصراني. وجاء القرآن حاسما: ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ المشركين**﴾[آل عمران:٦٧].

لماذا؟ لأن كلمة يهودي ونصراني قد جاءت بعد إبراهيم، وكان لا بد لهم أن يخرجوا من قلة الفطنة وأن يرتبوا الأحداث حسب زمنها، إذن ففي إي أمر اختلفوا؟ هل اختلفوا في أمر النبي محمد ﷺ؟ هل اختلفوا في حكم موجود عندهم في التوراة؟ لقد كانت الدعوة موجهة إليهم في ماذا؟ إنهم ﴿**يُدْعَوْنَ إلى كِتَابِ الله لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ**﴾، وذلك يدل على أن كلمة: ﴿**بَغْياً بَيْنَهُمْ**﴾[آل عمران:١٩].

هي حالة شائعة بينهم، لماذا؟ لأن العلماء حينما ذكروا الحادثة التي دعوا للحكم فيها بكتاب الله، قال العلماء: إن اثنين من يهود خيبر - امرأة - خيبرية ورجل من خيبر، قد زنيا، وكان الاثنان من أشراف القوم، ويريد الذي يحكمون في هذا الأمر بكتاب التوراة ألا يبرزوا حكم الله الذي جاء بالتوراة، وهو الرجم، فاحتالوا حيلة، وهي أن يذهبوا إلى رسول الله ﷺ. ولماذا يذهبوا في هذه الجزئية إلى رسول

الله ﷺ؟ إننا نأخذ مجرد الذهاب إلى رسول الله ارتضاء لحكمه.

لكن لماذا لم يرتضوا من البداية بكل ما جاء به رسول الله؟

لقد أرادوا أن يذهبوا لعلهم يجدون نفعا في مسألة يبغونها، أما في غير ذلك فهم لا يذهبون إلى رسول الله ﷺ، إن مجرد ذهابهم إلى رسول الله ﷺ يعطينا فكرة عنهم، لقد كانوا يريدون حكما مخففا غير الرجم. إن الزاني وهو من خيبر والخيبرية الزانية أرادا أن يستنقذا أنفسهما من حكم التوراة بالرجم، إنهما من أشراف خيبر، ولأن اليهود قد صنعوا لأنفسهم في ذلك الوقت سلطة زمنية، فذهب الزاني والزانية ومعهما الأحبار الذين يريدون أن يلووا حكم الله السابق نزوله في التوارة وهو الرجم. وعندما دخلوا على رسول الله كان هناك واحد اسمه «النعمان بن أوفى»، وواحد اسمه «بحرى بن عمرو»، فقالوا: يارسول اقض بين هؤلاء، فقال رسول الله ﷺ ما معناه: أوَ ليس عندكم حكم؟ وأضاف رسول الله ما معناه: أنا احتكم إلى التوراة وهي كتابكم، فماذا قالوا:؟قالوا: أنصفتنا.

وكان رسول الله قد بين لهم حكم الإسلام في الزنا بأنه الرجم، وجيء بالجزء الباقي عندهم من التوراة لرسول الله ﷺ الذي يتضمن الحكم الملزم دليلا على أن الله أطلعه على أشياء لم تكن في بال أحد. فدعا بقسم من التوراة، وقال رسول الله ﷺ ما معناه: أيكم أعلم بالتوراة؟ فقالوا شخص اسمه عبد الله بن صورية فأحضروه، وأعطاه التوراة، وقال: اقرأ مجلس عبد الله بن صورية يقرأ، فلما مر على آية الرجم وضع كفه عليها ليخفيها، وقرأ غيرها وكان عبد الله بن سلام حاضرا، فقال: يا رسول الله أما رأيته قد ستر بكفه آية وقرأ ما بعدها؟ وزحزح ابن سلام كف الرجل، وقرأ هو فإذا هي آيةُ الرجم.

هذه المسألة تعطينا أن الحكم في القرآن الكريم هو الحكم في التوراة في أمر الزنا، وتعطينا أيضا أن رسول الله ﷺ أفاض الله عليه من إلهاماته فجاء بالجزء من التوراة الذي يحمل هذا النص. وجاء بعد ذلك جندي من جنود الله هو عبد الله بن سلام وكان يهوديا قد أسلم ليظهر به رغبة القوم في التزييف والتزوير.

وإسلام عبد الله بن سلام له قصة عجيبة، فبعد أن اختمر الإيمان في قلبه، جاء إلى رسول الله قائلا: لقد شرح الله صدري إلى الإسلام ونطق بكلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ولكني أحب قبل أن أعلن إسلامي أن تحضر رؤساء

اليهود لتسألهم رأيهم في شخصي؛ لأن اليهود «قوم بهت» فيهم افتراء وفيهم الكذب وفيهم التضليل، فلما سأل رسول الله ﷺ رؤساء اليهود عن رأيهم في عبد الله بن سلام قالوا: سيدنا وابن سيدنا وحبرنا، إلخ. وأفاضوا في صفات المدح والإطراء والتقدير. فقال عبد الله بن سلام أمامهم: الآن أشهد ألا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، فانقلب رؤساء اليهود، وقالوا في عبد الله بن سلام: عكس ما قالوه أولا، قالوا: إنه خبيثنا وابن خبيثنا، إلخ.

لقد غيروا المديح إلى ذم. فقال عبد الله بن سلام: يا رسول الله أما قلت لك: إنهم قوم بهت؟ والله لقد أردت أن أعلمك برأيهم في قبل أن أسلم. ذلك هو عبد الله بن سلام الذي زحزح كف عبد الله بن صورية عن النص الذي فيه آية الرجم في التوراة، وفي ذلك جاء القول الحق: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الكتاب يُدْعَوْنَ إلى كِتَابِ الله لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يتولى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ**﴾ إنهم الذين أعرض فريق منهم عن قبول الحق.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ... وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا**﴾. ﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا**﴾. ما فائدة تكرار ذلك عن قرب. أن التكرار إذا كان لاقتضائه معاني مختلفة فهو حسن، وهذا كذلك، لأن الأولى بعد قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ**﴾؛ لأن له ما في السموات وما في الأرض فهو قادر على ذلك، ولذلك ختم لقوله تعالى: ﴿**وَاسِعًا حَكِيمًا**﴾. والثانية: بعد أمره بالتقوى، فبين أن له ما في السموات وما في الأرض، فهو أهل أن يتقى، ولذلك قال تعالى: ﴿**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ**﴾.

قال المهدوي: وجه اتصال هذا بما قبله أنه لما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين وأنه لا يريد ظلما للعالمين، وصله بذكر اتساع قدرته وغناه عن الظلم لكون ما في السموات وما في الأرض في قبضته، وقيل: هو ابتداء كلام، بين لعباده أن جميع ما في السموات وما في الأرض له حتى يسألوه ويعبدوه ولا يعبدوا غيره. ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد، وشج في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه ويقول: "كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله تعالى"، فأنزل الله تعالى: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾. قال

الضحاك: هَمَّ النبي ﷺ أن يدعو على المشركين فأنزل الله تعالى: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾. وقيل: استأذن في أن يدعو في استئصالهم، فلما نزلت هذه الآية علم أن منهم من سيسلم وقد آمن كثير منهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم. وروى الترمذي عن ابن عامر قال: وكان النبي ﷺ يدعو على أربعة نفر فأنزل الله عز وجل: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾. فهداهم الله للإسلام وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح. وقوله تعالى: ﴿**أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ**﴾. قيل: هو معطوف على ﴿**لِيَقْطَعَ طَرَفاً**﴾. والمعنى: ليقتل طائفة منهم، أو يحزنهم بالهزيمة أو يتوب عليهم أو يعذبهم. وقد تكون "أو" ها هنا بمعنى "حتى" و"إلا أن".

إذن فالحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾، فإياك أن تقول كون الله سيضيق عن رزق الرجل المفارق لزوجته أو المرأة المفارقة لزوجها من عطاء الله لهما فما دام سبحانه قد قرر الفراق كحل لعدم توافق في حياتهما معاً. فهو سبحانه سيعطي عن سعة للزوج وعن سعة للزوجة. وعليك أيها المسلم أن تطيع منهج الحق كما أطاع كل ما في السموات وكل ما في الأرض، ثم اسأل نفسك هذا السؤال: مَن يقضي مصالحك كلها؟.

إنه الحق سبحانه الذي سخر أشياء ليست في طوق قدرتك، أأرغمت الشمس أن تشرق لك بالضوء والحرارة؟. أأرغمت الماء أن يتبخر وينزل مطراً نقيًّا؟ أأرغمت الريح أن تهب؟ أضربت الأرض لتقول لها: غذّي ما أضعه فيك من بذر بالعناصر اللازمة له والمحتاج إليها لينتج النبات؟. كل هذا ليس في طوق إرادتك بل هو مسخر لك بأمر الله. وإن أردت الاستقامة في أمرك، لكنت كالمسخر فيما جعل الله لك فيه اختيار ولقلت لله: أنا أحب منهجك يا رب وما يطلبه مني سأنفذه قدر استطاعتي. فتكون بقلبك وقالبك مع أوامر المنهج ونواهيه، فينسجم ويتوافق الكون معك كما انسجم الكون المسخر المقهور المسير. ﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾، وهذا تذكير بأن كل شيء مملوك لله وفي طاعته، فلا تشذ أيها الخليفة لله عن الكون، فكل ما فيه يخدمك. ولتسأل نفسك: أتعيش في ضوء منهج الله أم لا؟ لأن الكون قد انسجم وهو مسخر لله، ولم يحدث أي خلل في القوانين الكلية، وسبحانه القائل: ﴿**والسمآء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان* أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِي الْمِيزَانِ* وَأَقِيمُواْ الوزن بالقسط وَلاَ تُخْسِرُواْ الْمِيزَانِ**﴾[الرحمن: ٧–٩]. وهذا إيضاح من الحق تبارك وتعالى: إن أردتم أن تستقيم لكم أموركم الاختيارية فانظروا إلى الكون، فالأشياء

المسخرة لا يحدث منها خلل على الإطلاق، ولكن الخلل إنما يأتي من اختيارات الإنسان لِغير منهج الله.

مسألة:

قال تعالى: ﴿**كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ**﴾؟.

وفى المائدة: ﴿**قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ**﴾؟. أن الآية هنا تقدمها نشوز الرجال وإعراضهم عن النساء والصلح على مال، وإصلاح حال الزوجين، والإحسان إليهن، وقوله تعالى: ﴿**وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ**﴾، وقوله تعالي: ﴿**وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ**﴾، وشبه ذلك، فناسب تقديم القسط وهو العدل أي: كونوا قوامين بالعدل بين الأزواج وغيرهن، واشهدوا لله لا لمراعاة نفس أو قرابة. وأية المائدة: جاءت بعد أحكام تتعلق بالدين، والوفاء بالعهود والمواثيق لقوله تعالى في أول السورة: (أوفوا بالعقود) إلى آخره، وقوله تعالى قبل هذه الآية: ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ**﴾ الآية. ولما تضمنته الآيات قبلها من أمر ونهى، فناسب تقديم: (لله) أي: كونوا قوامين بما أمرتم أو نهيتم لله، لماذا شهدتم فاشهدوا بالعدل لا بالهوى.

قال ابن شهاب الزهري: كان من مضى من السلف الصالح يجيزون شهادة الوالدين والأخ، ويتأولون في ذلك قول الله تعالى: ﴿**كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ**﴾ فلم يكن أحد يتهم في ذلك من السلف الصالح رضوان الله عليهم. ثم ظهرت من الناس أمور حملت الولاة على اتهامهم، فتركت شهادة من يتهم، وصار ذلك لا يجوز في الولد والوالد والأخ والزوج والزوجة، وهو مذهب الحسن والنخعي والشعبي وشريح ومالك والثوري والشافعي وابن حنبل. وقد أجاز قوم شهادة بعضهم لبعض إذا كانوا عدولا. وروي عن عمر بن الخطاب أنه أجازه؛ وكذلك روي عن عمر بن عبدالعزيز، وبه قال إسحاق والثوري والمزني. ومذهب مالك جواز شهادة الأخ لأخيه إذا كان عدلا إلا في النسب.

وروى عنه ابن وهب أنها لا تجوز إذا كان في عياله أو في نصيب من مال يرثه. وقال مالك وأبو حنيفة: شهادة الزوج لزوجته لا تقبل؛ لتواصل منافع الأملاك بينهما وهي محل الشهادة. وقال الشافعي: تجوز شهادة الزوجين بعضهما لبعض؛ لأنهما أجنبيان، وإنما بينهما عقد الزوجية وهو معرض للزوال. والأصل قبول

الشهادة إلا حيث خص فيما عدا المخصوص فبقي على الأصل؛ والزوجية توجب الحنان والمواصلة والألفة والمحبة، فالتهمة قوية ظاهرة. وقد روى أبو داود من حديث سليمان بن موسى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ رد شهادة الخائن والخائنة وذي الغمر على أخيه، ورد شهادة القانع لأهل البيت وأجازها لغيرهم.

قال الخطابي: ذو الغمر الذي بينه وبين المشهود عليه عداوة ظاهرة، فترد شهادته عليه للتهمة. وقال أبو حنيفة: شهادته على العدو مقبولة إذا كان عدلا. والقانع السائل والمستطعم، وأصل القنوع السؤال. ويقال في القانع: إنه المنقطع إلى القوم يخدمهم ويكون في حوائجهم؛ وذلك مثل الأجير أو الوكيل ونحوه. ومعنى رد هذه الشهادة التهمة في جر المنفعة إلى نفسه؛ لأن القانع لأهل البيت ينتفع بما يصير إليهم من نفع. وكل من جر إلى نفسه بشهادته نفعا فشهادته مردودة؛ كمن شهد لرجل على شراء دار هو شفيعها، أو كمن حكم له على رجل بدين وهو مفلس، فشهد المفلس على رجل بدين ونحوه. قال الخطابي: ومن رد شهادة القانع لأهل البيت بسبب جر المنفعة فقياس قوله أن يرد شهادة الزوج لزوجته؛ لأن ما بينهما من التهمة في جر المنفعة أكثر؛ وإلى هذا ذهب أبو حنيفة. والحديث حجة على من أجاز شهادة الأب لابنه؛ لأنه يجر به النفع لما جبل عليه من حبه والميل إليه؛ ولأنه يمتلك ماله، وقد قال ﷺ: "أنت ومالك لأبيك". وممن ترد شهادته عند مالك البدوي على القروي؛ قال: إلا أن يكون في بادية أو قرية، فأما الذي يشهد في الحضر بدويا ويدع جيرته من أهل الحضر عندي مريب. وقد روى أبو داود والدارقطني عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية". قال محمد بن عبدالحكم: تأول مالك هذا الحديث على أن المراد به الشهادة في الحقوق والأموال، ولا ترد الشهادة في الدماء وما في معناها مما يطلب به الخلق. وقال عامة أهل العلم: شهادة البدوي إذا كان عدلا يقيم الشهادة على وجهها جائزة؛ والله أعلم.

والحق يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بالقسط**﴾، فأنت أيها المؤمن قد فعلت بالعقل أول مرتبة في القسط؛ ورددت الإيمان إلى الرب فهو المستحق له فقط، بل لابد أن تكون الشهادة لله. لماذا؟.

هب أن رجلاً كافراً بالله - والعياذ بالله - ويقيم العدل بين الناس لكنه لا

يدخل بذلك في حيثية الإيمان، فالذي يدخل في حيثية الإيمان يكون قائماً بالقسط وفي باله الله وبذلك تكون الشهادة وإقامة حقوق الله لا لمنفعةٍ ولا لغايةٍ ولا لهوى ولا لغرضٍ، وإنما ليستقيم كون الله كما أراد الله، وإلا لو حكم أحد بهوى لفسدت الأرض، والحق يقول: ﴿**وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض وَمَن فِيهِنَّ**﴾ [المؤمنون: ٧١]، لذلك لا بد أن يكون المؤمن قوّاماً بالقسط وفي باله الله، ولذلك فالقيام بالقسط وحده لا يكفي، ونحن نسمع: فلان عادل ولو أنه من ديانة أخرى غير الإسلام أو كان ملحداً.

ونقول: هذا العادل من أي دين أو عقيدة غير الإسلام يأخذ ثناء البشر لكنه لا يأخذ ثناء الله ولا ثوابه، ولذلك فالقوّام بالقسط يجب أن يفعل بقصد امتثال أمر الله لينال الثواب من الله. ﴿**كُونُواْ قَوَّامِينَ بالقسط شُهَدَآءَ للَّهِ وَلَوْ على أَنْفُسِكُمْ**﴾ والشاهد في العادة هو من يشهد لمصلحة واحد ضد آخر، وعندما يقر الشاهد بذنب فهو قد شهد على نفسه، والشاهد لمصلحة واحد إنما يفعل ذلك ليرجح الحكم، والشاهد على نفسه يقر بما فعل، والإقرار سيد الأدلة. وشهادة الشاهد تقدم للقاضي الدليل الذي يرتب عليه الحكم. وهكذا يشهد المؤمن على نفسه.

وهناك معنى آخر: أنه يشهد على نفسه ولو كانت الشهادة تجر وبالا عليه، وهذه المعاني من معطيات الإشعاعات القرآنية؛ فالمؤمن يشهد على نفسه للإقرار، وقد لا تكون الشهادة على النفس بل قد تكون الشهادة واجبة عليه يؤديها لمصلحة غيره ولا يخاف فيها الشاهد من السلطان حتى وإن جار السلطان على المؤمن وأصابه بوبال في نفسه أو ماله، ومن الناس من أصابه وبال في نفسه أو أهله من السلطان لمجرد كلمة حق قيلت. فالسلطان قد لا يأخذ الإنسان بذنبه، بل قد يأخذ أهل الإنسان بهذا الذنب. والحق يوضح للعبد: لا تهتم بذلك ولا تقولن سيعذبون العيال أو سيأخذون كل شيء، إنني أنا الموجود المتكفل بعبادي.

ويطلب الحق من المؤمنين: ﴿**كُونُواْ قَوَّامِينَ بالقسط شُهَدَآءَ للَّهِ وَلَوْ على أَنْفُسِكُمْ أَوِ الوالدين والأقربين**﴾. وحين يشهد الإنسان على نفسه فلن يكون أبوه أو أمه أو أحد أقاربه أعز منه. ثم يدخل بنا الحق إلى أن استحثاثات مخالفة العدالة تدخل فيها الأهواء، وحين يرجح إنسان الباطل غير الواقع على حق واقع، فالمرجح هو هوى النفس، ومنشأ الهوى أن يكون المشهود عليه غنياً فيخاف الإنسان أن يشهد عليه، فيمنعه من خير ما.

مسألة:

قوله تعالى: **﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾** وفى الأحزاب: **﴿إِنْ تُبْدُوا شَيئاً أَوْ تُخْفُوهُ﴾**؟.

أن ذكر الخير هنا لمقابلة ذكر السوء في قوله تعالى: **﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ﴾** عند الجهر به إلا من المظلوم بدعاء أو استنصار، ثم نبه على ترك الجهر من المظلوم إما بعدم المؤاخذة أو العفو. وأية الأحزاب في سياق علم الله تعالى بما في القلوب لتقدم قوله تعالى: **﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾**، ولذلك قال: (شيئا) لأنه أعم من الخاصة. والمراد: إن تبدو في أمر نساء النبي ﷺ شيئا أو تخفوه تخويفا لهم. دعا إلى الإحسان بقوله: **﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً﴾**، إلى غير ذلك من الآيات. فإذا عرفت هذا، فاعلم أن العدل في اللغة: القسط والإنصاف، وعدم الجور، وأصله التوسط بين المرتبتين؛ أي: الإفراط والتفريط، فمن جانب الإفراط والتفريط فقد عدل، والإحسان مصدر أحسن، وهي تستعمل متعدية بالحرف نحو: أحسن إلى والديك.

ومنه قول تعالى عن يوسف: **﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾**، تستعمل متعدية بنفسها؛ كقولك: أحسن العامل عمله، أي: أجاده وجاء به حسناً. والله جل وعلا يأمر بالإحسان بمعنييه المذكورين، فهما داخلان في الآية الكريمة، لأن الإحسان إلى عباد الله لوجه الله عمل أحسن فيه صاحبه. وقد فسر النَّبي ﷺ الإحسان في حديث جبريل بقوله: "أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

مسألة:

قوله تعالى: **﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾** الآية.

وفى الأنعام: **﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾** الآيات.

رتبهم هنا غير ترتيبهم في الأنعام؟

أن آية النساء نزلت ردا إلى قوله تعالى: **﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا﴾**، وهذا على قول المشركين حتى **﴿تنزل علينا كتابا نقروه﴾**، فبين هنا

أنه ليس كل الأنبياء أنزل عليهم كتابا، بل بعضهم بوحي، وبعضهم بكتب، وبعضهم بصحف، فقدم نوحا لعدم كتاب نزل عليه مع نبوته، وأجمل النبيون من بعده، ثم فصلهم: فقدم إبراهيم لإنزال صحفه، وتلاه بمن لا كتاب له، ثم قدم عيسى للإنجيل، ثم تلاه بمن لا كتاب له، وهم: أيوب ومن بعده، ثم قدم داود وزبوره، وتلاه بمن كتاب له ممن قصهم أو لم يقصهم، ثم ذكر موسى لبيان أن تشريفه للأنبياء ليس بالكتب ولذلك خص بعضهم بما شاء من أنواع الكرامات إما بتكليم أو إسراء، أو إنزال كتاب، أو صحيفة، أو وحي على ما يشاء، فناسب هذا الترتيب ما تقدم. أما آيات الأنعام: فساقها في سياق نعمه على إبراهيم ومن ذكره من ذريته ففرق بين كل اثنين منم بما اتفق لهما من وصف خاص بهما: فداود وسليمان بالملك والنبوة، وأيوب ويوسف بنجاتهم من الابتلاء: ذاك بالمرض وهذا بالسجن، وموسى وهارون بالأخوة والنبوة، وزكريا ويحيى بالشهادة، وعيسى وإلياس بالسياحة، وإسماعيل واليسع بصدق الوعد، ويونس ولوط بخروج كل واحد منهما من قرية من بعث إليه، ونجاة يونس من الحوت، ولوط من هلاك قومه، والله أعلم. وحين تستمع للقرآن وما فيه من سر الأعداد والإخبار بالمغيبات التي لا تخضع لمنطق الزمان، ولا لمنطق المكان، فالفطرة السليمة توقن أن هذا القرآن لا يمكن أن يُفتَرى، بل لا بد أن قائله ومُنزِّله عليم خبير؛ لأن القرآن جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتب السابقة.

أي: أن ما به دائماً هو أمام الناس، أو مواجه لهم، وهو كتاب مصدِّق للكتب السابقة من قبل تحريفها كالتوراة والإنجيل والزبور، وهي الكتب التي سبقت القرآن نزولاً، لا واقعاً، فجاء القرآن مصدِّقاً لها. أي: هي تصدقه، وهي يصدقها من قبل تحريفها، وهي الكتب التي بشَّرت بمحمد ﷺ رسولاً، مثلما جاء في القرآن عن تصديق عيسى عليه السلام بمجيء محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿**وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسمه أَحْمَدُ**﴾[الصف:٦].

فلما جاء أحمد محمد ﷺ ونزل عليه القرآن صدَّق الإنجيل في قوله هذا، وما جاء في القرآن من عقائد أصيلة هي عقائد جاءت بها كل الكتب السماوية، فالحق سبحانه يقول: ﴿**إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلى نُوحٍ والنبيين مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَآ إِلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسباط وعيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً**﴾[النساء:١٦٣]. ويقول الحق سبحانه: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ**

الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾[الشورى:١٣].

إذن: فهناك أصول جاءت بها كل الكتب السماوية، وهناك كذلك أخبار أخبرت عن حدوثها الكتب السماوية، وأبلغنا رسول الله ﷺ بالقرآن وفيه تلك الأخبار، فمن أين جاء محمد ﷺ بتلك العقائد الصحيحة، وتلك الأخبار الموجودة في الكتب السابقة، وهو ﷺ لم يكن من أهل الكتاب، ولا عَلِمَ منهم شيئاً.

إذن: فعندما يقول محمد ﷺ ما جاء ذكره في الكتب السابقة على القرآن، فهذه الكتب مصدقة لما جاء به محمد ﷺ؛ لأن هذه الأخبار قد وقعت، وهذا تأكيد لصدقه؛ لأنه بشهادة أهل زمانه لم يجلس إلى معلِّم، ولم يقرأ كتاباً، وتاريخه وسيرته معروفة؛ لأنه من أنفسكم، ولم يُعْلَم عنه أنه قد زاول كلاماً بليغاً، أو خطب في قوم قبل الرسالة، أو قال شعراً.

وبعد ذلك فوجىء هو كما فوجئتم أنتم، بمجيء هذا البيان الرائع، فمن أين جاء به؟

أنتم تقولون إنه هو الذي جاء به، لكنه ﷺ ينسب الرفعة لصاحبها، ويعلن أنه ﷺ مُبلِّغ فقط، فيقول ما أمره الله به أن يقوله: **﴿قُل لَّوْ شَآءَ الله مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾**.

ويحضُّ القرآن الكريم النبيَّ ﷺ أن يسألهم: هل لاحظوا على كلماته من قبلُ البلاغةَ والفصاحةَ أو الشعرَ؟! ولننظر في «ماكُنَّات» القرآن الكريم، وهي الآيات التي يقول فيها الحق سبحانه: **﴿وَمَا كُنتَ﴾** مثل قوله سبحانه:

﴿ذلك مِنْ أَنَبَآءِ الغيب نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾[آل عمران:٤٤]. وهذا أمر ثابت في الأخبار.

*****

سورة المائدة

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾.

وقال في الفتح: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾

وقال هنا: (**لَهُمْ**) وفى الفتح: (**مِنْهُمْ**).

أن آية المائدة عامة غير مخصوصة بقوم بأعيانهم، وأية الفتح خاصة بأصحاب النبى ﷺ وكان من جملة من صحبه منافقون فقال (**مِنْهُمْ**) وتمييزا وتفضيلا ونصا عليهم بعد ما ذكر من جميل صفاته.

وأيضا: آية المائدة بعد ما قدم خطاب المؤمنين مطلقا بأحكام، فكأنه قال: من عمل بما ذكرناه له مغفرة وأجر عظيم، فهوعام غيرخاص بمعينين. وأفضل الأعمال: العدل في الأحكام. قال عليه الصلاة والسلام: "المُقسِطُونَ عَلَى مَنَابِرَ مِن نُورٍ يومَ القيامة" الحديث، هو من السبعة الذين يظلهم الله في ظله.

ثم ذكر وعيد ضدهم، فقال: ﴿**والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم**﴾ كما هو عادته تعالى، يشفع بضد الفريق الذي يذكر أولاً، وفاءً لحق الدعوة، وفيه مزيد وعد للمؤمنين وتطيب لقلوبهم. وهذه الآية في مقابلة قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ**﴾ [النَّساء:٥٨] وتكميل لها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أمر الحق جل جلاله شيوخ التربية أن يعدلوا بين الفقراء في النظرة والإمداد، ولا يحملهم سوء آدب أحدهم، أو قلة محبته وصدقه، أن يبعده أو يمقته؛ لأن قلوبهم صافية، لا تحمل الكدر، فهم يحسنون إلى من أساء إليهم من العوام، فضلاً عن أصحابهم؛ فهم مأمورون بالتسوية بينهم في التذكير والإمداد. والله تعالى يقسم بينهم على قدر صدقهم ومحبتهم، كما قال ﷺ: "إنما أنا قاسمٌ والله مُعطي"، أي: إنما أنا أُبين كيفية التوصل إلى الحق، والله تعالى يتولى إعطاء ذلك لمن يشاء من خلقه، فالأنبياء والأولياء مثلهم في بيان الطريق بالوعظ والتذكير، كمن

يُبين قسمة التركة بالقلم، والحاكم هو الذي يوصل إلى كل واحد من الورثة ما كان يَنُوبُه في التركة، كذلك المذكِّر والمربي، بين المقامات، والله يعطي ذلك بحكمته وفضله. والله تعالى أعلم.

وقيل: نزلت في قضية غَورث، وذلك أن النبي ﷺ كان ببطن نخلة حاصرًا لغطفان، فقال رجل منهم: هل لكم في أن أقتل محمدًا فأفتك به؟ قالوا: وددنا ذلك، فأتى النبيَّ ﷺ متقلدًا سيفه، فَوجد النبي ﷺ نازلاً تحت شجرة قد تفرق أصحابه عنه، وقد علق سيفه في الشجرة، فسله الأعرابي، وقال: من يمنعك مني؟ وفي رواية: وجد النبي ﷺ نائمًا فاستل السيف، فما استيقظ النبي إلا والسيف في يد الأعرابي، فقال: من يمنعك من يا محمد؟ فقال: "الله"، فأسقطه جبريل من يده، وأخذه النبي ﷺ فقال: "وأنت، من يمنعك مني؟"، فقال: كن خير آخذ، فعفى عنه عليه الصلاة والسلام. زاد البيضاوي: أنه أسلم.

وقيل: نزلت في صلاة الخوف حين همَّ المشركون أن يُغِيرُوا على المسلمين في الصلاة. فالله تعالى أعلم. ثم قال تعالى: ﴿**واتقوا الله**﴾ فلا تشهدوا معه سواه، وتوكلوا عليه يكفكم أمر عدوكم، ﴿**وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ فإنه يكفيكم أمرهم جلبًا ودفعًا، من توكل على الله كفاه.

الإشارة: ما جرى على النبي ﷺ من قصد القتل والإذاية يجري على خواص ورثته، وهم الأولياء - رضي الله عنهم - والعلماء الأتقياء، فقد هَمَّ قوم بقتلهم وسجنهم وضربهم، وإجلائهم من أوطانهم، فكف الله أيديهم عنهم، وكفاهم شرهم، لمّا صححوا التوكل عليه، وأخلصوا الوجهة إليه، ومنهم من لحقه شيء من ذلك، كما لحق بعض الأنبياء عليهم السلام.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ**﴾.

وقال بعد ذلك: **(مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ)**؟.

أن الأولى هنا وآية النساء ربما أريد بها التحريف الأول عند نزول التوراة ونحو تحريفهم في قولهم موضع (حطة): حنطة، وشبه ذلك. فجاءت (عن) لذلك.

والآية الثانية: تحريفهم في زمن النبى - ﷺ -، وتغييرهم عن المقول لهم في

التوراة بغير معناه كأنه قال من بعد ما عملوا به واعتقدوه وتدينوا به كآية الرجم ونحوها، فـ (عن) لما قرب من الأمر، و (بعد) لما بعد.

قوله تعالى: ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ**﴾ أي يتأولونه على غير تأويله، ويلقون ذلك إلى العوام. وقيل: معناه يبدلون حروفه ﴿**يُحَرِّفُونَ**﴾ في موضع نصب، أي جعلنا قلوبهم قاسية محرفين.

وقرأ السلمي والنخعي ﴿الكلام﴾ بالألف وذلك أنهم غيروا صفة محمد ﷺ وآية الرجم. ﴿**وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ**﴾ أي نسوا عهد الله الذي أخذه الأنبياء عليهم من الإيمان بمحمد ﷺ. وبيان نعته. ﴿**وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ**﴾ أي وأنت يا محمد لا تزال الآن تقف ﴿**عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ**﴾ والخائنة الخيانة؛ قال قتادة: وهذا جائز في اللغة، ويكون مثل قولهم: قائلة بمعنى قيلولة. وقيل: هو نعت لمحذوف والتقدير فرقة خائنة. وقد تقع ﴿**خَائِنَةٍ**﴾ للواحد كما يقال: رجل نسابة وعلامة؛ فخائنة على هذا للمبالغة؛ يقال: رجل خائنة إذا بالغت في وصفه بالخيانة.

ويقول الحق: ﴿**يُحَرِّفُونَ الكلم عَن مَّوَاضِعِهِ**﴾ مثل ذلك نقلهم أمر الله الذي طلب منهم أن يقولوا: «حطة»، فقالوا: «حنطة» ﴿**وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِرُواْ بِهِ**﴾ وكانت وسائل النسخ في الكتب التي سبقت القرآن هي نسيان حظٍّ مما ذكروا به، والنسيان قد يكون عدم قدرة على الاستيعاب، لكنه أيضاً دليل على أن المنهج لم يكن على بالهم. فلو كانت كتب المنهج على بالهم لظلوا على ذكر منه، كما أنهم كتموا ما لم ينسوه، والذي لم ينسوه ولم يكتموه حرّفوه ولووا ألسنتهم به. وياليت الأمر اقتصر على ذلك، ولكنهم جاءوا بأشياء وأقاويل وقالوا إنها من عند الله وهي ليست من عند الله: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ**﴾ [البقرة:٧٩]. هي أربعة ألوان من التغيير، النسيان، والكتم، والتحريف، ودسّ أشياء على أنها من عند الله وهي ليست من عند الله.

ولنا أن نتأمل جمال القول الحكيم: ﴿**وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِرُواْ بِهِ**﴾ فهم على قدر كبير من السوء بدرجة أنستهم الشيء الذي يأتي لهم بالحظ الكبير، مثل نسيانهم البشارات بمحمد عليه الصلاة والسلام وكتمانها، ولو كانوا قد آمنوا بها، لكان حظهم كبيراً؛ ذلك أنهم نسوا أمراً كان يعطيهم جزاء حسناً، إذن فقد جنوا على

أنفسهم؛ لأن الإسلام لن يستفيد لو كانوا مهتدين أو مؤمنين والخسار عليهم هم، ولم يدعهم الله ويتركهم على نسيانهم ليكون لهم بذلك حجة، بل أراد أن يذكرهم بما نسوه. وكان مقتضى ذلك أن ينصفوا أنفسهم بأن يعودوا إلى الإيمان؛ لأن الحق ذكرهم بما نسوا ليحققوا لأنفسهم الحظ الجميل. وقد يراد أنّهم تركوا ذلك عامدين معرضين عنه مُغْفِلين له عن قصد.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ**﴾.

وقال في الفتح: ﴿**قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا**﴾ بزيادة (لكم).

أن هذه الآية عامة في المسيح وأمه ومن في الأرض جميعا، - فليس هنا مخاطب خاص. - آية الفتح في قوم مخصوصين وهم الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية، فصرح لذلك بقوله: (لكم).

وقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً**﴾ [المائدة:٤١]. وما تضمنته آية الأحقاف هذه وآية الحاقة المبينة لها من أنه لو افترى على الله أو تقول عليه عاجله بالعذاب، وأنه لا يقدر أحد على دفعه عنه، جاء معناه في بعض الآيات؛ كقوله تعالى في يونس: ﴿**قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾[يونس:١٥]، أي إني أخاف إن عصيت ربي بالافتراء عليه بتبديل قرآنه أو الإتيان بقرآن غيره. عذاب يوم عظيم. وذكر الله تعالى مثل هذا عن بعض الرسل في آيات أخر كقوله عن صالح: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ**﴾[هود:٦٣]، وقوله تعالى عن نوح: ﴿**وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ**﴾[هود:٣٠].

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ**). والموجد لعباده. والثاني والثالث: تنبيه على المقتضى لسؤال الاستعانة به، وهو سعة رحمته لعباده. ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ**﴾

جاء الحق هنا بالسماء كنوع علوي والأرض كنوع سفلي، وقوله: ﴿**يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ**﴾ يرد على الشبهة بإيجاز دقيق: ﴿**يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ**﴾؛ لأن الفتنة جاءت من ناحية أن عيسى عليه السلام مُيّز في طريقة خلقه بشيء لم يكن في عامة الناس؛ فأوضح الحق: لا تظنوا أن الخلق الذي أخلقه يشترط عليّ أن تكون هناك ذكورة وأنوثة ولقاح، هذا في العرف العام الذي يفترض وجود ذكورة وأنوثة، وإلا لكان يجب أن تكون الفتنة قبل عيسى في آدم؛ لأنه خلق من غير أب ولا أم. إذن فالذي يريد أن يفتتن بأنه من أم دون أب، كان يجب أن يفتتن في آدم لأنه لا أب ولا أم. ويوضح لهم: الله يخلق ما يشاء فلا يتحتم أو يلزم أن يكون من زوجين أو من ذكر فقط أو من أنثى فقط.

إن ربنا سبحانه وتعالى له طلاقة القدرة في أن يخلق ما يشاء، وقد أراد خلقه على القسمة العقلية المنطقية الأربعة: إما أن يكون من أب وأم مثلنا جميعاً، وإما أن يكون بعدمهما مثل آدم، وإما أن يكون بالذكر دون الأنثى كحواء، وإما أن يكون بالأنثى دون الذكر كعيسى عليه السلام، فأدار الله الخلق على القواعد المنطقية الأربعة كي لا تفهم أن ربنا يريد مواصفات خاصة كي يخلق بل هو يخلق ما يشاء. والدليل على ذلك أن الزوجين يكونان موجودين مع بعضهما ومع ذلك لا يُنْجَبُ منهما، فهل هناك اكتمال أكثر من هذا؟! ﴿**لِلَّـهِ مُلْكُ السماوات والأرض يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً**﴾[الشورى:٤٩/٥٠]. إذن فالمسألة ألا يُفرض على ربنا عناصر تكوين، لا، بل هي إرادة مُكَوِّن لا عنصرية مَكَوَّن. إنه ﴿**يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ**﴾، ومشيئته مطلقة وقدرته عامة. ولذلك لا بد أن يأتي القول: ﴿**والله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ**﴾ كيف يبوء بإثمه وقد قال: ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾. بإثم قتلى، وإثم معاصيك فى نفسك. قوله تعالى: ﴿**إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ**﴾ قيل: معناه معنى قول النبي ﷺ: "إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار". قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: "إنه كان حريصا على قتل صاحبه"، وكأن هابيل أراد أني لست بحريص على قتلك؛ فالإثم الذي كان يلحقني لو كنت، حريصا على قتلك أريد أن تحمله أنت مع

إثمك في قتلي. وقيل: المعنى "بإثمي" الذي يختص بي فيما فرطت؛ أي يؤخذ في سيئاتي فتطرح عليك بسبب ظلمك لي، وتبوء بإثمك في قتلك؛ وهذا يعضده قوله عليه الصلاة والسلام: "يؤتى يوم القيامة بالظالم والمظلوم فيؤخذ من حسنات الظالم فتزاد في حسنات المظلوم حتى ينتصف فإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فتطرح عليه"، وهذا بين لا إشكال فيه. وقيل: المعنى إني أريد ألا تبوء بإثمي وإثمك كما قال تعالى: ﴿**وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ**﴾ أي لئلا تميد بكم. وقوله تعالى: ﴿**يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا**﴾ أي لئلا تضلوا فحذف ﴿لا﴾.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا**﴾ الآية. وقال في النور: ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا**﴾. قدم الرجال في المائدة وأخرهم في النور؟ أن قوة الرجال وجرأتهم على إقدامهم على السرقة أشد، فقدموا فيها. وشهوة النساء وابتداء الزنا من المرأة لتزينها وتمكينها حتى يقع الرجل بها يناسب تقديم النساء في سياق الزنا.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: قطع يد السارق المنصوص عليه بقوله تعالى: ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾، وقال النَّبي ﷺ: "لو سرقت فاطمة لقطعت يدها". وجمهور العلماء على أن القطع من الكوع، وأنها اليمنى. وكان ابن مسعود وأصحابه يقرؤون "فاقطعوا أَيمانهما".

والجمهور أنه إن سرق ثانياً قطعت رجله اليسرى، ثم إن سرق فيده اليسرى، ثم إن سرق فرجله اليمنى، ثم يعزر. وقيل يقتل. كما جاء في الحديث: "ولا قطع إلا في ربْع دينار أو قيمته أو ثلاثة دراهم" كما هو معروف في الأحاديث. وليس قصدنا هنا تفصيل أحكام السرقة. وشروط القطع، كالنصاب والإخراج من حرز. ولكن مرادنا أن نبين أن قطع يد السارق من هدي القرآن للتي هي أقوم. وذلك أن هذه اليد الخبيثة الخائنة، التي خلقها الله لتبطش وتكتسب في كل ما يرضيه من امتثال أوامره واجتناب نهيه، والمشاركة في بناء المجتمع الإنساني، فمدت أصابعها الخائنة، إلى مال الغير لتأخذه بغير حَق، واستعملت قُوة البطش المودعة فيها في الخيانة والغدر، وأخذ أموال الناس على هذا الوجه القبيح، يد نجسة قذرة، ساعية في الإخلال بنظام المجتمع. إذ لا نظام له بغير المال، فعاقبها خالِقها بالقطع

والإزالة. كالعضو الفاسد الذي يجر الداء لسائر البدن، فإنه يزال بالكلية إبقاء على البدن، وتطهيراً له من المرض. ولذلك فإن قطع اليد يطهر السارق من دنس ذنب ارتكاب معصية السرقة، مع الردع البالغ بالقطع عن السرقة؛ قال البخاري في صحيحه: باب الحدود كفَّارة، حدثنا محمد بن يوسف حدثنا ابن عيينة عن الزُّهري، عن أبي إدريس الخولاني، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كنا عند النَّبي ﷺ في مجلس، فقال: "بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، وقرأ هذه الآية كلها، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفَّارته، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه. إن شاء غفر له، وإن شاء عذَّبه". اهـ هذا لفظ البخاري في صحيحه. وقوله ﷺ في الحديث الصحيح "فهو كفارته" نص صريح في أن الحدود تطهر المرتكبين لها من الذنب.

والتحقيق في ذلك ما حققه بعض العلماء: من أن حقوق الله يطهر منها بإقامة الحد. وحق المخلوق يبقى. فارتكاب جريمة السرقة مثلاً يطهر منه بالحد، والمؤاخذة بالمال تبقى، لأن السرقة علة موجبة حكمين: وهما القطع، والغرم. قال في مراقي السعود: وذاك في الحكم الكثير أطلقه كالقطع مع غرم نصاب السرقه مع أن جماعة من أهل العلم قالوا: لا يلزمه الغرم مع القطع. لظاهر الآية الكريمة: فإنها نصَّت على القطع ولم تذكر غرماً.

وقال جماعة: يغرم المسروق مطلقاً، فات أو لم يفت، معسراً كان أو موسراً. ويتبع به ديناً إن كان معسراً. وقال جماعة: يرد المسروق إن كان قائماً. وإن لم يكن قائماً رد قيمته إن كان موسراً، فإن كان معسراً فلا شيء عليه ولا يتبع به ديناً.

والأول مذهب أبي حنيفة. والثاني مذهب الشافعي وأحمد. والثالث مذهب مالك. وقطع السارق كان معروفاً في الجاهلية فأقره الإسلام.وعقد ابن الكلبي باباً لمن قطع في الجاهلية بسبب السرقة، فذكر قصة الذين سرقوا غزال الكعبة فقطعوا في عهد عبد المطلب. وذكر ممن قطع في السرقة عوف بن عبد بن عمرو بن مخزوم، ومقيس بن قيس بن عدي بن سهم وغيرهما، وأن عوفاً السابق لذلك .

وكل جريمة موجودة في الإسلام – والحق سبحانه قد جرمها – فهذا يعني أنها قد تحدث. مثال ذلك: يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**والسارق والسارقة فاقطعوا**

أَيْدِيَهُمَا﴾[المائدة:٣٨]. وهذا يعني أنه من الجائز أن يسرق المؤمن، وكذلك قد يزني في غفلة من الغفلات، وفي أسس الاستغفار يأتي البيان الواضح: من الصلاة للصلاة كفارة ما بينهما، الجمعة للجمعة كفارة، الحج كفارة، الصوم كفارة. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر».

أي أن ربنا قد جعل أبواباً متعددة للمغفرة وللرحمة، وهو سبحانه يقول: ﴿**إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ**﴾، وهذه المسألة ليست لصالحه إنما لصالحكم أنتم حتى لا تتعدد آلهة البشر في البشر ويرهق الإنسان ويشقى من كثرة الخضوع لكل من كان قويا عنه، فأعفاك الله من هذا وأوضح لك: لا، اخضع لواحد فقط يكفك كل الخضوع لغيره، واعمل لوجه واحد يكفك كل الأوجه، وفي ذلك راحة للمؤمن.

إن الإيمان إذن يعلمنا العزة والكرامة، وبدلاً من أن تنحني لكل مخلوق اسجد للذي خلق الكون كله بصفات قدرته وكماله، فلم تنشأ له صفة لم تكن موجودة هل أنتم زدتم له صفة؟ لا. فهو بصفات الكمال أوجدكم وبصفات الكمال كان قيوماً عليكم، فأنتم لم تضيفوا له شيئاً، فكونك تشهد أن لا إله إلا الله. ما مصلحتها بالنسبة لله؟ إن مصلحتها تكون للعبد فحسب. ولذلك قلنا: إن الحق سبحانه وتعالى يريد من عباده أن يجتمعوا كل أسبوع مرة؛ لأنك قد تصلي فرضاً فرضاً في مصنعك أو في مزرعتك أو في أي مكان، إنما يوم الجمعة لا بد أن تجتمع مع غيرك، لماذا؟ لأنه من الجائز أنك تذل لله بينك وبينه، تخضع وتسجد وتبكي بينك وبين الله، لكنه يريد هذه الحكاية أمام الناس، لترى كل من له سيادة وجاه يسجد ويخشع معك لله. وفي الحج ترى كل من له جاه ورئاسة يؤدي المناسك مثلك، فتقول بينك وبين نفسك أو تقول له: لقد استوينا في العبودية، فلا يرتفع أحد على أحد ولا يذل له بل كلنا عبيد الله ونخضع له وحده.

إذن فالمسألة في مصلحة العبد، ﴿**إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ**﴾؛ لأنه لو غفر أن يشرك به لتعدد الشركاء في الأرض، وحين تعدد الشركاء في الأرض يكون لكل واحد إله، وإذا صار لكل واحد إله تفسد المسألة، لكن الخضوع لإله واحد نأتمر جميعاً بأوامره يعزنا جميعا. فلا سيادة لأحد ولا عبودية لأحد عند أحد، فقوله: ﴿**إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ**﴾، هذا لمصلحتنا، ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ**﴾.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾ وختم الأخرى: بقوله تعالى: ﴿**فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾. وفى الثالثة: ﴿**فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾.

أن المراد بالثلاثة: اليهود، وهم كافرون. وزادهم في الثانية: الظلم، لعدم إعطائهم القصاص لصاحبه، وفى الثالثة: الفسق، لتحديهم حكم الله تعالى. وأن المراد بالثالثة: أن من ترك حكم الله تعالى عمدا مع اعتقاد الإيمان وأحكامه فهو فاسق.

قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾، اختلف العلماء في هذه الآية الكريمة: هل هي في المسلمين، أو في الكفار، فروي عن الشعبي أنها في المسلمين، وروي عنه أنها في اليهود، وروي عن طاوس أيضاً أنها في المسلمين، وأن المراد بالكفر فيها كفر دون كفر، وأنه ليس الكفر المخرج من الملة، وروي عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال: ليس الكفر الذي تذهبون إليه، رواه عنه ابن أبي حاتم، والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، قاله ابن كثير. قال بعض العلماء: والقرآن العظيم يدل على أنها في اليهود، لأنه تعالى ذكر فيما قبلها أنهم: ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ**﴾، وأنهم يقولون: ﴿**إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا**﴾، يعني الحكم المحرف الذي هو غير حكم الله: ﴿**فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ**﴾ أي المحرف، بل أوتيتم حكم الله الحق: ﴿**فَاحْذَرُوا**﴾، فهم يأمرون بالحذر من حكم الله الذي يعلمون أنه حق. وقد قال تعالى بعدها: ﴿**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ**﴾، فدل على أن الكلام فيهم، وممن قال بأن الآية في أهل الكتاب، كما دل عليه ما ذكر البراء بن عازب، وحذيفة بن اليمان، وابن عباس، وأبو مجلز، وأبو رجاء العطاردي، وعكرمة وعبيد الله بن عبد الله، والحسن البصري وغيرهم، وزاد الحسن، وهي علينا واجبة نقله عنهم ابن كثير، ونقل نحو قول الحسن عن إبراهيم النخعي. وقال القرطبي في تفسيره: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾، و﴿**الظَّالِمُونَ**﴾، و﴿**الْفَاسِقُونَ**﴾، نزلت كلها في الكفار، ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث البراء، فأما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا**﴾ وجميع الأنبياء مسلمون، ما فائدة الصفة وهي معلومة؟

الرد على الذين قالوا: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى فأكذبهم بقوله: ﴿**الَّذِينَ أَسْلَمُوا**﴾. في سورة البقرة الآيات القرآنية الدالة على سبب قسوة القلوب في الكلام على قوله: ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**﴾ [البقرة:٧٤] وآية الحج هذه تبين أن ما أشهر على ألسنة أهل العلم،من أن النَّبي هو من أوحى إليه وحي، ولم يؤمر بتبليغه، وأن الرسول هو النَّبي الذي أوحى إليه، وأمر بتبليغ ما أوحى إليه غير صحيح، لأن قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ**﴾ [الحج:٥٢]. يدل على أن كلاً منهما مرسل، وأنهما مع ذلك بينهما تغاير واستظهر بعضهم أن النَّبي الذي هو رسول أنزل إليه كتاب وشرع مستقل مع المعجزة التي ثبتت بها نبوته، وأن النَّبي المرسل الذي هو غير الرسول، هو من لم ينزل عليه كتاب وإنما أوحى إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول قبله، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يرسلون ويؤمرون بالعمل بما في التوراة، كما بينه تعالى بقوله: ﴿**يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا**﴾[المائدة:٤٤]، وقوله في هذه الآية: ﴿**فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ**﴾ أي تخشع وتخضع وتطمئن. قيل: المراد بالنبيين محمد ﷺ، وعبر عنه بلفظ الجمع. وقيل: كل من بعث من بعد موسى بإقامة التوراة، وأن اليهود قالت: إن الأنبياء كانوا يهودا. وقالت النصارى: كانوا نصارى؛ فبين الله عز وجل كذبهم. ومعنى: ﴿**أَسْلَمُوا**﴾ صدقوا بالتوراة من لدن موسى إلى زمان عيسى عليهما السلام وبينهما ألف نبي؛ ويقال: أربعة آلاف. ويقال: أكثر من ذلك، كانوا يحكمون بما في التوراة. وقيل: معنى ﴿**أَسْلَمُوا**﴾ خضعوا وانقادوا لأمر الله فيما بعثوا به. وقيل: أي يحكم بها النبيون الذين هم على دين إبراهيم ﷺ والمعنى واحد.

و﴿**الَّذِينَ أَسْلَمُوا**﴾ هاهنا نعت فيه معنى المدح مثل ﴿**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾. ﴿**هَادُوا**﴾ أي تابوا من الكفر. وقيل: فيه تقديم وتأخير؛ أي إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور للذين هادوا يحكم بها النبيون والربانيون والأحبار؛ أي يحكم بها الربانيون وهم الذين يسوسون الناس بالعلم ويربونهم بصغاره قبل كباره؛ عن ابن عباس وغيره.

وقال أبو رزين: الربانيون العلماء الحكماء والأحبار. قال ابن عباس: هم الفقهاء: والحبر والحبر الرجل العالم وهو مأخوذ من الحبير وهو التحسين، فهم يحبرون العلم أي يبينونه ويزينونه، وهو محبر في صدورهم. قال مجاهد: الربانيون فوق العلماء. والألف واللام للمبالغة.

قال الجوهري: والجبر والحبر واحد أحبار اليهود، وبالكسر أفصح؛ لأنه يجمع على أفعال دون الفعول؛ قال الفراء: هو جبر بالكسر يقال ذلك للعالم. وقال الثوري: سألت الفراء لم سمي الحبر حبرا؟ فقال: يقال للعالم حبر وحبر فالمعنى مداد حبر ثم حذف كما قال: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ أي أهل القرية. قال: فسألت الأصمعي يقال ليس هذا بشيء؛ إنما سمي حبرا لتأثيره، يقال: على أسنانه حبر أي صفرة أو سواد. وقال أبو العباس: سمي الحبر الذي يكتب به حبرا لأنه يحبر به أي يحقق به. وقال أبو عبيد: والذي عندي في واحد الأحبار الحبر بالفتح ومعناه العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه. قال: وهكذا يرويه المحدثون كلهم بالفتح، والحبر الذي يكتب به وموضعه المحبرة بالكسر. والحبر أيضا الأثر والجمع حبور، ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي استودعوا من علمه. والباء متعلقة "الربانيين والأحبار"، كأنه قال: والعلماء بما استحفظوا. أو تكون متعلقة بـ "يحكم" أي يحكمون بما استحفظوا. ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ أي على الكتاب بأنه من عند الله. ابن عباس: شهداء على حكم النبي ﷺ أنه في التوراة. ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ﴾، أي في إظهار صفة محمد ﷺ، وإظهار الرجم. ﴿وَاخْشَوْنِ﴾ أي في كتمان ذلك؛ فالخطاب لعلماء اليهود. وقد يدخل بالمعنى كل من كتم حقا وجب عليه ولم يظهره. وتقدم معنى ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾ مستوفى.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، قدم الضر على النفع هنا، وفى مواضع أخر قدم النفع على الضر كما في سورة الأنعام والأنبياء.

أن دفع الضر أهم من جلب النفع وإن كانا مقصودين ولأنه يتضمنه أيضا فإذا تقدم سياق الملك والقدرة كان ذكر دفع الضر أهم، وإذا كان السياق في الدعاء والعبادة والسؤال كان ذكر النفع أولى وأهم، لأنه المقصود غالبا بالسؤال، ولذلك قال في الحج: ﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ أي يدعوه لنفع لمن ضره أقرب من نفعه المطلوب بالدعاء.

قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً**﴾ زيادة في البيان وإقامة حجة عليهم؛ أي أنتم مقرون أن عيسى كان جنينا في بطن أمه، لا يملك لأحد ضرا ولا نفعا، وإذ أقررتم أن عيسى كان في حال من الأحوال لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم ولا ينفع ولا يضر، فكيف اتخذتموه إلها؟. ﴿**وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ أي لم يزل سميعا عليما يملك الضر والنفع. ومن كانت هذه صفته فهو الإله على الحقيقة. والله أعلم.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا**﴾. وقال في آخر المجادلة؟: ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا... أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ**﴾.

أنه لما تقدم وصفهم بالصدق، ونفعه إياهم يوم القيامة بالخلود في الجنة أكده بقوله: (أبدا) ولذلك أكده بقوله: (أبدا)، ولذلك أكده بقوله: ﴿**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾.

قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ**﴾ يقال: ما وجه اتصال هذه الآية بما قبلها؟ فالجواب: أنه اتصال الزجر عن الإظهار خلاف الإبطان في وصية أو غيرها مما ينبئ أن المجازي عليه عالم به. و﴿**يَوْمِ**﴾ ظرف زمان والعامل فيه ﴿**وَاسْمَعُوا**﴾ أي واسمعوا خبر يوم. وقيل: التقدير واتقوا يوم يجمع الله الرسل عن الزجاج. وقيل: التقدير اذكروا أو احذروا يوم القيامة حين يجمع الله الرسل، والمعنى متقارب؛ والمراد التهديد والتخويف. ﴿**فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ**﴾ أي ما الذي أجابتكم به أممكم؟ وما الذي رد عليكم قومكم حين دعوتموهم إلى توحيدي؟ ﴿**قَالُوا**﴾ أي فيقولون: ﴿**لا عِلْمَ لَنَا**﴾. واختلف أهله التأويل في المعنى المراد بقولهم: ﴿**لا عِلْمَ لَنَا**﴾، فقيل: معناه لا علم لنا بباطن ما أجاب به أممنا؛ لأن ذلك هو الذي يقع عليه الجزاء؛ وهذا مروي عن النبي ﷺ. وقيل: المعنى لا علم لنا إلا ما علمتنا، فحذف؛ عن ابن عباس ومجاهد بخلاف.

وقال ابن عباس أيضا: معناه لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا. وقيل: إنهم يذهلون من هول ذلك ويفزعون من الجواب، ثم يجيبون بعدما تثوب إليهم عقولهم فيقولون: ﴿**لا عِلْمَ لَنَا**﴾. قال النحاس: وهذا لا يصح؛ لأن الرسل صلوات الله عليهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. هذا في أكثر مواطن القيامة؛ ففي

الخبر: "إن جهنم إذا جيء بها زفرت زفرة فلا يبقى نبي ولا صديق إلا جثا لركبتيه"، وقال رسول الله ﷺ: "خوفني جبريل يوم القيامة حتى أبكاني فقلت يا جبريل ألم يغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر؟ فقال لي يا محمد لتشهدن من هول ذلك اليوم ما ينسيك المغفرة". فإن كان السؤال عند زفرة جهنم كما قال بعضهم فقول مجاهد والحسن صحيح؛ والله أعلم. قال النحاس: والصحيح في هذا أن المعنى: ماذا أجبتم في السر والعلانية ليكون هذا توبيخا للكفار؛ فيقولون: لا علم لنا؛ فيكون هذا تكذيبا لمن اتخذ المسيح إلها. وقال ابن جريج: معنى قوله: ﴿**مَاذَا أُجِبْتُمْ**﴾ ماذا عملوا بعدكم؟ قالوا: ﴿**لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ**﴾.

قال أبو عبيد: ويشبه هذا حديث النبي ﷺ أنه قال: "يرد علي أقوام الحوض فيختلجون، فأقول: أمتي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك"، قال الماوردي فإن قيل: فلم سألهم عما هو أعلم به منهم؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنه سألهم ليعلمهم ما لم يعلموا من كفر أممهم ونفاقهم وكذبهم عليهم من بعدهم. الثاني: أنه أراد أن يفضحهم بذلك على رؤوس الأشهاد ليكون ذلك نوعا من العقوبة لهم.

وكلنا يعرف أن لكل حدث زمناً ومكاناً. وزمان الحدث هو يوم القيامة. ومكان هذا الحدث في ساحة المشهد والحشر، وسبحانه هو خالق كل زمن وكل مكان، وله أن يتحدث عن أي أمر بأي صيغة شاء، سواء أكانت صيغة الماضي أم الحاضر أم المستقبل، فقد أوجد كل شيء من ماضٍ وحاضرٍ ومستقبل، وبيده أمر كل ما خلق ومن خلق. وهو أزلي قيوم، أما نحن بنو الإنسان فأمر الزمن يختلف، الزمن بالنسبة لأفعالنا هو واحد من ثلاثة؛ ماضٍ: أي أن يكون الحدث قد وقع قبل أن أتكلم؛ مثل قولي «قابلني زيد»، ومعنى ذلك أن الفعل قد تم وصار محققاً.

وحاضر: أي أن يكون الحدث في حالة وقوعه، أي يحصل الآن مثل قولي: «يقابلني زيد» وأنت تقصد الحال أي أنه يقابلني الآن. إن معنى ذلك أن العين ترى زيداً وليس مع العين أين. ومستقبل: أي أن يكون الحادث سوف يقع مقولي: «سيقابلني زيد». وهنا لا يملك الإنسان نفسه أن يحدث منه الحدث، ولا يملك ألا يقع على الإنسان الذي سوف يقابله أمرٌ قد يمنعه من إتمام الحدث، ولا يملك الإنسان أن يظل السبب للمقابلة قائماً. إذن فمع المستقبل لا يصح للإنسان أن يحكم بشيء، لأنه لا يملك أي عنصر من عناصر الحدث. والذي يملك هذا هو

الحق سبحانه وتعالى وحده. ولذلك يعلمنا القرآن شرف الصدق في الكلمة بقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله**﴾ [الكهف:٢٣/٢٤].

وعلى الإنسان أن يحترم قدرته المحدودة، وان يتذكر دائماً قدرة الحق سبحانه وتعالى عليه. وهذا لا يعني أن الحق سبحانه يمنعنا من التخطيط للمستقبل، لا، بل يطلب منا أن نخطط وأن ندرس كل الاحتمالات، وعلينا أن نقول: «إن شاء الله»؛ لأننا بذلك نقدم مشيئة من يملك كل أمر وهو الله سبحانه وتعالى.

وقد حاول بعض المستشرقين من أعداء الإسلام أن ينفذوا بسمومهم إلى عقول المسلمين بالتساؤل عن عدم ترتيب الأفعال على نسق حدوثها في بعض من آيات القرآن، فقال قائل منهم: كيف يقول الحق سبحانه: ﴿**أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾[النحل:١].

وهذا خبر عن يوم القيامة فكيف يأتي به الله على صيغة الماضي، ثم يقول بعد ذلك: ﴿**فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ**﴾؟ واستعجال الشيء لا يكون إلاّ إذا لم يكن قد حدث، فكأن في الكلام تناقضاً، ذلك لأنه يقول: أتى، ويقول بعد ذلك: فلا تستعجلوه؟

ونقول: إن الذي يتكلم هو الحق سبحانه وتعالى وليس إنساناً مثلك محكوماً بأزمانه. بل المتكلم هو صاحب كل الأزمان وخالقها. وعندما يقول سبحانه: ﴿**أتى أَمْرُ الله**﴾ فمعنى ذلك أن أمر الله آتٍ لا محالة؛ لأنه لا قدرة تخرج مراده على ألاّ يكون. وأي فعل من الحق سبحانه وتعالى إنما يتجرد عن ملابسات الزمان وعن ملابسات المكان، فإن كنا نقرأ على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً**﴾[النساء:١٠٠].

فليس معنى ذلك أن مغفرة الله ورحمته قد مضى زمانها وانقضى وقتها. ولكن لنقل: كان الله غفوراً رحيماً ولا يزال غفوراً رحيماً، فسبحانه وتعالى غفور ورحيم قبل أن يوجد من يغفر له ويرحمه، ومن باب أولى يكون غفورا رحيما بعد أن يوجد من يستحق المغفرة والرحمة. وسبحانه منزه عن أن تعتريه الأحداث فيتغير؛ لأن الزمن مخلوق من الله، فلا تقل متى أو أين؛ لأنهما به وجدا. والحق يأتي بالماضي لأنه متحقق الوقوع، ليثبت حدوث أمر لم يحدث بعد، ذلك لأن الله إذا قال عن شيء إنه سيحدث فلا بد أن يحدث.

ويؤكد الحق سبحانه في أي كلام من عيسى ابن مريم على أنه «ابن مريم» وهنا يسأل الحق عيسى عليه السلام: ﴿**أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله**﴾، ونعرف أن السؤال إنما يأتي دائماً على وجهين: إما سؤال يعرف به السائل ما كان يجهله فيريد أن يعلمه من المسئول، كقول القائل: أقابلك فلان أمس؟ وإما أن يأتي السؤال لا ليعلم السائل من المسئول، ولكن ليقرر السائل المسئولَ.

ومثال ذلك – ولله المثل الأعلى – يسأل التلميذ أستاذه ليتعلم منه وليخبره الأستاذ بعلم جديد وخبر جديد. وأيضاً يسأل الأستاذ التلميذ ليقرره بالحقيقة ويوافقه عليها لتستقر لدى التلميذ. وسؤال الله عيسى من النوع الأخير؛ ليكون ذلك حجة على من قال بألوهية عيسى أو بنوته لله. وحاول بعض المستشرقين أن يشككوا في القرآن فقالوا: إن هناك تناقضاً في القرآن – والعياذ بالله – واستندوا على ذلك بقول الحق: ﴿**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ**﴾[الصافات:٢٤].

أي أن الحق يقرر أن كل كائن مسئول عما يفعل ويعتقد، ولكنه سبحانه يقول في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿**فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ**﴾ [الرحمن:٣٩]. فهل معنى ذلك أنهم لن يُسألوا؟ لا، بل سوف يُسألون ليقرروا ما فعلوا لا ليعلم الله منهم ما فعلوا، فهو سبحانه عليم بكل شيء.

*****

سورة الأنعام

مسألة:

قولـه تعـالى: ﴿**خَلَـقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَـاتِ وَالنُّـورَ**﴾ فرق بين (خلـق) و(جعل). أن السموات والأرض أجرام، فناسـب فيهمـا: (خلـق) والظلمـات والنـور أعـراض ومعـان فناسـب فيهمـا: (جعل)، ومثلـه كثيـر كقولـه تعـالى: ﴿**فَـلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا**﴾ أي لا تصفوا، ﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ**﴾ وهو كثير.

قولـه تعـالى: ﴿**الْحَمْـدُ لِلَّـهِ**﴾ بـدأ سبحانه فاتحتهـا بالحمد علـى نفسـه وإثبـات الألوهيـة أي أن الحمد كلـه لـه فـلا شريك لـه فإن قيل: فقد افتتح غيرها بالحمد لله فكـان الاجتـزاء بواحـدة يغنـي عـن سـائره فيقـال؛ لأن لكـل واحـدة منـه معنـى فـي موضـعه لا يـؤدي عنـه غيره من أجل عقده بـالنعم المختلفة وأيضـا فلمـا فيـه مـن الحجة في هذا الموضع على الذين هم بربهم يعدلون. وقد تقدم معنى ﴿**الْحَمْدُ**﴾ في الفاتحة.

قوله تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾ أخبر عن قدرته وعلمه وإرادته فقـال: الـذي خلـق أي اختـرع وأوجـد وأنشـأ وابتـدع والخلـق يكـون بمعنـى الاختـراع ويكون بمعنى التقدير، وقد تقدم وكلاهما مراد هنا وذلك دليل على حدوثهما فرفع السماء بغير عمد وجعلها مستوية من غير أود وجعل فيها الشمس والقمر آيتين وزينها بـالنجوم وأودعها السحاب والغيوم علامتين وبسط الأرض وأودعها الأرزاق والنبات وبث فيها من كل دابة آيات جعل فيها الجبال أوتادا وسبلا فجاجا وأجرى فيهـا الأنهـار والبحـار وفجـر فيهـا العيـون مـن الأحجـار دلالات علـى وحدانيتـه، وعظيم قدرتـه وأنـه هو الله الواحد القهار وبين بخلقه السماوات والأرض أنـه خـالق كل شيء.

عن أبـي هريـرة، قـال: أخذ رسـول الله ﷺ بيدي، فقال: "خلق الله عز وجل التربـة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثـاء، وخلـق النـور يـوم الأربعـاء وبـث فيهـا الـدواب يـوم الخمـيس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلـى الليل". وهو القائل: ﴿**الحمد للَّـهِ الـذي خَلَـقَ السـماوات والأرض وَجَعَـلَ الظلمـات والنـور**﴾[الأنعـام:١]. والحـق سـبحانه

وتعالى ينهانا عن أن نجعل له أنداداً: ﴿**يَاأَيُّهَا الناس اعبدوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ والذين مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض فِرَاشاً والسماء بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[البقرة: ٢١-٢٢].

فسبحانه وتعالى موجود وواحد أحد، فلا يصح أن تجعلوا له أنداداً؛ لأن ذلك عبث. ويثبت لنا سبحانه أن قضية الفساد في الأرض تنشأ من تعدي الناس إلى الجعل المخلوق لله فيحولونه إلى غير ما خلقه الله له. والخَلْقُ في حياتهم اليومية يحرصون على أن يستخدموا الأشياء فيما هي مخصصة له. ومثال ذلك: أنت تستقبل من صانع الجبن قالباً من جبن. وتستقبل من صانع الصابون قالباً من الصابون، ثم تجيء بالجبن والصابون إلى المنزل، فتخبر أهل البيت بأن الجبن للأكل والصابون للغسيل، ويطيع الجميع هذه التوجيهات.

لكن إن استخدم أحد الصابون للأكل والجبن للغسيل يحدث إفساد في صحة أفراد الأسرة. وكذلك جعل الحق سبحانه وتعالى لنا أبناء من أصلابنا، فكيف نأخذ أبناء من غير أصلابنا لنجعلهم أبناء لنا؟ إن هذا خطأ في الجَعْل. ولذلك قال الحق: ﴿**وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ**﴾[الأحزاب: ٤].

إن الدعيّ هو في حقيقة أمره من غير صلبك، وزوجتك ليست أمّاً له، فكيف تجعله ابناً لك، وتمكنه من أن يجلس في حجر امرأة غير أمه ويشب على ذلك وينظر إلى غير محارمه على أن ذلك حلال ومباح له، إنه بذلك يفقد التمييز بين الحلال والحرام؛ لذلك فالتبني إفساد في الجعل. إن كل فساد ينشأ في الكون حينما نجعل مخلوقاً لله في مهمة غير تلك التي جعلها الله له. والحق سبحانه وتعالى يبلغنا أنه الذي خلق الإنسان، وخلق له ما يقيته، وما يحفظ نوعه، فعلينا أن نتبع ما يأمر به الحق من اتباع ما هو حلال، والابتعاد عما هو حرام. وإن قال قائل: ولماذا حرّم الله بعض الأشياء التي خلقها؟ ونقول: إن الذي خلقها جعلها لمهمة غير التي يريد الإنسان أن يوجهها له، ومثال ذلك تحريم أكل لحم الخنزير. والإنسان منا إذا ما رأى صورة من معيشة الحيوانات في الغابة. يتعجب، ففضلات حيوان هي غذاء لحيوان آخر. وسم الثعبان هو حماية وعلاج، ونعرف أن الإنسان يستخلص سم الثعبان ليستخرج منه علاجاً لبعض الأمراض ولقتل بعض الجراثيم.

ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّآ أَنزَلَ الله لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى الله تَفْتَرُونَ**﴾[يونس:٥٩].

كيف إذن نجعل من أنفسنا مشرعين نحلل الحرام ونحرم الحلال؟ إن الله الذي خلق كل شيء لم يمنحنا الإذن بذلك. وعلينا أن نسلم بأن كل شيء مخلوق لمهمة فلا يصح أن نوجه شيئا إلى غير مهمته. وتوجيه أشياء إلى غير ما جعلت له أنتج آثاراً ضارة، ومثال ذلك استخدامنا لمبيدات الحشرات في الحقول، تلك المبيدات أبادت الضار في نظرنا، وأبادت النافع أيضاً. وعلى الإنسان – إذن – أن ينتبه جيداً فلا يساوي بين الحرام والحلال، وأن ينتبه تماماً فلا يتعدى الجعل المخلوق لله. يقول سبحانه: ﴿**مَا جَعَلَ الله مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ ولكن الذين كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ على الله الكذب وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾[المائدة:١٠٣].

والبحيرة هي الناقة التي تُشق أذنها كعلامة على أنها محرّمة فلا يتعرض لها أحد، ولا تُرد عن مرعى، ولا تُرد عن ماء، ولا يُشرب لبنها، ولا يُركب ظهرها، ولا يُجز صوفها؛ لأنهم قالوا: نُتجت خمسة أبطن آخرها ذكر. و«السائبة» وهي الناقة التي يقدمها الرجل إن برئ من مرضه أو قدم من سفره كنذر سائب.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾. جمع الظلمات وأفرد النور؟. أما من جعل الظلمات: الكفر، والنور: الإيمان، فظاهر لأن أصناف الكفر كثيرة، والإيمان شيء واحد. ومن قال: بأن المراد – حقيقتهما، فلأنه يقال: رجل نور، ورجال نور، فيقال للواحد وللجماعة، وواحد الظلمات: ظلمة، فجمعت جمع التأنيث. ولأن حقيقة النور واحدة، وحقائق الظلمات مختلفة. قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾ ذكر بعد خلق الجواهر خلق الأعراض لكون الجوهر لا يستغني عنه وما لا يستغني عن الحوادث فهو حادث. والجوهر في اصطلاح المتكلمين هو الجزء الذي لا يتجزأ الحامل للعرض وقد أتينا على ذكره في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى في اسمه ﴿**الْوَاحِدُ**﴾ وسمي العرض عرضا؛ لأنه يعرض في الجسم والجوهر فيتغير به من حال إلى حال والجسم هو المجتمع وأقل ما يقع عليه اسم الجسم جوهران مجتمعان.

وهذه الاصطلاحات وإن لم تكن موجودة في الصدر الأول فقد دل عليها

معنى الكتاب والستة فلا معنى لإنكارها وقد استعملها العلماء واصطلحوا عليها وبنوا عليها كلامهم وقتلوا بها خصومهم كما تقدم في ﴿البقرة﴾. واختلف العلماء في المعنى المراد بالظلمات والنور. فقال السدي وقتادة وجمهور المفسرين: المراد سواد الليل وضياء النهار. وقال الحسن: الكفر والإيمان. قال ابن عطية: وهذا خروج عن الظاهر.

واللفظ يعمه، وفي التنزيل: **﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾**. والأرض هنا اسم للجنس فإفرادها في اللفظ بمنزلة جمعها وكذلك **﴿وَالنُّورَ﴾**، ومثله **﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾**.

والحق سبحانه وتعالى ينهانا عن أن نجعل له أنداداً: **﴿يَاأَيُّهَا الناس اعبدوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ والذين مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض فِرَاشاً والسماء بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**[البقرة: ٢١-٢٢].

فسبحانه وتعالى موجود وواحد أحد، فلا يصح أن تجعلوا له أنداداً؛ لأن ذلك عبث. ويثبت لنا سبحانه أن قضية الفساد في الأرض تنشأ من تعدي الناس إلى الجعل المخلوق لله فيحولونه إلى غير ما خلقه الله له. والخَلْقُ في حياتهم اليومية يحرصون على أن يستخدموا الأشياء فيما هي مخصصة له. ومثال ذلك: أنت تستقبل من صانع الجبن قالباً من جبن. وتستقبل من صانع الصابون قالباً من الصابون، ثم تجيء بالجبن والصابون إلى المنزل، فتخبر أهل البيت بأن الجبن للأكل والصابون للغسيل، ويطيع الجميع هذه التوجيهات.

مسألة:

قوله تعالى: **﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ﴾** وفى الشعراء: (فسيأتيهم). مع قصد التنويع في الفصاحة، فإن المراد بآية الأنعام الدلالة على نبوة النبى ﷺ من الآيات والمعجزات. والمراد بالحق القرآن، ولكن لم يصرح به، وفى الشعراء صرح بالقرآن بقوله: **﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾** فعلم أن المراد بالحق: القرآن، فناسب: (فسيأتيهم) تعظيما لشأن القرآن؛ لأن السين أقرب من سوف.

قوله: **﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ﴾**، أي: أخبار **﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئون﴾**، أي: سيظهر لهم، عند نزول العذاب بهم في الدنيا والآخرة، ما كانوا يستهزئون به من

البعث والحساب، أو عند ظهور الإسلام وارتفاعه. الإشارة: مَن سبق له الخُذلان لا تنفعه الأدلة وتواتُر البرهان، ولا تزيده ظهور المعجزات أو الكرامات إلا التحاسد وظهور العداوات، ولا يزيده الدعاء إلى الله والتناد، إلاَّ الإعراض عنه والبعاد، نعوذ بالله من الشقاء وسوء القضاء.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا**﴾.

وفي الشعراء: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا**﴾ بالواو، وفي سبأ بالفاء)؟. أنه إن كان السياق يقتضي النظر والاستدلال جاء بغير واو، وهنا كذلك لمن يعتبر الآيات قبله. وإن كان يقتضي الاعتبار بالحاضر والمشاهدة جاء بالواو أو الفاء، لتدل الهمزة على الإنكار، والواو على عطفه على الجمل قبله كقوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ**﴾ الآية. ﴿**أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**﴾.

قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ**﴾ فذكر سبحانه إهلاك من قبلنا من القرون، وبين أن ذلك كان لمعنى القياس وهو ذنوبهم، فهم الأصل ونحن الفرع، والذنوب العلة الجامعة، والحكم الهلاك. فهذا محض قياس العلة، وقد أكده سبحانه بضرب من الأولى، وهو أن من قبلنا كانوا أقوى منا فلم تدفع عنهم قوتهم وشدتهم ما حل بهم. ومنه قوله تعالى: ﴿**كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ وقد اختلف في محل هذا الكاف وما يتعلق به، فقيل: هو رفع خبر مبتدأ محذوف، أي أنتم كالذين من قبلكم. وقيل نصب بفعل محذوف تقديره: فعلتم كفعل الذين من قبلكم. والتشبيه على هذين القولين في أعمال الذين من قبل، وقيل التشبيه في العذاب. ثم قيل: العامل محذوف. أي لعنهم وعذبهم كما لعن ابن من قبلهم. وقيل بل العامل ما تقدم. أي وعد الله المنافقين كوعد الذين من قبلكم، ولعنهم كلعنهم، ولهم عذاب مقيم كالعذاب الذي لهم.

والمقصود أنه سبحانه ألحقهم بهم في الوعيد، وسوى بينهم فيه كما تساووا

في الأعمال، وكونهم كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فرق غير مؤثر، فعلق الحكم بالوصف الجامع المؤثر، وألغى الوصف الفارق، ثم نبه على أن مشاركتهم في الأعمال اقتضت مشاركتهم في الجزاء فقال: ﴿**فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا**﴾، فهذه هي العلة المؤثرة والوصف الجامع، وقوله: ﴿**أُولَئِكَ حَبِطَتْ**﴾ هو الحكم، والذين من قبلهم الأصل، والمخاطبون الفرع.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا**﴾. وفى موضع آخر: بالفاء. وقال هنا: (**عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾، وفى النمل ﴿**عَاقِبَةُ الْمُجرمين**﴾. أن آية الأنعام ظاهرة في الأمر بالسير في بلاد المهلكين فناسب ثم المرتبة على السير المأمور به. وفى المواضع الأخر: الأمر بالنظر بعد السير المتقدم كقوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ**﴾ فناسب أن يأتي بالفاء كأنه، قيل: قد ساروا فلينظروا، أو قد ساروا فنظروا عند سيرهم. ولما تقدم هنا قوله تعالى: ﴿**فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ**﴾ ناسب قوله: ﴿**عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ ولم يتقدم مثله في النمل.

نعلم أن الحق لم يقل أبداً: سيروا على الأرض؛ لأن الأرض ظرف يسير فيه الإنسان، والإنسان مظروف في الأرض. وقد حدث هذا البلاغ من الله قبل أن نصل بالعلم إلى معرفة أن الأرض كروية ومعلقة في الهواء، والهواء يحيط بها، وأن الهواء هو أقوات الإنسان بما فيه من أوكسجين وبما يغذي النبات من ثاني أوكسيد الكربون، ونعلم أن الإنسان يصبر على الطعام لأسابيع ويصبر على الماء لأيام ولا يصبر على انقطاع الهواء عنه للحظات. ولذلك لا يملِّك الله الهواء لأحد أبدا، وهكذا عرفنا أن الهواء من جنس الأرض. وعندما يسير الإنسان فالهواء يحيطه، وعلى ذلك فهو يسير في الأرض. وهذا من الإعجاز الأدائي في القرآن ونقرأ قوله الحق: ﴿**فَسِيرُواْ فِي الأرض فانظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكذبين**﴾ [النحل:٣٦].

وهنا في سورة الأنعام يقول الحق سبحانه: ﴿**قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض ثُمَّ انظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكذبين**﴾[الأنعام:١١]. ما الفرق بين الاثنتين؟ خصوصاً ونحن نعلم أن الفاء من حروف العطف وكذلك «ثم» هي أيضاً من حروف العطف

وكلتاهما حرف يُفيد الترتيب، ولكن الفارق أن الفاء تعني الترتيب مع التعقيب أي من غير تراخٍ ومضى مدة. مثل قولنا: جاء زيد فعمرو، أي أن عَمْراً جاء من فور مجيء زيدٍ من غير مهلة. ولكن «ثم» تعني طول المسافة الزمنية الفاصلة بين المعطوف والمعطوف عليه، فعندما يقول الحق: ﴿**فَسِيرُواْ فِي الأرض فانظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكذبين**﴾[النحل:٣٦]. فكأن النظر والتدبر هو المراد من السير وبذلك يكون سيرَ الاعتبار. ويقول الحق: ﴿**قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض ثُمَّ انظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكذبين**﴾ يعني أن الإنسان قد يسير في الأرض للتجارة أو الزراعة أو لأي عمل، وعليه أن يتفكر في أثناء ذلك وأن يتأمل إذن فهناك سير للاعتبار وسير للمصلحة. والسير للاعتبار يعني أن يأخذ الإنسان العبرة مباشرة، أما السير للمصلحة. والسير للاعتبار يعني أن يأخذ الإنسان العبرة مباشرة، أما السير للمصلحة فهو أن يأخذ الإنسان العبرة ضمن المصلحة. وكان سير قريش بقوافلها إلى الشام واليمن يجعلها قادرة على أن ترى آثار المكذبين سواء من أهل ثمود أو قوم عاد أو غيرهم. وكان عليهم أن يأخذوا العبرة في أثناء سعيهم لتجارتهم.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ**﴾ ثم أعادها بعد. أن الأول: للمشركين، والثانية: لأهل الكتاب ليعم الفريقين. أما قوله: ﴿**الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**﴾، في هذه الآية قولان: الأول: أن قوله: ﴿**الَّذِينَ**﴾ موضعه نصب على البدل من الضمير في قوله: ﴿**لَيَجْمَعَنَّكُمْ**﴾، والمعنى ليجمعن هؤلاء المشركين الذين خسروا أنفسهم وهو قول الأخفش. والثاني: وهو قول الزجاج، أن قوله: ﴿**الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم**﴾ رفع بالابتداء، وقوله: ﴿**فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**﴾ خبره؛ لأن قوله ﴿**لَيَجْمَعَنَّكُمْ**﴾ مشتمل على الكل، على الذين خسروا أنفسهم وعلى غيرهم "والفاء" في قوله: ﴿**فَهُمْ**﴾ يفيد معنى الشرط والجزاء، كقولهم: الذي يكرمني فله درهم؛ لأن الدرهم وجب بالاكرام فكان الاكرام شرطاً والدرهم جزاء.

فإن قيل: ظاهر اللفظ يدل على أن خسرانهم سبب لعدم إيمانهم، والأمر على العكس. وهذا يدل على أن سبق القضاء بالخسران والخذلان، هو الذي حملهم على الامتناع من الإيمان، وذلك عين مذهب أهل السنّة. دلّت الآية على أن الطاعة لا توجب الثواب، والمعصية لا توجب العقاب لأنه تعالى قال: ﴿**مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَه**﴾، أي كل من صرف الله عنه العذاب في ذلك اليوم

فقد رحمه. وهذا إنما يحسن لو كان ذلك الصرف واقعاً على سبيل التفضل أما لو كان واجباً مستحقاً لم يحسن أن يقال فيه إنه رحمه ألا ترى أن الذي يقبح منه أن يضرب العبد، فإذا لم يضربه لا يقال إنه رحمه. أما إذا حسن منه أن يضربه ولم يضربه فإنه يقال إنه رحمه، فهذه الآية تدل على أن كل عقاب انصرف وكل ثواب حصل، فهو ابتداء فضل وإحسان من الله تعالى وهو موافق لما يروى أن النبي ﷺ قال: "والذي نفسي بيده ما من الناس أحد يدخل الجنة بعمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته"، ووضع يده فوق رأسه، وطول بها صوته.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾. وفي يونس: ﴿**وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ**﴾. قال هنا: (**يَمْسَسْكَ**)، وفي يونس: (**يُرِدْكَ**). وقال هنا: ﴿**فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ وفي يونس: ﴿**فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ**﴾؟.

مع قصد التنويع، أن الضر إذا وقع لا يكشفه إلا الله تعالى فاستوى فيه الموضعان، وأما الخير فقد يراد قبل نيله بزمن، إما من الله تعالى، ثم ينيله بعد ذلك، أو من غيره، فهي حالتان: حالة: إرادته قبل نيله، وحالة: نيله، فذكر الحالتين في السورتين.

فآية الأنعام: حالة نيله، فعبر عنه بالمس المشعر بوجوده، ثم قال: ﴿**فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ أي على ذلك، وعلى خيرات بعده، وفيه بشارة بنيل، أمثاله. وآية يونس: حالة إرادة الخير قبل نيله، فقال: ﴿**يُرِدْكَ**﴾. ثم قال: ﴿**فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ**﴾ أي إذا أراده قبل نيله، ولذلك قال: ﴿**يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾ ففي الآيتين بشارة له بإرادة الخير ونيله إياه، وأمثاله بالواو فيها.

قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ**﴾ المس والكشف من صفات الأجسام، وهو هنا مجاز وتوسع؛ والمعنى: إن تنزل بك يا محمد شدة من فقر أو مرض فلا رافع وصارف له إلا هو، وإن يصبك بعافية ورخاء ونعمة ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الخير والضر روى ابن عباس، قال: كنت رديف رسول الله ﷺ فقال لي: "يا غلام – أو يا بني – ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن"؟ فقلت: بلى؛ فقال: "احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله

في الرخاء يعرفك في الشدة إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله فقد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن يضروك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، واعمل الله بالشكر واليقين. واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا". أخرجه أبو بكر بن ثابت الخطيب في كتاب "الفصل والوصل" وهو حديث صحيح؛ وقد خرجه الترمذي، وهذا أتم.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**﴾، وختمها ﴿**بالظَّالِمِين**﴾.

وفي يونس: ﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**﴾ بالفاء، وختمها ﴿**بالمجرمين**﴾.

أن آية الأنعام ليس ما قبلها سببا لما بعدها فجاءت بالواو المؤذنة بالاستئناف. وأية يونس: ما قبلها سبب لما بعدها، فجاءت بالفاء المؤذنة بالسببية من إشراكهم سببا في أظلميتم ولبثه فيهم عمرا من قبله وعلمهم بحاله سبب لكونهم أظلم كأنه قيل: إذا صح عندكم أنه صدق فمن أظلم ممن افترى. وختم هذه "بالظالمين"؛ لتقدم قوله: (فمن أظلم)، وختم تلك "بالمجرمين"، لقوله: قبل ذلك ﴿**كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ**﴾.

قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً**﴾ أي لا أحد أظلم منهم لأنفسهم لأنهم افتروا على الله كذبا؛ فأضافوا كلامه إلى غيره؛ وزعموا أن له شريكا وولدا، وقالوا للأصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله. ﴿**أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ**﴾، أي يحاسبهم على أعمالهم، ﴿**وَيَقُولُ الأَشْهَادُ**﴾، يعني الملائكة الحفظة؛ عن مجاهد وغيره؛ وقال سفيان: سألت الأعمش عن ﴿**الأَشْهَادُ**﴾، فقال: الملائكة. قال الضحاك: هم الأنبياء والمرسلون؛ دليله قوله: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً**﴾ [النساء:٤١]. وقيل: الملائكة والأنبياء والعلماء الذين بلغوا الرسالات. وقال قتادة: عن الخلائق أجمع. وفي صحيح مسلم من حديث صفوان بن محرز عن ابن عمر عن النبي ﷺ، وفيه قال: "وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله". ﴿**أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾ أي بعده وسخطه وإبعاده من رحمته على الذين وضعوا

العبادة في غير موضعها، قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّـهِ**﴾ يجوز أن تكون "الذين" في موضع خفض نعتا للظالمين، ويجوز أن تكون في موضع رفع؛ أي هم الذين. وقيل: هو ابتداء خطاب من الله تعالى؛ أي هم الذين يصدون أنفسهم وغيرهم عن الإيمان والطاعة. ﴿**وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً**﴾، أي: يعدلون بالناس عنها إلى المعاصي والشرك. ﴿**وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ**﴾، أعاد لفظ "هم" تأكيدا.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ**﴾، وفيما سواها: ﴿**نَمُوتُ وَنَحْيَا**﴾. أن (قالوا هنا عطف على قوله تعالى: (لعادوا)، أي: لعادوا، وقالوا: وفى غيرها حكاية عن قولهم في الحياة الدنيا. فهم لو رُدُّوا إلى الدنيا بما كان لهم فيها من اختيار فسيفعلون مثلما فعلوا، ولم يقولوا مثل هذا القول في اليوم الآخر إلا أنهم مقهورون. وكانوا من قبل يقولون: ﴿**وقالوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ**﴾[الأنعام:٢٩]. ففي دنياهم كانوا لا يؤمنون إلا بحياة واحدة هي الدنيا. ولم يلتفتوا إلى أن الإنسان يحيا في الدنيا على قدر قوته، وويل للضعيف من القوي. والقوي إنما يخاف من قانون يعاقبه، أو يخاف من إله سيعاقبه على الذنب مهما أخفاه، ولذلك نجد القاضي المؤمن يقول دائماً: لئن عمَّيتم على قضاء الأرض، فلا تعمّوا على قضاء السماء.

ومن غباء أهل الكفر أنهم يسمون الحياة على الأرض «الحياة الدنيا» وهي في حقيقتها دنيا، وما داموا قد حكموا وعرفوا أنها «دنيا» فلا بد أن يقابلها حياة عليا. إنّ كل ذلك يحدث لهم عندما يقفون على النار، والنار جند من جنود الجبار، فما بالك بهم حين يقفون أمام خالق النار ورب العالمين؟

مسألة: قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّـهِ**﴾، وكذلك في الآية الثالثة). وفى الثانية: (**أَرَأَيْتُمْ**) على العادة فيه. جمع فيهما بين علامتي الخطاب، وهما تاء الضمير وكاف الخطاب؟

أنه لما كان المتوعد به شديدا أكد في التنبيه عليه بالجمع بينهما مبالغة في الوعد. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن المشركين إذ أتاهم عذاب من الله، أو أتتهم الساعة أخلصوا الدعاء الذي هو مخ العبادة لله وحده، ونسوا ما كانوا يشركون به. لعلمهم أنه لا يكشف الكروب إلا الله وحده جل وعلا.

ولم يبين هنا نوع العذاب الدنيوي الذي يحملهم على الإخلاص لله، ولم يبين هنا أيضاً إذا كشف عنهم العذاب هل يستمرون على إخلاصهم، أو يرجعون إلى كفرهم وشركهم، ولكنه بين كل ذلك في مواضع أخر.

فبين أن العذاب الدنيوي الذي يحملهم على الإخلاص، هو نزول الكروب التي يخاف من نزلت به الهلاك، كأن يهيج البحر عليهم وتلتطم أمواجه، ويغلب على ظنهم أنهم سيغرقون فيه إن لم يخلصوا الدعاء لله وحده، كقوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ، فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾.

وعندما ترى تقلب الكفار في البلاد فاعلم أنهم لن يأمنوا أن يأخذهم الله في تقلبهم، وفي ذلك يقول: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ الله بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إلاَّ القوم الظالمون**﴾[الأنعام:٤٧]. ويقول سبحانه: ﴿**أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ**﴾ [الأنعام:٤٦]. والكافر من هؤلاء يتملكه الغرور، وهو يتقلب فيأتيه عذاب الله بغتة. والعذاب يأتي مرة بغتة، ومرة أخرى جهرة. إنه يأتي بغتة حتى يكون الإنسان متوقعا له في أي لحظة ويأتي جهرة حتى يرعب الإنسان ويخيفه قبل أن يقع. ولذلك يقول الحق: ﴿**لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى الله جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصاعقة وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ**﴾[البقرة:٥٥]. فالموت إن جاءهم بغتة فقد لا يشعرون بهوله إلا لحظة وقوعه، ولكن حينما يأتيهم الموت وهم ينظرون، فهم يرونه وهم في فزع ورعب.

مسألة: قوله تعالى: ﴿**وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ**﴾. وفى هود: حذف (لكم). جوابه: أن آية هود تقدمها (لكم) مرات عدة، فاكتفى به أن آية هود تقدمها (لكم) مرات عدة، فاكتفى به تخفيفا. ولم يتقدم هنا سوى مرة واحدة. وكل علم من العلوم له مقدمات إن بحث فيها باحث فإنه يصل إلى النتائج الجديدة، وهذا ما نسميه «غيبا إضافيا»، أي كان غيباً في وقت ما لكنه غير غيب في وقت آخر، ولذلك يُنسب هذا العلم إلى البشر دائماً، ولنقرأ قول الحق سبحانه: ﴿**وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ**﴾[البقرة: ٢٥٥].

والإحاطة بالعلم كلها لله، وهو سبحانه الذي يأذن لبعض من خلقه بالإحاطة ببعضٍ من هذا العلم، وكل سر من أسرار هذا الكون لا يولد إلا بإذن منه سبحانه وتعالى، وهو سبحانه يوفق العلماء أن يبحثوا في المقدمات ليصلوا إلى النتائج. ولكن ماذا عن العلم الذي لا توجد له مقدمات؟ هذا من الغيب المطلق الذي لا يظهره الحق لأحد إلا لمن ارتضى من رسول.

أقول ذلك حتى لا يخطئ أحدنا فيظن أن إخبار إنسان لإنسان بمصير شيء ضاع منه هو معرفة للغيب، فقد يكون هذا غيباً بالنسبة لصاحب الشيء الضائع، ولكنه ليس غيباً بالنسبة للص الذي سرقه، ولا هو غيب بالنسبة للشخص الذي أخفى المسروقات، ولا هو غيب بالنسبة للجان المحيطين باللص، إذن فهذا ليس غيباً مطلقاً، ولكنه غيب معلوم للغير. إذن فخزائن الحق سبحانه وتعالى ملأى بكل أنواع الخير التي تؤدي للإنسان مهمة البقاء في الأرض سواء من جهة الضرورات أو الأشياء الترفية. ﴿**ولا أَعْلَمُ الغيب ولا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ**﴾ [الأنعام:٥٠].

إذن فالرسول ﷺ ينفي عن نفسه بقول الحق ثلاثة أشياء: منها شيئان ينفيان الألوهية عن الرسول صلى الله عليه، وهي ملكية خزائن الكون، وعلم الغيب، وشيء ثالث وهو أنه ليس مَلَكاً، فهل يعني ذلك أن المَلَكَ أرفع من النبي؟ لا، ولكنهم قالوا له: إنما يمشي في الأسواق ويتكسب العيش بالعمل، والمَلَك لا يفعل ذلك. ولكن الرسول بالطبع أرقى منزلة من المَلَك؛ لأنه يقوم بهداية الإنس والجن ويتبع ما يوحيه إليه مِلِكُ الملوك، وهو الحق سبحانه وتعالى: ﴿**إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إلي**﴾.

إنه من فرط ارتفاعه في الصدق المبلغ عن الله يعلن حقيقته ﷺ بأنه من البشر، والبشر ابن أغيار، ويعلم شيئاً، ويجهل شيئاً، ومن مصلحة المرسل إليهم أن يكون الرسول متبعاً لا مبتدعاً، ذلك أنه ينقل لهم تكاليف الخالق بألفاظها لا أفكار البشر التي قد تتغير أو تتبدل. فلو ابتدع لابتدع في إطار بشريته، وفي ذلك نزول لا ارتقاء، لكنه في الإتباع يأتي بالارتقاء للبشر؛ لأنه يتبع ما أوحى به الإله الذي اصطفاه رسولاً. ولذلك كانت الأمية في رسول الله ﷺ شرفاً له ولنا. أما أُمّيَّة الإنسان العادي فهي عيب، إنما أُمّيَّة محمد ﷺ هي الكمال.

و«أُمّيّ» – كما نعلم – تعني أنه كما ولدته أمه، لم يأخذ ثقافة ولم يتعلم من أحد من البشر، لكن علمه وثقافته فوقية كلها. إن ذلك وحي من الله، وهو ﷺ عندما يعلن أنه نبي أمي، فهذا معناه أنّ كل ما دخل في ذهنه لم يأخذه عن أحد من خلق الله، وإنما كل ما جاء إلى هذا الذهن قد أخذه رسول الله عن الله. وهكذا تكون أميته شرفاً لنا، ولكن الأمية فينا – نحن المسلمين – تختلف يجب أن نعمل جميعاً على القضاء عليها: ﴿**إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ**﴾. والرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى بل يبلغ ما جاء به الوحي.

ويذيل الحق الآية بقوله: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى والبصير أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الأنعام:٥٠]. وساعة يأتي الحق بقضية يستخدمها كمثل، فلا بد أن يأتي بقضية متفق عليها حتى من الخصوم المواجهين له؛ فهم يعرفون أن الأعمى لا يستوي مع البصير، تماماً مثلما لا يستوي الظل والحرور أو الظلمات والنور. إن الفطرة لا تقبل الخلاف في هذه الأمور. والعمى – كما نعرف– هو عدم الرؤية لمن مِن شأنه وحاله أن يرى، فلا يقول إنسان عن حجر: إن الحجر أعمى؛ لأن الأحجار لا تبصر. إذن لا نقول العمى إلا كوصف لمن يفترض فيه أن يرى. وماذا تفعل عدم الرؤية في الأمر المحس؟ إن عدم الرؤية يؤذي الإنسان لأنه كائن متحرك. فقد يقع في حفرة أو يصطدم بشيء يؤذيه، وبإقرار الجميع نعرف أن الأعمى تضطرب حركته ويتعرض للمتاعب، والذي يحمي الإنسان من ذلك أن يكون مبصراً أو مستعيناً بمن يبصر حتى يمكن أن يستقبل المرئيات. وكان العلماء قديماً يظنون أن الإبصار هو نتيجة خروج شعاع من العين ليذهب إلى الشيء المرئي ونقض هذه القضية عالم إسلامي هو ابن الهيثم الذي علم العلماء أن الشعاع إنما يخرج من المرئي إلى عين الرائي بدليل أن الشيء المرئي لا يراه الإنسان في الظَّلام.

والعمى يمنع العين من استقبال الشعاع، ولا يختلف أحد في أن العمى مهلك وضار ومتعب، والإبصار مريح. وكأن الحق يقول للخلق: إياكم أن تظنوا أن حياتكم كلها تعتمد على المحيط المحس، لا، إن هناك قيماً إن لم يعرفها الإنسان فهو يتعثر ويضطرب ويتخبط.

إذن فمنهج السماء قد جاء ليهدي النفس البشرية إلى القيم، كما يهدي النور الحسي الإنسان إلى المحسات. فإذا كان البصر هو وقاية للإنسان لتفادي

العقبات، فكذلك المنهج هو الذي يبين للإنسان ألا يصطدم بالعقبات في الأمور المعنوية. والإنسان يحيا بقيمه، بدليل أن الأعمى قد يجد من يقوده من المبصرين، ولكنه قد لا يجد هدايته في هداية مهتد. إذن فالإنسان قد يستغني عن البصر، ولكنه لا غنى له عن الهدى؛ لأن الضلال سيصيبه، والضلال في القيم أبلغ وأشد قسوة من الضلال في الأمور المحسّة.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا**﴾، وكذلك في سورة الأنبياء: ﴿**مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ**﴾ قدم النفع على الضر. وفى الحج والفرقان وغيرهما: قدم الضر على النفع؟.

أن دفع الضر أهم من جلب النفع، فلما تقدم ذكر نفى الملك والقدرة عنهم كان تقديم ذكر دفع الضر، وانتفاء القدرة عليه أهم. ولما كان سياق غير ذلك في العبادة والدعاء والمقصود بهما غالبا طلب النفع وجلبه كان تقديم النفع أهم، ولذلك قال في الحج: ﴿**يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ**﴾ المقصود بالدعاء.

قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُنَا**﴾ أي ما لا ينفعنا إن دعوناه. ﴿**وَلا يَضُرُّنَا**﴾ إن تركناه؛ يريد الأصنام. ﴿**نُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ**﴾، أي نرجع إلى الضلالة بعد الهدى. وواحد الأعقاب عقب وهو مؤنث، وتصغيره عقيبة. يقال: رجع فلان على عقبيه، إذا أدبر. قال أبو عبيدة: يقال لمن رد عن حاجته ولم يظفر بها: قد رد على عقبيه. وقال المبرد: معناه تعقب بالشر بعد الخير. وأصله من العاقبة والعقبى وهما ما كان تاليا للشيء واجبا أن يتبعه؛ ومنه ﴿**وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [الأعراف: ١٢٨]. ومنه عقب الرجل. ومنه العقوبة، لأنها تالية للذنب، وعنه تكون.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ**﴾. ما وجه اختصاص كل آية بخاتمتها؟

أن حساب الشمس والقمر والنجوم والاهتداء بها يختص بالعلماء بذلك فناسب ختمه ب (يعلمون). وإنشاء الخلائق من نفس واحدة، ونقلهم من صلب إلى

رحم، ثم إلى الدنيا ثم إلى مستقر ومستودع، ثم إلي حياة وموت. والنظر في ذلك والفكر فيه أدق فناسب ختمه ب (يفقهون) أي: يفهمون، وهو اشتغال الذهن بما يتوصل به إلى غيره، فيتوصل بالنظر في ذلك إلى صحة وقوع البعث والنشور بثواب أو عقاب.

ولما ذكر ما أنعم به على عباده من سعة الأرزاق والأقوات والثمار وأنواع ذلك ناسب ذلك ختمه بالإيمان الداعي إلى شكره تعالى على نعمه. ولماذا يُطْلَب الأجر؟ أنت لا تطلب أجراً ممن فعلت أمامه أو له عملاً إلا إذا كان العمل الذي فعلته يعطيه منفعة تستحق أن تُعطي وتُمنح عليه أجراً، فكأن ما يؤديه ﷺ إلى الأمة كان يستحق عليه أجراً، لكنه ﷺ يبلغ عن ربّه: قل لهم: إنك نزلت عن هذا الأجر. وقارنوا بين مَن يقدم لأي واحد منكم منفعة قد لا تأخذ من وقته نصف ساعة في جزئية من جزئيات الحياة، ومن يقوم بعمل ينفعكم في مدًى يتعدى الدنيا إلى أن يصل إلى الآخرة ثم يقول: أنا لا أريد منكم أجراً. وعدم طلب الأجر حصل من كل الرسل إلا رسولين اثنين؛ فلم يرد في القرآن أن قالاها، وإذا ما جئت لسورة الشعراء مثلاً تجد أن الحق تكلم عن موسى، وتكلم عن إبراهيم، ثم تكلم بعد ذلك عن بقية الرسل ولم تأت كلمة الأجر في قصة إبراهيم وكذلك في قصة موسى عليهما السلام.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾، وقال في سورة المؤمن: ﴿**خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**﴾. لما تقدم هنا: ﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ**﴾ فناسب تقديم كلمة التوحيد النافية للشرك رداً عليهم، ثم ذكر الخلق. ولما تقدم في المؤمن كونه خالقا بقوله تعالى: ﴿**لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ**﴾، ناسب تقديم كلمة الخلق ثم كلمة التوحيد. ﴿**ذلكم الله رَبُّكُمْ لا إله إلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فاعبدوه وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾[الأنعام:١٠٢]. وما دام هو خالق لكل شيء وهو الباقي فهو الأحق بالعبادة؛ لأن العبادة -كما قلنا- معناها طاعة الأمر وطاعة النهي - ومادام سبحانه الذي خلق فهو الذي يضع قانون الصيانة للإنسان والكون، وإن خالفت المنهج يفسد الكون والإنسان، وإذا فسد الكون أو الإنسان فأنت تلجأ إلى منهج الخالق لتعيد لكل منهما صلاحيته؛ لذلك هو الأولى بالعبادة. ﴿**ذلكم الله رَبُّكُمْ لا إله إلاَّ هُوَ**﴾.

وهذه شهادة شهد بها لذاته قبل أن يخلق كل شيء، وقبل أن يخلق الملائكة، وشهدت بها ملائكته، وشهد بها أولو العلم. ﴿**شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم قَآئِمَاً بالقسط**﴾[آل عمران:١٨]. إذن فالله شهد بألوهيته من البداية، ومن أسمائه «المؤمن» ونحن مؤمنين بالله، وربنا المؤمن بأنه إله واحد، وهذا الإيمان منه أنه إله واحد، يخاطب كل شيء يريده وهو يعلم أن أي شيء لا يقدر أن يخالفه، إنه يخاطبه بقوله: «كن فيكون» ولأنه إله واحد يعلم أن أحداً أو شيئاً لم يخالفه، لذلك يباشر ملكه وهو العليم بأن الغير خاضع لأمره ولا يمكن أن يتخلف عن مراداته، أو نقول: «المؤمن» لما خلق ولمن خلق، أي منحهم الأمن والأمان فهو سبحانه القائل: ﴿**الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ**﴾[قريش:٤]. لقد أوضح الحق سبحانه لنا: أنتم خلقي فإن أخذتم منهجي أطعمكم من الجوع وآمنكم من الخوف.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ**﴾ وقال بعده: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ**﴾. لما تقدم في الأول: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا**﴾، الآية وهو تسلية له ﷺ ناسب ذلك ولو شاء ربك الحافظ لك ما فعلوه. وأما الثانية: فتقدمها قوله: ﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا**﴾. فناسب ذلك: ولو شاء الله الذي جعلوا له ذلك ما فعلوه.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ**﴾، وفي النحل وغيرها: ﴿**بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ**﴾. أن الأصل دخول الباء فيه لكن تقدم قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾. ولما تقدم هنا: ﴿**وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**) وتأخر ﴿**وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ ناسب من يضل عَنْ سَبِيلِهِ، وبقية الآيات إخبار عمن سبق منه الضلال فناسب الفعل الماضي.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِه وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ وفيه مسألتان: الأولى: في تفسيره قولان: الأول: أن يكون المراد أنك بعد ما عرفت أن الحق ما هو، وأن الباطل ما هو، فلا تكن في قيدهم بل فوض أمرهم إلى خالقهم؛ لأنه تعالى عالم بأن المهتدي من هو؟ والضال من هو؟ فيجازي كل واحد

بما يليق بعمله. والثاني: أن يكون المراد أن هؤلاء الكفار وإن أظهروا من أنفسهم ادعاء الجزم واليقين فهم كاذبون، والله تعالى عالم بأحوال قلوبهم وبواطنهم، ومطلع على كونهم متحيرين في سبيل الضلال تائهين في أودية الجهل. الثانية: قوله: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ**﴾ فيه قولان: الأول: قال بعضهم ﴿**أَعْلَمُ**﴾ هاهنا بمعنى يعلم، والتقدير: إن ربك يعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين. فإن قيل: فهذا يوجب وقوع التفاوت في علم الله تعالى وهو محال.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ**﴾. وقال في هود: ﴿**مُصْلِحُونَ**﴾. أن آية الأنعام تقدمها قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ**﴾. أي – يوقظونكم بالآيات من غفلاتكم؛ لأن الإنذار الإيقاظ من الغفلات عن المنذر به، فناسب قوله: ﴿**غَافِلُونَ**﴾. وفي هود: تقدم ﴿**فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ**﴾، فناسب الختم بقوله: ﴿**مُصْلِحُونَ**﴾؛ لأن ذلك ضد الفساد المقابل له. قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى**﴾ أي أهل القرى. ﴿**بِظُلْمٍ**﴾ أي بشرك وكفر. ﴿**وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾ أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق؛ أي لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى يضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط؛ ودل هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشرك، وإن كان عذاب الشرك في الآخرة أصعب. وفي صحيح الترمذي من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده".

وقيل: المعنى وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مسلمون، فإنه يكون ذلك ظلما لهم ونقصا من حقهم، أي ما أهلك قوما إلا بعد إعذار وإنذار. وقال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى ما كان ربك ليهلك أحدا وهو يظلمه وإن كان على نهاية الصلاح؛ لأنه تصرف في ملكه؛ دليله قوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً**﴾ [يونس:٤٤]. وقيل: المعنى وما كان الله ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون؛ أي مخلصون في الإيمان. فالظلم المعاصي على هذا.

مسألة: قوله تعالى: ﴿**إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ هنا وفي الزمر. وفي

قصة شعيب في هود: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بغير فاء؟.

أن القول في آيتي الأنعام والزمر بأمر الله تعالى له بقوله: قل) فناسب التوكيد في حصول الموعود به " (بفاء السببية. وأية هود من قول "شعيب " فلم يؤكد ذلك.

مسألة:

قوله تعالى: حكاية عن قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ الآية. وقال في النحل: ﴿مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾. أن لفظ الإشراك مؤذن بالشريك فلم يقل: (مِنْ دُونِهِ). بخلاف: (عَبَدْنَا) ليس مؤذنا بإشراك غيره فلذلك جاء: (مِنْ دُونِهِ) وأما زيادة (نَحْنُ) فإنه لما حال بين الضمير في (عَبَدْنَا) وبين ما عطف عليه حائل وهو قوله: (مِنْ دُونِهِ) أكد بقوله: فيه (نَحْنُ). وها هنا لم يحل بين الضمير والمعطوف عليه حائل. قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قال مجاهد: يعني كفار قريش. قالوا ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾، يريد البحيرة والسائبة والوصيلة. أخبر الله عز وجل بالغيب عما سيقولونه؛ وظنوا أن هذا متمسك لهم لما لزمتهم الحجة وتيقنوا باطل ما كانوا عليه. والمعنى: لو شاء الله لأرسل إلى آبائنا رسولا فنهاهم عن الشرك وعن تحريم ما أحل لهم فينتهوا فأتبعناهم على ذلك. فرد الله عليهم ذلك، فقال: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أي أعندكم دليل على أن هذا كذا: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ في هذا القول. ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ لتوهموا ضعفكم أن لكم حجة.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾. وفى النحل: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾. لما تقدم قوله: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ﴾، ناسب كذلك كذب الذين من قبلهم. ولما تقدم في النحل: ﴿مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا حَرَّمْنَا﴾ قال: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾. إذن فاختيار الإنسان إما ان يدخله إلى الإيمان وإما أن يتجه به إلى الكفر، لذلك يقول الحق عن الذين يدعون أن كفرهم كان بمشيئة الله: ﴿كذلك كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِم حتى ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]، والسابقون لهم قالوا ذلك وفعلوا مثل ما يفعل هؤلاء من التكذيب؛

وجاءهم بأس وعذاب من الله شديد. ولذلك يأمر الحق محمداً ﷺ: ﴿**قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ**﴾[الأنعام:١٤٨]. ويسألهم محمدُ ﷺ عن علم يؤكدون به صحة ما يدعونه، ويزعمونه أي هل عندكم بلاغ من الله، والحق أنهم لا علم لديهم ولا دليل، إنهم يتبعون الظن، ويخرصون، أي ان كلامهم غير واضح الدلالة على المراد منه، إنه تخمين وظن وكذب. لذلك يقول سبحانه: ﴿**قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّة**﴾.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ**﴾، وفى "سبحان": ﴿**خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ**﴾ الآية. أن قوله تعالى: ﴿**مِنْ إِمْلَاقٍ**﴾ وهو الفقر، خطاب المقلين الفقراء، أي: لا تقتلوهم من فقر بكم، فحسن: ﴿**نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ**﴾ ما يزول به إملاقكم ثم قال: (وَإِيَّاهُمْ) أى نرزقكم جميعا. وقوله تعالى: ﴿**خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ**﴾ خطاب للأغنياء، أي خشية إملاق يتجدد لهم بسببهم، فحسن: ﴿**نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ**﴾.

قوله سبحانه: ﴿**وَلاَ تقتلوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم**﴾ [الإسراء:٣١]، يقول بعض الناس إن «نرزقكم» في الآية الأولى «ونرزقهم» في الآية الثانية من جمال الأسلوب. نقول: لا. قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إمْلاَقٍ**﴾ أي من فقر موجود. ومادام الفقر موجودا فالإنسان لا يريد أولادا ليزداد فقره. ولذلك قال له الحق سبحانه وتعالى: ﴿**نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ**﴾. أي أن مجيء الأولاد لن يزيدكم فقرا؛ لأن لكم رزقكم ولهم رزقهم، وليس معنى أن لهم رزقهم أن ذلك سينقص من رزقكم، فللأب رزق وللولد رزق. أما في الآية الثانية: ﴿وَلاَ تقتلوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ﴾، فكأن الفقر غير موجود، ولكنه يخشى أن رزق بأولاد بأنه الفقر. يقول له الحق: ﴿**نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم**﴾، أي: أن رزقهم سيأتيهم قبل رزقكم.

مسألة:

قوله تعالى في آخر الوصية الأولى: ﴿**تَعْقِلُونَ**﴾ وفى آخر الثانية: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾. وآخر الثالثة: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾.

أن الوصايا الخمس إنما يحمل على تركها العقل الغالب على الهوى، لأن الإشراك بالله لعدم استعمال العقل الدال على توحيد الله وعظمته ونعمه على عبيده، وكذلك عقوق الوالدين لا يقتضيه العقل لسبق إحسانهما إلى الولد بكل

طريق، وكذلك قتل الأولاد بالوأد من الإملاق مع وجود الرازق الكريم، وكذلك إتيان الفواحش لا يقتضيه عقل، وكذلك قتل النفس لغيظ أو غضب في القاتل فحسن بعده: **(تَعْقِلُونَ)**.

وأما الثانية: فلتعلقها بالحقوق المالية والقولية، أي: لعلكم تذكرون في أنفسكم أن لو كان الأيتام أولادكم وكنتم أنتم المقايضين لأنفسهم ما يكال أو يوزن، أو المشهود عليه، أو المقر له، أو الموعود، أكنتم ترضونه لأنفسكن؟ فما لا ترضونه لأنفسكم لا ترضونه لغيركم. وأما الثالثة: فلأن ترك اتباع الشرائع الدينية مؤد إلى غضب الله تعالى وإلى جهنم لما فيه من معصية الله تعالى، فحسن: **(لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)** ذلك، أو تتقون عذاب الله سبحانه بسببه.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ**﴾.

وفى الأنبياء: ﴿**وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ**﴾

قدم الإنزال هاهنا وأخره في الأنبياء.

قدم الإنزال ههنا ردا على قول فنحاص بن عازوراء: ﴿**مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ**﴾ فبدأ به اهتماما به؛ ولأن الكتب سماوية فناسب البداءة بالإنزال. وأية الأنبياء في الذكر، فجاءت على الأصل في تقديم الوصف المفرد في النكرة على الجملة.

يعني: وهذا القرآن كتاب أنزلناه من عندنا عليك يا محمد كثير الخير والبركة دائم النفع يبشر المؤمنين بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية. فالحق يقول هنا: ﴿**وهذا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ**﴾ وهو قول صادق يصدق على القرآن فقط برغم أن كل الكتب السماوية السابقة كانت كتب منهج، وكانت المعجزة منفصلة عن المنهج؛ فمعجزة موسى عليه السلام – كما نعرف – هي العصا، ومنهجه التوراة، وعيسى عليه السلام معجزته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ومنهجه الإنجيل. لكن رسول الله ﷺ تميّز بأن معجزته عين منهجه؛ لأن كل دين من الأديان السابقة كان لزمن محدود، في مكان محدود. وجاء ﷺ بالدين الجامع المانع، لذلك جاءت المعجزة هي المنهج، فلو أن معجزته ﷺ كانت من جنس

معجزات الأنبياء السابقين إلا لأن القرآن قالها وصارت خبراً، وكل منها تليق بالزمن المحدود والمكان المحدود.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾. وقال تعالى في البقرة: ﴿**كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ**﴾ الآية.

أن آية الأنعام: لمطلق الحسنات، وآية البقرة خاصة في النفقة في سبيل الله السالمة من المن والأذى، وقد تقدم في البقرة. فإن قيل: ففي البقرة: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ**﴾ الآية. قلنا: وروده بعد قوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾، يدل على ما قدمناه أو المراد بهذه الآية العشر فما زاد.

وصف الله تعالى جزاء الأعمال وجعل لها نهاية وحدا فقال: ﴿**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾ [الأنعام:١٦٠]، وجعل جزاء الصدقة في سبيل الله فوق هذا فقال: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ**﴾ [البقرة:٢٦١] الآية. وجعل أجر الصابرين بغير حساب ومدح أهله فقال ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر:١٠]، وقال: ﴿**وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾ [الشورى:٤٣]. وقد قيل أن المراد بالصابرين في قوله: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ**﴾ [الزمر:١٠]، أي: الصائمون، لقوله تعالى في صحيح السنة عن النبي ﷺ: "الصيام لي وأنا أجزي به". فلم يذكر ثوابا مقدرا كما لم يذكره في الصبر والله أعلم.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾، وقال في يونس عن نوح: ﴿**مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾، وفى موسى: ﴿**أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾.

أن المراد أول المسلمين من أهل مكة شرفها الله تعالى؛ لأنه أول المسلمين منهم، ولم يكن نوح أول من أسلم في زمانه، ومثله قول سحرة فرعون: ﴿**أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾، يريد أولهم من قوم فرعون وآله. وأما قول موسى ﴿**وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ أراد أول المصدقين بامتناع الرؤية في الدنيا، ولم يرد الإيمان الذي هو: الدين.

ذبح النبي ﷺ يوم الذبح كبشين أقرنين موجوءين أملحين، فلما وجههما قال:

﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً**﴾ – وقرأ إلى قوله: "وأنا أول المسلمين – اللهم منك ولك عن محمد وأمته باسم الله والله أكبر"، ثم ذبح. فلعل مالكا لم يبلغه هذا الخبر، أو لم يصح عنده، أو رأى العمل يخالفه. وعلى هذا يدل قوله: إنه بدعة. والله أعلم.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**خَلَائِفَ الْأَرْضِ**﴾، وفى فاطر: ﴿**فِي الْأَرْضِ**﴾. يأتي فيها. ﴿**خَلائِفَ**﴾ جمع خليفة، ككرائم جمع كريمة. وكل من جاء بعد من مضى فهو خليفة. أي: جعلكم خلفا للأمم الماضية والقرون السالفة. ومعنى «خليفة» أي الذي يخلف غيره؛ فإما أن يخلفه زماناً، وإما أن يخلفه مكاناً. وخلفه الزمان أن يأتي عصره بعد عصره، ويومه بعد يومه، وخلفة المكان أي أن يكون جالساً ثم يرحل ليأتي آخر ليستقر مكانه، وانظر إلى كل قواعد الحياة بالنسبة للإنسان تجده في شبابه قويًّا، ثم يرحل عنه الشباب ليأخذه آخره، ويذهب إلى الشيخوخة.

وكذلك نجد إنساناً يملك مكاناً ثم يتركه ويأتي واحد آخر يملكه. أو أن الحق سبحانه وتعالى أراد من الخلافة، لا خلافة بعضنا لبعض ولكن خلافة الإنسان لرب الإنسان في الأرض؛ لأن كل شيء منفعل لله قهراً، والحق سبحانه وتعالى منح بسعة عطائه؛ فجعل بعض الأشياء تنفعل لبعضها هبةً منه سبحانه، فإذا أوقدت النار – على سبيل المثال– تنفعل لك، وإذا حرثت في الأرض ووضعت فيها البذور تنفعل لك، وإذا شربت ترتوي، وإذا أكلت تشبع. من أين أخذت كل ذلك. إنك قد أخذته من أن الحق الذي سخّر لك ما في الكون، وجعل أسباباً ومسببات، فكأنك أنت خليفة إرادات؛ لكي يثبت لنا سبحانه أنه يفعل ما يريد، فعلينا أن نأخذ هذه القضية قضية مسلمة، وإن أردت أن تختبر ذلك فانظر إلى أي إنسان ولو كان كافراً ويريد أن يقوم من مكانه، وتنفعل له جوارحه فيقوم، فأي جارحة أمرها أن تفعل ذلك.

إنه لا يعرف إلا أنه بمجرد أنه أراد أن يقوم قد قام. وحتى لا تفهم أنك أخذت كل ذلك بشطارتك فهو يجعل بعضاً من الأمور مشاعاً عالمياً، مثل الموت والحياة إنهما أمران، لا يختلف فيهما الإنجليزي عن الفرنسي، عن العربي، وكذلك الضحك والبكاء، وهل هناك فرق بين ضحكة إنجليزية، أو ضحكة شيوعية أو

ضحكة رأسمالية. طبعاً لا، فكلها ضحك وهو لغة عالمية، ولذلك قال: ﴿**وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأبكى**﴾ [النجم:٤٣].

وسبحانه جاء بأمر مشترك موجود في الناس كلها، فأنت تتكلم وتعمل على الصورة والكيفية التي تريدها، لكنك ساعة تضحك فهو سبحانه الذي يضحك. وأنت حين تود مجاملة أحد وتضحك له فتفاجأ بأن ضحكتك صناعية.

والحق يوضح لك: إن زمام كوني في يدي، أجعل القوم مختارين في أشياء، وأجعلهم مرغمين ومتحدين على رغم أنوفهم في أشياء؛ فأنا الذي أضحك وأبكي. ولا يوجد بكاء إنجليزي أو بكاء فرنساوي أو بكاء ألماني، وكل البشر شركاء في مثل هذه الأمور. ﴿**وَهُوَ الذي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأرض**﴾[الأنعام:١٦٥]. إن إرادتك على أبعاضك، وعلى جوارحك- أيها الإنسان- موهوبة لك من الواهب الأعلى والمريد الأعلى، وسبحانه يسلب ذلك من بعض الأفراد، فيأمر المخ: إياك أن ترسل إشارة لتلك الجارحة لتنفعل.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ**﴾، وفى الأعراف: ﴿**لَسَرِيعُ الْعِقَابِ**﴾. يعني لأعدائه بإهلاكهم في الدنيا وإنما وصف العقاب بالسرعة لأن كل ما هو آت فهو قريب إن كان العبد موفياً حقوق الله تعالى فيما أمره به أو نهاه عنه كان نصيبه الترغيب والتشريف والتكريم.

أنه لما تقدم ما يؤذن بالكرم والإحسان في قوله: ﴿**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾ الآيات ناسب ترك التوكيد في جانب العقاب. وفى الأعراف: لما تقدم ما يؤذن بغضب الله وعذابه من اتخاذهم العجل، وحل السبت، ناسب توكيد جانب العذاب بدخول اللام.

وسبحانه «سريع العقاب»، وإياك أن تستبطئ الآخرة، فالثواب والعقاب سيأتي بعد أن ننتهي ونموت. وليس الموت سبب؛ فكل إنسان عرضة لأن يموت، وبذلك تكون قيامته قد قامت، وإن قامت قيامة الإنسان فلن يقوم بأي عمل آخر. إذن فسبحانه سريع العقاب. ولكن البعض من القوم يغريهم حلم الله ويستبطئون الآخرة. لذلك يقول أحد العارفين: اجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه.

إذن فكل صفة من صفات الحق يتجلى ويظهر أثرها في المخلوق هبة من الله له، فأنت إذا أردت أن تقف، مثلاً، لا تعرف ما هي العضلات التي تحركها لتقف، ولكنك بمجرد إرادتك أن تقف.

وذلك مظهر لإرادة الله إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. وما دمنا خلائف فلابد أن نتكامل ولا تتكرر، بمعنى أن كل واحد فيه موهبة تنقص من الآخر، وفي الأخر موهبة تنقص في غيره، ليضطر كل مخلوق في الأرض أن يتعاون مع آخر، ليأخذ ثمرة مواهب غيره، ويعطي هو ثمرة مواهبه. ولا يريد الحق منا أن نعطي ثمرات المواهب تفضلاً، وإنما يريد أن يجعلها حاجة. فأنت تحتاج إلى موهبة من لا موهبة لك فيه، إنك تحتاج إلى الغير، وهو كذلك أيضاً يحتاج إلى عملك.

وحين يستخلفنا الله تبارك وتعالى بهذه الصورة فبعضنا في ظاهر الأمر يكون أعلى من بعض، لذلك يوضح سبحانه: أنا فضلت بعضكم على بعض، لكني لم أفضل طائفة لأجعل طائفة مفضولاً عليها، ولكن كلْ مفضل في شيء لأن له فيه مواهب، ويكون مفضلا عليه في شيء آخر لا مواهب له فيه، وهكذا يتساوى الناس جميعا.

إننا جميعاً عيال الله، وليس أحد منا أولى بالله من أحد؛ لأنه سبحانه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً؛ ولذلك إن حاولنا إحصاء المواهب في البشر وتوزيعها على الخلق جميعاً لوجدنا أن مجموع كل إنسان يساوي مجموع كل إنسان آخر، ولكن أنت تأخذ في موهبة ما تفوقاً، وفي الموهبة الأخرى لا تجد نفسك قادراً عليها، وفي موهبة ثالثة قد تقدر عليها لكنك لا تحبها، واجمع الدرجات كلها في جميع المواهب ستجد أن كل إنسان يساوي الآخر، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.

*****

سورة الأعراف

مسألة:

ما سبب اختلاف الألفاظ وزيادة المعاني ونقصها في بعض قصص آدم دون بعض، وكذلك في غير ذلك من القصص كقصة موسى مع فرعون، ونوح وهود وصالح مع قومهم شبه ذلك.

أما اختلاف الألفاظ فلأن المقصود المعاني لأن الألفاظ الدالة عليها أولا: لم تكن باللسان العربي، بل بألسنة المتخاطبين حالة وقوع ذلك المعنى، فلما أديت تلك المعاني إلى هذه الأمة أديت بألفاظ عربية تدل على معانيها مع اختلاف الألفاظ واتحاد المعنى، فلا فرق بين "أبى" أن يكون مع الساجدين وبين "لم يكن مع الساجدين" في دلالتها على معنى واحد وهو عدم السجود.

وكذلك لا فرق في المعنى بين "مالك لا تسجد"، و" وما منعك أن تسجد" لأن اللام صلة زائدة.

وأما زيادة المعاني ونقصها في بعض دون بعض فلأن المعاني الواقعة في القصص فرقت في إيرادها، فيذكر بعضها في مكان وبعض آخر في مكان آخر، ولذلك عدة فوائد ذكرتها في كتاب المقتص في تكرار القصص.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**أَنْظِرْنِي**﴾. وفى الحجر: ﴿**فَأَنْظِرْنِي**﴾ بالفاء.

أن آية الأعراف استئناف سؤال غير مسبب عما قبله، فلا وجه للفاء وكذلك: ﴿**إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ**﴾، خبر مستأنف غير مسبب عما قبله، تقديره: إن أخرتني فأنظرني.

ولما جاء بفاء السببية هنا، ناسب: ﴿**فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ**﴾ بالفاء. ومعنى ﴿**أَنظِرْنِي**﴾ أمهلني أي لا تمتني بسرعة، ولا تجعل أجلي قريباً. فالإنظار طلب الإمهال، وعدم التعجيل بالموت، وقد طلبه إبليس لكي يشفي غليله من بني آدم وآدم؛ انه جاء له بالصَّغَار والذلة والطرد والهبوط، ولذلك أصر على أن يجتهد في أن يغري أولاد آدم ليكونوا عاصين أيضاً. وكأن إبليس في هذا الطلب أراد أن يُنْقذ

من الموت وأن يبقى حيًّا إلى يوم البعث الذي يبعث فيه كل من مات. وكأنه يريد أن يقفز على قول الحق: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت**﴾[آل عمران:١٨٥].

فأوضح الحق: أن تأجيل موتك هو إلى يوم الوقت المعلوم لنا وغير المعلوم لك؛ لأن الأجل لو عرف فقد يعصي من يعلمه مدة طويلة ثم يقوم بالعمل الصالح قبل ميعاد الأجل، ولكن الله أراد بإبهام زمان الموت أن يشيع زمانه في كل وقت. وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه: ﴿**إلى يَوْمِ الوقت المعلوم**﴾[الحجر:٣٨].

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا**﴾ قدم اللهو على اللعب وفى العنكبوت وبقية المواضع قدم اللعب على اللهو؟.

والله أعلم: أن اللهو عن الشر تركه وإهماله والإعراض عنه ونسيانه. واللعب: معروف، وهو فعل مقصود لفاعله. فلما جاء في الأعراف بعد قوله: ﴿**وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ**﴾ (٤٨) وهو ذم لهم بالإعراض عن اتباع الحق وإهماله، ولذلك قال بعده: (**كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا**). وكذلك آية العنكبوت، جاءت بعد قوله: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**﴾ الآيتين دل بهما على إعراضهم عن الحق واتباعه مع علمهم به. وأما في المواضع الأخر، فجاء في سياق ذم الدنيا والاشتغال عن الله تعالى بلعبها ولهوها وزينتها.

وهكذا يبين لنا الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية من هم الكافرون الذين حرّم عليهم الجنة؛ إنهم من اتخذوا دينهم لهواً ولعباً، وأول مرحلة تمر على الإنسان هي اللعب ثم تأتي له مرحلة اللهو. ونعلم أن كل فعل تُوَجَّه إليه طاقة فاعلة، وقبل أن تُوجّه إليه الطاقة الفاعلة يمر هذا الفعل على الذهن كي يحدد الغاية من الجهد. وهذا المقصود له حدود؛ إما أن يجلب له نفعاً، وإما أن يدفع عنه ضُرًّا. وكل مقصد لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضراً، فهو لعب.

إذن فتعريف اللعب: هو فعل لم يقصد صاحبه به قصداً صحيحاً لدفع ضر أو جلب نفع. كما يلعب الأطفال بلعبهم، فالطفل ساعة يمسك بالمدفع اللعبة أو السيارة اللعبة، هل له مقصد صحيح ليوجه طاقته له؟. لا؛ لأنه لو كان المقصد صحيحاً لما حطم الطفل لُعَبَهُ. والطفل غالباً ما يكسر لعبته بعد قليل، وهذا دليل على أنه يوجه الطاقة إلى غير قصد صحيح ولا يجلب لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها مضرة.

ولكن حين تُوَجَّه الطاقة إلى ما هو أدنى من المهم فهذا هو اللهو، كأن يكون المطلوب منك شيئا وأنت توجه الطاقة إلى شيء آخر والذي يعاقب عليه الله هو اللهو. أما اللعب فلا. ولذلك نجد النبي ﷺ يطلب من الأهل أن يدربّوا الأبناء على شيء قد يفيد الأمة كالسباحة والرماية وركوب الخيل، ولكن خيبة البشر في زماننا أنهم جعلوا اللعب غاية لذاته. ومن العجيب أن اللعب صار له قانون الجد ولا يمكن أن يخرقه أحد دون أن يُعاقَب؛ لأن الحَكم يرقب المباراة، وإذا ما تناسى الحكم أمراً أو أخطأ هاج الجمهور.

وأتساءل: لقد نقلتم قانون الجد إلى اللعب، فلماذا تركتم الجد بلا قانون؟ وكذلك نجد أن خيبة اللهو ثقيلة؛ لأن الإنسان اللاهي يترك الأمر المهم ويذهب إلى الأمر غير المهم. فيجلس إلى لعبة النرد وهي طاولة ويترك الشغل الذي ينتج له الرزق، وليت هذا اللهو مقصورٌ على اللاهي، ولكنه يجذب أنظار غير اللاهي ويأخذ وقته، هذا الوقت الذي كان يجب أن يُستغل في طاقة نافعة. وفساد المجتمعات كلها إنما يأتي من أن بعضاً من أفرادها يستغلون طاقاتهم فيما لا يعود على ذواتهم ولا على أمتهم بالخير إذن فاللهو طاقة معطلة. ﴿**اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**﴾.

وغرورهم بالحياة الدنيا إنما يأتي من الأسباب التي خلقها الله مستجيبة لهم فظن كل منهم أنه السيد المسيطر. وحين غرتهم الحياة الدنيا نسوا الجد الذي يوصلهم إلى الغاية النافعة الخالدة، ويكون عقابهم هو قول الله سبحانه: ﴿**فاليوم نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هذا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ**﴾[الأعراف:٥١].

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا**﴾ بلفظ المستقبل، وكذلك في الروم. وفى الفرقان وفي فاطر: ﴿**وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ**﴾ بلفظ الماضي.

لما تقدم: ﴿**يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ**﴾ ناسب، ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ**﴾، وأيضا تقدم قوله: ﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ**﴾ فناسب ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ**﴾ لأن الدعاء إنما يكون لما يأتي، وكذلك في الروم، لما تقدم قوله: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ**﴾ ناسب بعده: ﴿**اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ**﴾.

أما الفرقان: فلما تقدم ذلك أفعال ماضية وهو قوله تعالى: ﴿**مَدَّ الظِّلَّ**﴾

و(جعله) ﴿**ثُمَّ قَبَضْنَاهُ**﴾ ﴿**جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ**﴾ ﴿**وَجَعَلَ النَّهَارَ**﴾ ناسب ذلك: ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ**﴾.

وأما آية فاطر: فإنه تقدم قوله تعالى: ﴿**اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**﴾ وهو المطر، وإنما يذكر بشكر النعم الماضية على زمن الشكر، فناسب (**أَرْسَلَ**) ماضيا. والرياح هنا جاءت في صيغة الجمع، وعلّة وجود ريح الشر، ورياح للخير، يمكنك أن تستشفها من النظر إلى الوجود كله؛ هذا النظر يوضح لك أن الهواء له مراحل، فهواء الرُّخَاء هو الذي يمر خفيفاً، مثل النسيم العليل، وأحياناً يتوقف الهواء فلا تمر نسمة واحدة، ولكننا نتنفس الهواء الساكن الساخن أثناء حرارة الجو، ثم يشتد الهواء أحياناً؛ فيصير رياحاً قوية بعض الشيء، ثم يتحول إلى أعاصير.

والهواء كما نعلم هو المقوِّم الأساسي لكل كائن حي، ولكل كائن ثابت غير حي، فإذا كان الهواء هو المقوم الأساسي للنفس الإنسانية، فالعمارات الضخمة مثل ناطحات السحاب لا تثبت بمكانها إلا نتيجة توازن تيارات الهواء حولها، وإن حدث تفريغ للهواء تجاه جانب من جوانبها؛ فالعمارة تنهار. إذن: فالذي يحقق التوازن في الكون كله هو الهواء. ولذلك نجد القرآن الكريم قد فصّل أمر الرياح وأوضح مهمتها، وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿**حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ**﴾، وكأنه سبحانه يتكلم هنا عن السفن الشراعية التي تسير بالهواء المتجمِّع في أشرعتها. وإذا كان التقدم في صناعة السفن قد تعدَّى الشراع، وانتقل إلى البخار، ثم الكهرباء، فإن كلمة الحق سبحانه: ﴿**بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ**﴾ تستوعب كل مراحل الارتقاء، خصوصاً وأن كلمة «الريح» قد وردت في القرآن الكريم بمعنى القوة أيا كانت: من هواء، أو محرك يسير بأية طاقة.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا**﴾ بغير واو. وفى هود: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا**﴾. أن هنا لم يتقدمه دعوى نبوة ورد قوم مدعى ذلك عليه، فهو كلام مبتدأ. وفى هود والمؤمنين: تقدم ما يشعر بذلك أشراف قومه، فلذلك قال: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ**﴾.

قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ**﴾، لما بين

أنه الخالق القادر على الكمال ذكر أقاصيص الأمم وما فيها من تحذير الكفار. واللام في ﴿لَقَدْ﴾ للتأكيد المنبه على القسم. والفاء دالة على أن الثاني بعد الأول. ﴿يَا قَوْمِ﴾ نداء مضاف. ويجوز ﴿يا قومي﴾ على الأصل. ونوح أول الرسل إلى الأرض بعد آدم عليهما السلام بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾. وقال في قصة هود: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾(٦٨).

أن "الضلال" فعل يتحدد بترك الصواب إلى ضده ويمكن تركه في الحال، فقابله بفعل يناسبه في المعنى فقال: (وَأَنْصَحُ). "والسفاهة" صفة لازمة لصاحبها فقابلها بصفة في المعنى فقال: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ﴾. ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ بالتشديد من التبليغ، وبالتخفيف من الإبلاغ. وقيل: هما بمعنى واحد لغتان؛ مثل كرمه وأكرمه. ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾، النصح: إخلاص النية من شوائب الفساد في المعاملة، بخلاف الغش. يقال: نصحته ونصحت له نصيحة ونصاحة ونصحا. وهو باللام أفصح. قال الله تعالى: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ والاسم النصيحة. والنصيح الناصح، وقوم نصحاء. ورجل ناصح الجيب أي نقي القلب. قال الأصمعي: الناصح الخالص من العسل وغيره. مثل الناصع. وكل شيء خلص فقد نصح. وانتصح فلان أقبل على النصيحة. يقال: انتصحني إنني لك ناصح. والناصح الخياط. والنصاح السلك يخاط به. والنصاحات أيضا الجلود.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ فأفرد وفي هود: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ). فجمع. أن المراد بالرجفة الزلزلة العظيمة، والصَّيْحة هي بعض من توابع الزلزلة، ذلك أن الزلزلة تُحدِث تموجاً في الهواء يؤدي إلى حدوث أصوات قوية تعصف بمَنْ يسمعها. فصح الإفراد؛ لأن المراد بدارهم: بلدهم المزلزل، والمراد بالصيحة: صيحة من السماء، والمراد بديارهم: منازلهم.

مسألة:

قوله تعالى في قصة نوح وشعيب: ﴿**أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي**﴾. وقال في هود وصالح: ﴿**رِسَالَةَ رَبِّي**﴾ فأفرد. أن قصة نوح وشعيب تضمنتا أنواعا من التبليغات، وإن لم يذكر هنا مع طول مدة نوح فجمع لذلك. وقصة هود وصالح ليس كذلك فأفرد. فكأن المنظر العاطفي الإنساني حين رأى كيف أصبحوا، وتعطف عليهم وأسى من أجلهم، لكن يرد هذا التعاطف متسائلا متعجباً: ﴿**فَكَيْفَ آسى على قَوْمٍ كَافِرِينَ**﴾، إنهم نوع من الناس لا يحزن عليهم المؤمن. فما بالنا بنبي ورسول؟ إنه يحدث نفسه وكأنه يقول: ما قصرت في مهمتي، بل أبلغتكم رسالاتي التي تلقيتها من الله، والرسالات إذا جمعت فالمقصود منها أو رسالته ورسالة الرسل السابقين في الأمور التي لم يحدث فيها نسخ ولا تغيير، أو رسالاته أي في كل أمر بلغ به؛ لأنه كان كلما نزل عليه حكم يبلغه لهم. أو أن لكل خير رسالة، ولكل شر رسالة، وقد أبلغهم كل ما وصله من الله، ولم يقتصر على البلاغ بل أضاف عليه النصح، والنصح غير البلاغ، فالبلاغ أن تقول ما وصلك وينتهي الأمر، و«النصح» هو الإلحاح عليهم في أن يثوبوا إلى رشدهم وأن يتبعوا نهج الله.

مسألة:

قوله تعالى في قصة شعيب عليه السلام: ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ**﴾ وقال في الشعراء: ﴿**عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ**﴾. قيل: أصحاب الأيكة غير مدين، فلا يرد السؤال. وقيل: هما واحد، فجوابه أن الصيحة لما أصابتهم خرجوا من ديارهم هاربين إلى الصحراء فأحرق جلودهم الحر فجاءت الظلة فهربوا إليها، فصيح فماتوا في ظلالهم. ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ**﴾، أي: أهلكنا مدين بالرجفة، وأهلكنا عادًا، ويدلّ للإهلاك المذكور قوله بعده: ﴿**وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ**﴾، أي: هي خالية منهم لإهلاكهم، وقوله بعده أيضًا: ﴿**فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ**﴾.

﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ**﴾ أي الزلزلة الشديدة. وقيل: كان صيحة شديدة خلعت قلوبهم؛ كما في قصة ثمود في سورة "هود" في قصة ثمود فأخذتهم الصيحة. يقال: رجف الشيء يرجف رجفا رجفانا. وأرجفت الريح الشجر حركته. وأصله حركة مع صوت؛ ومنه قوله تعالى ﴿**يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ**﴾ [النازعات:٦].

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ**﴾ وفى العنكبوت: ﴿**إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ**﴾، و"إلا" للحصر فكيف الجمع بينهما.

جوابه: لعل ذلك في مجالس، ففي مجلس اختصر بذكر إتيان الفاحشة وإظهارها، فناسب ذكر "إخراجه" كيلا يعيب عليهم ذلك. وفى مجلس عدد ذنوبهم فناسب مطالبتهم "بإتيان العذاب" عليها، فحصر الجواب في كل مجلس بما ذكر فيه وناسبه. أو أن الجوابين من طائفتين، فلم تجيبا إلا بما ذكر عنهما.

قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ**﴾ أي لوطا وأتباعه. ومعنى ﴿**يَتَطَهَّرُونَ**﴾ عن الإتيان في هذا المأتى. يقال: تطهر الرجل أي تنزه عن الإثم. قال قتادة: عابوهم والله بغير عيب. ﴿**مِنَ الْغَابِرِينَ**﴾ أي الباقين في عذاب الله؛ قال ابن عباس وقتادة. غبر الشيء إذا مضى، وغبر إذا بقي. وهو من الأضداد. وقال قوم: الماضي عابر بالعين غير معجمة. والباقي غابر بالغين معجمة. حكاه ابن فارس في المجمل. وقال الزجاج: ﴿**مِنَ الْغَابِرِينَ**﴾ أي من الغائبين عن النجاة.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ**﴾، وفى الشعراء: ﴿**آمَنْتُمْ لَهُ**﴾. أن الضمبر في (به) يرجع إلى رب العالمين أو إلى موسى وفى (له) يجوز رجوعه إلى موسى، أو إلى ما جاء به من الآيات، أي: لأجل ما جاء به من ذلك. قوله: ﴿**قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ "وقوله في "طه": ﴿**وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ**﴾ يبين أن التصليب في جذوع النخل هو مراده بقوله في "الأعراف، والشعراء": ﴿**وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾. أي: في جذوع النخل وتعدية التصليب بـ "في" أسلوب عربي معروف، ومعلوم عند علماء البلاغة: أن في مثل هذه الآية استعارة تبعية في معنى الحرف، وأنَّ أن ما يسميه البلاغيون من أنواع المجاز مجازاً كلها أساليب عربية نطقت بها العرب في لغتها.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾، قال بعض أهل العلم: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا﴾: يعني أنا، أم رب موسى أشد عذاباً وأبقى.

واقتصر على هذا القرطبي. وعليه ففرعون يدّعي أن عذابه أشدّ وأبقى من عذاب الله. وهذا كقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾، وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾، وقوله: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِين﴾. وقال بعضهم: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا﴾ أنا، أم موسى أشد عذاباً وأبقى. وعلى هذا فهو كالتهكم بموسى لاستضعافه له، وأنه لا يقدر على أن يعذب من لم يطعه. كقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾. والله جل وعلا أعلم.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٠١). وفي يونس: ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٧٤).

أما آية يونس عليه السلام فلتقدم قوله في قصة نوح عليه السلام: ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، فعدى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بما عداه أولا. ولم يتقدم في الأعراف "التكذيب" متعديا بالباء، كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ فناسب كل موضع ما قبله. وأما قوله: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ﴾، وفي يونس ﴿نَطْبَعُ﴾، فلتناسب كل آية ما تقدمها، فالأعراف: تقدمها إظهار بعد إضمار في قوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾ ثم قال: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ فناسب ذلك: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا﴾، ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ﴾. وأيضا: لما أكد أول الآية بالقسم ناسب ذلك تعظيم الطبع بنسبته إلى اسم الله تعالى، وناسب التصريح بوصفهم بالكفر الذي معناه أقبح وأشد من معنى الاعتداء، فناسب كل آية ما ختمت به.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ﴾، وفي يونس: ﴿نَطْبَعُ﴾ بالنون.

أنه تقدم هنا: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ الآية، فناسب التصريح بقوله: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ وفي يونس تقدم: "فنجينا"، ثم "بعثنا"، و"جعلناهم" فناسب ﴿نَطْبَعُ﴾ بالنون. هذا هو المراد في سرد القصص بالنسبة لرسول الله ﷺ الذي أوضحه الحق

في موضع آخر من القرآن فقال: ﴿**وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ**﴾[هود:١٢٠]. فإذا ما حدث لك من أمتك وقومك شيء من العناد والإصرار والمكابرة فاعلم أنك لست بدعاً من الرسل؛ لأن كل رسول قد قابلته هذه الموجة الإلحادية من القوم الذين خاطبهم. وإذا كان رسول يأخذ حظه من البلاء بقدر ما في رسالته من العلو فلابد أن تأخذ أنت ابتلاءات تساوي ابتلاءات الرسل جميعاً. ﴿**تِلْكَ القرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله على قُلُوبِ الكافرين**﴾[الأعراف:١٠١]. والطبع – كما قلنا – هو الختم؛ لأن قلوبهم ممتلئة بالضلال؛ لذلك يعلنون التكذيب للرسول. وقد طبع الله على قلوبهم لا قهراً منه، ولكن لاستبطان الكفر وإخفائه في قلوبهم.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ**﴾ (١٠٩)، وفى الشعراء: ﴿**قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ**﴾ (٣٤). فظاهر آية الأعراف أن الملأ قالوا ذلك، وظاهر آية الشعراء أن قائله فرعون.

جوابه: أن كلا منهما قاله، لكن لما تقدم في الشعراء ابتداء مخاطبة فرعون لموسى بقوله: ﴿**قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا**﴾ الآيات، ناسب ذلك حكاية قول فرعون للملأ، لأنه المتكلم بذلك أولا تنفيرا لقومه عن متابعته كما تقدم قبل هذا، ولم يأتي في الأعراف مثل ذلك فحكي قولهم له. في سورة (لأعراف)، ﴿**قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ**﴾ [الأعراف:١٠٩/١١٠] تم الكلام، فقال فرعون: ﴿**فَمَاذَا تَأْمُرُونَ**﴾ [الأعراف:١١٠]. وقال ابن شجرة. هو قول بلقيس، فالوقف ﴿**وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾ أي وكذلك يفعل سليمان إذا دخل بلادنا.

مسألة:

قوله تعالى في الأعوام: ﴿**وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ**﴾ (١١١)، وفى الشعراء: (وابعث). كلاهما معلوم المراد، فما فائدة اختلاف اللفظين؟ وكذلك قوله تعالى هنا: ﴿**بِكُلِّ سَاحِرٍ**﴾ وفى الشعراء ﴿**بِكُلِّ سَحَّارٍ**﴾. مع التفنن في الكلام، أن ﴿**أَرْسِلْ**﴾ أكثر تفخيما من (ابعث) وأعلى رتبة لإشعاره بالفوقية. ففي الأعراف حكى

قول الملأ لفرعون، فناسب خطابهم له بما هو أعظم رتبة، تفخيما له. وفى الشعراء: صدر الكلام بأنه هو. القائل لهم، فناسب تنازله معهم ومشاورته لهم، وقولهم: (ابعث). وأما قوله تعالى هنا: ﴿**بِكُلِّ سَاحِرٍ**﴾ وفى الشعراء ﴿**بِكُلِّ سَحَّارٍ**﴾ فلتقدم قولهم: (بسحره)، فناسب صيغة المبالغة ب (سَحَّارٍ). ﴿**وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ**﴾. وقوله: ﴿**حَاشِرِينَ**﴾، أي: جامعين يجمعون السحرة من أطراف مملكته، وقوله في "الشعراء": ﴿**وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ**﴾، وقوله في "يونس": ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ**﴾.

فكلمة «ساحر» تعني أنه يعمل بالسحر، و«سحّار» تعني أنه يبالغ في إتقان السحر، والمبالغات دائماً تأتي لضخامة الحدث، أو تأتي لتكرر الحدث. ف «سحّار» تعني أن سحره قوي جدًّا، أو يسحر في كل حالة، فمن ناحية التكرار هو قادر على السحر، ومن ناحية الضخامة هو قادر أيضاً. ومادام القائلون متعددين. فواحد يقول: ساحر، وآخر يقول: سحَّار وهكذا. والقرآن يغطي كل اللقطات. ﴿**قالوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي المدآئن حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ**﴾ [الأعراف:١١١/١١٢]. و«حاشرين» تعني مَن يحشر لك السحرة ويجمعهم لا بإرادتهم ولكن بقوة فرعون وبطش جنده.

مسألة:

قولهم هنا، وفى الشعراء: ﴿**قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ** (١٢١) **رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ** (١٢٢)﴾، وفى طه: ﴿**آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى**﴾.

لما تقدم في الأعراف: ﴿**إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**(١٠٤)﴾، وفى الشعراء: ﴿**إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ ناسب ذلك ﴿**آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾. ثم خصصوا. المراد بأنه رب موسى وهارون: الذي جاء برسالته لا غير. وفى طه: لمراعاة رؤوس الآن اكتفى برب هارون وموسى، فلم يحتج إلى إعادة "رب" ثانياً. لقد عرفوا أن هذا أمر خارج عن نطاق البشرية. إذن فما كان من أمر السحرة تجاه قوم فرعون هو تخييل للنظر: ﴿**يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى**﴾ [طه:٦٦]، وقال الحق: ﴿**سحروا أَعْيُنَ الناس**﴾ [الأعراف:١١٦]. أما موسى عليه السلام فحين ألقى العصا أول مرة ووجدها حية خاف لأنه رأى في ذلك قلباً للحقيقة. أما

عند السحرة فليست حبالهم حيات حقيقية ولكنها سحر لأعين الناس أي تخيل للناظر. ومثال آخر هو سيدنا سليمان عندما أرسل لبلقيس ملكة سبأ. وجاء رسوله يقول لها: ﴿**أَلاَّ تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**﴾[النمل:٣١].

فماذا قالت لحاشيتها من رجال القتال: ﴿**مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حتى تَشْهَدُونِ**﴾ [النمل:٣٢]. وهنا عرفت الحاشية أن المسألة تتطلب رأياً سياسياً؛ فقالوا: ﴿**قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ والأمر إِلَيْكِ فانظري مَاذَا تَأْمُرِينَ**﴾[النمل:٣٣].

الرأي إذن هو من حق السياسي الذي يزن الأمور بموازين العقل وموازين الاحتمال الواقعة، وموازين رد الفعل، وأدارت بلقيس المعركة سياسياً، فأرسلت هدية من مقام ملكة، فإن راقته الهدية فهو طالب دنيا ويريد خيرها، وعندما وصل رسلها بالهدية، ماذا قال سليمان: ﴿**فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ آتَانِيَ الله خَيْرٌ مِّمَّآ آتَاكُمْ بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ* ارجع إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾[النمل: ٣٦-٣٧].

وهنا عرفت بلقيس أن الإسلام أمر ضروري، وها هي ذي الدقة لنعرف أن الأمر من المساوى هو الذي يعطي عزة في الآمر وذلة في المأمور، أما إذا كان الأمر من غير المساوى ومن الأعلى سبحانه فلا ذلة فيه لأحد. وكان إيمان بلقيس إيماناً ملوكياً.

فقالت: ﴿**وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ العالمين**﴾[النمل:٤٤]. إنها لم تقل أسلمت لسليمان وإنما قالت: ﴿**وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ**﴾. إذن فلا غضاضة في إيمانها. وذلك حتى لا يظن شعبها أنها ذهبت به إلى حضيض الذلة في أن يحكمهم إنسان آخر. لكن هي وسليمان محكومان لله رب العالمين، ولا غضاضة في ذلك: ونعود إلى قوله جل شأنه: ﴿**وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله حَلاَلاً طَيِّباً واتقوا الله الذي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ**﴾[المائدة:٨٨]. أي: اجعلوا للإيمان حيثية، وما دمت قد آمنت وتأتمر بأمر من تؤمن به. فأنت لا تؤمن إلا بمن تثق في أنه يستحق الإيمان. وقوله أولاً في الآية السابقة: ﴿**وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله حَلاَلاً طَيِّباً واتقوا الله الذي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ**﴾[المائدة:٨٨]. وقوله في تذييل هذه الآية: ﴿**واتقوا الله الذي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ**﴾[المائدة:٨٨]. هو تسوير وإحاطة لطاعة بإيمانين، إيمان خوطبوا به، وإيمان أقروه به.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ(١٢٥)**﴾، وفي الشعراء: (لَا ضَيْرَ) الآية بزيادة (لَا ضَيْرَ). لما كان الوعيد في الشعراء أشد ناسب مقابلتهم له بعدم التأثر به في مقابلة ما يرجونه عند الله تعالى. قوله: ﴿**قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا**﴾. إلى غير ذلك من الآيات.

والتحقيق: أن الرجل المؤمن المذكور في هذه الآية من جماعة فرعون كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿**مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ**﴾. فدعوى أنه إسرائيلي، وأن في الكلام تقديماً وتأخيراً. وأن ﴿**مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ**﴾ متعلق بـ"يكتم"، أي: وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون أي: يخفي إيمانه عن فرعون وقومه خلاف التحقيق كما لا يخفى. وقيل: إن هذا الرجل المؤمن هو الذي قال لموسى: ﴿**إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ**﴾، وقيل غيره.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا**﴾. وفي يونس: ﴿**قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا**﴾ قدم النفع هنا، وأخره في يونس. أن آية الأعراف تقدمها ذكر الساعة، فناسب في حقه تقديم النفع الذي هو ثواب الآخرة، وأخر الضر الذي هو عقابها. وآية يونس تقدمها ذكر استعجال الكفار العذاب في قوله تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ**﴾ الآية، فناسب تقديم الضر على النفع، ولذلك قال تعالى بعده: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا**﴾، وكذلك كلما قدم فيه النفع والضر فلتقدم ما يناسب ذلك التقديم أو تأخيره وذلك ظاهر لمن ينظر فيه. قوله تعالى: ﴿**قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً**﴾ أي لا أملك أن أجلب إلى نفسي خيرا ولا أدفع عنها شرا؛ فكيف أملك علم الساعة. وقيل: لا أملك لنفسي الهدى والضلال. ﴿**إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ**﴾ في موضع نصب بالاستثناء. والمعنى: إلا ما شاء الله أن يملكني يمكنني منه.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٠٠)**﴾. وفي حم السجدة: ﴿**إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٣٦)**﴾، بلام التعريف. أن آية الأعراف نزلت أولا، وآية السجدة نزلت ثانيا، فحسن التعريف أي: هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ الذي تقدم ذكره أولا عند نزوغ

الشيطان. لما نزل قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال عليه السلام: "كيف يا رب والغضب" فنزلت: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ﴾ ونزغ الشيطان: وساوسه. وفيه لغتان: نزغ ونغز، يقال: إياك والنزاغ والنغاز، وهم المورشون. النزغ أدنى حركة تكون، ومن الشيطان أدنى وسوسة. قال سعيد بن المسيب: شهدت عثمان وعليا وكان بينهما نزغ من الشيطان فما أبقى واحد منهما لصاحبه شيئا، ثم لم يبرحا حتى استغفر كل واحد منهما لصاحبه. ومعنى ﴿يَنْزَغَنَّكَ﴾: يصيبنك ويعرض لك عند الغضب وسوسة بما لا يحل. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾، أي: اطلب النجاة من ذلك بالله. فأمر تعالى أن يدفع الوسوسة بالالتجاء إليه والاستعاذة به؛ ولله المثل الأعلى. فلا يستعاذ من الكلاب إلا برب الكلاب. وقد حكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا؟ قال: أجاهده. قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده. قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده. قال: هذا يطول، أرأيت لو مررت بغنم فنبحك كلبها ومنع من العبور ما تصنع؟ قال: أكابده وأرده جهدي. قال: هذا يطول عليك، ولكن استغث بصاحب الغنم يكفه عنك.

والنغز والنزغ والهمز والوسوسة سواء؛ قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ [المؤمنون:٩٧]، وقال: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس:٤]. وأصل النزغ الفساد؛ يقال: نزغ بيننا؛ أي أفسد. ومنه قوله: ﴿نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾[يوسف:١٠٠]، أي: أفسد. وقيل: النزغ الإغواء والإغراء؛ والمعنى متقارب. ونظير هذه الآية ما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "يأتي الشيطان أحدكم فيقول له من خلق كذا وكذا حتى يقول له من خلق ربك فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته". وفيه عن عبدالله قال: سئل النبي ﷺ عن الوسوسة، قال: "تلك محض الإيمان". وفي حديث أبي هريرة: "ذلك صريح الإيمان"، والصريح الخالص. وهذا ليس على ظاهره؛ إذ لا يصح أن تكون الوسوسة نفسها هي الإيمان؛ لأن الإيمان اليقين، وإنما الإشارة إلى ما وجدوه من الخوف من الله تعالى أن يعاقبوا على ما وقع في أنفسهم.

فكأنه قال جزعكم من هذا هو محض الإيمان وخالصه؛ لصحة إيمانكم، وعلمكم بفسادها. فسمى الوسوسة إيمانا لما كان دفعها والإعراض عنها والرد لها وعدم قبولها، والجزع منها صادرا عن الإيمان. وأما أمره بالاستعاذة فلكون تلك الوساوس من آثار الشيطان. وأما الأمر بالانتهاء فعن الركون إليها والالتفات

نحوها. فمن كان صحيح الإيمان واستعمل ما أمره به ربه ونبيه نفعه وانتفع به. وأما من خالجته الشبهة وغلب عليه الحس ولم يقدر على الانفكاك عنها فلا بد من مشافهته بالدليل العقلي؛ كما قال ﷺ للذي خالطته شبهة الإبل الجرب حين قال النبي ﷺ: "لا عدوى".

وقال أعرابي: فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فإذا دخل فيها البعير الأجرب أجربها؟ فقال ﷺ: "فمن أعدى الأول"، فاستأصل الشبهة من أصلها. فلما يئس الشيطان من أصحاب محمد ﷺ بالإغراء والإضلال أخذ يشوش عليهم أوقاتهم بتلك الألقيات. والوساوس: الترهات؛ فنفرت عنها قلوبهم وعظم عليهم وقوعها عندهم فجاؤوا - كما في الصحيح - فقالوا: يا رسول الله، إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: "أو قد وجدتموه"؟ قالوا: نعم. قال: "ذلك صريح الإيمان رغما للشيطان حسب ما نطق به القرآن في قوله: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾[الحجر:٤٢]. فالخواطر التي ليست بمستقرة ولا اجتلبتها الشبهة فهي التي تدفع بالإعراض عنها؛ وعلى مثلها يطلق اسم الوسوسة.

*****

سورة الأنفال

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾،

وفي الرعد: ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)**﴾.

أن المراد "بالذكر"، ذكر عظمة الله وجلاله، وشدة انتقامه ممن عصى أمره لأن الآية نزلت عند اختلاف الصحابة في غنائم بدر، فناسب ذكر التخويف. وآية الرعد: نزلت فيمن هداه الله وأناب إليه، والمراد بذلك الذكر: ذكر رحمته وعفوه ولطفه لمن أطاعه وأناب إليه. وجمع بينهما في آية الزمر، فقال تعالى: ﴿**تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**﴾ أي عند ذكر عظمته وجلاله وعقابه، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر رحمته وعفوه وكرمه.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ [الأنفال:٢]. وأمره في موضع آخر أن يبشر الصابرين على ما أصابهم مع بيان بعض ما بشروا به، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

واعلم: أن وجل القلوب عند ذكر الله أي خوفها من الله عند سماع ذكره لا ينافي ما ذكره جل وعلا، من أن المؤمنين تطمئن قلوبهم بذكر الله كما في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد:٢٨] ووجه الجمع بين الثناء عليهم بالوجل الذي هو الخوف عند ذكره جل وعلا، مع الثناء عليهم بالطمأنينة بذكره، والخوف والطمأنينة متنافيان هو ما أوضحناه في كتابنا: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، وهو أن الطمأنينة بذكر الله تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد، وصدق ما جاء به الرسول ﷺ فطمأنينتهم بذلك قوية لأنها لم تتطرقها الشكوك، ولا الشبه والوجل عند ذكر الله تعالى يكون بسبب خوف الزيغ عن الهدى، وعدم تقبل الأعمال، كما قال تعالى عن الراسخين في العلم ﴿**رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا**﴾ [آل عمران:٨] وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ**﴾

[المؤمنون:٦٠] وقال تعالى: ﴿**تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ [الزمر:٢٣] ولهذا كان ﷺ يقول في دعائه: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك".

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ(٣٥)**﴾، وفى الأعراف: ﴿**بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ(٣٩)**﴾. أن الآية هنا في قريش وكفرهم بصلاتهم عند البيت مكاء وتصدية. وآية الأعراف: في قوم ضلوا وأضلوا غيرهم بما كسبوا من إضلال غيرهم مع كفرهم، فناسب زيادة العذاب وتضعيفه لزيادة الكسب في الضلالة.

قوله: ﴿**فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**﴾[الأنعام:٣٠] أي جزاء ما كنتم تكفرون. وحسن إضمار التكذيب لتقدم ذكر فعله؛ لأنك إذا ذكرت الفعل دل بلفظه على مصدره، كما قال: ﴿**وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ**﴾[آل عمران:١١٠] أي لكان الإيمان. وقوله: ﴿**وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ**﴾ [الزمر:٧]، أي: يرضى الشكر. ومثله كثير. وجمهور المفسرين على أن المراد باللزام هنا ما نزل بهم يوم بدر، وهو قول عبدالله ابن مسعود وأبي بن كعب وأبي مالك ومجاهد ومقاتل وغيرهم. وفي صحيح مسلم عن عبدالله: وقد مضت البطشة والدخان واللزام. وسيأتي مبينا في سورة ﴿الدخان﴾ إن شاء الله تعالى. وقالت فرقة: هو توعد بعذاب الآخرة. وعن ابن مسعود أيضا: اللزام التكذيب نفسه؛ أي لا يعطون التوبة منه؛ ذكره الزهراوي؛ فدخل في هذا يوم بدر وغيره من العذاب الذي يلزمونه. وقال أبو عبيدة: لزاما فيصلا أي فسوف يكون فيصلا بينكم وبين المؤمنين.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**﴾، فنفى أولا ما أثبته آخرا. أن النبى ﷺ رمى أولا والصحابة قتلوا، والله تعالى هو الذي أوصل ما رماه إلى وجوه الكفار، والقتل من الصحابة إلى مقاتليهم فصنع الإسناد إلى الله وإليهم. قوله تعالى: ﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ**﴾ أي يوم بدر. روي أن أصحاب رسول الله ﷺ لما صدروا عن بدر ذكر كل واحد منهم ما فعل: قتلت كذا، فعلت كذا؛ فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك. فنزلت الآية إعلاما بأن الله تعالى هو المميت والمقدر لجميع الأشياء، وأن العبد إنما يشارك بتكسبه وقصده.

وهذه الآية ترد على من يقول بأن أفعال العباد خلق لهم. فقيل: المعنى فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم بسوقهم إليكم حتى أمكنكم منهم. وقيل: ولكن الله قتلهم بالملائكة الذين أمدكم بهم. ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ**﴾ مثله. ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**﴾.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**لِيُحِقَّ الْحَقَّ**﴾ ما وجهه ومعناه، مع أن ظاهره كما يقال تحصيل الحاصل. ليقع الحق عنده من نصر المسلمين وغلبهم، أو ليحق عندكم الحق عنده من النصر والغنيمة. ﴿**لِيُحِقَّ الْحَقَّ**﴾ أي يظهر دين الإسلام ويعزه. ﴿**وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ**﴾ أي الكفر. وإبطاله إعدامه؛ كما أن إحقاق الحق إظهاره ﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**﴾ [الأنبياء:١٨]. ﴿**وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**﴾.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ**﴾ ثم قال: ﴿**وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ**﴾ فأثبت عذابهم ثانيا بعد نفيه أولا، فما معناه؟. المنفى عذاب الدنيا الذي كانوا يستعجلونه، والمثبت عذاب الآخرة. أو المنع تعذيبهم بشرط كونك فيهم، والمثبت عدم ذلك. أو المنع عذاب الكل ليعلمه أن بعضهم سيسلمون، والمثبت عذاب بعضهم كيوم بدر. قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ**﴾ [الأنفال:٣٣]، وبين هنا أنه قادر على أنه يره العذاب، الذي وعدهم به في قوله: ﴿**وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ**﴾ [المؤمنون:٩٥]، وبين في سورة الزخرف، أنه إن ذهب به قبل تعذيبهم، فإنه معذب لهم ومنتقم منهم لا محالة، وأنه إن عذبهم، وهو حاضر فهو مقتدر عليهم. وذلك في قوله تعالى: ﴿**فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ. أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ**﴾ [الزخرف:٤١-٤٢].

مسألة:

قول الشيطان يوم بدر: ﴿**إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ**﴾، كيف لم يقل ذلك حين أبى من السجود.

جوابه: أنه قد علم ما أعد له من عذاب القيامة، فلما رأى الملائكة يوم بدر ونزولها إلى الأرض توهم أنه الوقت المعلوم وأنه قد حان أجل عذابه.

قوله: ﴿**إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ**﴾، أي: مثل المنافقين في أغوائهم اليهود على القتال، ووعدهم إياهم النصر، ثم مشاركتهم لهم وخذلانهم كمثل الشيطان إذ استغوى الإنسان بكيده، ثم تبرّأ منه في العاقبة. وقيل: المراد: استغواؤه قريشًا يوم بدر، وقوله: ﴿**لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ**﴾ [الأنفال:٤٨] إلى قوله: ﴿**إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ**﴾[الأنفال:٤٨]. قال أبو السعود: وقد أجمل في النظم الكريم، حيث أسند كُلاًّ من الخبرين إلى المقدّر المضاف إلى ضمير الفريقين من غير تعيين ما أسند إليه بخصوصه، ثقةً بأنّ السامع يَرُد كُلاًّ مِن المثالين إلى ما يُماثله، كأنه قيل: مَثَل اليهود في حلول العذاب، كمَثَل الذين من قبلهم... الخ، ومثل المنافقين في إغرائهم إياهم على القتال حسبما تقدّم عنهم كمثل الشيطان...الخ. هـ. ﴿**فكان عَاقِبتهما**﴾ أي: عاقبة الإنسان الكافر والشيطان، ﴿**أنهما في النار خالِدَيْن فيها**﴾، فـ "عاقبتهما": خبر كان، و"أنهما" اسمها، و"خالِدَين": حال. ﴿**وذلك جزاءُ الظالمين**﴾ أي: الخلود في النار جزاء كل ظالم.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾، وقال في براءة: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ**﴾. قدم المال هنا وأخره في براءة. أن آية الأنفال تقدمها ذكر الغنائم واختيارهم أخذ الفداء من الأسرى ببدر فناسب تقديم إنفاق المال في سبيل الله تعالى. وآية براءة: تقدمها ذكر افتخارهم بعمارة المسجد الحرام على المجاهدين فناسب تقديم الجهاد في سبيل الله على ذكر الأموال، وأنه أهم. والله أعلم. الفئة الأولى في هذه الآية هم المهاجرون وقال فيهم الحق تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّ الذين آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله**﴾[الأنفال:٧٢].

والفئة الثانية هم الأنصار الذين قال فيهم الحق تبارك وتعالى: ﴿**والذين آوَواْ ونصروا**﴾[الأنفال:٧٢]. ثم يوحد الله تعالى بين المهاجرين والأنصار، فيقول عز وجل: ﴿**أولئك بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ**﴾[الأنفال:٧٢]. وبعض من العلماء فسر قول الحق: ﴿**بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ**﴾ على أنها تشمل الالتحام الكامل، لدرجة أنه كان يرث بعضهم بعضا أولاً – حسب قول العلماء – إلى أن نزلت آيات الإرث فألغت ذلك التوارث الذي كان بينهم.

وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**وَأُوْلُواْ الأرحام بَعْضُهُمْ أولى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ**﴾[الأنفال:٧٥]. أبعدت هذا المعنى، وبعض العلماء قال: إن الولاية هي النصر، وهي المودة، وهي التمجيد، وهي الإكبار، فقالوا: هذه صفات الولاية، وهناك آية أخرى عن الأنصار يقول فيها الحق تبارك وتعالى: ﴿**والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾[الحشر:٩].

وقد عرفنا الكثير عن الإيثار من الأنصار الذي قد بلغ مرتبة لا يتسامى إليها البشر أبداً إلا بصدق الإيمان، ذلك أن الرجل الذي يعيش في نعمة وله صديق أو حبيب يحب أن يتحفه بمشاركته في نعمته، فإذا كان عنده سيارة مثلاً يعطيها له ليستخدمها، وإذا كان له بيت جميل قد يدعوه للإقامة فيه بعض الوقت، وإذا كان عنده ثوب جميل أو فاكهة نادرة قد يعطيه منها، إلا المرأة فهي النعمة التي يأنف الرجل أن يشاركه فيها أحد. ولكن عندما وصل المهاجرون إلى المدينة وتركوا نساءهم في مكة، كان الأنصاري يجيء للمهاجر، ويقول له: انظر إلى نسائي والتي تعجبك منهن أطلقها لتتزوجها. هذه مسألة لا يمكن أن يصنعها إلا الإيمان الكامل، وحين يصنعها الإيمان، فهذا الإيمان يجدع أنف الغيرة ويمنعها أن تتحرك، ولا يكون هناك من له أكثر من زوجة ومن هو محروم من المرأة. وقد حدد الحق لنا ميزة كل طائفة من طوائف المؤمنين وبين أحكامهم: فالطائفة الأولى المهاجرون الذين آمنوا وتركوا دينهم الذي ألفوه، ثم هاجروا وتركوا أوطانهم وبيوتهم وأموالهم وزوجاتهم وأولادهم وجمالهم وزروعهم، ثم بعد ذلك عملوا لينفقوا على أنفسهم بمال يكتسبونه وينفقون منه أيضاً على الجهاد؛ مع أنهم تركوا أموالهم وكل ما يملكون في مكة، فكأنهم ضحوا بالمال وضحوا بالنفس. ودخلوا وهم قلة بلغت ما بلغت فلن تزيد عن ثلاثمائة ودخلوا في معركة مع الكثرة المشركة، ولم يكونوا واثقين من النصر ولكنهم كانوا يطلبون الشهادة.

إذن فهم آمنوا، هذه واحدة، وهاجروا، وهذه الثانية، وجاهدوا بأموالهم هذه الثالثة، وجاهدوا بأنفسهم هذه الرابعة، وكانوا أسوة لأنهم سبقوا إلى الإيمان والجهاد فشجعوا غيرهم على أن يؤمنوا، ولذلك فلهم أجر من سن سنة حسنة، ولهم أجر من عمل بها، وهؤلاء هم السابقون الأولون ولهم منزلة عالية وعظيمة عند الله ﷻ.

*****

سورة براءة

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ**﴾ وهذه الآية نزلت في ذي القعدة، فآخر الأربعة صفر. ثم قال: ﴿**فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ**﴾. وانسلاخها آخر المحرم.

أن الآية الأولى في المعاهدين، والثانية في من ليس لهم عهد، ثم نسخ ترك القتال في الأشهر الحرم بقوله تعالى: ﴿**اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**﴾ وقيل: أول. الأربعة "شوال"، وعلى هذا لا إشكال. وقيل: أولها عاشر الحجة سنة تسع وسماها حرما لتحريم قتالهم فيها أو تغليبا للأشهر الحرم. قوله تعالى: ﴿**فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ**﴾ الآية، قال بعض العلماء: كان ابتداء التأجيل بالأشهر الأربعة المذكورة من شوال، وآخره سلخ المحرم، وبه قال الزهري رحمه الله تعالى ولكن القرآن، يدل على أن ابتداءها من يوم النحر على الأصح من أنه يوم الحج الأكبر، أو يوم عرفة على القول بأنه هو يوم الحج الأكبر، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ**﴾ الآية، وهو صريح في أن ابتداء الإعلام المذكور من يوم الحج الأكبر، وهو يوم النحر، ولا يخفى انتهاؤها في العشر من ربيع الثاني.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: وقال الزهري: كان ابتداء التأجيل من شوال، وآخره سلخ المحرم، وهذا القول غريب، وكيف يحاسبون بمدة لم يبلغهم حكمها، وإنما ظهر لهم أمرها يوم النحر، حين نادى أصحاب رسول الله ﷺ بذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿**وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ**﴾.

قوله تعالى: ﴿**فَسِيحُوا**﴾ رجع من الخبر إلى الخطاب أي قل لهم سيحوا أي سيروا في الأرض مقبلين ومدبرين آمنين غير خائفين أحدا من المسلمين بحرب ولا سلب ولا قتل ولا أسر. يقال ساح فلان في الأرض يسيح سياحة وسيوحا وسيحانا ومنه السيح في الماء الجاري المنبسط.

واختلف العلماء في كيفية هذا التأجيل وفي هؤلاء الذين برئ الله منهم ورسوله. فقال محمد بن إسحاق وغيره: هما صنفان من المشركين أحدهما كانت

مدة عهده أقل من أربعة أشهر فأمهل تمام أربعة أشهر والآخر كانت مدة عهده بغير أجل محدود فقصر به على أربعة أشهر ليرتاد لنفسه. ثم هو حرب بعد ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين يقتل حيث ما أدرك ويؤسر إلا أن يتوب وابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر وانقضاؤه إلى عشر من شهر ربيع الآخر فأما من لم يكن له عهد فإنما أجله انسلاخ الأربعة الأشهر الحرم وذلك خمسون يوما: عشرون من ذي الحجة والمحرم. وقال الكلبي: إنما كانت الأربعة الأشهر لمن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد دون أربعة أشهر ومن كان عهده أكثر من أربعة أشهر فهو الذي أمر الله أن يتم له عهده بقوله **﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾**[التوبة:٤]، وهذا اختيار الطبري وغيره. وذكر محمد بن إسحاق ومجاهد وغيرهما: أن هذه الآية نزلت في أهل مكة.

وذلك أن رسول الله ﷺ صالح قريشا عام الحديبية، على أن يضعوا الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض، فدخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ ودخل بنو بكر في عهد قريش، فعدت بنو بكر على خزاعة ونقضوا عهدهم. وكان سبب ذلك دما كان لبني بكر عند خزاعة قبل الإسلام بمدة، فلما كانت الهدنة المنعقدة يوم الحديبية، أمن الناس بعضهم بعضا، فاغتنم بنو الديل من بني بكر – وهم الذين كان الدم لهم – تلك الفرصة وغفلة خزاعة، وأرادوا إدراك ثأر بني الأسود بن رزن، الذين قتلهم خزاعة، فخرج نوفل بن معاوية الديلي فيمن أطاعه من بني بكر بن عبد مناة، حتى بيتوا خزاعة واقتتلوا، وأعانت قريش بني بكر بالسلاح، وقوم من قريش أعانوهم بأنفسهم، فانهزمت خزاعة إلى الحرم على ما هو مشهور مسطور، فكان ذلك نقضا للصلح الواقع يوم الحديبية، فخرج عمرو بن سالم الخزاعي وبديل بن ورقاء الخزاعي وقوم من خزاعة، فقدموا على رسول الله ﷺ مستغيثين فيما أصابهم به بنو بكر وقريش، فقال رسول الله ﷺ: "لا نصرت إن لم أنصر كعب".

ثم نظر إلى سحابة فقال: "إنها لتستهل لنصر بني كعب" يعني خزاعة. وقال رسول الله ﷺ لبديل بن ورقاء ومن معه: "إن أبا سفيان سيأتي ليشد العقد ويزيد في الصلح وسينصرف بغير حاجة". فندمت قريش على ما فعلت، فخرج أبو سفيان إلى المدينة ليستديم العقد ويزيد في الصلح، فرجع بغير حاجة كما أخبر رسول الله ﷺ، على ما هو معروف من خبره. وتجهز رسول الله ﷺ إلى مكة ففتحها الله،

وذلك في سنة ثمان من الهجرة. فلما بلغ هوازن فتح مكة جمعهم مالك بن عوف النصري، على ما هو معروف مشهور من غزاة حنين. وكان الظفر والنصر للمسلمين على الكافرين. وكانت وقعة هوازن يوم حنين في أول شوال من السنة الثامنة من الهجرة. وترك رسول الله ﷺ قسم الغنائم من الأموال والنساء، فلم يقسمها حتى أتى الطائف، فحاصرهم رسول الله ﷺ بضعا وعشرين ليلة. وقيل غير ذلك. ونصب عليهم المنجنيق ورماهم به، على ما هو معروف من تلك الغزاة. ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى الجعرانة، وقسم غنائم حنين، على ما هو مشهور من أمرها وخبرها. ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا، وأقام الحج للناس عتاب بن أسيد في تلك السنة. وهو أول أمير أقام الحج في الإسلام. وحج المشركون على مشاعرهم. وكان عتاب بن أسيد خيرا فاضلا ورعا.

مسألة:

﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ** – إلى قوله – **لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾. وقال بعده: ﴿**فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**(٢٤)﴾. وقال بعده: ﴿**زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**(٣٧)﴾.

أن الأولى: نزلت في الذين فضلوا سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام على الإيمان والجهاد، فوضحوا الأفضل في غير موضعه، وهو معنى الظلم، أو نقصوا الإيمان بترجيح الآخر عليه، والظلم: النقص أيضا: كقوله تعالى: ﴿**وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا**﴾. والثانية: في المسلمين الذين اتخذوا أقاربهم الكفار أولياء، وبعض الفسق لا ينافى الإيمان. والثالثة: في الكفار الذين كانوا ينسئون الشهور فيحلون حرامها ويحرمون حلالها ولذلك قال تعالى: ﴿**زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ**﴾.

جاءت هذه الآية رداً على كفار مكة الذين أسروا في غزوة بدر، وكان منهم العباس عم رسول الله ﷺ حين تحدث إليه بعض من الصحابة يدعونه للإسلام وللجهاد في سبيل الله فقال: إننا نسقي الحجيج ونرعى البيت، ونفك العاني، ونقوم بعمارة البيت الحرام، قال العباس ذلك ولم يكن قد أسلم بعد. وما قاله العباس هو موجز رأي أهل الشرك من قريش، الذين جعلوا هذه المسائل مقابل الإيمان بالله والجهاد في سبيله. وجاء قول الحق ليؤكد أن الكفة غير راجحة فقال: ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحاج**﴾[التوبة:١٩]. وكلمة ﴿**سِقَايَةَ**﴾ تطلق ثلاث إطلاقات: فهي المكان

الذي يجتمع فيه الماء ليشرب منه الناس والذي نسمي. السبيل. وكذلك تطلق السقاية: على الإناء الذي نشرب منه الماء، والذي يرفع إلى الفم كالكوب والكأس أو يسمى صواع الملك، وفي قصة يوسف عليه السلام يأتي القول الكريم: ﴿**فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السقاية فِي رَحْلِ أَخِيهِ**﴾[يوسف:٧٠].

أما المعنى الثالث: فهو الحرفة نفسها؛ فنقول: هذه خياطة، وهذه حدادة وهذه سقاية، أي أنه عمل يتصل بسقاية الناس، فالسقاية – إذن – هي المكان الواسع الذي يتجمع فيه الماء، أو الإناء الذي نستعمله في الشرب، أو الحرفة التي يقوم بها السقا. وهنا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحاج وَعِمَارَةَ المسجد الحرام كَمَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر**﴾[التوبة:١٩].

فإن كنتم تفتخرون بأنكم تحترفون سقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام وتجعلون هذا في مقابل الإسلام، فذلك لا يصلح أبدا كمقابل للإيمان، ولا تتساوى كفة الإيمان بالله واليوم الآخر أبداً مع كفة سقاية الحجيج، وعمارة المسجد الحرام. ومن يقدر ذلك هو الله سبحانه وتعالى، وله مطلق المشيئة في أن يتقبل العمل أو لا يتقبله. والمؤمن المجاهد في سبيل الله إنما يطلب الجزاء من الله، أما من يسقي الحجاج؛ ويعمر بيت الله دون أن يعترف بوحدانية الله كالمشركين – قبل الإسلام – فهو يطلب الجزاء ممن عمل من إجلهم، ولأنه سبحانه هو معطي الجزاء، فهو جل وعلا يوضح لنا: أن هذين العملين لا يستويان عنده، أي لا يساوي أحدهما الآخر في الجزاء.

ويقال: إن سيدنا الإمام عليا رضي الله عنه، وكرم الله وجهه، مر على طلحة بن شيبة؛ والعباس ووجدهما يتفاخران، أي: يفاخر كل منهما الآخر بالمناقب التي يعتز بها؛ ليثبت أنه أحسن وأفضل منه. وكانت المفاخرة من طبع العرب حتى في الأشياء التي ليس لهم فيها فضل، والممنوحة لهم من الله عز وجل مثل الشكل والنسب إلى آخره؛ لأن أحداً لا يختار أباه وأمه ليتفاخر بهما، وإنما كل ذلك هو عطاء من الله سبحانه وتعالى.

لقد كان العرب مثلاً يجلسون أمام مكان ممتلىء بالماء يتفاخرون أيهم يغطس في الماء، ويبقى رأسه تحت الماء مدة أطول، أي: أيهم أطول نفساً من الآخر، مع أن هذه مسألة خاضعة لبنية الجسم وتكوينها من الله الخالق، وليس

لأحد يد فيها، فهناك من أعطاه الله رئتين أقوى من الآخر، وهو الذي يستطيع أن يغطس مدة أطول، ولكن هذه المسألة كانت من أوجه التفاخر عند العرب.

جلس طلحة والعباس يتفاخران، فقال طلحة بن شيبة: بيدي مفتاح الكعبة، ولو شئت أن أنام فيها لنمت.

فرد ليه العباس: وأنا معي سقاية الحاج، ولو شئت ألا أسقي أحدا لا ستطعت. ومر الإمام علي كرم الله وجهه عليهما وهما يتفاخران، فلما سمع كلامهما قال: ما أدري ما تقولان لقد صليت ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد فنزلت الآية: ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحاج وَعِمَارَةَ المسجد الحرام كَمَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ الله لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ الله**﴾[التوبة:١٩].

ولم يكد العباس يسمع هذه الآية حتى قال: «إنَّا قد رضينا، إنَّ قد رضينا»، قال ذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي حكم، وفي هذا القول إشارة إلى أن المفاخرة التي كانت بين العباس وطلحة لم تكن في موضعها. وكلمة ﴿**عِندَ الله**﴾ في الآية الكريمة تفيد: أن المقاييس عند الله تختلف عن المقاييس عند البشر؛ لأن المقاييس عادة تختلف حتى بين الناس، فلك مقاييس وللناس مقاييس.

وقد تجامل نفسك في مقاييسك. وقد يجاملك الناس في مقاييسهم، أو قد يقسون عليك. وكل مقياس يكون فيه هوى؛ لأن كل إنسان إنما يؤثر نفسه. وكل إنسان يحاول أن يأخذ كل شيء. ولكن المقاييس التي لا هوى فيها والتي ليس فيها إلا العدل المطلق هي مقاييس الله، ولذلك نجدها تَجُبُّ كل شيء، وليس فيها أي فرصة للطعن. ثم يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿**والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين**﴾[التوبة:١٩]. وهذه أوجدت الحل لمشكلات متعددة يثيرها بعض الناس حول الهداية، وكيف أنها من الله سبحانه وتعالى وليست من العبد لقوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ**﴾[القصص:٥٦]. نقول: نعم، إن مشيئة الهدى من الله سبحانه وتعالى، لكنه سبحانه قد أوضح لنا من لا يدخلهم في مشيئة هديه، فقال: ﴿**والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين**﴾ [البقرة:٢٦٤]. وقد ذكر الحق سبحانه وتعالى هذه الحقائق في الكثير من آيات القرآن الكافرين. وبعض الناس يقول: إن الهدى من الله، ولو أن الله هداني ما قتلت، وما سرقت وما ارتشيت، ونقول: هذا فهم خاطئ، ولنرجع إلى القرآن الكريم،

فالحق تبارك وتعالى يقول: ﴿**والله لاَ يَهْدِي**﴾ أي نفي ما يستوجب الهداية عمن ظلم أو فسق أو كفر؛ لأن الحق سبحانه لاَ يَهْدِي من قام الكفر؛ أو قدم الظلم أو قدم الفسق؛ فكأن الكافر أو الظالم أو الفاسق، هو الذي يمنع الهداية عن نفسه.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ هل وقع ذلك لغير المسيح. أنهم نزلوهم منزلة الرب تعالى في امتثال أحكامهم فيهم في التحليل والتحريم ولذلك قال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا**﴾. قيل لحذيفة في قوله: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ أكانوا يعبدونهم؟ فقال: لا، ولكن كانوا يحلون لهم الحرام فيحلونه ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه. اعلم أنه ليس لأحد قدرة على خلق التوبة؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو المنفرد بخلق الأعمال، خلافا للمعتزلة ومن قال بقولهم. وكذلك ليس لأحد أن يقبل توبة من أسرف على نفسه ولا أن يعفو عنه. قال علماء التفسير: وقد كفرت اليهود والنصارى بهذا الأصل العظيم في الدين ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ [التوبة:٣١] جل وعز، وجعلوا لمن أذنب أن يأتي الحبر أو الراهب فيعطيه شيئا ويحط عنه ذنوبه ﴿**افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**﴾[الأنعام:١٤٠].

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ**﴾، وفي الصف: ﴿**لِيُطْفِئُوا**﴾. أن ﴿**يُطْفِئُوا**﴾ هو مفعول يريدون وفى الصف مفعوله محذوف تقديره: يريدون الافتراء لأجل أن يطفئوا نور الله بأفواههم أى: بتحريفهم الكتاب وما يقولونه من الرد على النبى ﷺ. ويؤيد ما قلناه من إظهار المفعول وحذفه في الصف ما ختم به الآيتان وظهر ذلك بالتدبر.

قوله تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ**﴾ أي دلالته وحججه على توحيده. جعل البراهين بمنزلة النور لما فيها من البيان. وقيل: المعنى نور الإسلام، أي أن يخمدوا دين الله بتكذيبهم. ﴿**بِأَفْوَاهِهِمْ**﴾ جمع فوه على الأصل؛ لأن الأصل في فم فوه، مثل حوض وأحواض. ﴿**وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ**﴾ يقال: كيف دخلت ﴿**إِلَّا**﴾ وليس في الكلام حرف نفي، ولا يجوز ضربت إلا زيدا. فزعم الفراء أن ﴿**إِلَّا**﴾ إنما دخلت لأن في الكلام طرفا من الجحد.

قال الزجاج: الجحد والتحقيق ليسا بذوي أطراف. وأدوات الجحد: ما، ولا، وإن، وليس: وهذه لا أطراف لها ينطق بها ولو كان الأمر كما أراد لجاز كرهت إلا زيدا، ولكن الجواب أن العرب تحذف مع أبى. والتقدير: ويأبى الله كل شيء إلا أن يتم نوره. وقال علي بن سليمان: إنما جاز هذا في "أبَى" لأنها منع أو امتناع فضارعت النفي.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ**﴾ وقال بعد ذلك في مواضع: ﴿**كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾. أن الأول في سياق إثبات بعد النفي فناسب التوكيد بإعادة الجار بخلاف بقية الآيات. وقوله الحق هنا: ﴿**وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بالله وَبِرَسُولِهِ**﴾، هذا القول الكريم هو حيثية للحكم بعدم قبول نفقاتهم، وفي هذا تحديد لعموم الفسق وهو الكفر، لا في خصوص الفسق، وحدد الحق ثلاث أشياء منعت التقبل منهم: الكفر بالله ورسوله وهو كفر القمة، ثم قيامهم إلى الصلاة وهم كسالى، ثم الإنفاق بكراهية. ونفعهم المنع على أنه رَدُّ الفعل إلى ما ينقض العمل أو ينافيه؛ كأن يريد إنسان القيام فتُعده، أي أنك رددت إرادة القيام إلى القعود، وهو ما ينافيه، أو أن يحاول إنسان ضرب آخر فتمنع يده، فتكون بذلك قد منعت غيره من أن يعتدى عليه. إذن فالمنع مرة يأتي للفاعل ومرة للمفعول. فأنت حين تمنع زيداً من الضرب تكون قد منعت الفاعل، وحين تمنع عنه الضرب تكون قد منعت المفعول، وكل فلسفة الحياة قائمة على المنع، الذي يوجزه الفعل ورد الفعل، تجد ذلك في الإنسان وفي الزمان وفي المكان.

وإذا بحثت هذه المسألة في الإنسان تجد أن حياته تقوم على التنفس والطعام والشراب، والتنفس هو الأمر الذي لا يصبر الإنسان على التوقف عنه، فإن لم تأخذ الشهيق انتهت حياتك، وإن كتمت الزفير انتهت حياتك. وإذا منعت الهواء من الدخول إلى الرئتين يموت الإنسان، وإذا منعت خروج الهواء من الرئتين يموت الإنسان أيضاً.

وحركة العالم كله مبنية على الفعل وما يناقضه. فإذا حاول إنسان أن يضرب شخصاً آخر وأمسكتَ يده، وقلت له: سيأتي أبناؤه أو إخوته أو عائلته ويضربونك، حينئذ يمتنع عن الفعل خوفاً من رد الفعل. والعالم كله لا يمكن أن

يعيش في سلام إلا إذا كان هناك خوف من رد الفعل؛ القوى يواجه قوياً، والكل خائف من رَدِّ فعل اعتدائه على الآخر ولكن إذا واجه قوى ضعيفاً، تجد القوى يفتك بالضعيف.

وهكذا العالم كله، فالكون إما ساكن وإما متحرك. وتجد الكون المتحرك فيه قوى متوازية تعيش في سلام خوفاً من رد الفعل. وكذلك تجد العالم الساكن؛ فالعمارة الشاهقة تستمد ثباتها وسكونها من أن الهواء لا يأتي من جهة واحدة، ولكن من جهات متعددة تجعل الضغط متوازناً على كل أجناب العمارة، ولكن لو فرَّغْتَ الهواء من ناحية وجعلته يهب من ناحية أخرى لتحطمت العمارة، تماماً كما تُفرِّغُ الهواء من إناء مغلق فيتحطم.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾. وقال بعده: ﴿**وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا**﴾. فالآية الأولى: بالفاء، وتكرار (**وَلَا**) وباللام في (**يُعَذِّبَهُمْ**) وبلفظ (**الْحَيَاةِ**). والآية الثانية: بالواو، وسقوط (لَا)، و(أن) موضع اللام. أن الآية الأولى: ظاهرة في قوم أحياء، والثانية: في قوم أموات. وأما الفاء في الأولى: فلأن ما قبلها أفعالا مضارعة يتضمن معنى الشروط، كأنه قيل: إن اتصفوا بهذه الصفات من الكسل في الصلاة، وكراهية النفقات فلا تعجبك أموالهم، الآية. والآية الثانية تقدمها أفعال ماضية، وبعد موتهم، فلا تصلح للشرط فناسب مجيئها بالواو. وأما قوله تعالى: ﴿**وَلَا أَوْلَادُهُمْ**﴾ فلما تقدم من التوكيد في قوله: ﴿**إِلَّا وَهُمْ**﴾، وفى قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَأْتُونَ**﴾ إلى ﴿**وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا**﴾، فناسب التوكيد في قوله تعالى: ﴿**وَلَا أَوْلَادُهُمْ**﴾ بخلاف الآية الثانية. وأما (اللام) في الأولى، و(أن) في الثانية فلأن مفعول الإرادة في الأول محذوف، واللام للتعليل تقديره: إنما يريد الله ما هم فيه من الأموال والأولاد لأجل تعذيبهم في حياتهم بما يصيبهم من فقد ذلك، ولذلك قال: ﴿**وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ(٥٥)**﴾.

ومفعول الإرادة في الآية الثانية "أن يعذبهم"؛ لأن الأعمال المتقدمة عليه ماضية ولا تصلح للشرط ولذلك قال: ﴿**وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ**﴾. وأما: (الدنيا) في الثانية فلأنها صفة للحياة فاكتفى بذكر الموصوف أولا عن إعادته ثانيا.

أي لا تستحسن ما أعطيناهم ولا تمل إليه فإنه استدراج ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا**﴾، قال الحسن: المعنى بإخراج الزكاة والإنفاق في سبيل الله. وهذا اختيار الطبري. وقال ابن عباس وقتادة: في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما بريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. وهذا قول أكثر أهل العربية، ذكره النحاس. وقيل: يعذبهم بالتعب في الجمع. وعلى هذا التأويل وقول الحسن لا تقديم فيه ولا تأخير، وهو حسن. وقيل: المعنى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الدنيا لأنهم منافقون، فهم ينفقون كارهين فيعذبون بما ينفقون. ﴿**وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾ نص في أن الله يريد أن يموتوا كافرين، سبق بذلك القضاء.

قوله: ﴿**وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ الله أَن يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدنيا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾، فهي حكم عام على من يعطيهم الله نعمة الدنيا ويكفرون به، وتكون هذه النعمة عليهم عذاباً، فهم في خوف من ضياع المال أو فقد الولد؛ لذلك يعانون من العذاب.

وهم من خوفهم من الموت وترك النعمة مُعذَّبون، فهم لا يريدون أن يموتوا لأنهم لا يعتقدون في الآخرة، ويكون المال والولد حسرة عليهم؛ لأن المؤمن إن مات منه ولد، علم أن افتقاد الابن إنما يسد طاقة جهنم، ويقوده إلى رحمة الله، وله أجر على ذلك، فإن كان الولد صغيراً كان ذخراً له في الآخرة، وإن كان كبيراً فهو يتذكر قول الحق: ﴿**والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم**﴾[الطور:٢١].

وفي هذا سلوى عن افتقاد الولد، لكن المنافق يحيا في خوف وحسرة. وفي هذا عذاب. ويلفتنا الحق سبحانه إلى أن مال الكافر هو حسرة عليه دائماً، فيقول: ﴿**إِنَّ الذين كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ الله فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ والذين كفروا إلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ**﴾[الأنفال:٣٦].

أي أن الله سبحانه وتعالى يعاقب من ينفق لمحاربة دينه بأن يتركه ينفق، ثم ينصر الله دينه ليجعل ذلك حسرة في نفسه حين يرى المال الذي أنفقه وقد جاء بنتيجة عكسية هي انتصار الدين وانتشاره. وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿**وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾ وهذه هي الحسرة الكبرى، فحين يموت الكافر ولا يجد له رصيداً في الآخرة إلا النار؛ لأنه مات على غير يقين بالجنة وعلى غير يقين بأنه

قد قدم شيئاً، يُلْقَى في النار محسوراً على ما تركه في الدنيا، ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل نقرأ قول الله: ﴿وَلَوْ ترى إِذْ يَتَوَفَّى الذين كَفَرُواْ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾[الأنفال:٥٠]، وهكذا يذوقون العذاب.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، وقال بعده: ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾. أن الأولى صدرت بما لم يسم فاعله في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا﴾، مع العلم بالفاعل، فختمت كذلك مناسبة بين صدر الكلام، وختمه. والثانية: جاءت بعد بسط الكلام في عذر المعذورين فناسب البسط في توبيخ مخالفيهم، والتوكيد فيه بتصريح اسم الفاعل، ولذلك صدر الآية ب (إنما) الحاصرة للسبيل عليهم، وأما ختم الأولى ب (لا يفقهون)، والثانية ب (لا يعلمون): أما الأولى: فلأنهم لو فهموا ما في جهادهم مع رسول الله ﷺ من الأجر لما رضوا بالقعود ولا استأذنوا عليه.

والثانية: جاءت بعد ذكر الباكين لفوات صحبة رسول الله ﷺ لعلمهم بما في صحبته من الفوز والمنزلة عند الله تعالى، فلو علم المستأذنون ما علمه الباكون لما رضوا بالقعود، لكنهم لا يعلمون. وقال: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[النساء:١٥٥]. وقال في الختم: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[البقرة:٧].

والختم يكون محسوسا كما بينا، ومعنى كما في هذه الآية. فالختم على القلوب: عدم الوعي عن الحق سبحانه مفهوم مخاطباته والفكر في آياته. وعلى السمع: عدم فهمهم للقرآن إذا تلي عليهم أو دعوا إلى وحدانيته. وعلى الأبصار: عدم هدايتها للنظر في مخلوقاته وعجائب مصنوعاته، هذا معنى قول ابن عباس وابن مسعود وقتادة وغيرهم.

في هذه الآية أدل دليل وأوضح سبيل على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال، والكفر والإيمان، فاعتبروا أيها السامعون، وتعجبوا أيها المفكرون من عقول القدرية القائلين بخلق إيمانهم وهداهم، فإن الختم هو الطبع فمن أين لهم الإيمان ولو جهدوا، وقد طبع على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة، فمتى يهتدون، أو من يهديهم من بعد الله إذا أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[الزمر:٢٣]، وكان فعل الله ذلك عدلا فيمن أضله وخذله، إذ لم يمنعه حقا وجب له فتزول صفة العدل، وإنما منعهم ما

كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم.

وحقيقة الختم والطبع إنما هو فعل ما يصير به القلب مطبوعا مختوما، لا يجوز أن تكون حقيقته التسمية والحكم، ألا ترى أنه إذا قيل: فلان طبع الكتاب وختمه، كان حقيقة أنه فعل ما صار به الكتاب مطبوعا ومختوما، لا التسمية والحكم. هذا ما لا خلاف فيه بين أهل اللغة، ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم، كما قال تعالى: ﴿**بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ**﴾[النساء:١٥٥].

وأجمعت الأمة على أن الطبع والختم على قلوبهم من جهة النبي عليه السلام والملائكة والمؤمنين ممتنع، فلو كان الختم والطبع هو التسمية والحكم لما امتنع من ذلك الأنبياء والمؤمنون، لأنهم كلهم يسمون الكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم، وأنهم مختوم عليها وأنهم في ضلال لا يؤمنون، ويحكمون عليهم بذلك. فثبت أن الختم والطبع هو معنى غير التسمية والحكم، وإنما هو معنى يخلقه الله في القلب يمنع من الإيمان به، دليله قوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لا يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾[الحجر:١٢]. وقال: ﴿**وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه**﴾ [الأنعام:٢٥]. أي: يفقهوه، وما كان مثله.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ**﴾، وقال في المؤمنين: ﴿**بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾. أن المنافقين ليسوا بمتناصرين على دين معين وشريعة ظاهرة، فكان بعضهم يهود، وبعضهم مشركين، فقال: ﴿**مِنْ بَعْضٍ**﴾ أي في الكفر والنفاق، والمؤمنون متناصرون على دين الإسلام وشريعته الظاهرة، فقال: ﴿**أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾ في النصرة وفي اجتماع القلوب على دينهم، فلذلك قال: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾، وقال في المنافقين: ﴿**وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى**﴾. يظهر أن تكون هذه الآية احتراساً عن أن يظنّ المنافقون أنّ العفو المفروض لطائفة منهم هو عفو ينال فريقاً منهم باقين على نفاقهم، فعقب ذلك ببيان أنّ النفاق حالة واحدة وأنّ أصحابه سواء، ليعلم بذلك أن افتراق أحوالهم بين عفو وعذاب لا يكون إلاّ إذا اختلفت أحوالهم بالإيمان والبقاءِ على النفاق، إلى ما أفادته الآية أيضاً من إيضاح بعض أحوال النفاق وآثاره الدالّة على استحقاق العذاب، ففصل الجملة عن التي قبلها: إمّا لأنّها

كالبيان للطائفة المستحقّة العذاب، وإمّا أن تكون استئنافاً ابتدائياً في حكم الاعتراض.

في التنزيل: ﴿**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ**﴾[التوبة:٦٧]، ثم قال: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾[التوبة:٧١]. فجعل تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقا بين المؤمنين والمنافقين؛ فدل على أن أخص أوصاف المؤمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأسها الدعاء إلى الإسلام والقتال عليه. ثم إن الأمر بالمعروف لا يليق بكل أحد، وإنما يقوم به السلطان إذ كانت إقامة الحدود إليه، والتعزير إلى رأيه، والحبس والإطلاق له، والنفي والتغريب؛ فينصب في كل بلدة رجلا صالحا قويا عالما أمينا ويأمره بذلك، ويمضي الحدود على وجهها من غير زيادة. قال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾[الحج:٤١].

وليس من شرط الناهي أن يكون عدلا عند أهل السنة، خلافا للمبتدعة حيث تقول: لا يغيره إلا عدل. وهذا ساقط؛ فإن العدالة محصورة في القليل من الخلق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عام في جميع الناس. فإن تشبثوا بقوله تعالى: ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ**﴾[البقرة:٤٤]، وقوله: ﴿**كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾[الصف:٣] ونحوه، قيل لهم: إنما وقع الذم ههنا على ارتكاب ما نهي عنه لا على نهيه عن المنكر.

ولا شك في أن النهي عنه ممن يأتيه أقبح ممن لا يأتيه، ولذلك يدور في جهنم كما يدور الحمار بالرحى، كما بيناه في البقرة عند قوله تعالى: ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ**﴾[البقرة:٤٤]. أجمع المسلمون فيما ذكر ابن عبدالبر أن المنكر واجب تغييره على كل من قدر عليه، وإنه إذا لم يلحقه بتغييره إلا اللوم الذي لا يتعدى إلى الأذى فإن ذلك لا يجب أن يمنعه من تغييره؛ فإن لم يقدر فبلسانه، فإن لم يقدر فبقلبه ليس عليه أكثر من ذلك. وإذا أنكر بقلبه فقد أدى ما عليه إذا لم يستطع سوى ذلك. قال: والأحاديث عن النبي ﷺ في تأكيد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جدا ولكنها مقيدة بالاستطاعة.

قال الحسن: إنما يكلم مؤمن يرجى أو جاهل يعلم؛ فأما من وضع سيفه أو

سوطه فقال: اتقني اتقني فما لك وله. وقال ابن مسعود: بحسب المرء إذا رأى منكرا لا يستطيع تغييره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره. وروى ابن لهيعة عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يحل لمؤمن أن يذل نفسه". قالوا: يا رسول الله وما إذلاله نفسه؟، قال: "يتعرض من البلاء لما لا يقوم له".

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**﴾، وقال بعد ذلك: ﴿**فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**﴾. فقال في الأولى: ﴿**ثُمَّ تُرَدُّونَ**﴾، وفي الثانية: ﴿**وَسَتُرَدُّونَ**﴾، وقال في الثانية: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾.

أن الأولى في المنافقين بدليل: ﴿**قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ**﴾، وكانوا يخفون من النفاق ما لا يعلمه إلا الله تعالى ورسوله بإعلامه إياه. والآية الثانية: في المؤمنين، بدليل قوله تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا**﴾، وأعمالهم ظاهرة فيما بينهم من الصلاة والزكاة والحج وأعمال البر، فلذلك زاد قوله: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾.

وأما (ثم) في الأولى: فلأنها وعيد، فبين أنه لكرمه لم يؤاخذ هم في الدنيا، فأتى ب (ثم) المؤذنة بالتراخي.

والثانية: وعد، فأتى بالواو والسين المؤذنان بقرب الجزاء والثواب وبعد العقاب فالمنافقون: يؤخر جزاؤهم عن نفاقهم إلى موتهم، فناسب (ثم) والمؤمنون: يثابون على العمل الصالح في الدنيا والآخرة لقوله تعالى: ﴿**فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ**﴾ الآية.

أنه تعالى لما قال في الآية الأولى: ﴿**مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ**﴾، قال في هذه الآية: إنما السبيل على من كان كذا وكذا ثم الذين قالوا في قوله تعالى، المراد: "مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ"، في أمر الغزو والجهاد، وأن نفي السبيل في تلك الآية مخصوص بهذا الحكم، قالوا: السبيل الذي نفاه عن المحسنين هو الذي أثبته في هؤلاء المنافقين، وهو الذي يختص بالجهاد، والمعنى: أن هؤلاء الأغنياء الذين يستأذنونك في التخلف سبيل الله عليهم لازم وتكليفه عليهم بالذهاب إلى الغزو متوجه ولا عذر لهم ألبتة في التخلف.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾. فهل التوبة الأولى هي الثانية أو غيرها.

قيل: الأولى عامة. والثانية: في الفريق الذي كادت تزيغ قلوبهم. وقيل: الأولى هي الثانية، وإنما بين في الثاني سبب توبتهم. وقوله تعالى: ﴿لِيَتُوبُوا﴾ أي ليدوموا على توبتهم. روى الترمذي: حدثنا عبد بن حميد حدثنا عبدالرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال: لم أتخلف عن النبي ﷺ في غزوة غزاها حتى كانت غزوة تبوك إلا بدرا ولم يعاتب النبي ﷺ أحدا تخلف عن بدر إنما خرج يريد العير، فخرجت قريش مغوثين لعيرهم فالتقوا عن غير موعد كما قال الله تعالى ولعمري إن أشرف مشاهد رسول الله ﷺ في الناس لبدر وما أحب أني كنت شهدتها مكان بيعتي ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، ثم لم أتخلف بعد عن النبي ﷺ حتى كانت غزوة تبوك وهي آخر غزوة غزاها وآذن النبي ﷺ بالرحيل فذكر الحديث بطول، قال: فانطلقت إلى النبي ﷺ فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمون وهو يستنير كاستنارة القمر، وكان إذا سر بالأمر استنار فجئت فجلست بين يديه فقال: "أبشر يا كعب بن مالك بخير يوم أتي عليك منذ ولدتك أمك"، فقلت: يا نبي الله أمن عند الله أم من عندك؟ قال: "بل من عند الله – ثم تلا هذه الآية: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ – حتى بلغ – ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، قال: وفينا أنزلت أيضا: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[التوبة:١١٩]، وذكر الحديث. واختلف العلماء في هذه التوبة التي تابها الله على النبي والمهاجرين والأنصار على أقوال فقال ابن عباس: كانت التوبة على النبي لأجل إذنه للمنافقين في القعود دليله قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾[التوبة:٤٣]، وعلى المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه. وقيل: توبة الله عليهم استنقاذهم من شدة العسرة. وقيل: خلاصهم من نكاية العدو، وعبر عن ذلك بالتوبة وإن خرج عن عرفها لوجود معنى التوبة فيه وهو الرجوع إلى الحال الأولى.

وقال أهل المعاني: إنما ذكر النبي ﷺ في التوبة لأنه لما كان سبب توبتهم ذكر معهم كقوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال:٤١].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾، أي: في وقت العسرة، والمراد جميع أوقات تلك الغزاة ولم يرد ساعة بعينها. وقيل: ساعة العسرة أشد الساعات التي مرت بهم في تلك الغزاة. والعسرة صعوبة الأمر. قال جابر: اجتمع عليهم عسرة الظهر وعسرة الزاد وعسرة الماء.

قال الحسن: كانت العشرة من المسلمين يخرجون على بعير يتعقبونه بينهم وكان زادهم التمر المتسوس والشعير المتغير والإهالة المنتنة وكان النفر يخرجون ما معهم – إلا التمرات – بينهم فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يعطيها صاحبه حتى يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى تأتي على آخرهم فلا يبقى من التمرة إلا النواة فمضوا مع النبي ﷺ على صدقهم ويقينهم رضي الله عنهم. وقال عمر رضي الله عنه وقد سئل عن ساعة العسرة: خرجنا في قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع من العطش، وحتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده. فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيرا فادع لنا.

قال: "أتحب ذلك"؟ قال: نعم فرفع يديه فلم يرجعهما حتى أظلت السماء ثم سكبت فملئوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر. وروى أبو هريرة وأبو سعيد، قالا: كنا مع النبي ﷺ في غزوة تبوك فأصاب الناس مجاعة، وقالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وأدهنا. فقال رسول الله ﷺ: "افعلوا" فجاء عمر، وقال: يا رسول الله إن فعلوا قل الظهر ولكن ادعهم بفضل أزوادهم فادع الله عليها بالبركة لعل الله أن يجعل في ذلك البركة. قال: "نعم" ثم دعا بنطع فبسط ثم دعا بفضل الأزواد فجعل الرجل يجيء بكف ذرة ويجيء الآخر بكف تمر ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير.

قال أبو هريرة: فحزرته فإذا هو قدر ربضة العنز فدعا رسول الله ﷺ بالبركة. ثم قال: "خذوا في أوعيتكم" فأخذوا في أوعيتهم حتى – والذي لا إله إلا هو – ما بقي في العسكر وعاء إلا ملؤوه، وأكل القوم حتى شبعوا وفضلت فضلة، فقال النبي ﷺ: "أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقي الله بهما عبد شاك فيهما فيحجب عن الجنة". خرجه مسلم في صحيحه بلفظه ومعناه، والحمد لله. وقال ابن عرفة: سمي جيش تبوك جيش العسرة؛ لأن رسول الله ﷺ ندب الناس إلى الغزو في حمارة القيظ، فغلظ عليهم وعسر، وكان إبان ابتياع الثمرة. قال: وإنما

ضرب المثل بجيش العسرة؛ لأن رسول الله ﷺ لم يغز قبله في عدد مثله لأن أصحابه يوم بدر كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر ويوم أحد سبعمائة ويوم خيبر ألفا وخمسمائة ويوم الفتح عشرة آلاف ويوم حنين اثني عشر ألفا وكان جيشه في غزوة تبوك ثلاثين ألفا وزيادة، وهي آخر مغازيه ﷺ. وخرج رسول الله ﷺ في رجب وأقام بتبوك شعبان وأياما من رمضان وبث سراياه وصالح أقواما على الجزية.

وفي هذه الغزاة خلف عليا على المدينة. فقال المنافقون: خلفه بغضا له؛ فخرج خلف النبي ﷺ وأخبره، فقال عليه السلام: "أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى"، وبين أن قعوده بأمره عليه السلام يوازي في الأجر خروجه معه لأن المدار على أمر الشارع.

وإنما قيل لها: غزوة تبوك؛ لأن النبي ﷺ رأى قوما من أصحابه يبوكون حسي تبوك أي يدخلون فيه القدح ويحركونه ليخرج الماء، فقال: "ما زلتم تبوكونها بوكا"، فسميت تلك الغزوة غزوة تبوك. الحسي بالكسر ما تنشفه الأرض من الرمل فإذا صار إلى صلابة أمسكته فتحفر عنه الرمل فتستخرجه وهو الاحتساء قاله الجوهري. واختلف في معنى تزيغ، فقيل: تتلف بالجهد والمشقة والشدة. وقال ابن عباس: تعدل – أي تميل – عن الحق في الممانعة والنصرة.

وقيل: من بعد ما هم فريق منهم بالتخلف والعصيان ثم لحقوا به وقيل: هموا بالقفول فتاب الله عليهم وأمرهم به.

قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ**﴾، قيل: توبته عليهم أن تدارك قلوبهم حتى لم تزغ، وكذلك سنة الحق مع أوليائه إذا أشرفوا على العطب، ووطنوا أنفسهم على الهلاك أمطر عليهم سحائب الجود فأحيا قلوبهم.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾، إلى ﴿**إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ**﴾، وقال بعدها: ﴿**وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ**﴾.

أن الآية الأولى: تضمنت ما ليس من عملهم فبين بكرمه تعالى أنه يكتب لهم بذلك عَمَلٌ صَالِحٌ وإن لم يكن من عملهم. والآية الثانية: تضمنت ما هو من

عملهم القاصدين له، فقال: ﴿كُتِبَ لَهُمْ﴾ أي ثواب ذلك العمل. والله أعلم.

هنا يوضح الحق أنه لا يصح لأهل المدينة والأعراب الذين حولهم أن يتخلفوا عن الجهاد مع رسول الله، ولا يرضوا لأنفسهم بالسعة والدعة والراحة ورسول الله ﷺ في الشدة والمشقة، فكما ذهب إلى القتال يجب أن يذهبوا؛ لأن الثواب كبير، فلا يصيبهم تعب إلا ولهم عليه أجر العمل الصالح، ولا يعانون من جوع إلا ولهم أجر العمل الصالح، ولا يسيرون في مكان يغيظ الكفار إلا ولهم أجر العمل الصالح. ولا ينالون من عدو نَيلا إلا ويكتبه الله لهم عملاً صالحاً، فسبحانه يجزي بأحسن ما كانوا يعملون. وقام العلماء بحصر تلك المعطاءات الربانية بسبع درجات، فواحد ينال الدرجات جميعاً. وآخر أصابه ظمأ فقط فنال درجة الظمأ،

وخامس جمع كل الدرجات. وعندما نقوم بحساب هذه الدرجات نجدها: الإصابة بالظمأ، النَّصَب -أي- الجوع، ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار أي لا ينزلون في مكان يتمكن فيه المسلمون منهم ويبسطون سلطانهم عليهم، والمقصود الحصن الحصين عند الكافر، النَّيْل: التنكيل بالعدو، النفقة الصغيرة أو الكبيرة، وقطع أي واد في سبيل الله، وهذه هي الدرجات السبع التي يجزي الله عنها بأحسن مما عمل أصحابها، كما فسرها العلماء، فمن نال الدرجات السبع فقد نال منزلة عظيمة، وكل مجاهد على حسب ما بذل من جهد. فمن المجاهدين من ينال درجة أو اثنتين أو ثلاث أو أربع أو خمس أو ست أو سبع درجات.

*****

سورة يونس عليه السلام

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ**﴾، وفي الفرقان: ﴿**مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ**﴾. لما تقدم هنا: ﴿**إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**(١٥)﴾، ناسب تقديم الضر، أي: لا يضرهم إن عصوه ولاينفعهم إن أطاعوه. وفي الفرقان: تقدم ذكر النعم وعدها، فناسب تقديم النفع، أي: ما لا ينفعهم بنعمة من النعم، ومثله قوله فيها: ﴿**قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ**﴾، قدم الضر لتقدم قوله تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ**﴾.

قوله تعالى: ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ**﴾ يريد الأصنام. ﴿**وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ**﴾، وهذه غاية الجهالة منهم؛ حيث ينتظرون الشفاعة في المال ممن لا يوجد منه نفع ولا ضر في الحال. وقيل: ﴿**شُفَعَاؤُنَا**﴾ أي تشفع لنا عند الله في إصلاح معايشنا في الدنيا.

﴿**قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ**﴾ قراءة العامة ﴿**تُنَبِّئُونَ**﴾ بالتشديد. وقرأ أبو السمال العدوي: ﴿**أتنبئون الله**﴾ مخففا، من أنبأ ينبئ. وقراءة العامة من نبأ ينبئ تنبئة؛ وهما بمعنى واحد، جمعهما قوله تعالى: ﴿**مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ**﴾[التحريم:٣]، أي: أتخبرون الله أن له شريكا في ملكه أو شفيعا بغير إذنه، والله لا يعلم لنفسه شريكا في السموات ولا في الأرض؛ لأنه لا شريك له فلذلك لا يعلمه.

نظيره قوله: ﴿**أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ**﴾[الرعد:٣٣] ثم نزه نفسه وقدسها عن الشرك، فقال: ﴿**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾، أي: هو أعظم من أن يكون له شريك.

وقيل: المعنى أي يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يميز: ﴿**وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ**﴾، فيكذبون؛ وهل يتهيأ لكم أن تنبؤه بما لا يعلم، سبحانه وتعالى عما يشركون!.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وكذلك في فاطر، وقال في المنافقين: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾. أن العزة له تعالى جميعا، وعزة الرسول والمؤمنين منه، وهو معطيها لهم، فعزتهم من عزته، فهو المختص بها وحده تعالى. ﴿وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي لا يحزنك افتراؤهم وتكذيبهم لك، ثم ابتداء فقال: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ أي القوة الكاملة والغلبة الشاملة والقدرة التامة لله وحده؛ فهو ناصرك ومعينك ومانعك.

﴿جَمِيعاً﴾ نصب على الحال، ولا يعارض هذا قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨] فإن كل عزة بالله فهي كلها لله؛ قال الله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الصافات:١٨٠]. ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ السميع لأقوالهم وأصواتهم، العليم بأعمالهم وأفعالهم وجميع حركاتهم.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ وفى سورة المؤمن ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بالواو. أن المراقب ب (مَنْ) قبلها، و (مِنْ) بعدها واحد في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ الآيات، فحسن ترك الواو لذلك.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي حكمه وقضاؤه وعلمه السابق. ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذبوا. ﴿أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون.

وفي هذا أوفى دليل على القدرية. وقرأ نافع وابن عامر هنا وفي آخرها ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وفي سورة غافر بالجمع في الثلاثة. الباقون بالإفراد و﴿أَنَّ﴾ في موضع نصب؛ أي بأنهم أو لأنهم. قال الزجاج: ويجوز أن تكون في موضع رفع على البدل من كلمات. قال الفراء: يجوز (إنهم) بالكسر على الاستئناف.

مسألة:

قال هنا: ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ وفى المؤمن: ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. أن المقال

هنا يصح خطاب المؤمن والكافر به، فمن أنكره خرج من الحق إلى الضلال، ولذلك قال: ﴿**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ**﴾، وآية المؤمن تقدمها: ﴿**مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ فناسب قوله تعالى: ﴿**عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ**﴾. ﴿**عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا**﴾، أي خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذبوا.

﴿**أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**﴾، أي لا يصدقون. وفي هذا أوفى دليل على القدرية. وقرأ نافع وابن عامر هنا وفي آخرها، ﴿**كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ**﴾ وفي سورة غافر بالجمع في الثلاثة. الباقون بالإفراد و﴿**أَنَّ**﴾ في موضع نصب؛ أي بأنهم أو لأنهم. قال الزجاج: ويجوز أن تكون في موضع رفع على البدل من كلمات. قال الفراء: يجوز ﴿**إنهم**﴾ بالكسر على الاستئناف.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾، وقال بعده: ﴿**أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ**﴾. ﴿**ألا**﴾ كلمة تنبيه للسامع تزاد في أول الكلام؛ أي انتبهوا لما أقول لكم: ﴿**إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ**﴾، ﴿**لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾[الحديد:٢]، فلا مانع يمنعه من إنفاذ ما وعده. ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾ ذلك. والسموات والأرض ظرف فيهما كل شيء في الكون العُلْوي والسُّفْلي، فلله ما في السموات وما في الأرض، أي: المظروف فيهما، فما بال الظرف نفسه؟ قالوا: هو أيضاً لله، كما جاء في آية أخرى: ﴿**للَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض**﴾[النور:٤٢]، إذن: فالظرف والمظروف مِلْك له سبحانه.

وعادةً ما يكون الظرف أقلَّ قيمةً من المظروف فيه، فما بداخل الخزينة مثلاً أثمن منها، وما بداخل الكيس أثمن منه، وكذلك عظمة السموات والأرض بما فيهما من مخلوقات. لذلك إياك أنْ تجعل المصحف الشريف ظرفاً لشيء مهم عندك فتحفظه في المصحف؛ لأنه لا شيء أغلى ولا أثمن من كتاب الله، فلا يليق أن تجعله حافظةً لنقودك، أو لأوراقك المهمة؛ لأن المحفوظ عادة أثمن من المحفوظ فيه. وعلى كثرة المفترين في الإلوهية والفرعونية لم يَدَّعِ أحد منهم أن له مُلْكَ شيء منها. حتى إن النمرود الذي جادل أبانا إبراهيم عليه السلام، وقال: أنا أُحي وأميت لمَّا قال له إبراهيم: ﴿**فَإِنَّ الله يَأْتِي بالشمس مِنَ المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب**﴾ [البقرة:٢٥٨] لم يستطع فِعْل شيء وبُهِت وانتهت المسألة.

ومُلْكه تعالى لم يقتصر على الخَلْق، فخَلَق الأشياء ثم تركها تؤدي مهمتها وحدها، إنما خلقها وله تعالى قيومية على ما خلق، وتصرّف في كل شيء، فلا تظن الكون من حولك يخدُمك آلياً، إنما هو خاضع لإرادة الله وتصرّفه سبحانه. فالماء الذي ينساب لك من الأمطار والأنهار قد يُمنع عنك ويصيب أرضك الجفاف، أو يزيد عن حَدِّه، فيصبح سيولاً تغرق وتدمر، إذن: المسألة ليست رتابة خَلْق، وليست المخلوقات آلاتٍ (ميكانيكية)، إنما لله المُلك والقيومية والتصرُّف في كل ما خلق.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ**﴾، وفى الزمر: ﴿**وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ**﴾. لما أفرد "النفس" ناسب الاكتفاء ب ﴿**مَا فِي الْأَرْضِ**﴾. ولما جمع ﴿**الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾ أى ناسب ذكر الفداء بما في الأرض و (**مِثْله**). وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿**وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأرض لاَفْتَدَتْ بِهِ**﴾[يونس:٥٤].

وفي هذا القول تعذُّر مِلْك النفس الواحدة لكل ما في الأرض، ولو افترضنا أن هذه النفس ملكته فلن تستطيع الافتداء به؛ وتكون النتيجة هي ما يقوله الحق سبحانه: ﴿**وَأَسَرُّواْ الندامة لَمَّا رَأَوُاْ العذاب**﴾[يونس:٥٤].

أي: أخفوا الحسرة التي تأتي إلى النفس، وليس لها ظاهر من انزعاج لفظي أو حركي. إن كلاًّ منهم يكتم هَمَّه في قبله؛ لأنه ساعة يرى العذاب ينبهر ويُصعَق ويُبهَت من هول العذاب، فتجمد دماؤه، ولا يستطيع حتى أن يصرخ، وهو بذلك إنما يكبت ألمه في نفسه؛ لأن هول الموقف يجمِّد كل دم في عروقهم، ويخرس ألسنتهم، ولا يستطيع أن ينطق؛ لأنه يعجز عن التعبير الحركي من الصراخ أو الألم.

ونحن نعلم أن التعبير الحركي لون من التنفيس البدني، وحين لا يستطيعه الإنسان، فهو يتألم أكثر. هم إذن يُسرُّون الندامة حين يرون العذاب المفزع المفجع، والكلام هنا عن الظالمين، وهم على الرغم من ظلمهم، فالحق سبحانه يقول: ﴿**وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**﴾[يونس:٥٤].

وهؤلاء رغم كفرهم واستحقاقهم للعذاب يلقون العدل من الله، فَهَبْ أن كافراً

بالله بمنأى عن الدين ظلم كافراً آخر، أيقف الله سبحانه من هذه المسألة موقفاً محايداً.

لا؛ لأن حق خَلْق الله سبحانه الكافر المظلوم يقتضى أن يقتص الله سبحانه له من أخيه الكافر الظالم؛ لأن الظالم الكافر، إنما ظلم مخلوقاً لله، حتى وإن كان هذا المظلوم كافراً.

ولذلك يقضي الله بينهم بالحق، أي: يخفِّف عن المظلوم بعضاً من العذاب بقدر ما يثقله على الظالم. هذا هو معنى: ﴿**وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ**﴾؛ لأنها تتطلب قضاء، أي: عدم تحيز، وتتطلب الفصل بين خصومتين. ويترتب على هذا القضاء حكم؛ لذلك يبين لنا الحق سبحانه أنهم وإن كانوا كافرين به إلا أنه إن وقع من أحدهم ظلم على الآخر، فالحق رب الجميع وخالق الجميع، كما أعطاهم بقانون الربوبية كل خير مثلما أعطى المؤمنين، فهو سبحانه الذي أعطى الشمس، والماء، والهواء، وكل وسائل الرزق والقُوت لكل الناس مؤمنهم، وكافرهم فإذا ما حدث ظلم بين متدينين بدين واحد، أو غير متدينين، فلا بد أن يقضي فيه الحق سبحانه بالفصل والحكم بالعدل.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ**﴾ وفى سبأ: ﴿**فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ**﴾. لما تقدم قوله تعالى: ﴿**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ**﴾ الآية، ناسب ذلك تقديم الأرض لأن النور والتلاوة والعمل في الأرض، فناسب ذلك تقديم السموات. ﴿**وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك ولا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾[يونس:٦١].

أي: كل أمورك، وأمور الخلق، والمخلوقات كلها معلومة لله تعالى، ومكتوبة في كتاب مبين واضح، فلا أحد بقادر على أن يختلس حركة قلب، أو يختلس حركة ضمير، وكملة «يعزب»، تعني: يغيب ويختفي. والحق سبحانه يخبرنا أنه لا يضيع عنده جزاء أي عمل أو نية مهما بلغ العمل أو النية أدنى درجة من القِلَّة.

ولم يوجد عند العرب ما يضرب به المثل على الوزن القليل إلا الذَّرَّة، وهي النملة الدقيقة الصغيرة جِدّاً، ثم أطلقت الذرة على الهَبَاء الشائع في الجو، ويمكنك أن ترى هذا الهَبَاء إن جلست في حجرة مظلمة مغلقة، ثم دخلها شعاع من ضوء،

هنا ترى هذا الضوء وهو يمر من الثقب وكأنه سهم، وترى مكوِّنات هذا السهم من ذرات الهباء المتحركة الموجودة في الجو، تلك الذرات التي لا تراها وأنت في الضوء فقط أو في الظلام فقط، ولكن التناقض بين الضوء والظلام يُبرزها.

وأنت لا تدرك الشيء ولا تحسه لأمرين: إما لتناهيه في الصغر، وإما لتناهيه في الكبر؛ فلا تحيط به، وحين تقدم العلم التطبيقي اخترعوا المَجَاهر التي تُكبِّر الشيء المتناهي في الصغر آلاف، أو ملايين المرات. وأنت لو وضعت جلدك تحت عدسة المجهر فسترى فجوات وكأنها آبار لم تكن تراها أو تحسها من قبل؛ لأنها بلغت من الدقة والصِّغر بحيث لا تستطيع عيناك أن تدركها، فإن رأيتها بالمجهر كَبُرَت فترى فجوات وتعاريج وعُلُوّاً وانخفاضا مهما كان الجلد الذي تراه تحت المجهر ناعماً.

وكذلك أنت لا تقدر على إدراك الشيء الضخم، وقد تفصل بينك وبين الشيء الكبير مسافة؛ فتراه أصغر من حجمه، وكلما ابتعد صَغُرَ، فأنت إذا رأيت مثلاً رجلاً طويلاً على مسافة كبيرة، فأنت تراه وكأنه طفل صغير، وكلما اقترتب منه زاد طوله في عينيك. إذن: لا الضخامة ولا البُعد ولا القِلَّة تمنع من علم الحق سبحانه لأي شيء. وقد خاطب الحق سبحانه العرب بأصغر ما عرفوه، وهو الذرة، أي: النملة الصغيرة. وأنت إذا وطأتَ نملة في أرض رملية فهي لا تموت، بل تدخل في فجوات الرمل، وتجد لنفسها طريقاً إلى سطح الأرض مرة أخرى.

قد بيَّن الحق سبحانه هذه المسألة حين تحدَّث عن سليمان عليه السلام في وادي النمل، فقال تعالى: ﴿**قَالَتْ نَمْلَةٌ ياأيها النمل ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾[النمل:١٨]؛ لأنهم لا يرونهم؛ لحجمهم المتناهي في الصغر. وهكذا يعطينا الحق سبحانه بياناً عن كل أمة في الحياة، وأن من بينهم جنوداً يحرسون بيقظة، فالنملة قامت بإنذار قومها من سليمان وجنوده؛ لأنهم لن يروا النمل الصغير.

إذن: الذَّرُّ إما أن يكون النمل الصغير، وإما أن يكون الذرَّات الهبائية. وأراد الله سبحانه أن يضرب لنا مثلاً بإحاطة علمه في أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة. ونسمِّي الرجل الذي يبعد عن أهله «عَزَب». وقول الحق سبحانه: ﴿**وَمَا يَعْزُبُ**﴾. أي: لا يبعد ولا يغيب عنه أصغر شيء ولا أكبر شيء.

يقول سبحانه ذلك؛ ليطمئننا أن كل خاطرة من خواطر الإنسان إنما يشهدها الله، ويَعْلَمُها، وهو المُجَازِي عليها. وإن استطاع إنسان أن يُعمِّي على قضاء الأرض، فلن يستطيع أن يُعمِّي على قضاء السماء.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ**﴾، وقال في الأنعام: ﴿**قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي**﴾، والشك لا يجوز عليه. أن المراد غيره ممن يجوز عليه الشك وكذلك كل موضع يشبه ذلك في القرآن تقديره فإن كنت أيها الإنسان، ولذلك قال: (إليك) ولم يقل عليك، وقد تقدم في البقرة معناهما.

والحاصل أن آية: ﴿**فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ**﴾ [يونس:٩٤]، لا ينقص بها الضابط الذي ذكرنا لأنها كقوله: ﴿**لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ**﴾ [الإسراء:٢٢]، ﴿**لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**﴾[الزمر:٦٥]، ﴿**فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾ [البقرة:١٤٧]، ﴿**وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ**﴾[الأحزاب:١]، ﴿**وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً**﴾ [الإنسان:٢٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

ومعلوم أنه هو ﷺ، لا يفعل شيئا من ذلك البتة، ولكنه يؤمر وينهي ليشرع لأمته على لسانه. وبذلك تعلم اطراد الضابط الذي ذكرنا في لفظة ﴿**لَوْ**﴾، ولفظة ﴿**إِنْ**﴾، وأنه لا ينتقض بهذه الآية. هذا ما ظهر لنا في هذه الآية الكريمة، ولا شك أنه لا محذور فيه ولا غرر ولا إيهام، والعلم عند الله تعالى.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** (١٠٤)﴾، وفى النمل: ﴿**أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** (٩١)﴾. لما تقدم قبله: ﴿**كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ** (١٠٣)﴾، ناسب قوله: ﴿**أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** (١٠٤)﴾. ولما تقدم في النمل: ﴿**إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ** (٨١)﴾ ناسب بعده: ﴿**أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** (١٠٤)﴾. والله أعلم.

﴿**وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾، أي: المصدقين بآيات ربهم.

*****

*** ****

سورة هود عليه السلام

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ**﴾، ما معناهما: وهل التفصيل غير الإحكام. معناه: أحكمت آياته في اللوح المحفوظ، ثم فصلت في إنزالها على النبي ﷺ بحسب الحاجة والمصلحة ذلك الوقت.

قوله تعالى: ﴿**الر**﴾ تقدم القول فيه. ﴿**كِتَابٌ**﴾ بمعنى هذا كتاب. ﴿**أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ**﴾ في موضع رفع نعت لكتاب. وأحسن ما قيل في معنى: ﴿**أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ**﴾ قول قتادة؛ أي جعلت محكمة كلها لا خلل فيها ولا باطل. والإحكام منع القول من الفساد، أي نظمت نظما محكما لا يلحقها تناقض ولا خلل. وقال ابن عباس: أي لم ينسخها كتاب، بخلاف التوراة والإنجيل. وعلى هذا فالمعنى؛ أحكم بعض آياته بأن جعل ناسخا غير منسوخ.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ**﴾ هنا، وفى الأحزاب والبقرة وحم السجدة قدم البشارة؟ لما قال هنا ﴿**أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ**﴾ ناسب تقديم النذارة على عبادة غير الله تعالى، وفى الأحزاب والبقرة كان الخطاب له، فناسب كرامته تقديم البشارة، وكذلك في (حم) ناسب ذكر "الرحمة ووصف الكتاب" تقديم البشارة والله أعلم. قوله: ﴿**أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ الله إِنَّنِي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ**﴾[هود:٢].

والنذير: هو من يُخبر بشرٍّ زمنه لم يجيء، لتكون هناك فرصة لتلافي العمل الذي يُوقع في الشر، والبشير هو من يبشِّر بخير سيأتي إن سلك الإنسان الطريق إلى ذلك الخير. إذن: الإنذار والبشارة هي أخبار تتعلق بأمر لم يجيء. وفي الإنذار تخويف ونوع من التعليم، وأنت حين تريد أن تجعل ابنك مُجِداً في دراسته؛ تقول له: إن لم تذاكر فسوف تكون كابن فلان الذي أصبح صعلوكاً تافهاً في الحياة. إذن: فأنت تنذر ابنك؛ ليتلافى من الآن العمل الذي يؤدي به إلى الفشل الدراسي. وكذلك يبشر الإنسان ابنه أو أي إنسان آخر بالخير الذي ينتظره حين يسلك الطريق القويم.

إذن: فالعبادة هي كل حركة من حركات الحياة ما دام الإنسان مُتَّبعاً ما جاء

بالمنهج الحق في ضوء «افعل»، و«لا تفعل»، وما لم يرد فيه «افعل» و «لا تفعل» فهو مباح. وعلى الإنسان المسلم أن يُبصِّر نفسه، ومن حوله بأن تنفيذ أي فعل في ضوء «افعل» هو العمل المباح، وأن يمتنع عن أي فعل في ضوء «لا تفعل» ما دام الحق سبحانه وتعالى قد نهى عن مثل هذا الفعل، وعلى المسلم تحرِّي الدقة في مدلول كل سلوك.

ونحن نعلم أن التكليفات الإيمانية قد تكون شاقة على النفس، ومن اللازم أن نبيِّن للإنسان أن المشقة على النفس ستأتي له بخير كبير. ومثال ذلك: حين نجد الفلاح وهو يحمل السماد العضوي من حظيرة البهائم؛ ليضعه على ظهر الحمار ويذهب به إلى الحقل؛ ليخلطه بالتربة، وهو يعمل هذا العمل بما فيه من مشقة انتظاراً ليوم الحصاد. ويبيِّن الحق سبحانه وتعالى هنا على لسان رسوله أن الأمر بعدم عبادة أي كائن غير الله، هو أمر من الله سبحانه، وأن الرسول ﷺ هو نذير وبشير من الله.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**﴾، وقال: ﴿**فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ**﴾. ما فائدة السعي وهو مضمون؟ جوابه: أنه تكفل برزقها على الوجه المعتاد والمشروع لمصالح العالم، وعمارة الدنيا وكما يخلق الولد على الوجه المعتاد من الوطء وغيره، وإن كان قادرا على إيجاده اختراعا أوليا. قوله تعالى: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**﴾ "ما" نفي و"من" زائدة و"دابة" في موضع رفع؛ التقدير: وما دابة. ﴿**إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**﴾ "على" بمعنى "من"، أي من الله رزقها؛ يدل عليه قول، قال مجاهد: كل ما جاءها من رزق فمن الله.

وقيل: "على الله" أي فضلا لا وجوبا. وقيل: وعدا منه حقا. وقد تقدم بيان هذا المعنى في "النساء" وأنه سبحانه لا يجب عليه شيء. "رزقها" رفع بالابتداء، وعند الكوفيين بالصفة؛ وظاهر الآية العموم ومعناها الخصوصي؛ لأن كثيرا من الدواب هلك قبل أن يرزق. وقيل: هي عامة في كل دابة: وكل دابة لم ترزق رزقا تعيش به فقد رزقت روحها؛ ووجه النظم به قبل: أنه سبحانه أخبر برزق الجميع، وأنه لا يغفل عن تربيته، فكيف تخفى عليه أحوالكم يا معشر الكفار وهو يرزقكم؟! والدابة كل حيوان يدب.

والرزق حقيقته ما يتغذى به الحي، ويكون فيه بقاء روحه ونماء جسده. ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى الملك؛ لأن البهائم ترزق وليس يصح وصفها بأنها مالكة لعلفها؛ وهكذا الأطفال ترزق اللبن ولا يقال: إن اللبن الذي في الثدي ملك للطفل. وقال تعالى: ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ**﴾[الذاريات:٢٢] وليس لنا في السماء ملك؛ ولأن الرزق لو كان ملكا لكان إذا أكل الإنسان من ملك غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره، وذلك محال؛ لأن العبد لا يأكل إلا رزق نفسه.

وقيل لبعضهم: من أين تأكل؟ وقال: الذي خلق الرحى يأتيها بالطحين، والذي شدق الأشداق هو خالق الأرزاق.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ**﴾، وفي حم السجدة: ﴿**وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ**﴾. أن آية هود تقدمها: ﴿**وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ**﴾ فأغنى عن إعادتها ثانيا، ولم يتقدم ذلك في حم السجدة فذكرها. وقيل لأبي أسيد: من أين تأكل؟ فقال: سبحانه الله والله أكبر! إن الله يرزق الكلب أفلا يرزق أبا أسيد!.

وقيل لحاتم الأصم: من أين تأكل؟ فقال: من عند الله؛ فقيل له: الله ينزل لك دنانير ودراهم من السماء؟ فقال: كأن ماله إلا السماء! يا هذا الأرض له والسماء له؛ فإن لم يؤتني رزقي من السماء ساقه لي من الأرض.

وهنا نجد الضراء هي الموجودة، والنعماء هي التي تطرأ، عكس الحالة الأولى، حيث كانت الرحمة، من خير ويسر هي الموجودة. فالنزع في الأولى طرأ على رحمة موجودة، والنعماء طرأت على ضرَّاء موجودة. وهناك فرق بين نعماء ونعمة، وضراء وضر؛ فالضر هو الشيء الذي يؤلم النفس، والنعمة هي الشيء الذي تتنعم به النفس. لكن التنعُّم والألم قد يكونان في النفس، ولا ينضح أي منهما على الإنسان، فإن نضح على الإنسان أثر النعمة يقال فيها «نعماء»، وإن نضح عليه أثر من الضر، يقال: «ضراء».

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿**وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السيئات عني**﴾[هود:١٠]، ولا يفطن من يقول ذلك إلى المُذْهِب الذي أذهبَ السيئات؛ لأن السيئة لا تذهب وحدها. ولو كان القائل مؤمناً لقال: رفع الله عني

السيئات. لكنه غير مؤمن؛ ولذلك يغرق في فرح كاذب وفخر لا أساس له. ويصفه الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ**﴾[هود:١٠]. وكأن الفرح بالنعمة أذهله عن المنعم، وعمن نزع منه السيئة. وأما الفخر، فنحن نعلم أن الفخر هو الاعتداد بالمناقب، وقد تجد إنساناً يتفاخر على إنسان آخر بأن يذكر له مناقب وأمجاداً لا يملكها الآخر. ونحن نعلم أن التميز لفرد ما يوجد في المجتمع، ولكن أدب الإيمان يفرض ألا يفخر الإنسان بالتميز.

ولذلك نجد النبي ﷺ، يقول: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر». وفي أحدى المعارك نجده ﷺ، يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب». وقد اضطر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك؛ لأن الكافرين في تلك المعركة ظنوا أنهم حاصروه هو ومن معه وأنه سوف يهرب، لكنه ﷺ بشجاعته أعلن: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»، وكان أقرب المسلمين إلى مكان الأعداء الكافرين وفي مواجهتهم.

ونحن نجد المتصارعين أو المتنافسين، واحدهم يدخل على الآخر بصوت ضخم ليهز ثقة الطرف الآخر بنفسه. والفخور إنسان غائب بحجاب الغفلة عن واهب المناقب التي يتفاخر بها، ولو كان مستحضراً لجلال الواهب لتضاءل أمامه، ولو اتجهت بصيرة المتكبر والفخور إلى الحق سبحانه وتعالى لتضاءل أمامه، ولردَّ كل شيء إلى الواهب.

ومثال ذلك في القرآن الكريم هو قول الحق سبحانه على لسان صاحب موسى عليهما السلام: ﴿**وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي**﴾ [الكهف:٨٢]. وهذا سلوك العابد المتواضع.

أما حال الفخورين اللاهين عن الحق سبحانه وتعالى، فقد صوره القرآن في قول قارون: ﴿**إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي**﴾ [القصص:٧٨].

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ**﴾. أن ذلك الخطاب يجوز من النبى ﷺ للكفار أي فإن لم يستجيبوا لكم من دعوتموهم فاعلموا، فيكون من تمام خطاب النبي ﷺ لهم. ويجوز أن يكون الشرط خطابا من الله تعالى للمؤمنين، ويكون قوله تعالى (**فَاعْلَمُوا**) أي فدوموا على علمكم، ويعنى بعلم

الله: بإذنه، أو بعلمه بالغيوب وبمعلوماته. اعلم أن الآية المتقدمة اشتملت على خطابين أحدهما خطاب الرسول وهو قوله: **﴿قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ والثاني خطاب الكفار وهو قوله وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ﴾**(يونس:٣٨).

فلما أتبعه بقوله: **﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾**، احتمل أن يكون المراد أن الكفار لم يستجيبوا في المعارضة لتعذرها عليهم، واحتمل أن من يدعونه من دون الله لم يستجيبوا، فلهذا السبب اختلف المفسرون على قولين فبعضهم قال هذا خطاب للرسول ﷺ وللمؤمنين.

والمراد أن الكفار إن لم يستجيبوا لكم في الإتيان بالمعارضة فاعلموا أنما أنزل بعلم الله، والمعنى فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه وازدادوا يقيناً وثبات قدم على أنه منزل من عند الله.

ومعنى قوله: **﴿فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ﴾**، أي فهل أنتم مخلصون، ومنهم من قال: فيه إضمار، والتقدير: فقولوا أيها المسلمون للكفار اعلموا أنما أنزل بعلم الله.

والقول الثاني: أن هذا خطاب مع الكفار، والمعنى: أن الذين تدعونهم من دون الله إذا لم يستجيبوا لكم في الإعانة على المعارضة فاعلموا أيها الكفار أن هذا القرآن إنما أنزل بعلم الله، فهل أنتم مسلمون بعد لزوم الحجة عليكم، والقائلون بهذا القول، قالوا: هذا أولى من القول الأول؛ لأنكم في القول الأول احتجتم إلى أن حملتم قوله: **﴿فَاعْلَمُواْ﴾**، على الأمر بالثبات أو على إضمار القول، وعلى هذا الاحتمال لا حاجة فيه إلى إضمار فكان هذا أولى.

وأيضاً فعود الضمير إلى أقرب المذكورين واجب، وأقرب المذكورين في هذه الآية هو هذا الاحتمال الثاني.

وأيضاً أن الخطاب الأول كان مع الرسول عليه الصلاة والسلام وحده بقوله: **﴿قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾**(هود: ١٣)، والخطاب الثاني كان مع جماعة الكفار بقوله: **﴿وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ﴾**(يونس:٣٨)، وقوله: **﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾**، خطاب مع الجماعة فكان حمله على هذا الذي قلناه أولى.

مسألة:

قوله تعالى: **﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾** الآية. وقال في آل

عمران في يوم أحد: (مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا) الآية وهم أصحاب النبي ﷺ. من وجوه: قيل: هو عام ومعناه خاص في الكفار من أهل الكتاب والربانيين وغيرهم. وقيل: هو في العصاة من المؤمنين، ويكون قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ**﴾، إن جازاهم على ذلك، لكنه يعفو عنهم إذا شاء. وقيل: المراد من كان يريد الدنيا فقط خاصة دون الآخرة لعدم إيمانه بها أو إهماله لشأنها.

قوله تعالى: ﴿**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ* أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[هود:١٥-١٦].

وهذا الذي دلت عليه هذه الآيات من انتفاع الكافر بعمله الصالح في الدنيا، دون الآخرة ثبت في صحيح مسلم وغيره من حديث أنس رضي الله عنه؛ كما أوضحناه في الكلام على آية "النحل" المذكورة، وهو أحد التفسيرين في قوله تعالى: ﴿**وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ**﴾[النور:٣٩]، أي: وفاه حسابه في الدنيا على هذا القول، وقد بين الله جل وعلا في سورة "بني إسرائيل" أن ما دلت عليه الآيات من انتفاع الكافر بعمله الصالح في الدنيا، أنه مقيد بمشيئة الله تعالى، وذلك في قوله تعالى: ﴿**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً**﴾ [الإسراء:١٨].

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ**﴾ أين خبره. هو محذوف لدلالة الكلام عليه، وهو كثير في القرآن جريا على عادة كلام العرب لفهم المعنى منه تقديره: كمن هو ضال كفور. قوله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ**﴾ ابتداء والخبر محذوف؛ أي أفمن كان على بينة من ربه في اتباع النبي ﷺ ومعه من الفضل ما يتبين به كغيره ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها؟! عن علي بن الحسين والحسن بن أبي الحسن. وكذلك قال ابن زيد إن الذي على بينة هو من اتبع النبي ﷺ. ﴿**وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ**﴾ من الله، وهو النبي ﷺ. وقيل المراد بقوله ﴿**أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ**﴾ النبي ﷺ والكلام راجع إلى قوله: ﴿**وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ**﴾ [هود:١٢]؛ أي أفمن كان معه بيان من الله، ومعجزة كالقرآن، ومعه شاهد، وقد بشرت به الكتب السالفة يضيق صدره بالإبلاغ، وهو يعلم أن الله لا يسلمه. والهاء

في "ربه" تعود عليه، وقوله: ﴿**وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ**﴾ وروى عكرمة عن ابن عباس "أنه جبريل"؛ وهو قول مجاهد والنخعي. والهاء في "منه" لله عز وجل؛ أي ويتلو البيان والبرهان شاهد من الله عز وجل.

وقال مجاهد: الشاهد ملك من الله عز وجل يحفظه ويسدده. وقال الحسن البصري وقتادة: الشاهد لسان رسول الله ﷺ. قال محمد بن علي بن الحنفية: قلت لأبي أنت الشاهد؟ فقال: وددت أن أكون أنا هو، ولكنه لسان رسول الله ﷺ.

وقيل: هو علي بن أبي طالب؛ روي عن ابن عباس أنه قال: "هو علي بن أبي طالب"؛ وروي عن علي أنه قال: "ما من رجل من قريش إلا وقد أنزلت فيه الآية والآيتان؛ فقال له رجل: أي شيء نزل فيك؟ فقال علي: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾". وقيل: الشاهد صورة رسول الله ﷺ ووجهه ومخائله؛ لأن من كان له فضل وعقل فنظر إلى النبي ﷺ علم أنه رسول الله صلى الله عليه؛ فالهاء على هذا ترجع إلى النبي ﷺ، على قول ابن زيد وغيره.

وقيل: الشاهد القرآن في نظمه وبلاغته، والمعاني الكثيرة منه في اللفظ الواحد؛ قال الحسين بن الفضل، فالهاء في "منه" للقرآن. وقال الفراء: قال بعضهم: ﴿**وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ**﴾ الإنجيل، وإن كان قبله فهو يتلو القرآن في التصديق؛ والهاء في "منه" لله عز وجل. وقيل: البينة معرفة الله التي أشرقت لها القلوب، والشاهد الذي يتلوه العقل الذي ركب في دماغه وأشرق صدره بنوره. ﴿**وَمِنْ قَبْلِهِ**﴾، أي: من قبل الإنجيل. ﴿**كِتَابُ مُوسَى**﴾ رفع بالابتداء، قال أبو إسحاق الزجاج: والمعنى ويتلوه من قبله كتاب موسى؛ لأن النبي ﷺ موصوف في كتاب موسى: ﴿**يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ**﴾ [الأعراف:١٥٧].

وحكى أبو حاتم عن بعضهم أنه قرأ: ﴿**وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى**﴾ بالنصب؛ وحكاها المهدوي عن الكلبي؛ يكون معطوفا على الهاء في "يتلوه"، والمعنى: ويتلو كتاب موسى جبريل عليه السلام؛ وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما؛ المعنى من قبله "تلا جبريل كتاب موسى على موسى".

ويجوز على ما ذكره ابن عباس أيضا من هذا القول أن يرفع "كتاب" على أن يكون المعنى: ومن قبله كتاب موسى كذلك؛ أي تلاه جبريل على موسى كما تلا القرآن على محمد. ﴿**أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾ إشارة إلى بني إسرائيل، أي يؤمنون

بما في التوراة من البشارة بك؛ وإنما كفر بك هؤلاء المتأخرون فهم الذين موعدهم النار؛ حكاه القشيري. والهاء في "به" يجوز أن تكون للقرآن، ويجوز أن تكون للنبي ﷺ. ﴿**وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ**﴾ أي بالقرآن أو بالنبي عليه السلام. ﴿**مِنَ الأَحْزَابِ**﴾، يعني من الملل كلها؛ عن قتادة؛ وكذا قال سعيد بن جبير: "الأحزاب" أهل الأديان كلها؛ لأنهم يتحاربون. وقيل: قريش وحلفاؤهم. ﴿**فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ**﴾ أي هو من أهل النار.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي**﴾ والشرط لا يكون إلا مستقبلا. أن تقديره إن بنت، أو بان أو صح أنى افتريته فعلى إجرامى، صحيح أن المؤمنين معذورون في حماسهم حين يدخلون في مناقشة مع المشركين ولكن ليتذكر المؤمن القيمة النهائية وهي الخير للدعوة. وليسأل الله أن يرزقه الصبر على المشركين، ويعلمنا الحق كيف نسير في منهج الدعوة، وعلى سبيل المثال نجد سيدنا نوحاً عليه السلام الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما. وظل يدعو ويتحنن في الدعوة، إلى أن قالوا له في آخر المطاف: أنت تفتري هذا الكلام من عندك، فعلمه الله سبحانه وتعالى أن يقول: ﴿**قُلْ إِنِ افتريته فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ برياء مِّمَّا تُجْرِمُونَ**﴾ [هود:٣٥].

ويقول الحق سبحانه معلماً رسول الله ﷺ: ﴿**قُلْ مَن يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السماوات والأرض**﴾[سبأ:٢٤]. أي من الذي يعطيكم قوام الحياة؟ وأنت حين تسألهم سؤالاً يناقض ما هم عليه. فيتلجلجون، فيسعف الله رسوله فيوضح سبحانه ويأمره أن يقول لهم: ﴿**قُلِ الله وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾[سبأ:٢٤].

و«إنا» أي رسول الله ومن معه.

«أو إياكم» المقصود بها الكافرون بالله، ولم يقل لهم أنا وحدي على هدى وأنتم على ضلال، بل قال: منهجنا ومنهجكم لا يتفقان، ولا بد أن يكون هناك منهج على هدى ومنهج على ضلال، ولن أقول مَن هو الذي على هدى، ومَنْ هو الذي على ضلال؛ لأن محمداً ﷺ واثق من أنهم لو أداروا المسألة على عقولهم وعلى بصائرهم: فلن يجدوا جواباً إلا أن رسول الله على الهدى وأنهم على الضلال. فتركهم هم ليقولوها.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ**﴾. وفى الحجر: ﴿**وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥)**﴾ استثنى امرأته فى هود ولم يستثنها في الحجر، وفى الحجر خاصة ﴿**وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ**﴾. أنه تقدم في الحجر: ﴿**إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ**﴾، فأغنى عن إعادة استثنائيا، ولم يتقدم ذلك في هود، فذكرها فيها. وأما قوله تعالى: ﴿**وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ**﴾ فليكون وراء أهله في السير فيتحقق نجاتهم مما أصاب قومه فيتحقق ما وعده به الملائكة الرسل إليه.

قوله تعالى: ﴿**فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ**﴾، ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أمر نبيه لوطاً أن يسري بأهله بقطع من الليل، ولم يبين هنا هل هو من آخر الليل، أو وسطه أو أوله، ولكنه بين في "القمر" أن ذلك من آخر الليل وقت السحر، وذلك في قوله: ﴿**إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ**﴾، ولم يبين هنا أنه أمره أن يكون من ورائهم وهم أمامه، ولكنه بين ذلك في "الحجر" بقوله: ﴿**فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ**﴾.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ**﴾، وفى الحجر: ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣)**﴾.

جوابه: أن ابتداء عذابهم الصبح، وآخره لشروق الشمس، فعبر هنا عن ابتداء العذاب، وفى الحجر عن انتهائه بالشروق والإشراق، والله أعلم. قوله تعالى: ﴿**إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ**﴾[هود: ٨١].

فالمعنى: اجعل لنا يوما معلوما، أو مكانا معروفا. قال القشيري: والأظهر أنه مصدر، ولهذا قال: ﴿**لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ**﴾ أي لا نخلف ذلك الوعد، والإخلاف أن يعد شيئا ولا ينجزه. وقال الجوهري: والميعاد المواعدة والوقت والموضع. وفي الحديث عن النبي ﷺ: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً**﴾[البقرة:١٤٣]، أي: عدلا.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ**﴾، وفى العنكبوت: ﴿**فَقَالَ يَا قَوْمِ**﴾.

جوابه: أن سياق ما تقدم من قصص الأنبياء خال عن "الفاء"، في مثل ذلك، وآية العنكبوت تقدمها القصص بالفاء في مثله.

قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ**﴾ ﴿**فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ**﴾ ﴿**فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ**﴾، فناسب سياق ذلك فقال بالفاء هنا. ﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ**﴾ الآية، ونحوها من الآيات. وبين نصحه لهم في آيات كثيرة، كقوله: ﴿**وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ**﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿**فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ**﴾، أنكر نبي الله شعيب عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام الأسى، أي: الحزن على الكفار إذا أهلكهم الله بعد إبلاغهم، وإقامة الحجة عليهم مع تماديهم في الكفر والطغيان لجاجاً وعناداً، وإنكاره لذلك يدل على أنه لا ينبغي، وقد صرح تعالى بذلك فنهى نبينا ﷺ عنه في قوله: ﴿**وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾، ومعنى ﴿**لا تَأْسَ**﴾: لا تحزن، وقوله: ﴿**وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ**﴾ الآية.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا**﴾ وفى قصة صالح ولوط: ﴿**فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا**﴾ بالفاء. أن شعيبا لم يوقت لهم العذاب، ولا توعدهم بسرعته، فجاء بالواو لأنه غير منتظر. وفى قصة صالح ولوط وقت لهما العذاب، فصالح، قال: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام.

وفى لوط: إن موعدهم الصبح، فجاءت بالفاء المؤذنة بالسبب. والحق سبحانه يقول هنا: ﴿**وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا**﴾ [هود:٥٨]. فلا تقل كيف نجوا من العذاب الجامع والعذاب العام؛ لأن هذه هي الرحمة، والرحمة كما نعلم هي ألا يمس الداء الإنسان من أول الأمر؛ أما الشفاء فهو يعالج الداء. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ**

شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[الإسراء:٨٢].

ونحن نلحظ هنا أن الحق سبحانه يذكر في نفس الآية الكريمة نجاتين: النجاة الأولى: من العذاب الجامع؛ الريح الصرصر؛ من الصيحة؛ من الطاغية، يقول سبحانه: ﴿**نَجَّيْنَا هُوداً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ**﴾[هود:٥٨]. والنجاة الثانية: هي نجاة من عذاب الآخرة الغليظ، فعذاب الدنيا رغم قسوته، إلا أنه موقوت بعمر الدنيا. أما عذاب الآخرة فهو عذاب بلا نهاية، ووصفه الحق سبحانه بالغلظة.

وغلظ الشيء يعطي له القوة والمتانة، وهو عذاب غليظ على قدر ما يستوعب الحكم. ولذلك حينما يُملِّك الحقُّ سبحانه رجلاً بُضْع امرأة بعقد الزواج، ويصف ذلك بالميثاق الغليظ، والنفعية هنا متصلة بالعفة والعِرْض، ولم يُملِّك الرجل النفعية المطلقة من المرأة التي يتزوجها؛ فالزوج يُمكَّن من عورة زوجته بعقد الزواج. يقول الحق سبحانه: ﴿**وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً**﴾[النساء:٢١]. وكانت نجاة هود عليه السلام والمؤمنين معه من العذاب الأول مقدمة للنجاة من العذاب الغليظ.

*****

سورة يوسف عليه السلام

مسألة:

قوله تعالى في يوسف عليه السلام: ﴿**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾، وفي القصص في موسى عليه السلام: ﴿**بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى**﴾. أن يوسف عليه السلام: نبه على ما يراد منه قبل بلوغ الأربعين برؤياه الكواكب والوحي حين ألقى في الجب، وإلهامه علم التعبير، وغير ذلك مما كان في زمان حداثته، وهو تعريضه بما يراد منه.

وموسى عليه السلام: لم يعلم المراد منه ولا نبه عليه قبل بلوغ الأربعين وقبل مفارقة شعيب، فناسب قوله فيه: ﴿**وَاسْتَوَى**﴾ لاسيما على قول الأكثر أن الاستواء: بلوغ الأربعين، لأنها كمال العقل والنظر.

والخلاف في الأشد، والاستواء مشهور ولم يقل أحد أنه دون البلوغ. قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً**﴾[يوسف:٢٢] على ما تقدم بيانه؛ وخبر الله تعالى صدق، ووصفه صحيح، وكلامه حق؛ فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزنا ومقدماته؛ وخيانة السيد والجار والأجنبي في أهله؛ فما تعرض لامرأة العزيز، ولا أجاب إلى المراودة، بل أدبر عنها وفر منها؛ حكمة خص بها، وعملا بمقتضى ما علمه الله. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: "قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جراي". وقال عليه السلام مخبرا عن ربه: "إذا هم عبدي بسيئة فلم يعملها كتبت حسنة". فإن كان ما يهم به العبد من السيئة يكتب له بتركها حسنة فلا ذنب؛ وفي الصحيح: "إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلم به" وقد تقدم.

قال ابن العربي: كان بمدينة السلام إمام من أئمة الصوفية، – وأي إمام – يعرف بابن عطاء! تكلم يوما على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته مما نسب إليه من مكروه؛ فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليقة من كل طائفة فقال: يا شيخ! يا سيدنا! فإذا يوسف هم وما تم؟ قال: نعم! لأن العناية من ثم. فانظر إلى حلاوة العالم والمتعلم، وانظر إلى فطنة العامي في سؤاله، جواب العالم في

اختصاره واستيفائه؛ ولذلك قال علماء الصوفية: إن فائدة قوله: ﴿**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً**﴾[يوسف:٢٢] إنما أعطاه ذلك إبان غلبة الشهوة لتكون له سببا للعصمة.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ**﴾ هنا، وفى الحج، وفى مواضع أخر: ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ**﴾ بالواو.

جوابه: أن كل موضع يكون ما قبله سببا لما بعده كان بالفاء للسببية، وإن لم يكن سببا لما بعده كان بالواو العاطفة، لأنها تعطف جملة على جملة، بيان ذلك:

لما تقدم في يوسف عليه السلام: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ**﴾ قال: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ**﴾، فينظروا ويسمعوا أخبار الرسل وما جرى على من كذبهم. ولذلك في الحج لما تقدم: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ**﴾، قال: ﴿**فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ**﴾، فيتدبروا أحوال الماضين منهم.

قوله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ**﴾ يعني كفار مكة فيشاهدوا هذه القرى فيتعظوا، ويحذروا عقاب الله أن ينزل بهم كما نزل بمن قبلهم. ﴿**فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا**﴾ أضاف العقل إلى القلب لأنه محله كما أن السمع محله الأذن. وقد قيل: إن العقل محله الدماغ؛ وروي عن أبي حنيفة؛ وما أراها عنه صحيحة. ﴿**فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ**﴾.

قال الفراء: الهاء عماد، ويجوز أن يقال فإنه، وهي قراءة عبد الله بن مسعود، والمعنى واحد، التذكير على الخبر، والتأنيث على الأبصار أو القصة؛ أي فإن الأبصار لا تعمى، أو فإن القصة. ﴿**لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ**﴾، أي: أبصار العيون ثابتة لهم. ﴿**وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ أي عن درك الحق والاعتبار. وقال قتادة: البصر الناظر جعل بلغة ومنفعة، والبصر النافع في القلب.

وقال مجاهد: لكل عين أربع أعين؛ يعني لكل إنسان أربع أعين: عينان في رأسه لدنياه، وعينان في قلبه لآخرته؛ فإن عميت عينا رأسه وأبصرت. عينا قلبه فلم يضره عماه شيئا، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه فلم ينفعه نظره شيئا.

وقال قتادة وابن جبير: نزلت هذه الآية في ابن أم مكتوم الأعمى. قال ابن عباس ومقاتل: لما نزل: ﴿**وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى**﴾ [الإسراء:٧٢]، قال ابن أم: يا رسول الله، فأنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى؟ فنزلت: ﴿**فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾. أي من كان في هذه أعمى بقلبه عن الإسلام فهو في الآخرة في النار.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَلَدَارُ الْآخِرَةِ**﴾، وفى الأعراف: ﴿**وَالدَّارُ الْآخِرَةُ**﴾. أن هنا تقدم ذكر الساعة، فكأنه قال تعالى: ولدار الساعة الآخرة وفى الأعراف: تقدم قوله: ﴿**يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى**﴾ فناسب: ﴿**وَالدَّارُ الْآخِرَةُ**﴾. حديث الحق سبحانه عن مصير الذين كَذَّبوا؛ يَظهر لنا كمقابل لما ينتظر المؤمنين، ولم تذكر الآية مصير هؤلاء المُكذِّبين بالتعبير المباشر، ويُسمُّون ذلك في اللغة بالاحتباك. مثل ذلك قوله الحق: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا**﴾[الرعد:٤١]، وكل يوم تنقص أرض الكفر، وتزيد رقعة الإيمان.

وهكذا يأتي العقاب من جانب الله، ونأخذ المقابل له في الدنيا؛ ومرة يأتي بالثواب المقيم للمؤمنين، ونأخذ المقابل في الآخرة. ولقائل أن: ولماذا لم يَقُلِ الحق سبحانه أنه سوف يأتي لهم بما هو أشد شراً من عذاب الدنيا في اليوم الآخر؟ وأقول: إن السياق العقلي السطحي الذي ليس من الله؛ هو الذي يمكن أن يُذكِّرهم بأن عذاب الآخرة هو أشدُّ شراً من عذاب الدنيا.

ولكن الحق سبحانه لا يقول ذلك؛ بل عَدل عن هذا إلى المقابل في المؤمنين؛ فقال: ﴿**وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتقوا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾[يوسف:١٠٩]، فإذا جاء في الدنيا بالعذاب للكافرين؛ ثم جاء في الآخرة بالثواب لِلمُتقين؛ أخذ من هذا المقابل أن غير المؤمنين سيكون لهم حسابٌ عسير، وقد حذف من هنا ما يدل عليه هناك؛ كي نعرف كيف يُحْبَك النظم القرآني.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا**﴾، قدم النفع لأن النفس ترتاح إليه ولا تسأمه، فقدمه لقوله: ﴿**لِأَنْفُسِهِمْ**﴾.

لما قال: ﴿**قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ**﴾ والولي دأبه نفع وليه مطلقا أصابه ضراء أو لم يصبه، وسواء قدر على دفع الضر أو لا، فناسب تقديم النفع على الضر بخلاف آية الفرقان.

يقول له الحق سبحانه: ﴿**قُلْ أفاتخذتم مِّن دُونِـهِ أَوْلِيَآءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِـهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَـرّاً**﴾[الرعد:١٦]، وهكذا يكشف لهم الرسول ببلاغ الحق سبحانه مدى جهلهم؛ وهم مَنْ سبق لهم الاعتراف بأن الله هو خالق السماوات والأرض؛ ولم يجرؤ واحد منهم على أن ينسب خَلْق السماوات والأرض للأصنام.

وهنا يوضح لهم الرسول ﷺ ما أمر الحقُّ سبحانه بإيضاحه: لقد خلق الله السماوات والأرض أفبعد ذلك تتخذون من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً؛ ولا ضراً؟ بدليل أن الصنم من هؤلاء لا يقدر لهم على شيء.

*****

سورة إبراهيم عليه السلام

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ**﴾، وقال بعده: ﴿**أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ ولم يقل: ﴿**بِإِذْنِ رَبِّهِمْ**﴾؟. أن قصة موسى عليه السلام مضت وعرفت نبوته فلا حاجة إلى توكيدها بذلك. ونبوة النبى – ﷺ – باقية، وكذلك دعاؤه إلى الله تعالى فناسب التوكيد لرسالته ونبوته بقوله تعالى: ﴿**بِإِذْنِ رَبِّهِمْ**﴾.

أي أن مهمة هذا الكتاب هي أن يخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والشرك إلي نور الإيمان، لأن كل كافر مشرك تحيط به ظلمات، يرى الآيات فلا يبصرها، ويعرف أن هناك حسابا وآخرة ولكنه ينكرهما، ولا يرى إلا الحياة الدنيا القصيرة غير المأمونة في كل شيء، في العمر والرزق والمتعة.

ولو تطلع إلى نور الإيمان، لرأى الآخرة وما فيها من نعيم أبدي ولَعَمِلَ من أجلها، ولكن لأنه تحيط به الظلمات لا يرى..والطريقُ لأن يرى هو هذا الكتاب، القرآن الكريم لأنه يخرج الناس إذا قرأوه من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الحقيقة واليقين.

وبين الحق سبحانه وتعالى أن الذين يلتفتون إلى الدنيا وحدها، هم كالأنعام التي تأكل وتشرب، بل أن الأنعام أفضل منهم؛ لأن الأنعام تقوم بمهمتها في الحياة، بينما هم لا يقومون بمهمة العبادة، فيقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**الر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ * رُّبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ * ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأمل فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**﴾[الحجر:١ – ٣].

هكذا يخبرنا الحق أن آيات كتابه الكريم ومنهجه لا تؤخذ بالتمني، ولكن لابد أن يعمل بها، وأن الذين كفروا في تمتعهم بالحياة الدنيا لا يرتفعون فوق مرتبة الأنعام، وأنهم يتعلقون بأمل كاذب في أن النعيم في الدنيا فقط، ولكن الحقيقة غير ذلك وسوف يعلمون.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾، لم يقل "صبور ولا شكار فما فائدة ذلك

التغاير وكلاهما للمبالغة. أن نعم الله تعالى مستمرة متجددة في كل حين وأوان فناسب ﴿شَكُورٍ﴾، لأن صيغة "فعول" تدل على الدوام كصدوق ورحوم وشبهه. وأما المؤلمات المحتاجة إلى الصبر عليها فليست عامة بل تقع في بعض الأحوال فناسب صبار، لأن: "فعالا" لا يشعر بالدوام كنوام وركاب وأكال، ولمراعاة رؤوس الآي.

﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ لكل مَن حبس نفسه عن الهوى، وصرف همته إلى النظر في آلائه، أو: لكل صبّار على بلائه، شكور لنعمائه، أي: لكل مؤمن كامل؛ فإن الإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر؛ لأن الإنسان لا يخلو من ضر يمسه، أو نفع يناله، فآداب الضر: الصبر، وآداب النفع: الشكر، وأيضاً: راكب السفن ملزوم، إما للمشقة أو السلامة، فالصبر والشكر لا زمان له. ولم يعطف إحدى الصفتين على الأخرى؛ لأنهما لموصوف واحد.

وخص بالآيات كل صبار شكور؛ لأنه يعتبر بها ولا يغفل عنها؛ كما قال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾[النازعات:٤٥]، وإن كان منذرا للجميع. وقال أهل المعاني: أراد لكل مؤمن بهذه الصفة؛ لأن الصبر والشكر من أفضل خصال الإيمان. والآية: العلامة، والعلامة لا تستبين في صدر كل مؤمن إنما تستبين لمن صبر على البلاء وشكر على الرخاء. قال الشعبّي: الصبر نصف الإيمان، والشكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله؛ ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾، وقال عليه السلام: "الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر".

مسألة:

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾. ولم يقل بعده: "لأعذبنكم أشد عذاب"، كما قال: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾. جوابه: من وجهين: الأول: حسن المخاطبة في التصريح بالزيادة في الخير، ولم يصرح بالعذاب في المخاطبة. الثاني: لو صرح بخطابهم بذلك لم يكن صريحا بدخول غيرهم في ذلك الحكم فعدل عن إضافة ذلك إليهم ليفيد عمومه في كل كافر مطلقا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[لقمان:٣١]، قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾[لقمان:٣١] توحي بأن آيات الله في كونه كثيرة، لكن على الإنسان

أنْ يبذل جهداً في البحث عنها واكتشافها، وعليه أن يكون صبَّاراً على مشقة البحث والغوص تحت الماء، فإذا ما رأينا ما في أعماق البحار من عجائب مخلوقات الله فقد وجب علينا الشكر ﴿**لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾[لقمان:٣١]، والشكر لا يكون إلا عن نعمة جدَّت لم تكُنْ موجودة من قبل.

إذن: الحق – تبارك وتعالى – يريد منا أن نستقبل آياته في الكون استقبالَ بحث وتأمل ونظر، لا استقبال غفلة وإعراض، كما قال سبحانه: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ**﴾[يوسف:١٠٥]، وتقديم صبَّار على شكور دليل على أن الصبر على مشقات العمل والبحث والاستنباط والاكتشاف يُؤتى نعمة كبيرة تدعو الإنسان إلى شكرها.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ**﴾، ولم يقل: قالوا لرسلهم. جوابه: أن التصريح باللام آكد في تبليغ الرسالة لهم فناسب ذكرها في سياق الرسل. يأتي الحق سبحانه بعد ذلك بما قاله الرسل رداً على قَوْل أهل الكفر: ﴿**قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ**﴾، وهكذا أوضح الرسل لأقوامهم: نحن بشر مثلكم، والسلطان الذي نملكه هو المعجزة التي اختص بها الحق سبحانه كُلَّ رسول. والحق سبحانه هو الذي يتفضَّل على عباده؛ فيختار منهم الرسول المناسب لكل قوم؛ ويرسل معه المعجزة الدالة على تلك الرسالة؛ ويقوم الرسول بتبليغ كل ما يأمر به الله. وكل رسول إنما يفعل ذلك ويُقبِل عليه بكل الثقة في أن الحق سبحانه لن يخذله وسينصره؛ فسبحانه هو القائل: ﴿**وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون**﴾[الصافات:١٧٣].

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً**﴾ وفى النمل: ﴿**وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً**﴾.

جوابه: أنه لما قال هنا: ﴿**رِزْقًا لَكُمْ**﴾، وإقرانها بالرزق أبلغ في النعمة والمنة أغنى ذكرها آخرا عن ذكرها أولا. وفى النمل: صدرها مع (**أَنْزَلَ**) للمنة وليس ثَم ما يغنى عنها بالمنة عليهم.

وقد قيل: إن قوله: ﴿**وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً**﴾ إشارة إلى الماء العذب، وأن

أصله من البحر، رفعه الله تعالى بلطفه وحسن تقديره من البحر إلى السماء، حتى طاب بذلك الرفع والتصعيد؛ ثم أنزله إلى الأرض لننتفع به، ولو كان الأمر إلى ماء البحر لما انتفع به من ملوحته. فكأن الحق سبحانه وتعالى وضع في الأرض وسائل استبقاء الحياة. فلم يترك الإنسان على الأرض دون أن يوفر له وسائل استمرار حياته. فالمطر ينزل من السماء، والسماء هي كل ما علاك فأظلك. فينبت به الزرع والثمر، وهذا رزق لنا، والناس تختلف في مسألة الرزق.

والرزق هو ما ينتفع به، وليس هو ما تحصل عليه. فقد تربح مالاً وافراً ولكنك لا تنفقه ولا تستفيد منه فلا يكون هذا رزقك ولكنه رزق غيرك، وأنت تظل حارساً عليه، لا تنفق منه قرشاً واحداً، حتى توصله إلى صاحبه. والرزق في نظر معظم الناس هو المال، قال عليه الصلاة والسلام: «يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، ولبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت».

هذا هو رزق المال، وهو جزء من الرزق. ولكن هناك رزق الصحة، ورزق الولد، ورزق الطعام، ورزق في البركة، وكل نعمة من الله سبحانه وتعالى هي رزق وليس المال وحده. فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا بهذه الآية الكريمة إلى أن نفكر قليلاً، فيمن خلق هذا الكون. لنعرف أنه قبل أن يخلق الإنسان خلق له عناصر بقائه، ولكن هذا الإعداد لم يتوقف عند الحياة المادية. بل إن الله كما أعد لنا مقومات حياتنا المادية أعد لنا مقومات حياتنا الروحية، أو القيم في الوجود.

*****

سورة الحجر

مسألة:

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ وفى الزخرف: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ﴾. أن في الحجر: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠)﴾، فذكر الرسالة فقط فناسب: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾، وفى الزخرف: تقدم ذكر النبوة في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ(٦)﴾. فناسب: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ﴾ والله أعلم.

قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، تسلية للنبي ﷺ؛ أي كما فعل بك هؤلاء المشركون فكذلك فعل بمن قبلك من الرسل. ويُكمِل سبحانه ما حدث للرسل السابقين على رسالة رسول الله ﷺ، فيقول: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾.

مسألة:

قوله تعالى لإبليس: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥)﴾، وفى ص: (لعنتى).

لما أضاف خلق آدم إليه تشريفا له بقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، أضاف طرد عدوه إليه أيضا زيادة في كرامته.

بين في هذه الآية الكريمة أن اللعنة على إبليس إلى يوم الدين، وصرح في "ص؟" بأن لعنته جل وعلا في إبليس إلى يوم الدين، بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤)﴾، وقال ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾. قوله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤].

أي: أن لكل جماعة من أهل المعصية باباً معلوماً، فبابٌ لأهل الربا، وبابٌ لأهل الرِّشوة، وباب لأهل النفاق وهكذا. ولك أن تتصور ما يُلاقيه مَنْ يجمع بين هذه المعاصي!! إنه يدخل هذا الباب ثم يخرج منه ليدخل باباً آخر، حقاً ما أتعس هؤلاء!

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ** (٧٣)﴾، وقال في هود: ﴿**إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ**﴾. قوله تعالى: ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ**﴾، نصب على الحال أي وقت شروق الشمس يقال أشرقت الشمس أي أضاءت وشرقت إذا طلعت، وقيل: هما لغتان بمعنى وأشرق القوم أي دخلوا في وقت شروق الشمس مثل أصبحوا وأمسوا وهو المراد في هذه الآية، وقيل: أراد شروق الفجر، وقيل: أول العذاب كان عند الصبح وامتد إلى شروق الشمس فكان تمام الهلاك عند ذلك والله أعلم. والصيحة: العذاب.

قوله: ﴿**أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ**﴾[الحجر:٦٦]، لا يتناقض مع قوله عنهم في موقع آخر: ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة مُشْرِقِينَ**﴾[الحجر:٧٣]. فكأن بَدْء الصيحة كان صُبْحاً، ونهايتهم كانت في الشروق. وهكذا رسم الحق سبحانه الصورة واضحة أمام لُوطٍ من قبل أنْ يبدأ التنفيذ؛ فهكذا أخبرتْ الملائكة لوطاً بما سوف يجري.

مسألة: قول تعالى: (**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ** (٧٥)﴾، وقال بعد: ﴿**لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ** (٧٧)﴾. أن قصة إبراهيم ولوط اتفق فيها آيات متعددة من إرسال الملائكة إليهما وما جرى بينهم من المحاورة وبين لوط وقومه، وكيفية هلاكهم، فلذلك جمع. وقصة هود وهلاكهم هنا آية واحدة فلم يذكر سواه فأفرد الآية. قوله: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ**﴾، قال: هم المتفرسون، وأخرج البخاري في تاريخه والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن السني وأبو نعيم معاً، في الطب وابن مردويه والخطيب عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: "اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله"، ثم قرأ: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ**﴾، قال: "للمتفرسين"، وأخرج ابن جرير عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: "اتقوا فراسة المؤمن، فإن المؤمن ينظر بنور الله"، وأخرج ابن جرير عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: "إحذروا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله وينطق بتوفيق الله"، وأخرج الحكيم الترمذي والبزار وابن السني وأبو نعيم عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم".

فكأن من مسئوليات المؤمن أنْ يتفحَّص في أدبار الأشياء، وأنْ يتعرّف على

الأشياء بسيماها، وأن يمتلكَ فراسة الإيمان التي قال عنها ﷺ: « اتقوا فراسةَ المؤمن، فإنه ينظر بنور الله». وهكذا يُنهِي الحق سبحانه هنا قصة لوط؛ وما وقع عليهم من عذاب يجب أن يتعظَ به المؤمنون؛ فقد نالوا جزاءَ ما فعلوا من فاحشة.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢)**﴾، وقال في القصص: ﴿**وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨)**﴾، وفي الرحمن، قال تعالى: ﴿**فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩)**﴾. قيل: في القيامة مواقف عدة، ففي بعضها يسأل، وفي بعضها لا يسأل. وقيل: ﴿**لَنَسْأَلَنَّهُمْ**﴾ لما عملوا، "ولا يسألون" ماذا عملوا لأنه أعلم بذلك. وقيل: ﴿**لَنَسْأَلَنَّهُمْ**﴾ سؤال توبيخ، و ﴿**لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ**﴾ سؤال استعلام.

قوله تعالى: ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الحجر:٩٢/٩٣]، وقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ**﴾ [الزخرف:٤٤]، وقوله تعالى: ﴿**وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ**﴾ [النحل:٥٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ**﴾. في هذه الآية الكريمة إشكال معروف، ووجهه أن قول الكفار الذي ذكره الله عنهم هنا، أعني قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ**﴾ [الزخرف:٢٠]، هو بالنظر إلى ظاهره كلام صحيح؛ لأن الله لو شاء أن يعبدوهم ما عبدوهم، كما قال تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا**﴾ [الأنعام:١٠٧]، وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ [الأنعام:٣٥]، وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا**﴾الآية.[السجدة:١٣]، وقال تعالى: ﴿**فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [الأنعام:١٤٩]، وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ [يونس:٩٩]. وهذا الإشكال المذكور في آية الزخرف هو بعينه واقع في آية الأنعام، وآية النحل.

*****

سورة النحل

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾. وقال بعده: ﴿**لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ وبعده: ﴿**لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ**﴾. أما "آية"، و"آيات" فلتعدد الآيات في الوسطى واتحادها في الأولى والثانية. وأما: ﴿**يَتَفَكَّرُونَ**﴾ و﴿**يَعْقِلُونَ**﴾ فقد تقدم في سورة الرعد. وأما: (يذكرون بالياء، فلأن فائدة التفكر والتعقل هو التذكر بما خلق ذلك له، وهو معرفة الله سبحانه وتعالى.

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن إنباته بالماء ما يأكله الناس من الحبوب والثمار، وما تأكله المواشي من المرعى، من أعظم نعمه على بني آدم، ومن أوضح آياته الدالة على أنه هو المستحق لأن يعبد وحده. ويستدلون على وجود الصانع وباهر قدرته، فإن من تأمل الحبة تقع في الأرض يابسة، ويصل إليها نداوة تنفذ فيها، فينشق أعلاها، ويخرج منه ساق الشجر، وينشق أسفلها فيخرج منه عروقها، ثم ينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار، والأكمام والثمار، ويشتمل كل منها على أجسام مختلفة الأشكال والطبائع، مع اتحاد المواد، عَلِمَ أن ذلك ليس إلا بفعل فاعل مختار، مقدس عن منازعة الأضداد والأنداد، ولعل وصل الآية به؛ لذلك. قاله البيضاوي باختصار.

وهكذا يُعلِمنا الله أن النبات لا ينبت وحده، بل يحتاج إلى مَنْ يُنبِته، وهنا يَخصُّ الحق سبحانه ألواناً من الزراعة التي لها أَثَر في الحياة، ويذكر الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من كل الثمرات. والزيتون كما نعلم يحتوي على مواد دُهْنية؛ والعنب يحتوي على مواد سُكرية، وكذلك النخيل الذي يعطي البلح وهو يحتوي على مواد سُكرية، وغذاء الإنسان يأتي من النشويات والبروتينات.

وما ذكره الحق سبحانه أولاً عن الأنعام، وما ذكره عن النباتات يُوضِّح أنه قد أعطى الإنسان مُكوِّنات الغذاء؛ فهو القائل: ﴿**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ [التين:١-٤].

أي: أنه جعل للإنسان في قُوته البروتينات والدُّهنيات والنشويات والفيتامينات التي تصون حياته. وحين يرغب الأطباء في تغذية إنسان أثناء المرض؛ فهم

يُذِيبون العناصر التي يحتاجها للغذاء في السوائل التي يُقطِّرونها في أوردته بالحَقْن، ولكنهم يخافون من طول التغذية بهذه الطريقة؛ لأن الأمعاء قد تتكمش.

ومَنْ يقومون بتغذية البهائم يعلمون أن التغذية تتكَّون من نوعين؛ غذاء يملأ البطن؛ وغذاء يمدُّ بالعناصر اللازمة، فالتبن مثلا يملأ البطن، ويمدُّها بالألياف التي تساعد على حركة الأمعاء، ولكن الكُسْب يُغذِّي ويضمن السِّمنة والوَفْرة في اللحم. وحين يقول الحق سبحانه: ﴿**يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزرع والزيتون والنخيل والأعناب وَمِن كُلِّ الثمرات**﴾[النحل:١١]. فعليك أنْ تستقبلَ هذا القول في ضَوْء قَوْل الحق سبحانه: ﴿**أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارعون**﴾[الواقعة:٦٤].

ذلك أنك تحرثُ الأرض فقط، أما الذي يزرع فهو الحق سبحانه؛ وأنت قد حرثتَ بالحديد الذي أودعه الله في الأرض فاستخرجْتَه أنت؛ وبالخشب الذي أنبته الله؛ وصنعتَ أنت منهما المحراث الذي تحرث به في الأرض المخلوقة لله، والطاقة التي حرثتَ بها ممنوحة لك من الله. ثم يُذكِّرك الله بأن كُلَّ الثمرات هي من عطائه، فيعطف العام على الخاص؛ ويقول: ﴿**وَمِن كُلِّ الثمرات**﴾[النحل:١١]. أي: أن ما تأخذه هو جزء من كل الثمرات؛ ذلك أن الثمرات كثيرة، وهي أكثر من أن تُعَد. ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[النحل:١١]. أي: على الإنسان أنْ يُعمِلَ فكره في مُعْطيات الكون، ثم يبحث عن موقفه من تلك المُعْطيات، ويُحدِّد وَضْعه ليجد نفسه غير فاعل؛ وهو قابل لأنْ يفعَل. وشاء الحق سبحانه أن يُذكِّرنا أن التفكُّر ليس مهمةَ إنسان واحد بل مهمة الجميع، وكأن الحق سبحانه يريد لنا أنْ تتسانَد أفكارنا؛ فَمْن عنده لَقْطة فكرية تؤدي إلى الله لا بُدَّ أنْ يقولها لغيره. ونجد في القرآن آيات تنتهي بالتذكُّر والتفكُّر وبالتدبُّر وبالتفقُّه، وكُلٌّ منها تؤدي إلى العلم اليقيني.

فحين يقول: «يتذكرون» فالمعنى أنه سبق الإلمام بها؛ ولكن النسيان محاها؛ فكأن مِنْ مهمتك أنْ تتذكَّر. أما كلمة « يتفكرون» فهي أُمّ كل تلك المعاني؛ لأنك حين تشغل فكرك تحتاج إلى أمرين، أنْ تنظرَ إلى مُعْطيات ظواهرها ومُعْطيات أدبارها.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ**

حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾. وفي فاطر: ﴿**وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ**﴾. أن آية النحل: سيقت لتعداد النعم على الخلق بدليل تقديم قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ**﴾، وآية فاطر: سيقت لبيان القدرة والحكمة بدليل قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ**﴾ الآية، فتكرر (منه) في النحل لتحقيق المنة والنعمة.

ولذلك عطف ﴿**وَلِتَبْتَغُوا**﴾ بالواو العاطفة لمناسبة تعدد النعم. كما تقدم. وقدم ﴿**مَوَاخِرَ**﴾ على (فيه)؛ لأنه امتن عليهم بتسخير البحر، فناسب تقديم ﴿**مَوَاخِرَ**﴾ أي شاقة للماء، وأيضا ليلي المفعول الثاني المفعول الأول لـ (ترى) فإنه أولى من تقديم الظرف. وأما آية فاطر فحذف (منه) لدلالة ﴿**وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ**﴾ عليها، وقدم (فيه) له على ﴿**مَوَاخِرَ**﴾ لأن شق الفلك الماء لجريانه فيه آية من آيات الله تعالى فالتقدم فيه أنسب للفلك.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)**﴾ هنا. وفي الزمر: ﴿**فَبِئْسَ**﴾ بحذف اللام.

لما تقدم هنا شدة كفر المذكورين من صدهم وضلالهم وإضلالهم، ناسب ذلك التأكيد بذكر اللام، ولذلك لما أكد في ذكر أهل النار أكد في ذكر أهل الجنة بقوله تعالى: ﴿**وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠)**﴾. وآية الزمر: خلية من ذلك فلم يؤكد فيها. وجملة: ﴿**فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ**﴾، تذييل. يحتمل أن يكون حكاية كلام الملائكة، والأظهر أنّه من كلام الله الحكاية لا من المحكيّ، ووصفهم بالمتكبّرين يرجّح ذلك.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ**﴾، أفرد اليمين وجمع الشَّمَائِل. والله أعلم، أن الآية نزلت بمكة والظل فيها إلى جهة اليمين، وهو يمين الكعبة مدته قليلة، وهو قليل أيضا ما يكون. والظل إلى جهة الشام وهو شمال الكعبة تطول مدته، وتكثر مساحته، فناسب إفراد اليمين لقلة مسافته ومدته، وجمع الشمائل لطول مدته ومسافته. وقيل فيه غير ذلك: وهذا أنسب مما قيل فيه والله أعلم.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، إلى قوله: ﴿يُؤْمَرُونَ﴾.

واختلف العلماء في المراد بسجود الظل وسجود غير المؤمنين، فقال بعض العلماء: سجود من في السموات والأرض من العام المخصوص، فالمؤمنون والملائكة يسجدون لله سجوداً حقيقياً، وهو وضع الجبهة على الأرض يفعلون ذلك طوعاً والكفار يسجدون كرهاً، أعني المنافقين، لأنهم كفار في الباطن ولا يسجدون لله إلا كرهاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾، والدليل على أن سجود أهل السموات والأرض من العام المخصوص، قوله تعالى في "سورة الحج": ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾، فقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾، دليل على أن بعض الناس غير داخل في السجود المذكور، وهذا قول الحسن وقتادة وغيرهما وذكره الفراء، وقيل: الآية عامة، والمراد بسجود المسلمين طوعاً انقيادهم لما يريد الله منهم طوعاً والمراد بسجود الكافرين كرهاً انقيادهم لما يريد الله منهم كرهاً؛ لأن إرادته نافذة فيهم وهم منقادون خاضعون لصنعه فيهم ونفوذ مشيئته فيهم، وأصل السجود في لغة العرب الذل والخضوع.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾، وفى العنكبوت: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾. جوابه: أن آيات النحل والروم للمخاطبين فجاءت العنكبوت للغائبين، فناسب ذكر اللام فيه. ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ تهديد ووعيد. وفي مصحف عبدالله ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾؛ أي مكناهم من ذلك لكي يتمتعوا، فهو إخبار عن غائب؛ مثل: ﴿لِيَكْفُرُوا﴾. وهو على خط المصحف خطاب بعد الإخبار عن غائب؛ أي تمتعوا أيها الفاعلون لهذا. أمر تهديد.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾، وقال: ﴿عَلَيْهَا﴾. وفى فاطر:

﴿**بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ**﴾ وقال: ﴿**عَلَى ظَهْرِهَا**﴾. أن آية النحل جاءت بعد أوصاف الكفار بأنواع كفرهم في اتخاذهم إلهين اثنين، وكفرهم وشركهم في عبادة عبادة الله سبحانه، وجعلهم للأصنام نصيبا من مالهم، ووأد البنات، وغير ذلك، وكل ظلم منهم، والسبب قوله تعالى: ﴿**بِظُلْمِهِمْ**﴾، ولم يتقدم مثل ذلك في فاطر.

وأما (عليها) والمراد: الأرض، فإنه شائع مستعمل كثير في لسان العرب لظهور العلم به بينهم ولكراهية أن يجتمع ظاءان في جملتين مع ثقلها في لسانهم، لأن الفصاحة تأباه ولم يتقدم في فاطر ذلك فقال ﴿**عَلَى ظَهْرِهَا**﴾ مع ما فيه من تفتن الخطاب.

قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه لو عاجل الخلق بالعقوبة لأهلك جميع من في الأرض، ولكنه حليم لا يعجل بالعقوبة؛ لأن العجلة من شأن من يخاف فوات الفرصة، ورب السماوات والأرض لا يفوته شيء أراده.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ**﴾، وفى المؤمنين: ﴿**مِمَّا فِي بُطُونِهَا**﴾. أن المراد في آية النحل البعض، هو الإناث خاصة، فرجع الضمير إلى البعض المقدر، ودليله تخصيص الآية "باللبن"، وهو في الإناث خاصة. وأية سورة المؤمنين: عامة للجميع بدليل قوله تعالى: (ولكم فيها منافع) الآيات. فعم الذكر والأنثى كما عمهما لفظ الإنسان قبله.

قوله: ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِى الْأنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِى بُطُونِهِ**﴾، هذه حُجّة أخرى ومنّة من المنن الناشئة عن منافع خلق الأنعام، أدمج في منّتها العبرة بما في دلالتها على بديع صنع الله.

واختصّت هذه العبرة بما تنبّه إليه من بديع الصّنع والحكمة في خلق الألبان بقوله: مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً، ثم بالتذّكير بما في ذلك من النّعمة على الناس إدماجاً للعبرة بالمنّة. والمعنى: وإن لكم أيها الناس في الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم لَعظة، فقد شاهدتم أننا نسقيكم من ضروعها لبنًا خارجًا من بين فَرْث –وهو ما في الكَرِش– وبين دم خالصًا من كل الشوائب، لذيذًا

لا يَغَصُّ به مَن شَرِبَه.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**كَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا**﴾، وقال في الحج: ﴿**مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا**﴾ بزيادة (من). أن (بَعْد) يستغرق الزمان المتعقب للعلم من غير تعين ابتداء وانتهاء، فلما أتى ما قبل آية النحل مجملا جاء بعده كذلك مجملا، وفى الحج أتى ما قبلها مفصلا من ابتدائه بقوله تعالى: ﴿**فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ**﴾ إلى آخره بعده كذلك مفصلا من ابتدائه مناسبا لما تقدمه من التفصيل.

أي: لكيلا يعلم شيئًا من بعد ما كان يعلمه من العلوم، مبالغة في انتقاص علمه، وانتكاس، أي: ليعود إلى: ما كان عليه في أوان الطفولية، من ضعف البنية، وسخافة العقل، وقلة الفهم، فينسى ما علمه، وينكر ما عرفه، ويعجز عما قدر عليه.

وهذا الذي ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من الاستدلال على كمال قدرته، على بعث الناس بعد الموت، وعلى كل شيء ينقله الإنسان من طور إلى طور، من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة إلى آخر الأطوار المذكورة، ذكره جل وعلا في مواضع من كتابه مبيناً أنه من البراهين القطعية على قدرته، على البعث وغيره.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢)**﴾، وفى العنكبوت: ﴿**يَكْفُرُونَ**﴾ بغير (**هُمْ**). الحج: ﴿**مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا**﴾ بزيادة (من). أن (**بَعْد**) يستغرق الزمان المتعقب للعلم من غير تعين ابتداء وانتهاء، فلما أتى ما قبل آية النحل مجملا جاء بعده كذلك مجملا، وفى الحج أتى ما قبلها مفصلا من ابتدائه بقوله تعالى: ﴿**فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ**﴾ إلى آخره بعده كذلك مفصلا من ابتدائه مناسبا لما تقدمه من التفصيل. والله سبحانه جعل مِن جنسكم أزواجا؛ لتستريح نفوسكم معهن، وجعل لكم منهن الأبناء ومِن نسلهنَّ الأحفاد، ورزقكم من الأطعمة الطيبة من الثمار والحبوب واللحوم وغير ذلك. أفبالباطل من ألوهية شركائهم يؤمنون، وبنعم الله التي لا تحصى يجحدون، ولا يشكرون له بإفراده جل وعلا بالعبادة. قوله تعالى: ﴿**أفبالباطل يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ الله هُمْ يَكْفُرُونَ**﴾، أي أن هؤلاء الجاحدين لنعم الله تعالى، بلغ من جهالتهم وسفاهاتهم أنهم يؤمنون بالباطل،

ويكفرون بالحق، ويعبدون من دون الله تعالى أصناما وأوثانا لا تملك لعابدها أى شئ من الرزق فهى لا تنزل مطرا من السماء ولا تخرج نباتا من الأرض، ولا تستطيع أن تنفع أو تضر.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ**﴾، ثم قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ**﴾ وظاهره واحدة. أنه لما ختم الآيات المذكورة في هذه السورة بهذه الآية كانت هي وما قبلها آيات فتكون الإشارة بذلك إلى مجموع ما تقدم من الآيات والله أعلم. قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن تسخيره الطير في جو السماء ما يمسكها إلا هو، من آياته الدالة على قدرته، واستحقاقه لأن يعبد وحده. وأوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع؛ كقوله: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ**﴾.

قال كعب الأحبار: السحاب غربال المطر، لولا السحاب حين ينزل الماء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض، رواه عنه ابن عباس. ذكره الخطيب أبو بكر أحمد بن علي عن معاذ بن عبدالله بن خبيب الجهني، قال: رأيت ابن عباس مر على بغلة وأنا في بني سلمة، فمر به تبيع ابن امرأة كعب فسلم على ابن عباس فسأله ابن عباس: هل سمعت كعب الأحبار يقول في السحاب شيئا؟ قال: نعم، قال: السحاب غربال المطر، لولا السحاب حين ينزل الماء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض. قال: سمعت كعبا يقول في الأرض تنبت العام نباتا، وتنبت عاما قابلا غيره؟ قال نعم، سمعته يقول: إن البذر ينزل من السماء. قال ابن عباس: وقد سمعت ذلك من كعب. قوله تعالى: ﴿**لآياتٍ**﴾ أي دلالات تدل على وحدانيته وقدرته، ولذلك ذكر هذه الأمور عقيب قوله: ﴿**وإِلهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ**﴾ ليدل على صدق الخبر عما ذكره قبلها من وحدانيته سبحانه، وذكر رحمته ورأفته بخلقه. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: "ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها" أي لم يتفكر فيها ولم يعتبرها.

*****

سورة بنى إسرائيل

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا**﴾. ما فائدة الشرط والرد الجميل مطلوب مطلقا. أن المراد به: الوعد بالعطاء عند رجاء حصول الخير لأنه أطيب لنفس السائل. قوله: ﴿**ابتغآء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا**﴾ [الإسراء:٢٨]، فالله تعالى في ذهنك، وتبتغي من وراء هذا الإعراض رحمة الله ورزقه وسِعَته. إذن: الإعراض هنا ليس معصية أو مخالفة.

فماذا إذن الغرض من الإعراض هنا؟ نقول: قد يأتيك قريب أو مسكين أو عابر سبيل ويسألك حاجة وأنت لا تملكها في هذا الوقت فتخجل أنْ تواجهه بالمنع، وتستحي منه، فما يكون منك إلا أنْ تتوجه إلى ربّك عز وجل وتطلب منه ما يسدُّ حاجتك وحاجة سائلك، وأن يجعل لك من هذا الموقف مَخْرجاً. فالمعنى: إما تُعرضنّ عنهم خجلاً وحياءً أنْ تواجههم، وليس عندك ما يسدُّ حاجتهم، وأنت في هذا الحال تلجأ إلى الله أنْ يرحمك رحمةً تسعك وتسعهم.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا**﴾ وبعدها: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ**﴾، وفى الكهف: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ**﴾. مع ما تقدم من تنويع الكلام للفصاحة والإعجاز: أن الأولى: وردت بعد ما تقدم من الآيات من الوصايا والعظات والتسويفات.

ولذلك قال: ﴿**لِيَذَّكَّرُوا**﴾ أي يذكروه فيعملوا به. والثانية: وردت بعد أفعال وأقوال من قوم مخصوصين: ﴿**وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ**﴾ ﴿**وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ**﴾ ﴿**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ**﴾ الآية، فناسب تقديم ذكر الناس وقيام الحجة عليهم بعجزهم عن الإتيان بمثله، ولذلك جاء بعده: ﴿**وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ**﴾. وأما آية الكهف فوردت بعد ذكر إبليس وعداوته وذم اتخاذه وذريته أولياء، فناسب تقديم ذكر القرآن الدال على عداوته ولعنه.

﴿**صَرَّفْنَا**﴾ أي: حَوَّلْنا الشيء من حال إلى حال، ومنها قوله تعالى: ﴿**وَتَصْرِيفِ الرياح**﴾[البقرة:١٦٤]، يعني تغييرها من حال إلى حال، فمرة: تراها

سَكْسكاً عليلة هادئة، ومرّة تجدها رُخَاءً أي: قوية، ومرة: تجدها إعصاراً مدمراً. والرياح قد تكون لواقح تأتي بالخير والنماء، وقد تكون عقيماً لا خير فيها. هذا هو المراد بالتصريف.

فمعنى: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هذا القرآن**﴾[الإسراء:٤١]، أي: صرف مسألة ادعاء اتخاذ الله الأبناء في القرآن، وعالجها في كثير من المسائل؛ لأنه أمر مهم عالجه القرآن علاجاتٍ متعددة في مقامات مختلفة من سُوره، فتكرر ذِكْر هذه المسألة. والتكرار قد يكون في ذات الشيء، وقد يكون باللَّف بالشيء، كما في قوله تعالى: ﴿**فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾[الرحمن:١٣].

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ**﴾، وذلك من إبليس معصية، وقد قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّـهَ لَا يَـأْمُرُ بِالْفَحْشَـاءِ**﴾. أنه تهديد لا أمر طاعة، كقوله تعالى: (كلوا وتمتعوا).

والمعنى شاركهم في الإثم لا في المال. قوله تعالى: ﴿**وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ**﴾، أما مشاركته لهم في الأموال: فعلى أصناف: منها: ما حرموا على أنفسهم من أموالهم طاعة له. كالبحائر والسوائب ونحو ذلك، وما يأمرهم به من إنفاق الأموال في معصية الله تعالى، وما يأمرهم به من اكتساب الأموال بالطرق المحرمة شرعاً كالربا والغصب وأنواع الخيانات؛ لأنهم إنما فعلوا ذلك طاعة له.

مسألة:

وجوابها: قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا**﴾ أي يقوم مقامكم في دفع ذلك عنكم. وقوله تعالى: ﴿**تَبِيعًا**﴾ أي تبيعا في المطالبات عن إهلاككم. وقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا**﴾ في دفع ذلك. وقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا**﴾ يرد عليك ما تذهب به.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**كُلّ مَثَل**﴾، والمذكور بعض الأمثال. المراد من كل مثل محتاج إليه من أمر الدنيا والدين. أو يكون عاما مخصوصا كقوله تعالى: ﴿**تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ**﴾. ولقد صرفنا كل مثل. فيكون مفعول ﴿**صَرَّفْنَا**﴾: ﴿**كُلّ مَثَل**﴾، وهذا التخريج

هو على مذهب الكوفيين والأخفش، لا على مذهب جمهور البصريين. انتهى الغرض من كلام صاحب البحر المحيط.

وقال الزمخشري: ﴿**مِنْ كُلِّ مَثَلٍ**﴾، من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه ا هـ. وضابط ضرب المثل الذي يرجع إليه كل معانيه التي يفسر بها: هو إيضاح معنى النظير بذكر نظيره. لأن النظير يعرف بنظيره.

وهذا المعنى الذي ذكره في هذه الآية الكريمة جاء مذكوراً في آيات أخر. كقوله: في الإسراء: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً**﴾، وقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً**﴾، وقوله: ﴿**وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً**﴾، وقوله: ﴿**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾، وقوله: ﴿**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ**﴾. والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

وقوله: في هذه الآية: ﴿**وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً**﴾، أي أكثر الأشياء التي من شأنها الخصومة إن فصلتها واحداً بعد واحد. ﴿**جدلاً**﴾ أي خصومة ومماراة بالباطل لقصد إدحاض الحق.

قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ**﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: ما ذكره لهم من العبر والقرون الخالية. الثاني: ما أوضحه لهم من دلائل الربوبية وقد تقدم في "سبحان"؛ فهو على الوجه الأول زجر، وعلى الثاني بيان. ﴿**وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً**﴾، أي جدالا ومجادلة والمراد به النضر بن الحرث وجداله في القرآن، وقيل: الآية في أبي بن خلف. وقال الزجاج: أي الكافرون أكثر شيء جدلا؛ والدليل على الكافر قوله: ﴿**وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ**﴾.

وروي أنس أن النبي ﷺ، قال: "يؤتى بالرجل يوم القيامة من الكفار فيقول الله له ما صنعت فيما أرسلت إليك فيقول رب آمنت بك وصدقت برسلك وعملت بكتابك، فيقول الله له: هذه صحيفتك ليس فيها شيء من ذلك، فيقول: يا رب إني لا أقبل ما في هذه الصحيفة.

فيقال له: هذه الملائكة الحفظة يشهدون عليك، فيقول: يا رب ولا أقبلهم يا رب وكيف أقبلهم ولا هم من عندي ولا من جهتي، فيقول الله تعالى: هذا اللوح المحفوظ أم الكتاب قد شهد بذلك، فقال: يا رب ألم تجرني من الظلم. قال: بلى. فقال: يا رب لا أقبل إلا شاهدا علي من نفسي، فيقول الله تعالى: الآن نبعث عليك شاهدا من نفسك فيتفكر من الذي يشهد عليه من نفسه فيختم على فيه ثم تنطق جوارحه بالشرك ثم يخلى بينه وبين الكلام فيدخل النار، وإن بعضه ليلعن بعضا، يقول لأعضائه: لعنكن الله فعنكن كنت أناضل، فتقول أعضاؤه: لعنك الله أفتعلم أن الله تعالى يُكتم حديثا، فذلك قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ الأِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً**﴾. أخرجه مسلم بمعناه من حديث أنس أيضا.

وفي صحيح مسلم عن علي أن النبي ﷺ طرقه وفاطمة فقال: "ألا تصلون"؟ فقلت: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله إن شاء أن يبعثنا بعثنا؛ فانصرف رسول الله ﷺ حين قلت له ذلك، ثم سمعته وهو مدبر يضرب فخذه، ويقول: ﴿**وَكَانَ الأِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً**﴾.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا(٩٤)**﴾، وقال تعالى في الكهف: ﴿**إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا(٥٥)**﴾، فحصر في آية سبحان غير ما حصر في آية الكهف. أن آية "سبحان" إشارة إلى "المانع العادي"، وهو استغرابهم أن بعث الله بشرا رسولا. وآية الكهف: دلت على "المانع الحقيقي"، وهو إرادة الله سبحانه وتعالى وتقدير الآية: إلا إرادة الله هلاكهم لما سبق في علمه. إذن فبشرية الرسول اتخذت حجة للذين لا يريدون أن يؤمنوا والرسول مبلغ عن الله، ولابد أن يكون من جنس القوم الذين أرسل إليهم.

ولابد أن يكون قد عاش بينهم فترة قبل الرسالة واشتهر بالأمانة والصدق حتى لا يكذبوه، وفي الوقت نفسه هو قدرة، ولذلك لابد أن يكون من جنس قومه؛ لأنه سيطبق المنهج عمليا أمامهم. ولو كان من جنس آخر لقالوا لا نطيق ما كلفتنا به يا رب؛ لأن هذا رسول الله مخلوق من غير مادتنا، ومقهور على الطاعة.

إذن فبشرية الرسول حتمية. وكل من يحاول أن يعطي الرسول صفة غير البشرية. إنما يحاول أن ينقص من كمالات رسالات الله، والله سبحانه وتعالى ليس عاجزاً، عن أن يحول البشر إلى ملائكة، واقرأ قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ مَّلاَئِكَةً فِي الأرض يَخْلُفُونَ**﴾[الزخرف:٦٠]، إذن فبشرية الرسول هي من تمام الرسالة.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**﴾، وفى العنكبوت: ﴿**قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا**﴾. أنه لما وصف (**شَهِيدًا**) بقوله تعالى: (يعلم) ناسب تأخيره لتتبع الصفة موصوفة، ولا يحول بينهما حائل.

وليس هنا ولا في أمثالها صفة لشهيد، فجاء على القياس في غير ﴿**كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا**﴾ ﴿**كَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً**﴾. ﴿**قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**﴾[الرعد:٤٣]، فكان المفروض في أهل الكتاب أنهم حينما جاء رسول الله ﷺ أن يكونوا هم أول المؤمنين برسول الله ﷺ؛ لأنه جاء ليؤكد موكب الإيمان ويأتي لهم بسورة يسميها آل عمران حتى يعلم الجميع أنك يا محمد لم تأتي لتهدم ديانة عيسى، ولكن لتبقى ديانة عيسى ولتؤيد ديانة عيسى، فإن كنتم يا من آمنتم بعيسى مؤمنين بعيسى فاهرعوا حالاً إلى الإيمان بمحمد؛ فقد سماها الله آل عمران، وجعل لهم سورة في القرآن.

إن رسالة محمد ﷺ لم تأت للعصبية، أو لتمحو ما قبلها كما تأتي عصبيات البشر حين يأتي قوم على أنقاض قوم، ويهدمون كل ما يتصل بهؤلاء القوم حتى التاريخ يمحونه، والأشياء يمسخونها؛ لأنهم يريدون أن ينشئوا تاريخاً جديداً. لا إن هذا القرآن يريد أن يصوب التاريخ، فيأتي بسورة اسمها «آل عمران»، وذلك تكريم عال لهذه الديانة ولتابعيها.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا**(٩٧)﴾، ومعنى خبت: سكنت. وقال في الزخرف: ﴿**لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ**﴾. لا يلزم من سكون النار نقص العذاب بها إما لبقاء حرها أو لعذابهم عند ذلك بالزمهرير، ولا يفتر عنهم العذاب إما بحرها أو زمهريرها. وأما كون النار لا تغني عنهم، فقد بينه تعالى بقوله: ﴿**كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ**

سَعِيراً﴾[الإسراء:٩٧]، فمن يدعي أن للنار خبوة نهائية وفناء رد عليه بهذه الآية الكريمة.

وأما كون العذاب لا يخفف عنه فقد دلت عليه آيات كثيرة جدا كقوله: ﴿**وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا**﴾ [فاطر:٣٦]، وقوله تعالى: ﴿**فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ**﴾ [النحل:٨٥]، وقوله تعالى: ﴿**فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً**﴾ [النبأ:٣٠]، وقوله تعالى: ﴿**لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ**﴾[الزخرف:٧٥]، وقوله: ﴿**إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً**﴾ [الفرقان:٦٥]، وقوله تعالى: ﴿**فسوف يكون لزاما**﴾ على الأصح في الأخيرين.

قوله تعالى: ﴿**كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً**﴾. فالمقصود تعذيب الأبدان وإيلام الأرواح. ولو أراد الجلود لقال: ليذقن العذاب. قال مقاتل: تأكله النار كل يوم سبع مرات. قال الحسن: سبعين ألف مرة كلما أكلتهم، قيل لهم: عودوا فعادوا كما كانوا. قال ابن عمر: إذا احترقوا بدلت لهم جلود بيض كالقراطيس. وقيل: عنى بالجلود السرابيل؛ كما قال تعالى: ﴿**وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ**﴾؛ سميت جلودا للزومها جلودهم على المجاورة؛ كما يقال للشيء الخاص بالإنسان: هو جلدة ما بين عينيه.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ**﴾ وفى يس والأحقاف (**بِقَادِرٌ**). أن "قادر" هنا: خبر إن المثبتة فلم تدخله "الباء". وفى يس: هو خبر "ليس" النافية، فدخلت الباء في خبرها. وفى الأحقاف: لما أكد النفي بنفي ثان وهو قوله تعالى: هو – ﴿**وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ**﴾ ناسب دخول الباء في (**بِقَادِرٌ**).

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن من خلق السموات والأرض مع عظمها قادر على بعث الإنسان بلا شك. لأن من خلق الأعظم الأكبر فهو على خلق الأصغر قادر بلا شك.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر. كقوله: ﴿**لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ**﴾ الآية، أي ومن قدر على خلق الأكبر فهو قادر على خلق الأصغر. وقوله: ﴿**أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى**﴾، وقوله: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ**

بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى﴾، وقوله: **﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾**.

*****

سورة الكهف

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً**﴾ وظاهره، إفرادهم لها بالعبادة دونه تعالى، وقال تعالى بعده: ﴿**وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ**﴾ فاستثنى الرب سبحانه من معبوداتهم. أن اتخذوا للماضي، وكانوا مفردين لهم في العبادة ويعبدون للاستقبال، وقد يعبدون الله تعالى في المستقبل، وكذلك كان الواقع فصح الاستثناء أدبا وتحرزاً. قال ابن إسحاق: ﴿**هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ**﴾[الكهف:١٥]. قال ابن إسحاق: أي بحجة بالغة. ﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً. وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً. وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ**﴾ [الكهف:١٧]. قال ابن هشام: تزاور تميل؛ وهو من الزور.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ**﴾، و﴿**خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ**﴾، وقال: ﴿**وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ**﴾، بزيادة الواو. من وجهين: الأول: أن الواو عاطفة على فعل مقدر معناه: صدقوا وثامنهم كليهم. الثاني: أن كل واحد من القولين المتقدمين بعده قول آخر في معناه فكأن الكلام لم ينقض، والثاني غاية ما قيل: وليس بعده قول آخر، فناسب ذلك مجئ الواو العاطفة المشعرة بانقضاء الكلام الأول، والعطف عليه. قوله تعالى: ﴿**سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾، أخبر جل وعلا في هذه الآية الكريمة عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف، فذكر ثلاثة أقوال.

على أنه لا قائل برابع، وجاء في الآية الكريمة بقرينة تدل على أن القول الثالث هو الصحيح والأولان باطلان، لأنه لما ذكر القولين الأولين، بقوله: ﴿**سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ**﴾، أتبع ذلك بقوله: ﴿**رَجْماً بِالْغَيْبِ**﴾، أي: قولاً بلا علم، كمن يرمى إلى مكان لا يعرفه فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصاب بلا قصد، كقوله: ﴿**وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيد**﴾، وقال

القرطبي: الرجم القول بالظن، يقال لكل ما يخرص رجم فيه ومرجوم ومرجم.

ثم حكى القول الثالث بقوله: ﴿**وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ**﴾ فأقره، ولم يذكر بعده أن ذلك رجم بالغيب، فدل على أن الصحيح. وقوله: ﴿**مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾ قال ابن عباس: أنا من ذلك القليل الذي يعلمهم، كانوا سبعة. وقوله: ﴿**قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ**﴾، فيه تعليم للناس أن يردوا علم الأشياء إلى خالقها جل وعلا وإن علموا بها، كما أعلم نبيه ﷺ بمدة لبثهم في قوله: ﴿**وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً**﴾، ثم أمره مع ذلك برد العلم إليه جل وعلا في قوله: جل وعلا: ﴿**قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...**﴾الآية. وما قدمنا من أنه لا قائل برابع قاله ابن كثير أخذاً من ظاهر الآية الكريمة. مع أن ابن إسحاق وابن جريج قالا: كانوا ثمانية. والعلم عند الله تعالى.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ**﴾ وكذلك في الزخرف، وقال تعالى في "هل أتى": ﴿**وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ**﴾. من وجوه: أحدها: أن الضمير للولدان في "الإنسان"، وفى "الكهف"، والزخرف" للعباد. الثاني: أنهم يحلون بهما فجمع لأهل الجنة التحلى بالذهب والفضة. الثالث: أن الأمزجة مختلفة في ذلك في الدنيا، فمنهم من يؤثر الذهب ومنهم من يؤثر الفضة، فعوملوا في الجنة بمقتضى ميلهم في الدنيا.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي**﴾، وفى حم السجدة: هنا "بالفاء"، وثَمَّ بـ "ثُمَّ". الإعراض: إما مصادمة ورد بالصدر من غير مهلة، وإما أن يكون عن مهلة وروية، فلما تقدم في الكهف: ﴿**وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ**﴾ الآية. ناسب ذلك "الفاء" المؤذنة بالتعقيب بالإعراض منهم عند مجادلتهم ودحضهم الحق.

ولم يتقدم مثل ذلك في السجدة، بل قال: ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا**﴾ أي استمروا على فسقهم فناسب ذلك "ثُمَّ" المؤذنة بالتراخي. ﴿**وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي**﴾ أي وإن كان بعث فكما أعطاني هذه النعم في الدنيا فسيعطيني أفضل منه لكرامتي عليه؛ وهو معنى قوله: ﴿**لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً**﴾ وإنما قال ذلك لما دعاه أخوه إلى الإيمان بالحشر والنشر. وفي مصاحف مكة والمدينة والشام "منهما".

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**نَسِيَا حُوتَهُمَا**﴾. والناسى: فتاه، بدليل: ﴿**فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ**﴾ وقوله ﴿**آتِنَا غَدَاءَنَا**﴾. أن النسيان بمعنى: الترك، فمن موسى عليه السلام: ترك التفقد، ومن فتاه: الذهول عنه أو النسيان منهما في مجمع البحرين، ومن فتاه لما جاوزا ذلك. قوله: ﴿**نَسِيَا حُوتَهُمَا**﴾ وإنما كان النسيان من الفتى وحده. فقيل: المعنى؛ نسي أن يعلم موسى بما رأى من حال فنسب النسيان إليهما للصحبة، كقوله تعالى: ﴿**يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ**﴾ وإنما يخرج من الملح، وقوله: ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ**﴾، وإنما الرسل من الإنس لا من الجن، وفي البخاري؛ "فقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت، قال: ما كلفت كثيرا؛ فذلك قوله عز وجل: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ**﴾ يوشع بن نون –ليست عن سعيد– قال فبينا هو في ظل صخرة في مكان ثريان إذ تضرب الحوت وموسى نائم فقال فتاه: لا أوقظه؛ حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره، وتضرب الحوت حتى دخل البحر، فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كأن أثره في حجر؛ قال لي عمرو: هكذا كأن أثره في حجر وحلق بين إبهاميه واللتين تليانهما". وفي رواية: "وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿**آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً**﴾، ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمر الله به، فقال له فتاه: ﴿**قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ**﴾.

وقيل: إن النسيان كان منهما لقوله تعالى: ﴿**نَسِيَا**﴾ فنسب النسيان إليهما؛ وذلك أن بدو حمل الحوت كان من موسى لأنه الذي أمر به، فلما مضيا كان فتاه الحامل له حتى أويا إلى الصخرة نزلا. ﴿**فَلَمَّا جَاوَزَا**﴾، يعني الحوت هناك منسياً – أي متروكاً – فلما سأل موسى الغداء نسب الفتى النسيان إلى نفسه عند المخاطبة، وإنما ذكر الله نسيانهما عند بلوغ مجمع البحرين. وهو الصخرة، فقد كان موسى شريكا في النسيان لأن النسيان التأخير؛ من ذلك قولهم في الدعاء: أنسأ الله في أجلك. فلما مضيا من الصخرة أخرا حوتهما عن حمله فلم يحمله واحد منهما فجاز أن ينسب إليهما لأنهما مضيا وتركا الحوت.

مسألة: قوله تعالى: ﴿**قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ**﴾، وقال: ﴿**قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ**﴾. أن

الخضر قصد بالأولى: تذكير موسى عليهما السلام بما شرط عليه فخاطبه بلطف وأدب معه. وفى الثانية: كرر موسى الإنكار عليه، فشدد الخضر عليه، وأكد القول بقوله (لك) لأن كاف الخطاب أبلغ في التنبيه.

وقال رسول الله ﷺ: "وكانت الأولى من موسى نسيانا"، قال: "وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر". قال علماؤنا: حرف السفينة طرفها وحرف كل شيء طرفه، ومنه حرف الجبل وهو أعلاه المحدد.

والعلم هنا بمعنى المعلوم، كما قال: ﴿**وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ**﴾ أي من معلوماته، وهذا من الخضر تمثيل؛ أي معلوماتي ومعلوماتك لا أثر لها في علم الله؛ كما أن ما أخذ هذا العصفور من هذا البحر لا أثر له بالنسبة إلى ماء البحر، وإنما مثل له ذلك بالبحر لأنه أكثر. ما يشاهده مما بين أيدينا، وإطلاق لفظ النقص هنا تجوز قصد به التمثيل والتفهيم، إذ لا نقص في علم الله، ولا نهاية لمعلوماته. وقد أوضح هذا المعنى البخاري فقال: "والله ما علمي وما علمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطير بمنقاره من البحر".

وفي التفسير عن أبي العالية: لم ير الخضر حين خرق السفينة غير موسى وكان عبد ا لا تراه إلا عين من أراد الله له أن يريه، ولو رآه القوم لمنعوه من خرق السفينة.

وقيل: خرج أهل السفينة إلى جزيرة، وتخلف الخضر فخرق السفينة، وقال ابن عباس: "لما خرق الخضر السفينة تنحى موسى ناحية، وقال في نفسه: ما كنت أصنع بمصاحبة هذا الرجل كنت في بني إسرائيل أتلو كتاب الله عليهم غدوة وعشية فيطيعوني، قال له الخضر: يا موسى أتريد أن أخبرك بما حدثت به نفسك؟ قال: نعم. قال: كذا وكذا. قال: صدقت.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا**﴾ وقال بعده: ﴿**فَأَرَدْنَا**﴾، وقال في الثالثة: ﴿**فَأَرَادَ رَبُّكَ**﴾. أن هذا حسن أدب من الخضر مع الله تعالى. **أما في الأول:** فإنه لما كان عيبا نسبه إلى نفسه.

وأما الثاني: فلما كان يتضمن العيب ظاهرا، وسلامة الأبوين من الكفر، ودوام إيمانهما باطنا قال: أردنا، كأنه قال: أردت أنا القتل وأراد الله سلامتهما من الكفر وإبدالهما خيرا منه. **وأما الثالث:** فكان خيرا محضا ليس فيه ما ينكر لا عقلا ولا شرعا نسبه إلى الله وحده فقال: فأراد ربك. أى قال الخضر لموسى: ﴿**أما السفينة**﴾ التى خرقتها ولم ترض عنه، ﴿**فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي البحر**﴾، أى: لضعفاء من الناس لا يستطيعون دفع الظلم عنهم، ولم يكن لهم مال يتعيشون منه سواها، فكان الناس يركبون فيها ويدفعون لهؤلاء المساكين الأجر الذين ينتفعون به.

﴿**فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا**﴾، أى: أن أجعلها ذات عيب بالخرق الذى خرقتها فيه، ولم أرد أن أغرق أهلها كما ظننت يا موسى، والسبب فى ذلك: أنه ﴿**كَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ**﴾، ظالم، من دأبه أن يتعقب السفن الصالحة الصحيحة، ويستولى عليها، ويأخذها اغتصابا وقسرا من أصحابها.

فهذا العيب الذى أحدثته فى السفينة. كان سببا فى نجاتها من يد الملك الظالم، وكان سببا فى بقائها فى أيدى أصحابها المساكين. فالضرر الكبير الذى أحدثته بها، كان دفعا لضرر أكبر كان ينتظر أصحابها المساكين لو بقيت سليمة. ويرى بعضهم أن المراد بالوراء الأمام. ويرى آخرون أن المراد به الخلف. وقال الزجاج: وراء: يكون للخلف والأمام. ومعناه: ما توارى عنك واستتر. وظاهر قوله تعالى: ﴿**يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً**﴾، يفيد أن هذا الملك كان يأخذ كل سفينة سواء أكانت صحيحة أم معيبة، ولكن هذا الظاهر غير مراد. وإنما المراد: يأخذ كل سفينة سليمة. بدليل: فأردت أن أعيبها، أي: لكي لا يأخذها، ومن هنا قالوا: إن لفظ: ﴿**سَفِينَةٍ**﴾ هنا موصوف لصفة محذوفة. أي: يأخذ كل سفينة صحيحة.

مسألة: قوله تعالى: ﴿**سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا(٧٨)**﴾، ثم قال: ﴿**ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا(٨٢)**﴾، وقال في قصة: ﴿**فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا(٩٧)**﴾.

جوابه: أنه تقدم أولا: ﴿**مَا لَمْ تَسْتَطِعْ**﴾ فخفف الثاني لدلالة الأول عليه، وفى قصة ذي القرنين أن تعلق الفعل بالمفعول المفرد أخفف من تعلقه بالمركب، و﴿**أَنْ يَظْهَرُوهُ**﴾ مفعول مركب، فناسب التخفيف، و"نقبا" مفعول مفرد فكمل لفظ الفعل معه لعدم المقتضى للتخفيف.

وقال في قصة: ﴿**فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا**(٩٧)﴾. أنه تقدم أولا: ﴿**مَا لَمْ تَسْتَطِعْ**﴾ فخفف الثاني لدلالة الأول عليه، وفي قصة ذي القرنين أن تعلق الفعل بالمفعول المفرد أخفف من تعلقه بالمركب، و﴿**أَنْ يَظْهَرُوهُ**﴾ مفعول مركب، فناسب التخفيف، و"نقبا" مفعول مفرد فكمل لفظ الفعل معه لعدم المقتضى للتخفيف. قال رسول الله ﷺ: "يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما".

واختلف العلماء في القرية فقيل: هي أبلة؛ قال قتادة، وكذلك قال محمد بن سيرين، وهي أبخل قرية وأبعدها من السماء، وقيل: أنطاكية، وقيل: بجزيرة الأندلس؛ روي ذلك عن أبي هريرة وغيره، ويذكر أنها الجزيرة الخضراء وقالت فرقة: هي باجروان وهي بناحية أذربيجان، وحكى السهيلي وقال: إنها برقة الثعلبي: هي قرية من قرى الروم يقال لها ناصرة، وإليها تنسب النصارى؛ وهذا كله بحسب الخلاف في أي ناحية من الأرض كانت قصة موسى والله أعلم بحقيقة ذلك.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ**﴾، ظاهره أنه بمكان معين لغروبها. وقال تعالى: ﴿**رب المشرقين ورب المغربين**(١٧)﴾ الآية، و﴿**ورب المشارق**﴾ وهو المعروف للشمس. أنه معين بالنسبة إلى ذلك المكان وذلك الزمان لا بالنسبة إلى سائر الأزمنة والأقطار كما تقول: غابت في البحر، وإنما هي في السماء، وإنما هو بالنسبة إلى نظرك. ويتابع الحق: ﴿**وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ**﴾، هذا في عين الناظر فقط، فأنت حين تركب البحر ثم ترى الشمس عند الغروب تغطس في البحر، وعندما تذهب للمنطقة التي غطست الشمس فيها تجد الشمس موجودة؛ لأنها لا تغيب أبدا، إنما ﴿**تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ**﴾، أي: فوجد الشمس في نظره عند غروبها عنه كأنها تغرب في مكان به عين ذات ماء حار وطين أسود.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره:﴿**وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ**﴾، أي: رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه، إلى آخر كلامه. ومقتضى كلامه أن المراد بالعين في الآية البحر المحيط، وهو ذو طين أسود.

والعين تطلق في اللغة على ينبوع الماء. والينبوع: الماء الكثير. فاسم العين يصدق على البحر لغة. وكون من على شاطئ المحيط الغربي يرى الشمس في نظر عينه تسقط في البحر أمر معروف. وعلى هذا التفسير فلا إشكال في الآية، والعلم عند الله تعالى.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا**(١٠٦)﴾، وفيما قبله من هذه السورة: ﴿**وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا**(٥٦)﴾. جوابه: أن الآية الأولى: تقدمها: ﴿**وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا**(٥٤)﴾، وقوله تعالى: ﴿**مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ**﴾ فناسب ذلك ﴿**وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا**(٥٦)﴾، والآية الثانية: تقدمها قصة موسى والخضر وذي القرنين وسؤال اليهود ذلك، فناسب: (رُسُلِي).

جواب آخر: أن المراد تنويع كفر الكفار لأنه إنما بالرسل كقولهم: ساحر كاهن، أو بما جاءوا به، كقولهم: سحر مفترى، وما سمعنا بهذا، وشبه ذلك. قوله تعالى: ﴿**واتخذوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً**﴾ [الكهف:١٠٦]، فقد استهزأوا بآيات الله، وكلما سمعوا آية قالوا: أساطيرُ الأولين: ﴿**إِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأولين**﴾ [القلم:١٥].

*****

سورة مريم

مسألة:

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾، ما وجه قوله ذلك مع أنه قال: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا(٥)﴾، فسؤاله مؤذن بإمكانه عنده، وقوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي﴾ مؤذن بإحالته عادة؟ أنه كان بين سؤاله وبشارته بالولد أربعين سنة. قال زكريا فرحًا متعجبًا: ربِّ أنَّى يكون لي غلام مع أن الشيخوخة قد بلغت مني مبلغها، وامرأتي عقيم لا تلد؟ قال: كذلك يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة المخالفة للعادة.

مسألة:

قوله تعالى في يحيى عليه السلام: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ﴾، وفى عيسى عليه السلام: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ﴾. أن الأول: إخبار من الله تعالى ببركته وسلامه عليه. وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً﴾، أي لم يكن مستكبراً عن طاعة ربه وطاعة والديه، ولكنه كان مطيعاً لله، متواضعاً لوالديه، قاله ابن جرير. والجبار: هو كثير الجبر، أي القهر للناس، والظلم لهم. وكل متكبر على الناس يظلمهم: فهو جبار. وقد أطلق في القرآن على شديد البطش في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾، وعلى من يتكرر منه القتل في وقلة الحيلة والفقر إلى الله تعالى عظيم الحول.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا(٢٣)﴾ وقد تقدم قول الملك: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا(١٩)﴾، و﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾، فكيف ذلك بعد علمها. لم تقله كراهة له، بل لما يحصل لها من الخجل عند قومها بخروج ذلك عن العادة والوقوع فيها.

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن مريم حملت عيسى. فقوله: ﴿حَمَلَتْهُ﴾، أي عيسى ﴿فَانْتَبَذَتْ بِهِ﴾، أي تنحت به وبعدت معتزلة عن قومها ﴿مَكَاناً قَصِيّاً﴾، أي في مكانها بعيد: والجمهور على أن المكان المذكور بيت لحم. وفيه أقوال أخر غير ذلك. وقوله: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾، أي: ألجأها الطلق إلى

جذع النخلة، أي جذع نخلة في ذلك المكان. والعرب تقول: جاء فلان، وأجاءه غيره: إذا حمله على المجيء.

قوله تعالى إخبارًا عنها: ﴿**قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا**﴾، فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، فقالت: ﴿**يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا**﴾، أي قبل هذا الحال، ﴿**وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا**﴾ أي لم أخلق ولم أك شيئًا. وقال السدي: قالت وهي تطلق من الحبل –استحياء من الناس: يا ليتني مت قبل هذا الكرب الذي أنا فيه، والحزن بولادتي المولود من غير بَعْل: ﴿**وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا**﴾ نُسِيَ فتُرِك طلبه، كخِرَق الحيض إذا ألقيت وطرحت لم تطلب ولم تذكر. وكذلك كل شيء نُسِيَ وترك فهو نَسِيّ.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ**(٣٧)﴾ وقال في الزخرف: أبث ﴿**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ**(٦٥)﴾. أن آية مريم تقدمها وصف الكفار باتخاذ الولد وهو كفر صريح، فناسب وصفهم بالكفر. ولم يرد مثل ذلك في الزخرف، بل قال تعالى: ﴿**فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ**﴾ فوصفهم بالظلم لاختلافهم. أظهر الأقوال في (الأحزاب)، المذكورة في هذه الآية: أنهم فرق اليهود والنصارى الذين اختلفوا في شأن عيسى.

فقالت طائفة: هو ابن زنى. وقالت طائفة: هو ابن الله. وقالت طائفة: هو الله. وقالت طائفة: هو إله مع الله. ثم إن الله توعد الذين كفروا منهم بالويل لهم من شهود يوم القيامة. وذلك يشمل من كفر بالتفريط في عيسى كالذي قال إنه ابن زنى. ومن كفر بالإفراط فيه كالذين قالوا إنه الله أو ابنه.

وقوله: ﴿**ويل**﴾ كلمة عذاب. فهو مصدر لا فعل له من لفظه. وسوغ الابتداء به وهو نكرة كونه في معنى الدعاء. والظاهر أن المشهد في الآية مصدر ميمي. أي فويل لهم من شهود ذلك اليوم أي حضوره لما سيلاقونه فيه من العذاب. خلافاً لمن زعم أن المشهد في الآية اسم مكان.

أي فويل لهم من ذلك المكان الذي يشهدون فيه تلك الأهوال والعذاب.

والأول هو الظاهر وهو الصواب إن شاء الله تعالى.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا**(٤١)﴾. في إبراهيم وإدريس وفى موسي: ﴿**رَسُولًا نَبِيًّا**﴾، وفى إسماعيل: ﴿**صَادِقَ الْوَعْدِ**﴾. ما وجه تخصيص كل منهم بما وصف به وكل منهم كذلك.

جوابه: أما إبراهيم عليه السلام فلعل المبالغة في صدقه لنفى ما توهم منه في الثلاثة التي ورى بها وهي: "إنى سقيم"، ولسارة: "هي أختي"، و"فعله كبيرهم". الصديق صيغة مبالغة من الصدق؛ لشدة صدق إبراهيم في معاملته مع ربه وصدق لهجته، كما شهد الله له بصدق معاملته في قوله: ﴿**وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى**﴾، وقوله: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً**﴾. ومن صدقه في معاملته ربه: رضاه بأن يذبح ولده، وشروعه بالفعل في ذلك طاعة لربه؛ مع أن الولد فلذة من الكبد.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا**﴾ وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ**(١٠١)﴾. أدن ورود المؤمنين: الجواز على الصراط، والكفار والعصاة يدخلونها أو أن الخطاب لمن تقدم ذكرهم في قوله: ﴿**أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا**(٦٩)﴾، إلى قوله تعالى: ﴿**صِلِيًّا**(٧٠)﴾. قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً**﴾.

اختلف العلماء في المراد بورود النار في هذه الآية الكريمة على أقوال:

الأول: أن المراد بالورود الدُّخول، ولكن الله يصرفُ أذاها عن عباده المتقين عند ذلك الدخول. **الثاني:** أن المراد بورود النار المذكور: الجواز على الصراط؛ لأنه جسر منصوب على متن جهنم.

*****

سورة طه

مسألة:

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى(٤)﴾ وفى غيره من المواضع: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾. فبدأ بِالسَّمَاوَاتِ والسحر حرام فكيف أمرهم. به مع عصمته. أنه لما كان إلقاؤهم سببا لظهور معجزته، وصدق دعوى نبوته صار حسنا بهذا الاعتبار، وخرج عن كونه قبيحا. قوله: ﴿تَنْزِيلاً﴾ أوجه كثيرة من الإعراب ذكرها المفسرون.

وأظهرها عندي أنه مفعول مطلق، منصوب بنزل مضمرة دل عليها قوله: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾، أي: نزله الله ﴿تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ﴾، أي: فليس بشعر ولا كهانة، ولا سحر ولا أساطير الأولين، كما دل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، والآيات المصرحة بأن القرآن منزل من رب العالمين كثيرة جداً معروفة؛ كقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وقوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى(٧٩)﴾ ما فائدة قوله: ﴿وَمَا هَدَى﴾ وهو معلوم ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾. التصريح بكذبه في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ(٢٩)﴾ والتهكم به. قوله: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾، أي أضلهم عن الرشد وما هداهم إلى خير ولا نجاة؛ لأنه قدر أن موسى عليه السلام ومن معه لا يفوتونه؛ لأن بين أيديهم البحر. فلما ضرب موسى البحر بعصاه أنفلق منه اثنا عشر طريقا وبين الطرق الماء قائما كالجبال. وفي سورة الشعراء: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي الجبل الكبير؛ فأخذ كل سبط طريقا.

وأوحى الله إلى أطواد الماء أن تشكبي فصارت شبكات برى بعضهم بعضا ويسمع بعضهم كلام بعض، وكان هذا من أعظم المعجزات، وأكبر الآيات، فلما أقبل فرعون ورأى الطرق في البحر والماء قائما أوهمهم أن البحر فعل هذا لهيبته،

فدخل هو وأصحابه فانطبق البحر عليهم. وقيل إن قوله: ﴿وَمَا هَدَى﴾ تأكيد لإضلاله إياهم.

وقيل: هو جواب قول فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩]، فكذبه الله تعالى. وقال ابن عباس: ﴿وَمَا هَدَى﴾ أي ما هدى نفسه بل أهلك نفسه وقومه.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى(٨٢)﴾، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ(١٧)﴾ فالاهتداء هنا مؤخر عن الإيمان والعمل الصالح وفى الآية الأخرى مقدم عليها.

أن المراد بقوله: ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أي دام على هدايته، كقوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(٦)﴾ أي ثبتنا عليه وأدمنا. قيل: المعنى ثم كان من الذين يؤمنون بأن هذا نافع لهم عند الله تعالى. وقيل: أتى بهذه القرب لوجه الله، ثم أمن بمحمد ﷺ. وقد قال حكيم بن حزام بعدما أسلم، يا رسول الله، إنا كنا نتحنث بأعمال في الجاهلية، فهل لنا منها شيء؟ فقال عليه السلام: "أسلمت على ما أسلفت من الخير".

وقيل: إن ﴿ثُمَّ﴾ بمعنى الواو؛ أي وكان هذا المعتق الرقبة، والمطعم في المسغبة، من الذين أمنوا. ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ أي أوصى بعضهم بعضا. ﴿بِالصَّبْرِ﴾ أي بالصبر على طاعة الله، وعن معاصيه؛ وعلى ما أصابهم من البلاء والمصايب. ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ بالرحمة على الخلق؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك رحموا اليتيم والمسكين.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(١٢٤)﴾، وقال تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ وقال: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾، فظاهره يدل على الإنكار. أن القيامة مواطن: ففى بعضها يكون عمى، وفى بعضها إبصارا، ويختلف ذلك باختلاف أهل الحشر فيه – والله أعلم. قال الورتجبي: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾، يعني: جاهلاً بوجود الحق، كما كان جاهلاً في الدنيا، كما قال عليّ رضي الله عنه: "من

لم يعرف الله في الدنيا لا يعرفه في الآخرة".

وقيل: عن رؤية أوليائه وأصفيائه. وقال القشيري: في الخبر: "مَنْ كان بحالة لقي الله بها"، فَمن كان في الدنيا أعمى القلب، يُحشرُ على حالته، يعيش على ما جهل، ويُحشر على ما جهل، ولذلك يقولون: ﴿**من بعثنا من مرقدنا**﴾، إلى أنْ تصيرْ معارفُهم ضرورية، كما يَتركون التَدبُّرَ في آياتهِ يُتركون غدًا في العقوبة من غير رحمةٍ على ضعفِ حالاتهم.

وكذلك نجزي من أسرف بالعكوف على شهواته، واغتنام أوقات لذاته، حتى انقضت أيام عمره في البطالة، نجزيه غم الحجاب والبعد عن حضرة الأحباب، حيث لم يصدق بوجود آيات ربه؛ وهم الدعاة إلى الله. ولعذاب حجاب الآخرة أشد وأبقى؛ لدوامه واتصاله، نعوذ بالله من غم الحجاب وسوء الحساب، والتخلف عن حضرة الأحباب. وبالله التوفيق.

*****

سورة الأنبياء عليهم السلام

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ**﴾، وقال في الشعراء: ﴿**مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ**﴾. لما تقدم هنا: ﴿**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ**﴾ وذكر إعراضهم وغفلتهم وهو وعيد وتخويف فناسب ذكر الرب المالك ليوم القيامة المتوفى ذلك الحساب. وفى الشعراء: تقدم ﴿**إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً**﴾، لكن لم يفعل ذلك لعموم رحمته للمؤمنين والكافرين لم يشأ ذلك، ويقوى ذلك تكرير قوله تعالى في السورة: ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾. يقول الحقّ جلّ جلاله: ﴿**اقترب للناس حسابُهُم**﴾ أي: قَرُبَ قيام الساعة التي هي محل حسابهم.

قال ابن عباس: "المراد بالناس: المشركون"، وهو الذي يُفصح عنه ما بعده، ولم يقل تعالى: "اقترب حساب الناس"، بل قدّم لام الجر على الفاعل؛ للمسارعة إلى إدخال الروعة، فإن نسبة الاقتراب إليهم من أول الأمر مما يسوؤهم ويورثهم رهبة وانزعاجًا، كما أن تقديم اللام في قوله تعالى: ﴿**خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً**﴾ [البَقَرَة:٢٩]؛ لتعجيل المسرة؛ لأن كون الخلق لأجل المخاطبين مما يسرهم ويزيدهم رغبة وشوقًا إليه تعالى.

وفي إسناد الاقتراب إلى الحساب المنبئ عن التوجه نحوهم، مع صحة إسناد الاقتراب إليهم بأن يتوجهوا نحوه، من تفخيم شأنه، وتهويل أمره، ما لا يخفى، لِمَا فيه من تصويره بشيء مقبل عليهم، لا يزال يطلبهم حتى يصيبهم لا محالة. ومعنى اقترابه: دنوه منهم شيئًا فشيئًا حتى يلحقهم؛ لأن كل آت قريب، أي: دنا حساب أعمالهم السيئة الموجبة للعقاب.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا**﴾، ثم قال تعالى: ﴿**كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(٣٣)**﴾، والسقف: المستوى، والفلك: هو المستدير. أن السقف لا يلزم منه الاستواء، بل يقال لكل بناء عال على هواء سقف سواء كان مستويا أو مستديرا، كقولهم: "سقف الخباء"، وإن كان مستديرا. قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً**﴾ أي محفوظا من أن يقع ويسقط على الأرض؛ دليله قوله تعالى:

﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[الحج: ٦٥]. وقيل: محفوظا بالنجوم من الشياطين؛ قاله الفراء. دليله قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [الحجر:١٧]. وقيل: محفوظا من الهدم والنقض، وعن أن يبلغه أحد بحيلة. وقيل: محفوظا فلا يحتاج إلى عماد. وقال مجاهد: مرفوعا. وقيل: محفوظا من الشرك والمعاصي. ﴿وَهُمْ﴾ يعني الكفار ﴿عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾، قال مجاهد: يعني الشمس والقمر.

وأضاف الآيات إلى السماء لأنها مجعولة فيها، وقد أضاف الآيات إلى نفسه في مواضع؛ لأنه الفاعل لها. بين أن المشركين غفلوا عن النظر في السموات وآياتها، من ليلها ونهارها، وشمسها وقمرها، وأفلاكها ورياحها وسحابها، وما فيها من قدرة الله تعالى، إذ لو نظروا واعتبروا لعلموا أن لها صانعا قادرا فيستحيل أن يكون له شريك.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾، وقال في إدريس وعيسى عليهما السلام أنه: رفعهما إليه فهما حيان باقيان وهم من البشر. أن المراد من الخلد في الدنيا التي هي عالم الفناء المعهود عندهم، وإدريس وعيسى عليهما السلام في عالم آخر غير المعهود عنده. فقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الخلد﴾ [الأنبياء:٣٤]، فأنت كغيرك من البشر قبلك، أما مَنْ بعدك فلن يخلدوا بعد موت، ﴿أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الخالدون﴾[الأنبياء:٣٤]، فلا يفرحوا بموتك؛ لأنهم ليسوا خالدين من بعدك. ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت وَنَبْلُوكُم﴾.

إذن: فالموت قضية كونية عامة، وهي في حقيقتها خَيْر، فإنْ كانوا أخياراً نُعجِّل لهم جزاءهم عند الله، وإنْ كانوا أشراراً فقد أراحَ اللهُ منهم البلاد والعباد.

لكن، كيف يُذَاق الموت؟ الذَّوْق هنا يعني إحساسَ الإنسان بالألم من الموت، فإنْ مات فعلاً يستحيل أن يذوق، أما قبل أن يموت فيذوق مقدمات الموت فعلى أيِّ شيء يحزن الإنسان بعد أن يموت؟ ولماذا الحزن قبل أن يموت؟

فالمراد -إذن- ذائقةُ مقدمات الموت، التي يعرف بها أنه ميت، فالإنسان مهما كان صحيحاً لا بُدّ أنْ يأتي عليه وقت يدرك أنه لا محالةَ ميت، ذلك إذا بلغت الروح الحلقوم، كما قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التراقي * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ

أَنَّهُ الفراق﴾[القيامة:٢٦-٢٨]، فالموت في هذه الحالة أمر مقطوع به.

ثم يقول سبحانه: ﴿**وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً**﴾[الأنبياء:٣٥] أي: نختبركم، والابتلاء لا يُذَمُّ في ذاته، إنما تذم غية الابتلاء: أينجح فيه أم يفشل؟ كما نختبر الطلاب، فهل الاختبار في آخر العام شَرٌّ؟ لكن هل الحق سبحانه في حاجة لأنْ يختبر عباده ليعلم حالهم؟ الحق يختبر الخَلْق لا ليعلم، ولكن ليقيم عليهم الحجة.

والمخاطب في، ﴿**وَنَبْلُوكُم**﴾[الأنبياء:٣٥] الجميع: الغني والفقير، والصحيح والسقيم، والحاكم والمحكوم.. إلخ.

إذن: كلنا فتنة، بعضنا لبعض: فالغنيّ فتنة للفقير، والفقير فتنة للغني، كيف؟ الفقير: هل يصبر على فقره ويرضى به؟ هل سيحقد على الغني ويحسده، أم يقول: بسم الله ما شاء الله، اللهم بارك له، وأعطني من خَيْرك؟ والغني: هل يسير في ماله سَيْراً حسناً، فيؤدي حقَّه وينفق منه على المحتاجين؟ وهكذا، يمكنك أنْ تُجري مثل هذه المقابلات لتعلم أن الشر والخير كلاهما فتنة واختبار، ينتهي إما بالنجاح وإما بالفشل؛ لذلك يقول بعدها: ﴿**وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾[الأنبياء:٣٥] لنجازي كُلاً على عمله، فإنْ حالفك التوفيق فَلَكَ الأجر والمكافأة، وإنْ أخفقت فَلَكَ العقوبة، فلا بُدَّ أن تنتهي المسألة بالرجوع إلى الله.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ(٤٥)**﴾، وفى النمل والروم: ﴿**وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ**﴾. والصم كاف فما فائدة ولوا مدبرين؟. أن آية الأنبياء نسب فيها السماع إليهم فلم يحتج إلى توكيد ومبالغة فيه، ولذلك قال: ﴿**إِذَا مَا يُنْذَرُونَ(٤٥)**﴾ أي يتشاغلون عن سماعه، فهم كالصم الذين لا يسمعون. وفى آية الروم والنمل نسب الإسماع إلى النبي ﷺ فبالغ في عدم القدرة على إسماعهم بقوله تعالى: ﴿**وَلَّوْا مُدْبِرِينَ**﴾؛ لأن المولى عن المتكلم أجدر بعدم القدرة على إسماعه من الماكث عنده، ولذلك شبههم بالمولى، وفيه بسط عذر النبى ﷺ.

كان ﷺ يُنذر الناس ويذكّرهم بالوحي التنزيلي، وبقي خلفاؤه يذكرون بالوحي الإلهامي، موافقًا للتنزيلي، ولا يسمع وعظهم ويحضر مجالسهم إلا من سبقت له سابقة العناية، وأما من انتكبت عنه العناية تنكب مجالسهم، وتصامم عن وعظهم

وتذكيرهم، ولا يسمع الصمُّ الدعاء إذا ما ينذرون، ولا يندمون إلا حين تنزل بهم الأهوال، ولا ينفع الندم وقد جف القلم، وذلك حين تُوضع موازين الأعمال، فتثقل أعمال المخلصين، وتخف أعمال المخلَّطين، ولا تُوضع الموازين إلا لأهل النفوس الموجودة، وأما من غاب عن نفسه في شهود محبوبه، لفنائه في شهوده، وانطوائه في وجوده، فلا ينصب له ميزان؛ إذ لا يشهد لنفسه حسًا ولا فعلاً ولا تركًا، وإنما الفعل كله للواحد القهار. ويكون من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، جعلنا الله من خواصهم بمنِّه وكرمه.

مسألة:

قوله معا. إى: ﴿**وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ**(٧٠)﴾ وقال تعالى في الصافات: ﴿**فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ**(٩٨)﴾. أنهم أرادوا كيده بإحراقه فنجاه الله تعالى وأهلكهم وكسر أصنامهم، فخسروا الدنيا والآخرة.

وفى الصافات قالوا: ﴿**قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ**﴾ أي من فوق البناء في الجحيم، فناسب ذكر الأسفلين لقصدهم العلو لإلقائه في النار والله أعلم. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿**وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ**﴾ يوضحه ما قبله. فالكيد الذي أرادوه به إحراقه بالنار نصراً منهم لآلهتهم في زعمهم، وجعله تعالى إياهم الأخسرين. أي الذين هم أكثر خسراناً لبطلان كيدهم وسلامته من نارهم.

وقد أشار تعالى إلى ذلك أيضاً في سورة "الصافات" في قوله: ﴿**فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ**﴾ وكونهم الأسفلين واضح لعلوه عليهم وسلامته من شرهم. وكونهم الأخسرين لأنهم خسروا الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين. وفي القصة: أن الله سلط عليهم خلقاً من أضعف خلقه فأهلكهم وهو البعوض. وفيها أيضاً: أن كل الدواب تطفىء عن إبراهيم النار، إلا الوزغ فإنه ينفخ النار عليه.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ**﴾، وقال في سورة ص: ﴿**تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً**﴾، والعاصفة الشديدة، والرخاء: الرخوة. أنها كانت رخوة طيبة في نفسها، عاصفة في مرورها كما. قال تعالى: ﴿**غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ**﴾. أو أن ذلك كان باعتبار حالين على حسب ما يأمرها سليمان عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿**وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً**﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفة، أي شديدة الهبوب. يقال منه: عصفت الريح أي اشتدت فهي ريح عاصف وعصوف. وفي لغة بني أسد: أعصفت الريح فهي معصفة ومعصفة. والعصف التبن فسمي به شدة الريح؛ لأنها تعصفه بشدة تطيرها. والمعنى ولسليمان تسخير الريح؛ ﴿**تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا**﴾، يعني الشام يروي أنها كانت تجري به وبأصحابه إلى حيث أراد، ثم ترده إلى الشام.

وقال وهب: كان سليمان بن داود إذا خرج إلى مجلسه عكفت عليه الطير، وقام له الجن والإنس حتى يجلس على سريره. وكان امرأ غزاء لا يعقد عن الغزو؛ فإذا أراد أن يغزو أمر بخشب فمدت ورفع عليها الناس والدواب وآلة الحرب، أمر العاصف فأقلت ذلك، ثم أمر الرخاء فمرت به شهرا في رواحه وشهرا في غدوه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿**تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ**﴾[ص:٣٦]. والرخاء اللينة. ﴿**وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ**﴾ أي بكل شيء عملنا عالمين بتدبيره.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا**﴾ وفى التحريم: ﴿**فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا**﴾. أن لفظ التذكير عند العرب أخف من التأنيث، وها هنا لم يتكرر لفظ التأنيث كتكريره في التحريم فجاء فيها مؤنثا. وفى التحريم تكرر لفظ التأنيث بقوله تعالى: (ومريم)، و(ابنت)، و(أحصنت)، و(فرجها) فناسب التذكبير تخفيفا من زيادة تكرر التأنيث.

قوله تعالى: ﴿**فنفخنا فيها من رُوحِنَا**﴾، أي: أجرينا روح عيسى فيه وهو في بطنها، أو نفخنا في درع جيبها من ناحية روحنا، وهو جبريل عليه السلام، فأحدثنا بذلك النفخ عيسى عليه السلام، وإضافة الروح إليه تعالى؛ لتشريف عيسى عليه السلام.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**(٩٢) **وَتَقَطَّعُوا**﴾، وفى المؤمنين: ﴿**فَاتَّقُونِ**(٥٢) **فَتَقَطَّعُوا**﴾. أما قوله: ﴿**فَاعْبُدُونِ**﴾ فلأنه خطاب لسائر الخلق، فناسب أمرهم بالعبادة والتوحيد ودين الحق. وقوله: ﴿**فَاتَّقُونِ**﴾ خطاب للرسل فناسب الأمر بالتقوى، ويؤيده: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ**﴾، و﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ**﴾.

وأما "الواو"، و"الفاء"، فلأن ما قبل "الواو لا يتعلق بما بعدها، وما قبل "الفاء" متعلق بما بعدها لأن ذكر الرسل يقتضي التبليغ ولم يسمعوا، فكأنه قيل: بلغهم الرسل دين الحق فتقطعوا أمرهم، ولذلك قيل هنا: ﴿**كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ(٩٣)**﴾، وفي المؤمنين: ﴿**كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ**﴾، أي: من الخلاف بينهم فرحون.

والمعنى دينكم واحد وربكم واحد، فلم تختلفون ﴿**وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ**﴾ أي تفرقوا في الدين وكانوا شيعاً. فمنهم يهودي، ومنهم نصراني، ومنهم عابد وثن إلى غير ذلك من الفرق المختلفة. ثم بين بقوله: ﴿**كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ**﴾، أنهم جميعهم راجعون إليه يوم القيامة، وسيجازيهم بما فعلوا. وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة، ﴿**وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ**﴾، المعنى: جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً كما يتوزع الجماعة الشيء ويقتسمونه. فيصير لهذا نصيب ولذلك نصيب. تمثيلاً لاختلافهم فيه، وصيرورتهم فرقاً شتى.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ(١٠٠)**﴾، وقال تعالى: ﴿**وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ**﴾، وقال تعالى: ﴿**قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ(٩٦)**﴾، إلى غير ذلك مما يدل على سماعهم. لعل ذلك باعتبار حالين: فحال السماع والمحاجة والمخاصمة قبل اليأس من الخلاص من النار. وحال اليأس لا يسمعون، لما روى أنهم يجعلون في توابيت من نار ويسد عليهم أبوابها فحينئذ لا يسمعون.

والمعنى وهم فيها لا يسمعون شيئا؛ لأنهم يحشرون صما، كما قال الله تعالى: ﴿**وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً**﴾[الإسراء:٩٧]. وفي سماع الأشياء روح وأنس، فمنع الله الكفار ذلك في النار. وقيل: لا يسمعون ما يسرهم، بل يسمعون صوت من يتولى تعذيبهم من الزبانية.

وقيل: إذا قيل لهم ﴿**اخْسَأُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ**﴾[المؤمنون:١٠٨] يصيرون حينئذ صما بكما؛ كما قال ابن مسعود: إذا بقي من يخلد في النار في جهنم جعلوا في توابيت من نار، ثم جعلت التوابيت في توابيت أخرى فيها مسامير من نار، فلا يسمعون شيئا، ولا يرى أحد منهم أن في النار من يعذب غيره.

*****

سورة الحج

مسألة:

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾، ثم قال: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ الآية.

أن الزلزلة عامة في وقت واحد فيدركها الكل إدراكا واحدا، فقال: ﴿تَرَوْنَهَا﴾، ورؤية السكارى مختصة بكل إنسان بنفسه فيراهم هذا في وقت وهذا في وقت فقال: وترى أيها الرائي.

أمر جل وعلا في أول هذه السورة الكريمة: الناس بتقواه جل وعلا، بامتثال أمره، واجتناب نهيه، وبين لهم أن زلزلة الساعة شيء عظيم، تذهل بسببه المراضع عن أولادها، وتضع بسببه الحوامل أحمالها، من شدة الهول والفزع، وأن الناس يرون فيه كأنهم سكارى من شدة الخوف، وما هم بسكارى من شرب الخمر، ولكن عذابه شديد. وما ذكره تعالى هنا من الأمر بالتقوى، وذكره في مواضع كثيرة جداً من كتابه، كقوله في أول سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، إلى قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ إن كان المراد بالزلزلة نفس البعث والساعة فلا حمل حينئذ ولا رضاع. وإن كان غير الساعة فما هو؟. اختلف في ذلك، فقيل: هو رجفة عظيمة عند نفخة الصعق، وقيل: عند طلوع الشمس من مغربها، وهذا جواب ظاهر. وقيل: هو نفس قيام الساعة، والمراد: التمثيل بأن الحال كذلك لو كان حمل أو إرضاع.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾. جوابه: أنهم سكارى من الدهش لتلك الأهوال، وما هم بسكارى من الشراب. يوم ترون قيام الساعة تنسى الوالدةُ رضيعَها الذي ألقمته ثديها؛ لِمَا نزل بها من الكرب، وتُسْقط الحامل حملها من الرعب، وتغيب عقول للناس، فهم كالسكارى من شدة الهول والفزع،

وليسوا بسكارى من الخمر، ولكن شدة العذاب أفقدتهم عقولهم وإدراكهم.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ**﴾ ثم قال: ﴿**وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ**﴾، وقد دخلوا فيمن في الأرض. أن السجود المذكور أولا: سجود الخضوع والانقياد لأمره وتصرفه، وهو من الناس سجود العبادة المعهود. وله تعالى في "سورة الحج": ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ**﴾، فقوله: ﴿**وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ**﴾، دليل على أن بعض الناس غير داخل في السجود المذكور وهذا قول الحسن وقتادة وغيرهما وذكره الفراء، وقيل: الآية عامة، والمراد بسجود المسلمين طوعاً انقيادهم لما يريد الله منهم طوعاً والمراد بسجود الكافرين كرهاً انقيادهم لما يريد الله منهم كرهاً، لأن إرادته نافذة فيهم وهم منقادون خاضعون لصنعه فيهم ونفوذ مشيئته فيهم، وأصل السجود في لغة العرب الذل والخضوع.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا**﴾، وفى السجدة ﴿**أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا**﴾. لما تقدم تفاصيل أنواع العذاب ناسب قوله: ﴿**مِنْ غَمٍّ**﴾ أي من الغموم المذكورة وهي ثبات أهل النار، وصب الحميم في رؤوسهم إلى آخره. ولم يذكر في السجدة سوى ﴿**مَأْوَاهُمُ النَّارُ**﴾، فناسب سقوط ﴿**مِنْ غَمٍّ**﴾ واقتصر على (منها) ولذلك وصف أنواع نعيم الجنة لمقابلة ذكر أنواع عذاب النار واقتصر فى السجدة فيه كما يقتصر فيها على مقابله.

وقد جاء في القرآن أجوبة متعددة لطلب أهل النار فهنا قالوا: ﴿**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا**﴾ فأجيبوا ﴿**اخْسَأُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ**﴾، وفي السجدة: ﴿**رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً**﴾[السجدة:١٢]، فأجيبوا ﴿**وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ**﴾[السجدة: ١٣].

وفي سورة المؤمن: ﴿**قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ**﴾ [غافر:١١]، فأجيبوا ﴿**ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ**﴾[غافر:١٢]، وفي الزخرف

﴿**وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ**﴾ [الزخرف:٧٧]، فأجيبوا ﴿**إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ**﴾ [الزخرف: ٧٧]، وفي سورة إبراهيم: ﴿**فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ**﴾ [ابراهيم: ٤٤]، فيجابون: ﴿**أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ**﴾[إبراهيم:٤٤].

وفي سورة فاطر: ﴿**وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ**﴾[فاطر:٣٧]، فيجابون ﴿**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ**﴾ [فاطر:٣٧]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على مثل هذه الأجوبة. وعن ابن عباس: أن بين كل طلب منها وجوابه ألف سنة والله أعلم. وقوله في هذه الآية: ﴿**وَلا تُكَلِّمُونِ**﴾: أي في رفع العذاب عنكم، ولا إخراجكم من النار أعاذنا الله، وإخواننا المسلمين منها.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ**﴾، وقال في آخر السورة: ﴿**لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا**﴾ بغير واو. أن الأولى: تقدمها ما هو من جنسها وهو ذكر الحج والمناسك فحسن فيه العطف عليه، بخلاف الثانية: فإنه لم يتقدمها ما يناسبها فجاءت ابتدائية، وبيان ذلك قوله تعالى: ﴿**لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ**) الآية، ثم قال: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ**﴾ الآية.

والأمة: أهل الدين الذين اشتركوا في اتباعه. والمراد: أنّ المسلمين لهم منسك واحد وهو البيت العتيق كما تقدم. والمقصود من هذا الرد على المشركين إذ جعلوا لأصنامهم مناسك تشابه مناسك الحج وجعلوا لها مواقيت ومذابح مثل الغَبْغَب مَنحر العُزّى، فذكرهم الله تعالى بأنه ما جعل لكل أمّة إلاّ منسكاً واحداً للقربان إلى الله تعالى الذي رزق الناس الأنعام التي يتقربون إليه منها فلا يحق أن يُجعل لغير الله منسك؛ لأنّ ما لا يخلق الأنعام المقرّب بها ولا يرزقها الناسَ لا يسْتحق أن يُجعل له منسكٌ لِقربانها فلا تتعدد المناسك.

والنسك أيضا الطاعة. وقال الأزهري في قوله تعالى: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً**﴾: إنه يدل على موضع النحر في هذا الموضع، أراد مكان نسك. ويقال: منسك ومنسك، وقال الفراء: المنسك في كلام العرب الموضع المعتاد في خير أو شر. وقيل: مناسك الحج لترداد الناس إليها من الوقوف بعرفة ورمي الجمار

والسعي. وقال ابن عرفة في قوله: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً**﴾: أي مذهبا من طاعة الله تعالى؛ يقال: نسك نسك قومه إذا سلك مذهبهم.

وقيل: منسكا عيدا؛ وقيل: حجا؛ لقوله تعالى: ﴿**لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ**﴾، أي: على ذبح ما رزقهم. فأمر تعالى عند الذبح بذكره وأن يكون الذبح له؛ لأنه رازق ذلك. ثم رجع اللفظ من الخبر عن الأمم إلى إخبار الحاضرين بما معناه: فالإله واحد لجميعكم، فكذلك الأمر في الذبيحة إنما ينبغي أن تخلص له.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ**﴾، وقال تعالى: ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا**﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ وأشباه ذلك كوقعة أحد وحنين وبئر معونة. أن ناصر دين الله منصور بإحدى الحسنيين، أو أنه النصر في العاقبة، أو هو عام مخصوص كغيره من العمومات المخصوصة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿**وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾ [الحج:٤٠-٤١]، وقوله تعالى: ﴿**إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ [محمد: ٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا**﴾ بالفاء، وقال تعالى: ﴿**أَهْلَكْنَاهَا**﴾، ثم قال: ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا**﴾ بالواو. أن "الفاء" في الأولى: بدل من قوله تعالى: ﴿**فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ(٤٤)**﴾ فهو كالتفسير للنكرة. و"الواو" في الثانية: عطف على الجمل قبلها.

ولما قال قبل الأولى: فأمليت للكافرين، ثم أغنى ذكر الإملاء فيما بعد، ولأن الإهلاك إنما هو كان بعد الإملاء المذكور. ولما تقدم في الثانية: (ويستعجلونك) ناسب ﴿**أَمْلَيْتُ لَهَا**﴾ أي لم أعجل عليهم عند استعجالهم العذاب.

قوله تعالى: ﴿**فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ**﴾[الحج: ٤٥]، **(كأيِّن)** أداة تدل على الكَثْرة،

مثل: كم الخبرية حين تقول: كَمْ أحسنتُ إليك. تعني مرات عديدة تفوق الحصر، فهي تدل على المبالغة في العدد والكمية، ومنها قوله تعالى: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ**﴾[آل عمران:١٤٦]. والقرية: اسم للمكان، وحين يُهلِك الله القرية لا يُهلك المكان، إنما يهلك المكين فيه، فالمراد بالقرية أهلها، كما ورد في قوله تعالى: ﴿**وَسْئَلِ القرية التي كُنَّا فِيهَا**﴾[يوسف:٨٢] أي: اسأل أهل القرية.

ويحتمل أن يكون المعنى: اسأل القرية تُجبك؛ لأنك لو سألتَ أهل القرية فلربما يكذبون، أمَّا القرية فتسجل الأحداث وتُخبِر بها كما حدثت. وقد يتعدى الهلاك إلى القرية ذاتها، فيغير معالمها بدليل قوله تعالى: ﴿**فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظلموا**﴾[النمل:٥٢].

ومعنى: ﴿**أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ**﴾[الحج:٤٥]، أي: بسبب ظُلْمها، ولا يُغيِّر الله ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم، وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿**وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ**﴾[النحل: ١١٢].

فهلاك القُرَى لا بُدَّ أن يكون له سبب، فلما وقع عليها الهلاك أصبحت: ﴿**خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا**﴾[الحج:٤٥]، الشيء الخاوي يعني: الذي سقط وتهدَّم على غيره، وقوله: ﴿**على عُرُوشِهَا**﴾[الحج:٤٥]، يدل على عِظَم ما حَلَّ بها من هلاك، حيث سقط السقف أولاً، ثم انهارت عليه الجدران، أو: أن الله تعالى قَلَبها رأساً على عَقِب، وجعل عاليها سافلها.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**(٥٠)﴾ وقال تعالى بعده: ﴿**فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**(٥٦)﴾ وكلاهما للذين آمنوا وعملوا الصالحات. لما تقدم ذكر الإنذار في الأولى وهو في الدنيا، ذكر جزاء إجابته في الدنيا وهي مغفرة ورزق كريم. ولما تقدم في الثانية ذكر العقاب بقوله تعالى: ﴿**عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ**(٥٥)﴾ وهو يوم القيامة، ناسب ذلك: ﴿**فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**(٥٦)﴾، أي يوم القيامة. ﴿**فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾ يعني الجنة. ﴿**وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا**﴾ أي في إبطال آياتنا. ﴿**مُعَاجِزِينَ**﴾ أي مغالبين مشاقين؛ قال الفراء: معاندين. وقال عبد الله ابن الزبير: مثبطين عن الإسلام.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ**﴾ وفي لقمان بحذف (**هُوَ**). أن آية الحج تقدمها جمل عدة مؤكدات باللام والنون والهاء والواو فناسب توكيد هذه الجملة كأخواتها تبعا لهن. ولم يتقدم في لقمان مثل ذلك، ولذلك جاء في الحج بعدها: ﴿**وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**(٦٤)﴾، وفي لقمان: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ**﴾.

قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ**﴾ أي ذو الحق؛ فدينه الحق وعبادته حق. والمؤمنون يستحقون منه النصر بحكم وعده الحق: ﴿**وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ**﴾ أي الأصنام التي لا استحقاق لها في العبادات.

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر: ﴿**وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ**﴾ بالتاء على الخطاب، ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ**﴾، أي: العالي على كل شيء بقدرته، والعالي عن الأشباه والأنداد، المقدس عما يقول الظالمون من الصفات التي لا تليق بجلاله. ﴿**الْكَبِيرُ**﴾، أي: الموصوف بالعظمة والجلال وكبر الشأن. وقيل: الكبير ذو الكبرياء. والكبرياء عبارة عن كمال الذات؛ أي له الوجود المطلق أبدا وأزلا، فهو الأول القديم، والآخر الباقي بعد فناء خلقه.

*****

سورة المؤمنون

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ(١٣)**﴾ الآيات. عطف الأولين بثم، والثلاثة الأخر بالفاء. أن الإنسان: آدم، والمجعول: بنوه بعده، والمراد الجنس؛ لأن آدم عليه السلام لم يكن نطفة قط، ثم ذكر خلقه بعده من النطفة كما ذكر.

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أطوار خلقه الإنسان ونقله له، من حال إلى حال، ليدل خلقه بذلك على كمال قدرته واستحقاقه للعبادة وحده جل وعلا. وأنه لما بل بالماء صار طيبا ولما خمر صار طينا لازبا يلصق باليد، وصار حمأ مسنونا. قال بعضهم: طينا أسود منتنا، وقال بعضهم: المسنون: المصور، كما تقدم إيضاحه في سورة الحجر، ثم لما خلقه من طين خلق منه زوجه حواء، كما قال في أول النساء: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾[النساء:١]، وقال في الأعراف: ﴿**وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾[الأعراف:١٨٩]، وقال في الزمر: ﴿**ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾[الزمر:٦]، كما تقدم إيضاح ذلك كله، ثم لما خلق الرجل والمرأة، كان وجود جنس الإنسان منهما عن طريق التناسل، فأول أطواره: النطفة، ثم العلقة. الخ.

وقد بينا أغلب ذلك في أول سورة الحج، وقوله هنا: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ**﴾[المؤمنون:١٢]، يعني: بدأه خلق نوع الإنسان بخلق آدم، وقوله: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً**﴾ [المؤمنون:١٣]، أي: بعد خلق آدم وحواء، فالضمير في قوله: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاهُ**﴾ لنوع الإنسان، الذي هو النسل لدلالة المقام عليه، كقولهم: عندي درهم ونصفه: أي ونصف درهم آخر.

كما أوضح تعالى هذا المعنى في سورة السجدة في قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ. ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ**﴾[السجدة: ٦-٩] وأشار إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ**﴾ [الروم:٢٠] وما ذكره هنا من أطوار خلقه الإنسان، أمر كل مكلف أن ينظر فيه. والأمر المطلق، يقتضي الوجوب إلا لدليل صارف عنه، كما أوضحناه مرارا. وذلك

في قوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْأِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾[الطارق:١٣-١٤].

وقد أشار في آيات كثيرة، إلى كمال قدرته بنقله الإنسان في خلقه من طور إلى طور، كما أوضحه هنا وكما في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾[نوح:١٣- ١٤]. وبين أن انصراف خلقه عن التفكر في هذا والاعتبار به مما يستوجب التساؤل والعجب، وأن من غرائب صنعه وعجائب قدرته نقله الإنسان من النطفة، إلى العلقة، ومن العلقة إلى المضغة الخ. مع أنه لم يشق بطن أمه بل هو مستتر بثلاث ظلمات: وهي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة المنطوية على الجنين، وذلك في قوله جل وعلا: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾[الزمر: ٦] فتأمل معنى قوله: ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾، أي: عن هذه العجائب

والغرائب، التي فعلها فيكم ربكم ومعبودكم. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[آل عمران:٦]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾[الحج: ٥]، ثم ذكر الحكمة فقال ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾[الحج: ٥]، أي: لنظهر لكم بذلك عظمتنا، وكمال قدرتنا، وانفرادنا بالإلهية واستحقاق العبادة، وقال في سورة المؤمن: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً﴾[غافر:٦٧]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْأِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً. أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى. ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى. أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة:٣٦-٤٠] والآيات بمثل هذا كثيرة.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(١٤)﴾ وظاهره الاشتراك في الخلق وفى فاطر: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾. أن المراد بالخلق: التقدير، ويطلق الخلق على التقدير لغة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ لكن عند الإطلاق مختص بالله تعالى كالرب يطلق على رب المال والدار وعند الإطلاق لله تعالى. قوله تعالى في هذه الآية: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقوله

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ قال أبو حيان في البحر المحيط: تبارك: فعل ماض لا ينصرف، ومعناه: تعالى وتقدس. وقوله في هذه الآية: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، أي: المقدرين والعرب تطلق الخلق وتريد التقدير.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾، وقال تعالى بعده في قصة هود: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقدم الجار والمجرور ثانيا. أن الجار في قصة نوح عليه السلام. جاء بعد تمام الصلة والانتقال إلى المقول فما فصل بين متلازمين، ولو أخره في قصة هود عليه السلام لفصل بين الصلة وتمامها المعطوف عليها لأن قوله تعالى: (وكذبوا) من تمام الصلة.

وكأنهم يقولون له: إنك قد اكتفيت بهؤلاء الضعفاء وتركتنا نحن الأقوياء ولن نجلس معك إلا أن تبعد هؤلاء عنك لنجلس، فما كان من رسول الله ﷺ ببديهية الإيمان إلا أن قال: ما أنا بطارد المؤمنين.

إن رسول الله ﷺ يعرف أن هناك من أمثالهم من قالوا لغيره من الأنبياء مثل قولهم. فقد قال قوم نوح عليه السلام له ما حكاه القرآن الكريم: **﴿فَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرأي وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾** [هود: ٢٧].

وحاول بعض من أهل الكفر أن يعرضوا موقفاً وسطاً على رسول الله ﷺ، فقالوا: إذا نحن جئنا فأقمهم من عندك لنجلس معك فإذا قمنا من عندك فاجعلهم يجلسون. ووجد رسول الله ﷺ في هذا الرأي حلا وسطاً يمكن أن يقرب بين وجهات النظر، واستشار ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال عمر: لو فعلت حتى ننظر ما الذي يريدون. وطالب أهل الكفر من أثرياء قريش أن يكتب لهم رسول الله كتاباً بذلك، وجيء بالدواة والأقلام، وقبل الكتابة نزل قول الله: **﴿وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين﴾**[الأنعام:٥٢].

ورمى رسول الله ﷺ بالصحيفة التي جيء بها ليكتبوا عليها كلاماً يفصل بين جلوس سادة قريش إلى مجلس رسول الله وجلوس الضعفاء أتباع رسول الله. والنبي ﷺ إنما مال إلى ذلك من الكتابة طمعا في إسلام هؤلاء المشركين وإسلام قومهم

بإسلامهم رحمة بهم وشفقة عليهم، ورأى ﷺ أن ذلك لا يفوت أصحابه شيئا ولا ينقص لهم قدراً فمال إليه فأنزل الله الآية ونهاه عما همّ به من الطرد، لا لأنه ﷺ قد أوقع ذلك وطردهم وأبعدهم، ثم دعا بعد ذلك بالضعفاء فأتوه.

وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك يجلس مع المستضعفين، وإن أحب ﷺ أن يقوم من المجلس قام، ولكن الله أراده أن يكرم هؤلاء القوم المستضعفين بعد أن نهاه عن طردهم، وأن يكرمهم سبحانه بما أُهيجوا فيه، وجاء أمر إلهي آخر بألا يقوم رسول الله من مجلسه مع المستضعفين حتى يقوموا هم، فقال الحق تبارك وتعالى: **﴿واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتبع هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾**[الكهف: ٢٨].

وعندما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم». وبهذا القول الكريم أراد الحق سبحانه وتعالى إكرام الضعفاء والمستضعفين. ويقول سلمان الفارسي وخباب بن الأرت فينا نزلت، فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا ويدنو منا حتى تمس ركبتنا ركبته، وكان يقوم عنا إذا أراد القيام، فنزلت: **﴿واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾**، فترك القيام عنا إلى أن نقوم فكنا نعرف ذلك ونعجله القيام. أي أنهم هم الذين كانوا يقومون أولاً من مجلس رسول الله، فقول الحق: **﴿وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾**، هذا هو قول الله سبحانه أمر به رسول الله ومأمور به كذلك كل إنسان من بعد رسول الله، وفي هذا قمة التكريم للدائمين على ذكر الله من المستضعفين؛ لأنهم أهل محبة الإيمان وهم الذين سبقوا إليه.

وها هو ذا أحد خلفاء المسلمين وقد جاءه صناديد العرب الذين أسلموا، واستأذنوا في الدخول إليه، فلم يأذن لهم حتى أذن لضعفاء المسلمين. فورم أنف كل واحد من هؤلاء الصناديد، وقالوا: أيأذن لهؤلاء ويتركنا نحن؟ لقد صرنا مسلمين.

فقال قائل منهم يفهم ويفقه أمر الدين: أكلكم ورم أنفه أن يؤذن لهؤلاء قبلكم، لقد دعوا فأجابوا، ودعيتم فتباطأتم، فكيف بكم إذا دعوا إلى دخول الجنة وأُبطئ دخولكم.

إنّ هؤلاء الضعفاء يريدون بالطاعة وجه الله، وكلمة: «وجه الله» تدل على أن الإيمان قد أُشْرِب في قلوبهم، وأنهم جاءوا إلى الإيمان فِراراً بدينهم من ظلم الظالمين وطغيان الطغاة الذين كانوا يريدونهم على الكفر والضلال. إنهم قد حلا لهم الإيمان، وحلا لهم وجه الله، وحلا لهم أن يؤجل لهم كل الثواب إلى الآخرة.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ(١٠١)**﴾، وقال تعالى أيضا: ﴿**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ(٣٤)**﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿**وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ(٢٥)**﴾. أنه لا أنساب بينهم تنفع كما كانت تنفع في الدنيا.

ووجه آخر: أن في القيامة مواطن كما تقدم، ففي بعضها لا يتساءلون لاشتغالهم كل بنفسه، وفى بعضها يتساءلون. قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ**﴾. في هذه الآية الكريمة، سؤالان معروفان يحتاجان إلى جواب مبين للمقصود مزيل للإشكال.

السؤال الأول: أنه تعالى ذكر في هذه الآية: أنه إذا نفخ في الصور، والظاهر أنها النفخة الثانية، أنهم لا أنساب بينهم يومئذ، فيقال: ما وجه نفي الأنساب بينهم، مع أنها باقية كما دل عليه قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ* يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ* وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ**﴾[عبس:٣٣-٣٦]، ففي هذه الآية ثبوت الأنساب بينهم. السؤال الثاني: أنه قال: ﴿**وَلا يَتَسَاءَلُونَ**﴾، مع أنه ذكر في آيات أخر أنهم في الآخرة يتساءلون، كقوله في سورة الطور، ﴿**وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ**﴾[الطور:٢٥]، وقوله في الصافات: ﴿**فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ**﴾ [الصافات:٥٠]إلى غير ذلك من الآيات.

وإن الجواب عن السؤال الأول: هو أن المراد بنفي الأنساب انقطاع آثارها، التي كانت مترتبة عليها في دار الدنيا، من التفاخر بالآباء، والنفع والعواطف والصلات. فكل ذلك ينقطع يوم القيامة، ويكون الإنسان لا يهمه إلا نفسه، وليس المراد نفي حقيقة الأنساب، من أصلها بدليل قوله: ﴿**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ**﴾ [عبس:٣٤-٣٥].

وإن الجواب عن السؤال الثاني من ثلاثة أوجه: الأول: هو قول من قال: إن نفي السؤال بعد النفخة الأولى، وقبل الثانية، وإثباته بعدهما معا. وهذا الجواب فيما

يظهـر لا يخلـو مـن نظـر. الثـاني: أن نفـي السـؤال عنـد اشـتغالهم بالصـعق والمحاسبة، والجواز على الصراط وإثباته فيما عدا ذلك وهو عن السدي، من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. الثالث: أن السؤال المنفي سؤال خاص، وهو سؤال بعضهم العفو من بعض، فيما بينهم من الحقوق، لقنوطهم من الإعطاء، ولو كان المسئول أبا أو ابنا أو أما أو زوجة، ذكر هذه الأوجه الثلاثة صاحب الإتقان.

*****

سورة النور

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا**﴾، ثم قال: ﴿**الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً**﴾، قدم (الزَّانِيَة) أولا و(الزَّانِي). أن المرأة هي الأصل في الزنا غالبا لتزينها وتطميع الرجل بها، وقيل: لأن شهوة النساء أشد من الرجال، فلذلك قدمها أولا، وقدم الرجل ثانيا، لأن الرجل هو الأصل في عقد النكاح لأنه الخاطب، فناسب ما ذكرناه تقديم النساء أولا والرجال ثانيا.

﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ**﴾، ويلحق بها العبد الزاني فيجلد خمسين، فعموم الزانية مخصوص بنص قوله تعالى: ﴿**فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ**﴾، وعموم الزاني مخصوص بالقياس على المنصوص؛ لأنه لا فارق البتة بين الحرة والأمة إلا الرق، فعلم أنه سبب تشطير الجلد فأجرى في العبد لاتصافه بالرق الذي هو مناط تشطير الجلد، وهذه الآية عند الأصوليين من أمثلة تخصيص عموم النص بالقياس، بناء على أن نوع تنقيح المناط المعروف بإلغاء الفارق يسمى قياسا، والخلاف في كونه قياسا معروف في الأصول. أما الرجم فمعلوم أنه لا يتشطر، فلم يدخل في المراد بالآية.

قوله تعالى: ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي**﴾، كان الزنى في اللغة معروفا قبل الشرع، مثل اسم السرقة والقتل. وهو اسم لوطء الرجل امرأة في فرجها من غير نكاح ولا شبهة نكاح بمطاوعتها. وإن شئت، قلت: هو إدخال فرج في فرج مشتهى طبعا محرم شرعا؛ فإذا كان ذلك وجب الحد. وقد مضى الكلام في حد الزنى وحقيقته وما للعلماء في ذلك. وهذه الآية ناسخة لآية الحبس وآية الأذى اللتين في سورة "النساء" باتفاق.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ**﴾ ثم قال: قوله تعالى: ﴿**وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ**﴾، ثم قال: ﴿**وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا**﴾. إما ليتفنن في الخطاب لكراهة التكرار، أو لأن الغضب أشد من اللعن لأنه مقدمة الانتقام، واللعن: الإبعاد المجرد، وقد لا ينتقم. وخصها بذلك لاحتمال كذبها لقلة عقلها ودينها.

الزوج القاذف داخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾[النور:٤]؛ ولكن الله بين خروج الزوج من هذا العموم بشهاداته، حيث قال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ.وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[النور:٦-٧]، فلم يجعل له مخرجا من جلد ثمانين، وعدم قبول الشهادة، والحكم بالفسق إلا بشهاداته التي قامت له مقام البينة المبرئة له من الحد، فإن نكل عن شهاداته فالظاهر وجوب الحد عليه؛ لأنه لم تدرأ عنه أربعة عدول يشهدون بصدقه، ولا شهادات تنوب عن الشهود. فتعين أنه يحد لأنه قاذف، ولم يأت بما يدفع عنه حد القذف، وكذلك الزوجة إذا نكلت عن أيمانها فعليها الحد؛ لأن الله نص على أن الذي يدرأ عنها الحد هو شهاداتها في قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾، وممن قال إن الزوج يلزمه الحد إن نكل عن الشهادات الأئمة الثلاثة، خلافا لأبي حنيفة القائل بأنه يحبس حتى يلاعن، أو يكذب نفسه، فيقام عليه حد القذف. ومن قال بأنها إن شهد هو، ونكلت هي أنها تحد بشهاداته ونكولها: مالك، والشافعي، والشعبي، ومكحول، وأبو عبيد، وأبو ثور؛ كما نقله عنهم صاحب "المغني".

وهذا القول أصوب عندنا، لأنه ظاهر قوله: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾ الآية، ولا ينبغي العدول عن ظاهر القرءان إلا لدليل يجب الرجوع إليه من كتاب أو سنة. وقال أبو حنيفة وأحمد: لا حد عليها بنكولها عن الشهادات، وتحبس أيضا حتى تلاعن أو تقر فيقام عليها الحد.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ(١٠)﴾، وقال تعالى بعده: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(٢٠)﴾. أن الأولى: تقدمها ذكر الزنا والجلد، فناسب ختمه بالتوبة، حثا على التوبة منه وأنها مقبولة من التائب، وناسب أنه (حَكِيمٌ) لأن الحكمة اقتضت ما قدمه من العقوبة لما فيه من الزجر عن الزنا، وما يترتب عليه من المفاسد. وأما الثانية: فقوله تعالى: ﴿رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ذكره بعد ما وقع به أصحاب الإفك فبين أنه لولا رأفته ورحمته لعاجلهم بالعقوبة على عظيم ما أتوه من الإفك، ولذلك قال تعالى فيما تقدمه: ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٤)﴾.

والتقدير: لولا فضل الله عليكم فدفع عنكم أذى بعضكم لبعض بما شرع من الزواجر لتكالبَ بعضكُم على بعض، ولولا رحمة الله بكم فقدر لكم تخفيضاً مما شرع من الزواجر في حالة الاضطرار والعذر لما استطاع أحد أن يسكت على ما يرى من مثار الغيرة، فإذا باح بذلك أُخذ بعقاب وإذا انتصف لنفسه أهلك بعضاً أو سكت على ما لا على مثله يغضى، ولولا أن الله تواب حكيم لما رد على من تاب فأصلح ما سلبه منه من العدالة وقبول الشهادة.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ**﴾، وقال تعالى بعده: ﴿**لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ**﴾ بحذف "الواو" و "إليكم". أن الأولى بعد ما قدمه قبلها من المواعظ والآداب والأحكام، فناسب العطف عليه "بالواو": و "إلى" ثم ابتدأ كلاما مستأنفا بعد ما قدمه من عظيم آياته بإرسال الرياح والمطر وإنزال الماء والبرد قوله تعالى: "إليكم" في الأولى دون الثانية؛ لأنها عقيب تأديب المؤمنين وإرشادهم فكأنها خاصة بهم. والثانية عامة لأن آيات القدرة للكل غير خاصة، ولذلك قال تعالى بعده: ﴿**وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾.

قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ**﴾[النور:٣٤]. ذكر الله جلا وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه أنزل إلينا على لسان نبيه ﷺ آيات مبينات، ويدخل فيها دخولا أوليا الآيات التي بينت في هذه السورة الكريمة، وأوضحت في معاني الأحكام والحدود، ودليل ما ذكر من القرآن قوله تعالى: ﴿**سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [النور:١] ولا شك أن هذه الآيات المبينات المصرح بنزولها في هذه السورة الكريمة، داخلة في قوله تعالى هنا: ﴿**وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ**﴾ [النور:٣٤] الآية.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ**﴾ ثم قال بعده: ﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ**﴾ ثم بعده: ﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ**﴾. أن ذلك كما قدمنا مرات للتفنن لكراهة التكرار لما فيه من مج النفوس. وأيضا قد يقال: لما قدم الأوقات التي يستأذن فيها والاستئذان من أفعال العباد، وكذلك الآية الثالثة قال: (الْآيَاتِ) أي

العلامات على أحكامه تعالى ولما قدم على الثانية بلوغ الأطفال وهو من فعله تبارك وتعالى وخلقه لا من فعل العبد نسب الآيات إلى نفسه، فقال تعالى: (آيَاتِهِ) لاختصاص الله تعالى بذلك.

*****

سورة الفرقان

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا**﴾، وفي الرعد: ﴿**نَفْعًا وَلَا ضَـرًّا**﴾، وقد تقدم جوابه في سورة الرعد. وقيل المعنى: لا يقدرون أن يضرّوا أنفسهم، أو ينفعوها بشيء، والأول هو الأظهر، أي: وإذا عجزوا عن دفع ضرّ عن أنفسهم وجلب نفع لها فهم عن الموت والحياة والنشور أعجز؛ لأن ذلك لا يقدر عليه إلاّ اللَّه جلَّ وعلا.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا**﴾، وقال تعالى في سبأ: ﴿**بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ**﴾. ذكر الأول وأنث الثاني. أن التذكير تارة يكون باعتبار اللفظ وتارة باعتبار معناه كقوله تعالى: ﴿**السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ**﴾، وقال تعالى: ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ**﴾. وأيضا فإن ما لا روح فيه يقال فيه ميت، وما فيه روح يقال له ميتة. قوله تعالى: ﴿**لِنُحْيِيَ بِهِ**﴾ أي بالمطر. ﴿**بَلْدَةً مَيْتاً**﴾ بالجدوبة والمحل وعدم النبات. قال كعب: المطر روح الأرض يحييها الله به. وقال: ﴿**مَيْتاً**﴾ ولم يقل ميتة لأن معنى البلدة والبلد واحد؛ قاله الزجاج. وقيل: أراد بالبلد المكان. ﴿**مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً**﴾، أي: بشرا كثيرا.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ**﴾. قد يقال زائدا على ما قدمناه في يونس عليه السلام وغيرها أنه لما كان النفى بالإثبات أنسب لأنه مطلوب مطلقا، والضر من باب النفي؛ لأنه يطلب نفيه عند حصوله فالنفي فيه أنسب. ولما تقدم في أول السورة: ﴿**لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ**﴾، قدم النفي على الإثبات فكان تقديم ما يناسب النص أنسب لتناسب الجملتين. وهاهنا، وفى الرعد لم يتقدم جملة تقدم نفيها على إثباتها فكان تقديم ما هو من باب الإثبات أنسب مما هو من باب النفى. فإن قيل: فقد قدم الضر على النفع في سورة يونس عليه السلام.

قلنا: قد أجبنا ثَمَّ عن الموضعين. ومع كل هذه الدلائل على قدرة الله وإنعامه

على خلقه يَعبدُ الكفار مِن دون الله ما لا ينفعهم إن عبدوه، ولا يضرهم إن تركوا عبادته، وكان الكافر عونًا للشيطان على ربه بالشرك في عبادة الله، مُظَاهِرًا له على معصيته.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ**﴾، وقال في الشعراء: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ**(٢١٧)﴾. أنه أشار هاهنا إلى الصفة التي يدوم معها نفع المتوكل عليه وهي في دوام الحياة، لأن من يموت ينقطع نفعه. وأشار في آية الشعراء إلى الصفتين اللتين ينفع معهما التوكل، وهي العزة التي يقدر بها على النفع، والرحمة التي بها يوصله إلى المتوكل وخص آية الشعراء بختمها بذلك مع ما ذكرناه أي ﴿**عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ**(٢١٧)﴾ الذي تقدم وصفه مرة بعد مرة في إنجاء الرسل وإهلاك أعدائهم.

وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً**﴾[النساء:١٣٣]، وقوله تعالى: ﴿**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ**﴾[الأنعام:١٣٣]، وقوله تعالى: ﴿**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ**﴾ [فاطر:١٦-١٧]، وقوله تعالى: ﴿**الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا**﴾[محمد:٣٨]، وقد قدمنا هذا في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى: ﴿**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ**﴾[النساء:١٣٣]، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿**وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾، فيه للعلماء أقوال متقاربة.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا**﴾، الآية. ثم قال تعالى: ﴿**وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾ ما معناهما حتى تكرر ذلك. أنه من تاب فإنه يرجع إلى الله وإلى ثوابه رجوعا أي رجوع. فقد صرح جل وعلا في هذه الآية أن الذين يزنون ومن ذكر معهم إن تابوا وآمنوا، وعملوا عملا صالحا يبدل الله سيئاتهم حسنات، وهو يدل على أن التوبة من الزنا، تذهب أثره.

فالذين قالوا: إن من زنا بامرأة لا تحل له مطلقا، ولو تابا وأصلحا فقولهم خلاف التحقيق، وقد وردت آثار عن الصحابة بجواز تزويجه بمن زنى بها إن تابا،

وضرب له بعض الصحابة مثلا برجل سرق شيئا من بستان رجل آخر، ثم بعد ذلك اشترى البستان فالذي سرقه منه حرام عليه، والذي اشتراه منه حلال له، فكذلك ما نال من المرأة حراما فهو حرام عليه، وما نال منها بعد التوبة والتزويج حلال له، والعلم عند الله تعالى.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾، وقال تعالى في مريم: ﴿**فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ**﴾. أنه ذكر هنا السبب في دخول الجنة وهي الحسنات. وذكر في مريم المسبب عن ذلك وهو دخول الجنة. فقد صرح جل وعلا في هذه الآية أن الذين يزنون ومن ذكر معهم إن تابوا وآمنوا، وعملوا عملا صالحا يبدل الله سيئاتهم حسنات، وهو يدل على أن التوبة من الزنا، تذهب أثره. فالذين قالوا: إن من زنا بامرأة لا تحل له مطلقا، ولو تابا وأصلحا فقولهم خلاف التحقيق، وقد وردت آثار عن الصحابة بجواز تزويجه بمن زنى بها إن تابا، وضرب له بعض الصحابة مثلا برجل سرق شيئا من بستان رجل آخر، ثم بعد ذلك اشترى البستان فالذي سرقه منه حرام عليه، والذي اشتراه منه حلال له، فكذلك ما نال من المرأة حراما فهو حرام عليه، وما نال منها بعد التوبة والتزويج حلال له، والعلم عند الله تعالى.

*****

سورة الشعراء

قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ**﴾، وفى الأنعام والأنبياء ﴿**مِنْ رَبِّهِمْ**﴾، و﴿**فَسَيَأْتِيهِمْ**﴾، و﴿**فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ**﴾، تقدم ذلك في الأنعام. وأيضا: فتقدم قوله تعالى هنا: ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ**﴾ ناسب فسيأتيهم، أي: لا تقتل نفسك فسيأتيهم أنباء ذلك.

هذا بيان لشدة شكيمتهم وعدم ارعوائهم عما كانوا عليه من الكفر والتكذيب؛ لصرف رسوله ﷺ عن الحرص على إسلامهم، وقطع رجائه فيهم على الجملة.

قال القشيري: أي: ما نُجَدِّد لهم شَرْعاً، أو نرسل رسولاً إلا أعرضوا عما دلّ برهانه عليه، وقابلوه بالتكذيب، فلو أنهم أنعموا النظرَ في آياتهم، لا تضح لهم صدقهم، ولكن المقسوم من الخذلان في سابق الحُكْمِ يمنعهم من الإيمان والتصديق.

﴿**فَقَدْ كَذَّبُوا**﴾ أي أعرضوا ومن أعرض عن شيء ولم يقبله فهو تكذيب له. ﴿**فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾ وعيد لهم؛ أي فسوف يأتيهم عاقبة ما كذبوا والذي استهزؤوا به.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا**﴾ الآية، وفى الأنعام: ﴿**أَلَمْ يَرَوْا**﴾ بحذف الواو. جوابه: أن ذلك بالواو أشد إنكارا، فلما كان المرئي ثمة إهلاك من قبلهم وهو أمر غائب غير مشاهد، وكان المرئي هنا إحياء الأرض وإنبات أصناف النبات والشجر، وهو مرئي كل أوان مشاهد بالحس كان الإنكار بترك الاعتبار هنا أشد، فأتى بالواو الدالة على شدة الإنكار.

أكذبوا ولم ينظروا إلى الأرض التي أنبتنا فيها من كل نوع حسن نافع من النبات، لا يقدر على إنباته إلا رب العالمين؟

إن في إخراج النبات من الأرض لَدلالة واضحة على كمال قدرة الله، وما كان أكثر القوم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز على كل مخلوق، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ(٢٠)**﴾. جوابه: المراد: الضالين عن الصواب فيها لا الضلال في الدين. أي: قال موسى مجيبًا لفرعون: ﴿**قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً**﴾، أي: إذ فعلتها ﴿**وَأَنَا**﴾ في ذلك الحين ﴿**مِنَ الضَّالِّينَ**﴾، أي: قبل أن يوحي اللَّه إليّ، ويبعثني رسولاً، وهذا هو التحقيق إن شاء اللَّه في معنى الآية. وقول من قال من أهل العلم: ﴿**وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ**﴾، أي: من الجاهلين، راجع إلى ما ذكرنا؛ لأنه بالنسبة إلى ما علمه اللَّه من الوحي يعتبر قبله جاهلاً، أي: غير عالم بما أوحى اللَّه إليه.

وقد بيَّنا مرارًا في هذا الكتاب المبارك أن لفظ الضلال يطلق في القرءان، وفي اللغة العربية ثلاثة إطلاقات: الإطلاق الأوّل: يطلق الضلال مرادًا به الذهاب عن حقيقة الشيء، فتقول العرب في كل من ذهب عن علم حقيقة شيء ضلّ عنه، وهذا الضلال ذهاب عن علم شيء ما، وليس من الضلال في الدين. ومن هذا المعنى قوله هنا: ﴿**وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ**﴾، أي: من الذاهبين عن علم حقيقة العلوم، والأسرار التي لا تعلم إلا عن طريق الوحي، لأني في ذلك الوقت لم يوحَ إليّ، ومنه على التحقيق: ﴿**وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى**﴾، أي: ذاهبًا عمّا علمك من العلوم التي لا تدرك إلا بالوحي.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ(٥٨)**﴾، وفى الدخان: ﴿**وَزُرُوعٍ**﴾. أن كلا الأمرين تركوه، لأن مصر ذات زروع، والكنوز، قيل: ما كانوا يدخرونه من الأموال، وقيل: هي كنوز في جبل المقطم، وفيه نظر. والله أعلم.

فأخرج الله فرعون وقومه من أرض "مصر" ذات البساتين وعيون الماء وخزائن المال والمنازل الحسان. وكما أخرجناهم، جعلنا هذه الديار من بعدهم لبني إسرائيل، فلحق فرعون وجنده موسى ومَن معه وقت شروق الشمس.

مسألة: قوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ(٥٩)**﴾، وفى الدخان: ﴿**وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ(٢٨)**﴾. أنه حيث قال: بنى إسرائيل " فلعله لما سكنوها بعد مدة طويلة من غرق فرعون، وذلك لما تهود ملك مصر، وقيل: إن الضمير في: "ورثناها "، راجع إلى النعم المذكورة، أي: أورثهم إياها في الشام لا في مصر.

وحيث قال: ﴿**قَوْمًا آخَرِينَ**﴾ فهم قوم ملكوا مصر بعد فرعون وقومه.

هذا هو الجواب الظاهر، فإنه لم ينقل قط أنهم بعد غرق فرعون رجعوا إلى مصر بل دخلوا في التيه، ثم دخلوا الأرض المقدسة. وقيل: إنه لما بسط ذكر القصة هنا وسمى موسى وهارون عليهما السلام ناسب تعيين بنى إسرائيل وتسميتهم في وراثة مصر.

ولما اختصر القصة في الدخان ولم يسم موسى عليه السلام فيها بل قال تعالى: ﴿**جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ**(١٣)﴾، فأتى باسمه مبهما، ناسب ذلك الإتيان بذكر بني إسرائيل مبهما بقوله تعالى: ﴿**قَوْمًا آخَرِينَ**﴾ وهذا على رأى من يجعل الضمير.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ**(٢٠)﴾. المراد: الضالين عن الصواب فيها لا الضلال في الدين. قال موسى مجيبًا لفرعون: فعلتُ ما ذكرتَ قبل أن يوحي الله إلي، ويبعثني رسولا فخرجت من بينكم فارًّا إلى "مدين"، لمَّا خفت أن تقتلوني بما فعلتُ من غير عَمْد، فوهب لي ربي تفضلا منه النبوة والعلم، وجعلني من المرسلين. وتلك التربية في بيتك تَعُدُّها نعمة منك عليَّ، وقد جعلت بني إسرائيل عبيدًا تذبح أبناءهم وتستحيي نساءهم.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ**(٧٠)﴾، وفى الصافات: ﴿**مَاذَا تَعْبُدُونَ**﴾.

جوابه: أن (**مَاذَا**) أبلغ في الاستفهام من (**مَا**)، فقوله هنا: (**مَا تَعْبُدُونَ**) له خارج مخرج الاستفهام عن حقيقة معبودهم، فلذلك أجابوه بقولهم: (**نَعْبُدُ أَصْنَامًا**)، وأما آية الصافات فهو استفهام توبيخ وتقريع بعد معرفته لمعبودهم ولذلك تمم كلامه بما يدل على الإنكار عليهم، فقال: ﴿**أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ**(٨٦)﴾ الآيات، ولذلك لم يجيبوه في آية الصافات لفهم قصد الإنكار عليهم.

واقصص على الكافرين أيها الرسول خبر إبراهيم حين قال لأبيه وقومه: أي شيء تعبدونه؟ ﴿**قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ**(٧١)﴾، قالوا: نعبد أصنامًا،

فنَعْكُف على عبادتها.

مسألة:

قولـه تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ(٧٨)**﴾ كرر "هو" في: "يَهْدِينِ، ويطعمنى، ويسقين، ويشفين" ولم يكرره في: مرضت، ويميتني.

جوابه: من وجهين: أحدهما: سلوك الأدب في إضافته المحبوب والنعمة إلى الله تعالى وسكوته عن المكروه من المرض والموت وإضافته إلى نفسه. والثاني: أن الإطعام والسقي والشفاء قد يضاف إلى الإنسان، فيقال: فلان يطعم فلانا ويسقيه، فأراد أن الله هو الفعال لذلك، وأكد الحصر بقوله: هو.

قال إبراهيم: أفأبصرتم بتدبر ما كنتم تعبدون من الأصنام التي لا تسمع ولا تنفع ولا تضر، أنتم وآباؤكم الأقدمون من قبلكم؟ فإن ما تعبدونهم من دون الله أعداء لي، لكن رب العالمين ومالك أمرهم هو وحده الذي أعبده. هو الذي خلقني في أحسن صورة فهو يرشدني إلى مصالح الدنيا والآخرة، وهو الذي ينعم عليَّ بالطعام والشراب، وإذا أصابني مرض فهو الذي يَشْفيني ويعافيني منه، وهو الذي يميتني في الدينا بقبض روحي، ثم يحييني يوم القيامة، لا يقدر على ذلك أحد سواه، والذي أطمع أن يتجاوز عن ذنبي يوم الجزاء.

مسألة:

قوله تعالى في قصة نوح عليه السلام: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ**﴾، كرره دون سائر القصص في السورة. لعله والله أعلم لطول مدة تبليغهم وأمرهم بالإيمان والتقوى، فقرر ذلك لذلك. ومجموعة هذه الأوامر التي تقدمت هي آية أي شيء عجيب، بلغت القوم الذين أرسل الله عيسى إليهم، إنه كرسول وكبشر لا يستطيع أن يجيء بالآية المعجزة بمفرده بل لا بد أن يكون مبعوثا من الله. فيجب أن يلتفتوا إلى أن الله الذي أرسله، وله طلاقة القدرة في خرق النواميس هو سبحانه الذي أجرى على يدي عيسى هذه الأمور، ويأمرهم عيسى ابن مريم بتقوى الله نتيجة لذلك، ويدعو القوم لطاعته في تطبيق منهج الله.

مسألة:

قوله تعالى في قصة صالح عليه السلام: ﴿**مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا**﴾، وفى

قصة شعيب عليه السلام: ﴿**وَمَا أَنْتَ**﴾، بزيادة الواو. جوابه: أن قولهم لصالح ﴿**مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا**﴾ هو بدل من قولهم: ﴿**إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ**﴾، فلم يغلظوا له، ولا اقترحوا عليه آية وقوم شعيب في خطابهم غلظ عليه وشطط، واقتراح ما اشتهوه من الآيات، فقولهم: (وما) جملة ثانية معطوفة على ما قبلها، فعابوه بأنه من المسحرين، وبأنه بشر مثلهم، وأنه من الكاذبين، واقترحوا الآية عليه، فناسب كلام صالح أوله، وأول كلام قوم شعيب وآخره.

*****

سورة النمل

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ**﴾، والجان صغار الحيات، وقال تعالى في الأعراف: ﴿**فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ**(١٠٧)﴾، والثعبان أكبر الحيات. معناه كأنها جان في سرعة حركتها لا في عظمها، ولذلك قال تعالى: ﴿**تَهْتَزُّ**﴾، وحيث قال تعالى: ﴿**ثُعْبَانٌ**﴾ إشارة إلى عظمها فكانت في الحركة كالجان، وفى العظم ثعبان. فلمّا ألقى موسى عصاه وجدها، ﴿**تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ**﴾[النمل:١٠].

يعني: حية تسعى وتتحرك، والعجيب أنها لم تتحول إلى شيء من جنسها، فالعصا عود من خشب، كان فرعاً في شجرة، فجنسه النبات ولما قُطعت وجفَّتْ صارت جماداً، فلو عادت إلى النباتية يعني: إلى الجنس القريب منها واخضرتْ لكانت عجيبة.

أمّا الحق تبارك وتعالى فقد نقلها إلى جنس آخر إلى الحيوانية، وهذه قفزة كبيرة تدعو إلى الدهشة بل والخوف، خاصة، وهي ﴿**تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ**﴾[النمل:١٠] أي: تتحرك حركة سريعة هنا وهناك.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ**﴾، وفى الزمر: ﴿**فَصَعِقَ**﴾. أن آية النمل في نفخة البعث، ولذلك قال تعالى: ﴿**وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ**﴾ وآية الزمر في نفخة الموت، ولذلك قال تعالى: ﴿**ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى**﴾.

واذكر -أيها الرسول- يوم يَنفخ الملَك في "القرن" ففزع مَن في السموات ومَن في الأرض فزعًا شديدًا مِن هول النفخة، إلا مَنِ استثناه الله ممن أكرمه وحفظه من الفزع، وكل المخلوقات يأتون إلى ربهم صاغرين مطيعين.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ**﴾، وقال تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧)**﴾.

أن ذلك باختلاف أحوال: ففي أول الأمر تسير سير السحاب وترى كالواقفة لعظمها كسير الشمس والقمر في رأى العين ثم بعد ذلك تتضاءل فتكون كالعهن المنفوش ثم تنسف فتكون الأرض قاعا صفافا، والنسف هو تفريق الريح الغبار فيصير كالهباء.

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه: ﴿**وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ**﴾[النمل:٨٨]، ونفهم من هذا القول الكريم أن حركة الجبال ليست ذاتيةً بل تابعة لحركة الأرض؛ كما يتحرك الحساب تبعاً لحركة الرياح. وشاء سبحانه أن يجعل الجبال رواسي مُثَبِّتات للأرض كي لا تميدَ بنا؛ فلا تميل يَمْنة أو يَسْرة أثناء حركتها.

واعلم أنه جلّ وعلا بين الأحوال التي تصير إليها الجبال يوم القيامة في آيات من كتابه. فبيّن أنه ينزعها من أماكنها. ويحملها فيدكّها دكّاً. وذلك في قوله: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ**﴾. ثم بيّن أنه يسيّرها في الهواء بين السماء والأرض. وذلك في قوله ﴿**وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ**﴾، وقوله: ﴿**وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً**﴾، وقوله: ﴿**وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ**﴾، وقوله تعالى: ﴿**وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً**﴾، وقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً**﴾.

ثم بيّن أنه يفتتها ويدقها كقوله ﴿**وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً**﴾ أي: فتت حتى صارت كالبسيسة، وهي دقيق ملتوت بسمن أو نحوه على القول بذلك، وقوله: ﴿**وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً**﴾. ثم بيّن أنه يصيّرها كالرمل المتهايل، وكالعن المنفوش؟ وذلك في قوله: ﴿**يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً**﴾، وقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ**﴾ في "المعارج، والقارعة". والعهن: الصوف المصبوغ.

*****

سورة القصص

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى**﴾، وفي يس: ﴿**وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى**﴾.

جوابه: أن الرجل هنا: قصد نصح موسى عليه السلام وحده لما وجده والرجل في يس: قصد من أقصا القرية نصح الرسل ونصح قومه، فكان أشد وأسرع داعية فلذلك قدم قاصدا ﴿**مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ**﴾؛ لأنه ظاهر صريح في قصده ذلك من أقصا المدينة. قوله: ﴿**وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى**﴾، قال صاحب "الكشاف": يسعى يجوز ارتفاعه وصفاً لرجل، وانتصابه حالاً عنه؛ لأنه قد تخصص بقوله: ﴿**مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ**﴾، والائتمار التشاور يقال الرجلان (يتآمران) يأتمران؛ لأن كل واحد منهما يأمر صاحبه بشيء أو يشير عليه بأمر، والمعنى يتشاورون بسببك. وأكثر المفسرين على أن هذا الرجل مؤمن آل فرعون، فعلى وجه الإشفاق أسرع إليه ليخوفه بأن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا**﴾، وبقية السورة ﴿**إِنِّي آنَسْتُ نَارًا**﴾. لما تقدم هنا: (وَسَارَ بِأَهْلِهِ) ناسب (امْكُثُوا) أي: عن السير.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾، ظاهره جواز عذابهم بما قدمت أيديهم قبل إرسال الرسل، وقد قال تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا(١٥)**﴾. أن جواب لولا مقدر محذوف تقديره: لولا أنا إذا عذبناهم بمعاصيهم قبل الرسل يقولون ذلك لعذبناهم بها قبل الرسالة لكن يؤخر العذاب إلى ما بعد إرسال الرسل لأن لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وقوله تعالى: ﴿**لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا**﴾ أي: بعد إبراهيم كما أرسلت إلى بني إسرائيل وفرعون، فألزمهم الحجة بقوله: أو لم يكفر الذين أرسل إليهم موسى به، وقالوا ساحران والله أعلم.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا**﴾، وفى حم عسق: ﴿**فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾. أن آية القصص، تقدمها ذكر الكفار وهم المغترون بزينة الدنيا من مساكن وأموال وخدم وناسب ذلك ذكر الزينة وختمها بقوله تعالى: ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ وآية حم تقدمها آيات نعمه على عباده المؤمنين، وهم لإيمانه بالآخرة لا يغترون بزينة الدنيا فناسب عدم الزينة، وختم الآية بقوله تعالى: ﴿**وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا**﴾، الآيتين. قدم "الليل" على "النهار"، وختم الأول ب: (**تَسْمَعُونَ**)، والثانية ب: (**تُبْصِرُونَ**). أن الليل هو الأصل السابق على الضياء بالشمس لزواله لطلوعها. ولأن عموم منافع النهار أعظم من منافع الليل فقدم المنة بالنعمة العظمى. وقوله تعالى في الأولى: (**تَسْمَعُونَ**) لأن عموم المسموعات في النهار لسبب كثرة الحركات والكلام والمخاطبات والمعاش أكثر من الليل فناسب ذكر السمع.

وقوله تعالى في الثانية: (**تُبْصِرُونَ**)؛ لأن ظلام الليل يغشى الأبصار كلها فناسب ختمها بذكر البصر. إذن: فالإنسان يحتاج إلى ضوء النهار للحركة والعمل، ويحتاج إلى ظُلْمة وسكون الليل للنوم، وإن لم يَنَمِ الإنسان ويسترِحْ فهو لا يستطيع مواصلة العمل.

وهكذا نرى الليل والنهار متكاملين وليسا متضادين. كذلك الرجل والمرأة. وقد لا يفهم بعض الناس أن الرجل والمرأة متكاملان، ويقولون: لا بد أن تساوي المرأةُ الرجلَ، ونقول: إنكم تعتقدون أن المرأة والرجل جنسان مختلفان، ولكنهما جنس واحد مخلوق من نوعين، وكل نوع له مهمة وله خاصية. وللإنسان المكوَّن من الرجال والنساء مهمة وخصائص يشتركون فيها.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ**(٧٨)﴾، وقال تعالى: ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** (٩٢) **عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (٩٣)﴾. أن ذلك في مواطن القيامة، ففي موطن يسألون وتقام الحجة عليهم، وفي موطن "لا ينطقون ولايؤذن لهم فيعتذرون. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه يوم القيامة لا يسأل إنسا ولا

جانا عن ذنبه، وبين هذا المعنى في قوله تعالى في القصص: ﴿**وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ**﴾ [القصص:٧٨].

وقد ذكر جل وعلا في آيات أخر أنه يسأل جميع الناس يوم القيامة الرسل والمرسل إليهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿**فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [الأعراف:٦]، وقوله: ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الحجر:٩٢-٩٣]. وقد جاءت آيات من كتاب الله مبينة لوجه الجمع بين هذه الآيات، التي قد يظن غير العالم أن بينها اختلافا.

*****

سورة العنكبوت

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا**﴾ هنا وفى الأحقاف. ولم يذكر في لقمان ﴿**حُسْنًا**﴾. أن هنا: ﴿**وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾، وبر الوالدين من أحسن الأعمال. فناسب ذكر "الإحسان" إليهما، وآية الأحقاف نزلت فيمن أبواه مؤمنان فناسب وصيته بالإحسان إليهما. وآية لقمان: لما تضمنت ما ينبه على حقهما والإحسان إليهما بقوله تعالى: (**حَمَلَتْهُ**) و(وضعته) وشدة ما تقاسيه في حمله وتربيته، وحمل أبيه أعباء حاجتها وحاجته، وقوله: ﴿**أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ**﴾ أغنى ذلك عن ذكر "حسنا"

قوله تعالى: ﴿**وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الذي كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾[العنكبوت:٧]. قلنا: إن الحق سبحانه إذا أراد أنْ يعطي الفقير يقترض له من إخوانه الأغنياء، ﴿**مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً**﴾[البقرة:٢٤٥]. مع أنه سبحانه واهب كل النعم يحترم ملكية عباده، ويحترم مجهوداتهم وعرقهم، فاحترم العمل واحترم ثمرة العمل، كما يعامل الوالد أولاده، فيأخذ من الغني لمساعدة الفقير على أنْ يعيد إليه ماله حين مَيْسرة، فكما أنك لا ترجع في هبتك، كذلك ربُّك عز وجل لا يرجع في هبته.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ**﴾، وفى حم عسق: ﴿**وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ**﴾. أن الخطاب هنا لقوم إبراهيم عليه السلام ومن في زمانهم من الكفار، ومنهم نمروذ الذي كان يعتقد أنه يصعد إلى السماء، فقال تعالى: ﴿**وَلَا فِي السَّمَاءِ**﴾ للذين يعتقدون القدرة على صعودها. وفى حم عسق: الخطاب للمؤمنين، والمؤمنون لا يعتقدون القدرة على ذلك، فناسب ترك ذكره.

معجزين: جمع معجز، وهو الذي يُعجز غيره، تقول: أعجزتُ فلاناً يعني: جعلته عاجزاً، والمعنى أنكم لن تفلتوا من الله، ولن تتأبَّوْا عليه، حين يريدكم للوقوف بين يديه، بل تأتون صاغرين.

ونلحظ هنا أن الحق سبحانه قال: ﴿**وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ**﴾[العنكبوت:٢٢] ولم

يقل مثلاً: لن تعجزوني حين أطلبكم؛ لأن نفيَ الفعل غير نفي الوصف، فحين تقول مثلاً: أنت لا تخيط لي ثوباً، فهذا يعني أنه يستطيع أنْ يخيط لك ثوباً لكنه لا يريد، فالقدرة موجودة لكن ينقصها الرضا بمزاولة الفعل، إنما حين تقول: أنت لستَ بخائط فقد نفيتَ عنه أصل المسألة.

لذلك لم ينْفِ عنهم الفعل حتى لا نتوهم إمكانية حدوثه منهم، فالهرب والإفلات من لقاء الله في الآخرة أمر غير وارد على الذِّهْن أصلاً، إنما نفي عنهم بالوصف من أساسه، ﴿**وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأرض وَلاَ فِي السَّمآءِ**﴾ [العنكبوت:٢٢].

ثم يقول سبحانه: ﴿**وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ الله مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ**﴾ [العنكبوت:٢٢]، حتى لا يقول قائل: إنْ كانوا هم غير معجزين، فقد يكون وراءهم مَنْ يعجز الله، أو وراءهم مَنْ يشفع لهم، أو يدافع عنهم، فنفى هذه أيضاً لأنه سبحانه لا يُعجزه أحد، ولا يُعجزه شيء.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٢٤)**﴾، وقال تعالى بعد ذلك: ﴿**خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ(٤٤)**﴾، جمع الآيات فى الأولى.

قوله: ﴿**فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٢٤)**﴾، فلم يكن جواب قوم إبراهيم له إلا أن قال بعضهم لبعض: اقتلوه أو حرِّقوه بالنار، فألقوه فيها، فأنجاه الله منها، وجعلها عليه بردًا وسلامًا، إن في إنجائنا لإبراهيم من النار لأدلة وحججًا لقوم يصدِّقون الله ويعملون بشرعه.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ**﴾، وفى القصص: ﴿**يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ**﴾، وفى موضع آخر: ﴿**يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ**﴾.

أن أحوال الناس في الرزق ثلاثة: الأول: من يبسط رزقه تارة ويضيق عليه

أخرى، وهو يفهم من آية العنكبوت بقوله تعالى: "له". والثاني: يوسع على قوم مطلقا ويضيق على قوم مطلقا، ويفهم من سورة القصص.

والثالث: الإطلاق من غير تعيين بسط ولا قبض، فأطلق من غير ذكر عباد وخصت العنكبوت بالحال الأول لتقدم قوله تعالى: ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ**﴾، ثم فصل حالهم في بسطه تارة وقبضه تارة. وأما آية القصص فتقدمها قصة قارون، فناسب. الحال الثاني أنه يبسط الرزق لمن يشاء مطلقا لا لكرامته كقارون، ويقبضه عمن يشاء لا لهوانه كالأنبياء الفقراء منهم. وأما بقية الآيات فمطلق من غير تعيين كأنواع بعض الحيوانات من الآدميين وغيرهم.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا**﴾، وفى الجاثية والبقرة: ﴿**بَعْدَ**﴾ بحذف ﴿**مِنْ**﴾. أن الأرض يكون إحياؤها تارة عقيب شروع موتها، وتارة بعد تراخى موتها مدة. فآية العنكبوت: تشير إلى الحالة الأولى لأن ﴿**مِنْ**﴾ لابتداء الغاية، فناسب ذلك ما تقدم من عموم رزق الله تعالى خلقه. وآية البقرة والجاثية: في سياق تعداد قدرة الله تعالى، فناسب ذلك ذكر إحياء الأرض بعد طول زمان موتها لدلالته.

أعيد أسلوب السؤال والجواب ليتصل ربط الأدلة بعضها ببعض على قرب. فقد كان المشركون لا يدَّعُون أن الأصنام تُنزل المطر كما صرحت به الآية فقامت الحجة عليهم ولم ينكروها وهي تقرع أسماعهم. وأدمج ف الاستدلال عليهم بانفراده تعالى بإنزال المطر أن الله أحيا به الأرض بعد موتها وإن كان أكثر المشركين ينسبون المسببات غلى أسبابها العادية كما تبين في بحث الحقيقة والمجاز العقليين في قولهم: أنبت الربيع البق، أنه حقيقة عقلية في كلام أهل الشرك لأنهم مع ذلك لا ينسبون الإنبات إلى أصنامهم، وقد اعترفوا بأن سبب الإنبات وهو المطر منزل من عند الله فيلزمهم أن الإنبات من الله على كل تقدير.

وفي هذا الإدماج استدلال تقريبي لإثبات البعث كما قال: ﴿**فَانظُرْ إِلَى ءَاثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآا إِنَّ ذَالِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَى ا وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**﴾[الروم:٥٠]، هو الذي لقنها رسوله ﷺ بكتابه وما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان. فهذا الحمد المأمور به متعلِّقه محذوف تقديره: الحمد لله على ذلك.

وهو الحجج المتقدمة، وليس خاصاً بحجة إنزال الماء من السماء، وكذلك شأن القيود الواردة بعد جعل متعددة أن ترجع غلى جميعها، وكذلك ترجع معها متعلِّقاتها -بكسر اللام- وقرينة المقام كنار على علَم، ألا ترى أن كل حجة من تلك الحجج تستأهل أن يحمد الله على إقامتها فلا تختص بالحمد حجة إنزال المطر فقد قال تعالى في سورة لقمان: [٢٥]﴿**ولئن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأرض لَيَقُولُنَّ الله قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾، فلذلك لا يجعل قوله: ﴿**قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ**﴾، اعتراضاً.

و﴿**بَلْ أَكْثَرُهُمْ يَعْقِلُونَ**﴾ إضراب انتقال من حمد الله على وضوح الحجج إلى ذم المشركين بأن أكثرهم لا يتفطنون لنهوض تلك الحجج الواضحة فكأنهم لا عقل لهم؛ لأن وضوح الحجج يقتضي أن يفطن لنتائجها كلُّ ذي مُسكة من عقل فنزلوا منزلة من لا عقول لهم. وإنما أسند عدم العقل إلى أكثرهم دون جميعهم لأن من عقلائهم وأهل الفطن منهم من وضحت له تلك الحجج فمنهم من آمنوا، ومنهم من أصرّوا على الكفر عناداً.

هذا الكلام مبلَّغ إلى الفريقين اللذين تضمنهما قوله تعالى: ﴿**بَلْ أَكْثَرُهُمْ يَعْقِلُونَ**﴾[العنكبوت:٦٣]، فإن عقلاءهم آثروا باطل الدنيا على الحق الذي وضح لهم، ودهماءهم لم يشعروا بغير أمور الدنيا، وجميعهم أنكروا البعث فأعقب الله ما أوضحه لهم من الدلائل بأن نبههم على أن الحياة الدنيا كالخيال وأن الحياة الثانية هي الحياة الحق. والمراد بالحياة ما تشتمل عليه من الأحوال وذلك يسري غلى الحياة نفسها.

*****

سورة الروم

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً**﴾ الآية. وفى فاطر: (وكانوا) بزيادة "واو"، وفى أول المؤمن: ﴿**كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ**﴾، وفى الأخيرة: ﴿**كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ**﴾.

أن آية الروم لم يتقدمها قصص من تقدم ولا ذكرهم، فناسب إجمالها، ولذلك قال تعالى: ﴿**وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ**﴾ وأية المؤمن الأولى: تقدمها ذكر نوح ـ عليه السلام ـ والأحزاب، وهمَّ كل أمة برسولهم فناسب ذلك بسط حالهم وإعادة لفظ (كانوا)، و(هم) توكيدا وإشارة إلى ثانية من تقدم ذكر هم.

وأما ثانية سورة المؤمن فإنها جاءت على الاختصار، وأما آية فاطر: فوردت بعد قوله تعالى: ﴿**مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ**﴾، ثم قال تعالى: ﴿**وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣)**﴾، فناسب ذكر الواو العاطفة بخبر إن لمزيد حولهم في الدنيا من الشدة في القوة ولم تغن عنهم شيئا ولذلك أعقب ذلك بقوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ**﴾ الآية فكيف بهؤلاء.

وكذا الآية هـ من سورة الجاثية وتمامها مع ما قبلها: توفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون واختلاف الليل والنهار وما أنزل أفه من الماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد الكفار الذين كذبوا محمدا ﷺ، بأن الله أهلك من هم أقوى منهم، ليحذروا أن يفعل بهم مثل ما فعل بأولئك، جاء موضحا في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا**﴾ [الروم:٩]، وقوله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ**﴾[غافر:٨٢]، وقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً**﴾[الأنعام:٦]، إلى قوله: ﴿**فَأَهْلَكْنَاهُمْ**

بِذُنُوبِهِمْ﴾[الأنعام:٦]، وقوله تعالى: ﴿**وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ**﴾[سبأ:٤٥]، وقوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً**﴾ [فاطر:٤٤].

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ**﴾، وفى الزمر: ﴿**يَعْلَمُوا**﴾. أن بسط الرزق وقبضه مما يرى ويشاهد، فجاء هنا عليه. وأية الزمر جاءت بعد قوله تعالى: ﴿**قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ**﴾، فناسب ﴿**أَوَلَمْ يَعْلَمُوا**﴾ مع فصاحة التفنن. يقول الحق جل جلاله: ﴿**أَوَلَمْ يروا أن الله يبسط الرزقَ لمن يشاءُ ويقدرُ**﴾، أي: يضيق على من يشاء، فينبغي للعبد أن يكون راجياً ما عند الله، غير آيس من روح الله؛ إذ دَوَامُ حَالٍ من قضايا المحال، ﴿**إن في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون**﴾؛ فيستدلون بها على كمال قدرته وحكمته، ولا يقفون مع شيء دونه. قال النسفي: أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه القابض الباسط، فما لهم يقنطون من رحمته؟ وما لهم لا يرجعون إليه، تائبين من معاصيهم، التي عوقبوا بالشدّة من أجلها، حتى يعيد عليهم رحمته؟

ولما ذكر أنّ السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم، أتبعه ذكر ما يحب أن يفعل وما يجب أن يترك، يعني: عند البسط؛ فقال: ﴿**فآت ذا القربى**﴾؛ أعطِ قريبك ﴿**حَقَّهُ**﴾ من البر والصلة مما بسط عليك. ﴿و﴾ أعط ﴿**المسكينَ وابنَ السبيل**﴾ حقهما؛ من الصدقة الواجبة أو التطوعية، حسبما تقتضيه مكارم الأخلاق. والخطاب لمن بسط عليه، أو: للنبي عليه الصلاة والسلام، وغيره تبع. ﴿**ذلك**﴾ أي: إيتاء حقوقهم الواجبة، والتطوعية، ﴿**خيرٌ للذين يُريدون وَجْهَ الله**﴾، أي: ذاته المقدسة، أي: يقصدون، بمعروفهم، إياه، خالصاً. ﴿**وأولئك هم المفلحون**﴾؛ الفائزون بكل خير، قد حَصَّلوا، بما بسط لهم، النعيم المقيم.

﴿**وما آتيتم من رباً ليربو في أموالِ الناس**﴾ أي: وما أعطيتم من مال؛ لتأخذوا من أموال الناس أكثر منه، كَيْفِيَّةً أو كَمِّيَّةً، ﴿**فلا يربوا عند الله**﴾؛ ولا يبارك فيه، بل يُسحته ويمحقه، ولو بعد حين. وهذه صورة الربا المحرمة، إجماعاً، وقيل:

وما أعطيتم من هدية؛ لتأخذوا أكثر منها، فلا يربو عند الله، لأنكم لم تقصدوا به وجه الله. وهذه؛ هدية الثواب، جائزة، إلا في حقه عليه الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ**﴾ [المدثر:٦].

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ**﴾، وفى الجاثية ﴿**لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ**﴾. أن السياق هنا لذكر الرياح، ولم يذكر البحر. وفى فاطر: لما تقدم ذكر البحر رجع الضمير إليه. ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرياح مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الفلك بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ**﴾[الروم:٤٦]، هذه كلها نِعَم يعطف عليها بقوله: ﴿**وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[الروم:٤٦]، فعطف الشكر على النعم السابقة يعني أنه في ذاته نعمة، وإلا لقال كما في الآية السابقة: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[النحل:٧٨]. والشكر بهذا المعنى هو المراد في قوله تعالى: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**﴾[إبراهيم: ٧]، فهذا شكر لما سبق، وهذا شكر لما هو آتٍ.

والشكر في قوله تعالى: ﴿**أَنِ اشكر للَّهِ**﴾[لقمان:١٢]، مُوجه إلى الله تعالى، فكيف إذا توجه الشكر في أسباب تناوله إلى غير الله، كأنْ تشكر صاحبك الذي قدم لك معروفاً مثلاً؟ قالوا: لو تأملتَ شكر غير الله ممن قدَّم لك معروفاً يستوجب الشكر لوجدته يؤول إلى شكر الله في النهاية. لذلك قالوا: لا تشكر الله إلا حين تشكر مَنْ ساق لك الجميل على يديه، يعني: جعله سبباً في قضاء حاجتك، ثم إن الذي قدَّم لك جميلاً، ما قدّمه لك وما آثرك على نفسه إلا لأن الله أمره بذلك، ودعاه إليه. وأثابه على فعله، فإذا سلسلتَ الشكر لانتهى إلى شكر الله تعالى. ثم يقول سبحانه: ﴿**وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾ [لقمان:١٢]، علمنا أن الشكر لله هو أول الحكمة، فلماذا؟

لأن مَنْ يشكر تعود إليه ثمرة شكره.

وإياك أن تظن أن من مقومات قيومية ربك أنْ تشكره، فشكْرك وعدمه سواء بالنسبة لله تعالى، كيف وقد وسِع سبحانه الكافر الذي كفر به، ولم يقطع عنه نعمه؛ ذلك لأنه سبحانه غني عن خَلْقه: ﴿**وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾ [لقمان:١٢]؛ لأنه سبحانه يعرف أنه رب، حتى للكافر الجاحد.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ(٤٧)**﴾ وفي آل عمران: ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ**﴾ الآية. تقدم في سورة الحج، وأن المراد به أن العاقبة لهم وإن تقدم وهن فلتمحيصهم وأجورهم. قوله: ﴿**وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ وقوله تعالى: ﴿**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ**﴾[التوبة:١٤]، ومما يوضح معنى آية القتال هذه قوله تعالى: ﴿**وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ**﴾ [النساء:١٠٤]؛ لأن قوله تعالى: ﴿**وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ**﴾ من النصر الذي وعدكم الله به والغلبة وجزيل الثواب.

*****

سورة لقمان

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ**﴾، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من المشقة التي تعانيها الحامل، ودلت عليه آية أخرى، وهي قوله تعالى في لقمان: ﴿**وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ**﴾ [لقمان:١٤]، أي تهن به وهنا على وهن أي ضعفا على ضعف، لأن الحمل كلما تزايد وعظم في بطنها، ازدادت ضعفا على ضعف.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ**﴾. وما دام الله تعالى هو (الحق) فما يدَّعونه من الشركاء هم الباطل: ﴿**وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ**﴾ [لقمان:٣٠]، فلا يوجد في الشيء الواحد حَقَّان، فإنْ كان أحدهما هو الحق فغيره هو الباطل، فالحق واحد ومقابله الباطل. وأيُّ باطل أفظع من عبادتهم للأصنام واتخاذها آلهة وشركاء مع الله عز وجل.

كيف وهي حجارة صوَّروها بأيديهم وأقاموها ليعبدوها من دون الله، والحجارة جماد من جمادات الأرض، والجماد هو العبد الأول لكل المخلوقات، عبد للنبات، وعبد للحيوان، وعبد للإنسان؛ لأنه مُسخّر لخدمة هؤلاء جميعاً.

فكيف بك وأنت الإنسان الذي كرَّمك ربك وجعل لك عقلاً مفكراً تتدنى بنفسك وترضى لها أنْ تعبد أدنى أجناس الوجود، وتتخذها شريكاً مع الله، وأنت ترى الريح إذا اشتدتْ أطاحتْ باللات أو بالعزى، وألقتْه على الأرض، وربما كُسرت ذراعه، فاحتاج لمن يصلح هذا الإله، إذن ﴿**وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ**﴾ [لقمان:٣٠].

لذلك؛ قلنا في الحروب التي تنشب بين الناس: إنها لا تنشب بين حقين؛ لأن الحقيقة لا يوجد فيها حقَّان، إنما هو حق واحد، والآخر لا بُدَّ أن يكون باطلاً، أو تنشأ بين باطلين، أما نشأتها بين حق وباطل فإنها في الغالب لا تطول؛ لأن الباطل زهوق.

والعاقبة لا بُدَّ أنْ تكون للحق ولو بعد حين، أما الباطل فإنه زَهُوق، إنما

تطول المعركة إنْ نشبت بين باطلين.

فليس أحد الطرفين فيها أهلاً لنصرة الله، فتظل الحروب بينهما حتى يتهالكا، وتنتهي مكاسب طغيان كل منهما، ولا يردهما إلا مذلَّة اللجوء إلى التصالح بعد أنْ فقدا كل شيء.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**﴾، وفى فاطر جوابه: والزمر: ﴿**كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى**﴾. لما تقدم هنا ذكر البعث والنشور بقوله تعالى: ﴿**مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ**﴾ الآية وبعدها: ﴿**وَاخْشَوْا يَوْمًا**﴾، ناسب مجيء (إلى) الدالة على انتهاء الغاية؛ لأن القيامة غاية جريان ذلك.

وفاطر والزمر تقدمها ذكر نعم الله تعالى بما خلق لمصالح الخلق، فناسب المجيء "باللام"، بمعنى: لأجل، والله أعلم. ﴿**كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمّىً**﴾، أي: في فلكه إلى أن تنصرم الدنيا وهو يوم القيامة حين تنفطر السماء وتنتثر الكواكب. وقيل: الأجل المسمى هو الوقت الذي ينتهي فيه سير الشمس والقمر إلى المنازل المرتبة لغروبها وطلوعها. قال الكلبي: يسيران إلى أقصى منازلهما، ثم يرجعان إلى أدنى منازلهما لا يجاوزانه.

*****

سورة السجدة

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾، وقال في الحج: ﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ(٤٧)**﴾. وفى سأل سائل: ﴿**كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾.

أن المراد هنا: ما ينزل به الملك من السماء، ثم يصعد إليها، ويكون السماء هنا عبارة عن جهة سدرة المنتهى لا عن سماء الدنيا. والمراد بآية الحج أن عذاب المعذب في جهنم يوما واحدا بقدر عذاب المعذب ألف سنة، لأنه جاء بعد قوله تعالى: ﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ**﴾.

والمراد بآية سأل سائل: يوم القيامة لما فيه من الأهوال والشدائد. وقوله تعالى: ﴿**فِي يَوْمٍ**﴾ راجع إلى قوله تعالى: ﴿**بِعَذَابٍ وَاقِعٍ**﴾ أى واقع ليس له دافع فى يوم كان مقداره. الآية. وقيل المراد به: نزول الملك من سدرة المنتهى وعوده إليها، وأن مقدار ذلك على لم سير أهل الدنيا "خمسين ألف سنة" وفيه نظر، والله أعلم. وذكر في سورة المعارج أن مقدار اليوم خمسون ألف سنة، وذلك في قوله: ﴿**تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ [المعارج:٤]. فآية الحج، وآية السجدة متوافقتان تصدق كل واحدة منهما الأخرى، وتماثلها في المعنى. وآية المعارج تخالف ظاهرهما لزيادتها عليهما بخمسين ضعفاً.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ**﴾، وفى الزمر: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا**﴾، وفى الأنعام: ﴿**تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا**﴾ ومثله: ﴿**وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْه**﴾ الآية.

جوابه: الجامع للآيات أن لملك الموت أعوانا من الملائكة يعالجون الروح حتى تنتهي إلى الحلقوم، فيقبضها هو.

فالمراد هنا: قبضه لها عند انتهائها إلى الحلقوم. والمراد بآية الأنعام: هو وأعوانه. وبآية الزمر: الله تعالى وقضاؤه بذلك أو معناه خلق سلب تلك الروح من جسدها. وقيل المراد بقوله تعالى: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ**﴾، وبقوله تعالى: ﴿**يَتَوَفَّاكُمْ**

مَلَكُ الْمَوْتِ﴾، أي: يستوفى عدد أرواحكم، من قولهم: توفيت الدين إذا استوفيته أجمع.

أن إسناد التوفي إلى ملك الموت في قوله هنا: ﴿**قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ**﴾، لأنه هو المأمور بقبض الأرواح، وأن إسناده للملائكة في قوله تعالى: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ**﴾، ونحوها من الآيات؛ لأن لملك الموت أعوانًا يعملون بأمره، وأن إسناده إلى اللَّه في قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا**﴾، لأن كل شيء كائنًا ما كان لا يكون إلا بقضاء اللَّه وقدره، والعلم عند اللَّه تعالى.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَهْدِ**﴾ بالواو، و﴿**مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾. أما جمع الإناث لفظا فلتعذر الإتيان بمفرده لقيد الجنس، إذ لو قيل: بنات عمك أو بنات عمتك، وبنات خالتك أو بنات خالاتك لاحتمل إرادة بنت معينة أو عمة معينة أو خال معين أو خالة معينة، والآية إنما سيقت لبيان المنة على رسول الله ﷺ والتوسعة عليه والإفراد يفوت به التصريح له بهذا المعنى المقصود. قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَهْدِ**﴾ أي يبين. ﴿**لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ**﴾ يريد كفار مكة ومن حولهم. ﴿**أَصَبْنَاهُمْ**﴾، أي: أخذناهم ﴿**بِذُنُوبِهِمْ**﴾، أي: بكفرهم وتكذيبهم. ﴿**وَنَطْبَعُ**﴾ أي ونحن نطبع؛ فهو مستأنف. وقيل: هو معطوف على أصبنا، أي نصيبهم ونطبع، فوقع الماضي موقع المستقبل.

*****

سورة سبأ

مسألة:

قوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، وفى يونس عليه السلام: ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾، جاء بالسموات أولاً، وجاء في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها بالأرض أولاً، وهو في الآيتين يتكلم عن علمه للغيب، فيأتي بمثقال الذرة ويقدِّم السماء ويأتي بها مفردة، ثم يأتي بما هو أقل من الذرة ويقدِّم الأرض. وهذا كله من إعجاز أساليب القرآن التي أراد البعض من المستشرقين أن يعترضوا عليها، وكانت جميع اعتراضاتهم نتيجة لعجزهم عن امتلاك مَلَكة الأداء البياني.

وإنْ عرضنا الرد على تساؤلاتهم نجد أن الحق سبحانه قَدَّم الأرض في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها؛ لأنه سبحانه يتكلم عن أهل الأرض: ﴿وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[يونس:٦١]. وجاء أيضاً بالسماء، وهي السماء الدنيا التي يراها أهل الأرض.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾، وقال: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾. المراد: هل يجازى بالظلم والمعاصى حتما إلا الكفور؛ لأن المؤمن قد يعفى عنه، فلا يجازى بمعصية تفضلا عليه، ولشرف الإيمان. قال عز وجل: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾[سبأ١٧]؛ لأن مجازاة الله عز وجل للكافر والمسيء بالحق والعدل، ومجازاته للمحسن بالإحسان والفضل. ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾، اسمان من أسمائه سبحانه.

*****

سورة فاطر

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾، وقال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ**﴾ وفي يس: ﴿**لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ**﴾ الآية. أن المراد بآية فاطر مطلق الأمم كعاد وثمود وقوم نوح وقوم إبراهيم وفي العرب من ولد إسماعيل، خالد بن سنان، وحنظلة بن صفوان وفي بني إسرائيل موسى وهارون ومن بعدهم. وقيل: لم يخل بنو آدم من نذير من حين بعث إليهم وإلى زمن النبي ﷺ إما نبي أو رسول. وآية سبأ: المراد بهم قريش خاصة وأهل مكة الموجودون زمن النبي ﷺ وآباؤهم لم يأتهم نذير خاص بهم قبل النبي ﷺ.

﴿**وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ**﴾[فاطر:٢٤]، فإن دعوتهم إلى الله قد انتشرت، وعمت الأقطار، واشتهرت، انظر إلى قول قريش الذين لم يأتهم نبي بعد إسماعيل عليه السلام: ﴿**مَا سَمِعْنَا بِهَاذَا فِى الْمِلَّةِ الآخِرَةِ**﴾[ص:٧]؛ فإنه يُفهم منه أنهم سمعوه في الملة الأولى، فمن بلغته دعوة أحد منهم، بوجه من الوجوه فقصَّر، فهو كافر مستحق للعذاب. فلا تغتر بقول كثير من الناس بنجاة أهل الفترة، مع إخبار النبي ﷺ أن آباءهم، الذين مضوا في الجاهلية، في النار، وأن ما يدحرج من الجُعَل، خير منهم، إلى غير ذلك من الأخبار.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ**﴾ الآية، وفي الأنعام: ﴿**خَلَائِفَ الْأَرْضِ**﴾. أن آية الأنعام تقدمها ما هو من سياق النعم عليهم من قوله تعالى: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ**﴾.

*****

سورة يس

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ**﴾، إن جعلت (ما) نافية، فقد تقدم الجواب في فاطر. وإن جعلتها مصدرية أو موصولة، فالمراد كإنذار آبائهم، فإن إنذار إسماعيل لم يزل فيهم إلى زمن عمرو بن لحى.

قوله تعالى: ﴿**لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ**﴾ ﴿**مَا**﴾ لا موضع لها من الإعراب عند أكثر أهل التفسير، منهم قتادة؛ لأنها نفي والمعنى: لتنذر قوما ما أتى آباءهم قبلك نذير. وقيل: هي بمعنى الذي فالمعنى: لتنذرهم مثل ما أنذر آباؤهم؛ قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة أيضا. وقيل: إن ﴿**مَا**﴾ والفعل مصدر؛ أي لتنذر قوما إنذار آبائهم. ثم يجوز أن تكون العرب قد بلغتهم بالتواتر أخبار الأنبياء؛ فالمعنى لم ينذروا برسول من أنفسهم. ويجوز أن يكون بلغهم الخبر ولكن غفلوا وأعرضوا ونسوا. ويجوز أن يكون هذا خطابا لقوم لم يبلغهم خبر نبي، وقد قال الله: ﴿**وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ**﴾. وقال: ﴿**تُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**﴾[السجدة:٣]، أي: لم يأتهم نبي. وعلى قول من قال بلغهم خبر الأنبياء، فالمعنى فهم معرضون الآن متغافلون عن ذلك، ويقال للمعرض عن الشيء إنه غافل عنه. وقيل: ﴿**فَهُمْ غَافِلُونَ**﴾ عن عقاب الله.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ**﴾، وفى مريم ﴿**لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا**(٨١) **كَلَّا**﴾، وقال تعالى في الفرقان: ﴿**وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ**﴾ مضمرا.

جوابه: أن آية مريم ويس وردتا بعد ضمير المتكلم فناسب الإظهار. وأية الفرقان: وردت بعد تكرار ضمير الغائب، فناسب الإضمار للغائب لتناسب الضمائر، والله أعلم. واتخذ المشركون من دون الله آلهة يعبدونها؛ طمعًا في نصرها لهم وإنقاذهم من عذاب الله.

*****

سورة الصافات

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**وَرَبُّ الْمَشَارِقِ**﴾ وكذلك جمعها في سورة المعارج فقال: ﴿**بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ**﴾، وفى سورة الرحمن: ﴿**رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ**﴾.

جوابه: أن المراد بالجمع مشارق الشمس ومغاربها مدة السنة وهي مائة وثمانون مشرقا ومغربا، وكذلك مشارق النجوم ومغاربها، ومشارق القمر ومغاربه كل شهر.

والمراد بالمشرقين والمغربين: مشرق غاية طول النهار وقصر الليل ومغربه، ومشرق غاية قصر النهار وطول الليل ومغربه، وخص المشارق هنا بالذكر لأنها مطالع الأنوار والضياء والحرص على. ذلك لمظنة الانبساط والمعاش، ولأن المغارب يفهم من ذلك عند ذكر المشارق لكل عاقل، ولأن ذكر السموات والأرض مناسب لذكرها معها بخلاف سائر المواضع.

أكثر أهل العلم على أن المراد بـ: ﴿**الصَّافَّاتِ**﴾ هنا، و﴿**الزَّاجِرَاتِ**﴾، و﴿**التَّالِيَاتِ**﴾: جماعات الملائكة، وقد جاء وصف الملائكة بأنهم صافّون، وذلك في قوله تعالى عنهم: ﴿**وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ**﴾، ومعنى كونهم صافين: أن يكونوا صفوفًا متراصّين بعضهم جنب بعض في طاعة اللَّه تعالى، من صلاة وغيرها.

وقيل: لأنهم يصفون أجنحتهم في السماء، ينتظرون أمر اللَّه، ويؤيّد القول الأول حديث حذيفة الذي قدّمنا في أوّل سورة "المائدة"، في صحيح مسلم، وهو قوله ﷺ: "فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجدًا، وجعلت لنا تربتها طهورًا إذا لم نجد الماء"، وهو دليل صحيح على أن الملائكة يصفّون كصفوف المصلّين في صلاتهم، وقد جاء في بعض الآيات ما يدلّ على أنهم يلقون الذكر على الأنبياء، لأجل الأعذار والإنذار به؛ كقوله تعالى: ﴿**فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً * عُذْراً أَوْ نُذْراً**﴾، فقوله: ﴿**فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً**﴾، كقوله هنا: ﴿**فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً**﴾، لأن الذكر الذي تتلوه تلقيه إلى الأنبياء، كما كان جبريل ينزل بالوحي على نبيّنا وغيره من الأنبياء صلوات اللَّه وسلامه على الجميع،

وقوله: ﴿**عُذْراً أَوْ نُذْراً**﴾، أي: لأجل الأعذار والإنذار، أي: بذلك الذكر الذي نتلوه وتلقيه، والأعذار: قطع العذر بالتبليغ.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ**)، وقال في الحج: ﴿**مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ**﴾، وقال: ﴿**مِنْ نُطْفَةٍ**﴾، وقال: ﴿**مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ**﴾.

جوابه: أما قوله تعالى: من تراب، ومن صلصال، ومن طين، فالمراد: أصلهم وهو آدم عليه السلام لأن أصله من تراب، ثم جعله طينا، ثم جعله صلصالا كالفخار، ثم نفخ فيه الروح. وقوله تعالى: من نطفة: أي أولاد آدم وذريته كما هو المشاهد.

قوله: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ**﴾؛ لأن من خلقهم أوّلاً من طين، وأصله التراب المبلول بالماء لا يشكّ عاقل في قدرته على خلقهم مرة أخرى بعد أن صاروا ترابًا، لأن الإعادة لا يعقل أن تكون أصعب من البدء والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة جدًا؛ كقوله تعالى: ﴿**قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾، وقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**﴾، وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ**﴾.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿**أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ**﴾، ثم قال بعده: ﴿**أَإِنَّا لَمَدِينُونَ**﴾.

جوابه: أن القائل الأول: منكر للبعث في الدنيا. والقائل الثاني: في الجنة مقرر لثبوت ما كان يدعيه في الدنيا من البعث والحساب وموبخ لمن كان ينكر ذلك في الدنيا.

والمعنى: أن الكفار الذين كذبوا نبينا ﷺ، قالوا مثل ما قالت الأمم قبلهم، من إنكار البعث، لأن الاستفهام في قوله: ﴿**أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ**﴾ إنكار منهم للبعث. ومن باطن هذا الكفر ومن نتائجه أنْ قالوا: ﴿**أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً**﴾ [الإسراء:٩٨]، وهذا القول منهم تكذيبٌ لآيات القرآن التي جاءتْ على لسان رسول الله ﷺ لتخبرهم أنهم مبعوثون يوم القيامة ومُحاسَبُون، وهم بهذا القَوْل قد نقلوا الجدل إلى مجال جديد هو: البعث بعد الموت.

وقوله: ﴿عِظَاماً وَرُفَاتاً﴾[الإسراء:٩٨] الرفات: هو الفُتَات وَزْناً ومعنىً، وهو: الشيء الجاف الذي تكسّر؛ لذلك جاءت لترتيب هكذا: عظاماً ورُفَاتاً؛ لأن جسم الإنسان يتحلّل وتمتصُّ الأرض عناصر تكوينه، ولا يبقى منه إلا العظام، وبمرور الزمن تتكسّر هذه العظام، وتتفتتْ وتصير رفاتاً، وهم يستبعدون البعث بعد ما صاروا عظاماً ورفاتاً.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ(٢٤)﴾، وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ(٣٩)﴾.

جوابه: ما تقدم في الحجر: أن يوم القيامة مواقف، أوان السؤال هنا قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾. قوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾، واحبسوهم قبل أن يصلوا إلى جهنم؛ إنهم مسئولون عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدنيا، مساءلة إنكار عليهم وتبكيت لهم.

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه يوم القيامة لا يسأل إنسا ولا جانا عن ذنبه، وبين هذا المعنى في قوله تعالى في القصص: ﴿وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨].

وقد ذكر جل وعلا في آيات أخر أنه يسأل جميع الناس يوم القيامة الرسل والمرسل إليهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦].

وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣]. وقد جاءت آيات من كتاب الله مبينة لوجه الجمع بين هذه الآيات، التي قد يظن غير العالم أن بينها اختلافا.

مسألة:

قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ(١٠١)﴾ وفى الذاريات: ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾، ما وجه مجئ كل واحد في موضعه.

جوابه: إنما وصفه هنا بالحلم: وهو إسماعيل والله أعلم وهو الأظهر لما ذكر عنه من الانقياد إلى رؤيا أبيه مع ما فيه من أمَّر الأشياء على النفس وأكرهها

عندها ووعدها بالصبر، وتعليقه بالمشيئة، وكل ذلك دليل على تمام الحلم والعقل وأما في الذاريات: فالمراد والله أعلم إسحاق؛ لأن تبشير إبراهيم بعلمه ونبوته فيه دلالة على بقائه إلى كبره، وهذا يدل على أن الذبيح إسماعيل.

العلماء اختلفوا في هذا الغلام الذي أمر إبراهيم في المنام بذبحه، ومعلوم أن رؤيا الأنبياء وحي، ثم لمّا باشر عمل ذبحه امتثالاً للأمر، فداه اللّه بذبح عظيم، هل هو إسماعيل أو إسحاق؟ وقد وعدنا في سورة "الحجر"، بأنا نوضح ذلك بالقرآن في سورة "الصافّات"، وهذا وقت إنجاز الوعد. اعلم، وفّقني اللّه وإياك، أن القرآن العظيم قد دلّ في موضعين، على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق أحدهما في "الصافّات"، والثاني في "هود".

قول الله تعالى: ﴿**يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ**﴾، لما ذكر مطاعمهم ذكر شرابهم. والكأس عند أهل اللغة أسم شامل لكل إناء مع شرابه، فإن كان فارغاً فليس بكأس. قال الضحاك والسدي: كل كأس في القرآن فهي الخمر، والعرب تقول للإناء إذا كان فيه خمر كأس، فإذا لم يكن فيه خمر قالوا إناء وقدح.

قوله تعالى: ﴿**بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ**﴾ صفة الكأس. وقيل: للخمر: لذة للشاربين، قال الحسن: خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن. قال الزجاج: أي ذات لذة فحذف المضاف. وقيل: هو مصدر جعل اسماً أي بيضاء لذيذة، يقال شراب لذ ولذيذ، مثل نبات غض وغضيض. قوله تعالى: ﴿**لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ**﴾ أي: لا تغتال عقولهم، ولا يصيبهم منها مرض ولا صداع. ولا هم عنها ينزفون، أي: لا تذهب عقولهم بشربها، يقال: الخمر غول للحلم، والحرب غول للنفوس، أي تذهب بها. ويقال: نزف الرجل ينزف فهو منزوف ونزيف إذا سكر. قوله تعالى: ﴿**عِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ**﴾، أي نساء قد قصرن طرفهن على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم، قاله ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿**كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ**﴾، أي مصون. قال الحسن وابن زيد: شبهن ببيض النعام، تكنها النعامة بالريش من الريح والغبار، فلونها أبيض في صفرة وهو أحسن ألوان النساء. قوله تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ**﴾، أي المشركين، وذلك أنهم قالوا: كيف تكون في النار شجرة وهي تحرق الشجر؟ وقد مضى هذا المعنى في سبحان، واستخفافهم في هذا كقولهم في قوله تعالى: ﴿**عَلَيْهَا**

تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ (المدثر:٣٠).

ما الذي يخصص هذا العدد؟ حتى قال بعضهم: أنا أكفيكم منهم كذا فاكفوني الباقين. فقال الله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ**﴾ (المدثر:٣١) والفتنة الاختبار، وكان هذا القول منهم جهلاً، إذ لا يستحيل في العقل أن يخلق الله في النار شجراً من جنسها لا تأكله النار، كما يخلق الله فيها الأغلال والقيود والحيات والعقارب وخزنة النار.

وقيل: هذا الاستبعاد الذي وقع للكفار هو الذي وقع الآن للملحدة، حتى حملوا الجنة والنار على نعيم أو عقاب تتخلله الأرواح، وحملوا وزن الأعمال والصراط واللوح والقلم على معاني زوروها في أنفسهم، دون ما فهمه المسلمون من موارد الشرع وإذا ورد خبر الصادق بشيء موهوم في العقل، فالواجب تصديقه وإن جاز أن يكون له تأويل، ثم التأويل في موضع إجماع المسلمين على أنه تأويل باطل لا يجوز، والمسلمون مجمعون على الأخذ بهذه الأشياء من غير مصير إلى علم الباطن. وقيل إنها فتنة أي عقوبة للظالمين، كما قال: ﴿**ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ**﴾ (الذريات:١٤)، قوله تعالى: ﴿**فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ**﴾ روي أن الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل. وقال ابن قسيط عن أبي هريرة: طرح يونس بالعراء وأنبت الله عليه يقطينة، فقلنا: يا أبا هريرة وما اليقطينة؟ قال: شجرة الدباء، هيأ الله له أروية وحشية تأكل من خشاش الأرض أو هشاش الأرض. فتفشج عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت.

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: خرج به يعني الحوت حتى لفظه في ساحل البحر، فطرحه مثل الصبي المنفوس لم ينقص من خلقه شيء. وقيل: إن يونس لما ألقاه الحوت على ساحل البحر أنبت الله عليه شجرة من يقطين، وهي فيما ذكر شجرة القرع تتقطر عليه من اللبن حتى رجعت إليه قوته. ثم رجع ذات يوم إلى الشجرة فوجدها يبست، فحزن وبكى عليها فعوتب، فقيل له: أحزنت على شجرة وبكيت عليها، ولم تحزن على مائة ألف وزيادة من بني إسرائيل، من أولاد

إبراهيم خليلي، أسرى في أيدي العدو، وأردت إهلاكهم جميعاً.

وقيل: هي شجرة التين. وقيل: شجرة الموز تغطي بورقها، واستظل بأغصانها، وأفطر على ثمارها. والأكثر على أنها شجرة اليقطين على ما يأتي، ثم إن الله تبارك وتعالى اجتباه فجعله من الصالحين. ثم أمره أن يأتي قومه ويخبرهم أن الله تعالى قد تاب عليهم، فعمد إليهم حتى لقي راعياً فسأله عن قوم يونس وعن حالهم وكيف هم، فأخبره أنهم بخير، وأنهم على رجاء أن يرجع إليهم رسولهم. فقال له: فأخبرهم أني قد لقيت يونس. فقال: لا أستطيع إلا بشاهد.

فسمى له عنزاً من غنمه فقال: هذه تشهد لك إنك لقيت يونس. قال: وماذا؟ قال: وهذه البقعة التي أنت فيها تشهد لك أنك لقيت يونس، قال: وماذا؟ قال: وهذه الشجرة تشهد لك أنك لقيت يونس. وأنه رجع الراعي إلى قومه فأخبرهم أنه لقي يونس فكذبوه وهموا به شراً فقال: لا تعجلوا علي حتى أصبح، فلما أصبح غدا بهم إلى البقعة التي لقي يونس، ثم إن يونس أتاهم بعد ذلك. ذكر هذا الخبر وما قبله الطبري رحمه الله.

*****

سـورة ص

قوله تعالى: ﴿**ص**﴾ قراءة العامة ﴿ص﴾ بجزم الدال على الوقف؛ لأنه حرف من حروف الهجاء مثل: ﴿**آلمر**﴾ و﴿**المر**﴾. وقرأ أبي بن كعب والحسن وابن أبي إسحاق ونصر بن عاصم (صاد) بكسر الدال بغير تنوين. ولقراءته مذهبان: أحدهما أنه من صادى يصادي إذا عارض، ومنه: ﴿**فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى**﴾ (عبس:٦) أي تعرض. والمصاداة المعارضة، ومنه الصدى وهو ما يعارض الصوت في الأماكن الخالية. فالمعنى صاد القرآن بعملك، أي عارضه بعملك وقابله به، فاعمل بأوامره، وانته عن نواهيه.

قوله تعالى: ﴿**ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ**﴾ خفض بواو القسم والواو بدل من الباء، أقسم بالقرآن تنبهاً على جلالة قدره، فإن فيه بيان كل شيء، وشفاء لما في الصدور، ومعجزة للنبي ﷺ. "ذي الذكر" خفض على النعت وعلامة خفضه الياء، وهو اسم معتل والأصل فيه ذوي على فعل. قال ابن عباس ومقاتل: معنى (ذي الذكر) ذي البيان. وقال الضحاك: ذي الشرف أي من آمن به كان شرفاً له في الدارين، كما قال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ (الأنبياء:١٠) أي شرفكم. وأيضاً القرآن شريف في نفسه لإعجازه واشتماله على ما لا يشتمل عليه غيره.

قال تعالى: ﴿**بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ**﴾ عن قبول الحق وعداوة لمحمد ﷺ. أو: ﴿**وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ**﴾ ما الأمر كما يقولون من أنك ساحر كذاب، لأنهم يعرفونك بالصدق والأمانة بل هم في تكبر عن قبول الحق. وهو كقوله: ﴿**ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ* بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ**﴾ (قّ:١/٢)، وقوله تعالى: ﴿**بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ**﴾، أي في تكبر وامتناع من قبول الحق، كما قال جل وعز: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾(البقرة:٢٠٦) والعزة عند العرب: الغلبة والقهر، يقال: من عز بز، يعني من غلب سلب. ومنه: ﴿**إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ**﴾ أراد غلبني. وقال جرير: يعز على الطريق بمنكبيه كما ابترك الخليع على القداح أراد يغلب. "وشقاق" أي في إظهار خلاف ومباينة. وهو من الشق كأن هذا في شق وذلك في شق.

قوله تعالى: ﴿ **كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ**﴾ أي من قوم كانوا أمنع من هؤلاء. وكم، لفظة التكثير "فنادوا" أي بالاستغاثة والتوبة. والنداء رفع الصوت، ومنه الخبر: ((ألقه على بلال فإنه أندى منك صوتاً)) أي أرفع.

قوله تعالى: ﴿**كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ**﴾ قال الحسن: نادوا بالتوبة وليس حين التوبة ولا حين ينفع العمل. وقال النحاس: وهذا تفسير منه لقوله عز وجل: ﴿**وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ**﴾ فأما إسرائيل عن ابن عباس: ﴿**وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ**﴾ قال: ليس بحين نزو ولا فرار، قال: ضبط القوم جميعاً، قال الكلبي: كانوا إذا قاتلوا فاضطروا قال بعضهم لبعض مناص، أي عليكم بالفرار والهزيمة، فلما أتاهم العذاب قالوا مناص، فقال الله عز وجل: ﴿**وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ**﴾ قال القشيري: وعلى هذا فالتقدير: فنادوا مناص فحذف لدلالة بقية الكلام عليه، أي ليس الوقت وقت ما تنادون به.

وفي هذا نوع تحكم، إذ يبعد أن يقال: كل من هلك من القرون كانوا يقولون مناص عند الاضطرار. وقيل: المعنى: ﴿**وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ**﴾ أي لا خلاص وهو نصب بوقوع لا عليه. قوله تعالى: ﴿**وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**﴾ أن في موضع نصب والمعنى من أن جاءهم.

قيل: هو متصل بقوله: ﴿**بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ**﴾ أي في عزة وشقاق وعجبوا، وقوله: كم أهلكنا، معترض. وقيل: لا بل هذا ابتداء كلام، أي ومن جهلهم أنهم أظهروا التعجب من أن جاءهم منذر منهم. ﴿**وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**﴾ أي يجيء بالكلام المموه الذي يخدع به الناس. وقيل: يفرق بسحره بين الوالد وولده والرجل وزوجته، وكذاب: أي في دعوة النبوة. قوله تعالى: ﴿**أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ**﴾ مفعولان أي صير الآلهة إلهاً واحداً. إن هذا لشيء عجاب، أي عجيب. والعجاب والعجاب والعجب سواء. وقد فرق الخليل بين عجيب وعجاب فقال: العجيب العجب، والعجاب الذي قد تجاوز حد العجب، والطويل الذي فيه طول والطوال، الذي قد تجاوز حد الطول. وقال الجوهري: العجيب الأمر الذي يتعجب منه، وكذلك العجاب بالضم والعجاب بالتشديد أكثر منه، وكذلك الأعجوبة.

عن ابن عباس قال: مرض أبو طالب فجاءت قريش إليه، وجاء النبي ﷺ، وعند رأس أبي طالب مجلس رجل، فقام أبو جهل كي يمنعه، قال: وشكوه إلى أبي طالب، فقال: يا بن أخي ما تريد من قومك؟ فقال: يا عم إنما أريد منهم كلمة تذل لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها الجزية العجب فقال: وما هي؟ قال: لا إله إلا الله قال: فقالوا أجعل الآلهة إلهاً واحداً قال: فنزل فيهم القرآن: ﴿**ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ**﴾ (ص:١– ٢) حتى بلغ: ﴿**مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ**﴾ وقيل: لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه شق على قريش إسلامه فاجتمعوا إلى أبي طالب وقالوا: أقض بيننا وبين ابن أخيك. فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ فقال: يا بن أخي هؤلاء قومك يسألونك السواء، فلا تمل كل الميل على قومك. قال: وماذا يسألونني قالوا: ارفضنا وارفض ذكر ألهتنا وندعك وإلهك فقال النبي ﷺ: أتعطونني كلمة واحدة وتملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم فقال أبو جهل: لله أبوك! لنعطينكها وعشر أمثالها فقال النبي ﷺ: قولوا لا إله ألا الله فنفروا من ذلك وقاموا! فقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً فكيف يسع الخلق كلهم إله واحد.

فأنزل الله فيهم هذه الآيات إلى قوله: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ**﴾، قوله تعالى: ﴿**أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ**﴾ هو استفهام إنكار، والذكر ها هنا القرآن. أنكروا اختصاصه بالوحي من بينهم، فقال الله تعالى: ﴿**بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ**﴾ أي من وحي القرآن. أي قد علموا أنك لم تزل صدوقاً في بينهم، وإنما شكوا فيما أنزلته عليك هل هو من عندي أم لا. ﴿**بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ**﴾ أي إنما اغتروا بطول الإمهال ولو ذاقوا عذابي على الشرك لزال عنهم الشك، ولما قالوا ذلك، ولكن لا ينفع الإيمان حينئذ.

قوله تعالى: ﴿**أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ**﴾ قيل: أم لهم هذا فيمنعوا محمداً عليه السلام مما أنعم الله عز وجل به عليه من النبوة. و "أم" قد ترد بمعنى التقريع إذا كان الكلام متصلاً بكلام قبله، كقوله تعالى: ﴿**الم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ *أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ (السجدة:١/٣).

وقد قيل إن قوله: ﴿**أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ**﴾ متصل

بقوله: ﴿**وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**﴾ فالمعنى أن الله عز وجل يرسل من يشاء، لأن خزائن السماوات والأرض له.

قوله تعالى: ﴿**أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ**﴾ أي فإن ادعوا ذلك "فليرتقوا في الأسباب" أي فليصعدوا إلى السماوات وليمنعوا الملائكة من إنزال الوحي على محمد. يقال: رقي يرقى وارتقى إذا صعد. ورقى يرقي رقياً مثل رمى يرمي رمياً من الرقية. قال الربيع بن أنس: الأسباب أرق من الشعر وأشد من الحديد ولكن لا ترى. والسبب في اللغة كل ما يوصل به إلى المطلوب من حبل أو غيره.

وقيل: الأسباب أبواب السماوات التي تنزل الملائكة منها، قال زهير: ولو رام أسباب السماء بسلم وقيل: الأسباب السماوات نفسها، أي فليصعدوا سماء سماء. قوله تعالى: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ**﴾ ذكرها تعزية للنبي ﷺ وتسلية له، أي هؤلاء من قومك يا محمد جند من الأحزاب المتقدمين الذين تحزبوا على أنبيائهم، وقد كانوا أقوى من هؤلاء فأهلكوا. وذكر الله تعالى القوم بلفظ التأنيث، واختلف أهل العربية في ذلك على قولين: أحدهما: أنه قد يجوز فيه التذكير والتأنيث. الثاني: أنه مذكر اللفظ لا يجوز تأنيثه، إلا أن يقع المعنى على العشيرة والقبيلة، فيغلب في اللفظ حكم المعنى المضمر تنبيهاً عليه.

قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ**﴾ ينظر بمعنى ينتظر، ومنه قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ**﴾ (الحديد:١٣) هؤلاء: يعني كفار مكة. إلا صيحة واحدة، أي نفخة القيامة. أي ما ينتظرون بعد ما أصيبوا ببدر إلا صيحة القيامة.

وقيل: ما ينتظر أحيائهم الآن إلا الصيحة التي هي النفخة في الصور، كما قال تعالى: ﴿**مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ**﴾ (يس:٤٨/٤٩)، وهذا إخبار عن قرب القيامة والموت. وقيل: أي ما ينتظر كفار آخر هذه الأمة المتدينين بدين أولئك إلا صيحة واحدة وهي النفخة.

قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ**﴾ قال مجاهد: عذابنا. وكذا قال قتادة: نصيبنا من العذاب. قوله تعالى: ﴿**إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ**﴾ في موضع نصب على الحال، ذكر تعالى ما آتاه من البرهان والمعجزة وهو تسبيح الجبال معه. قال مقاتل: كان داود إذا ذكر الله جل وعز ذكرت الجبال معه، وكان يفقه تسبيح الجبال.

وقال ابن عباس: يسبحن، يصلين. وإنما يكون هذا معجزة إذا رآه الناس وعرفوه. وقال محمد بن إسحاق: أوتي داود من حسن الصوت ما يكون له في الجبال دوي حسن، وما تصغي لحسنه الطير وتصوت معه، فهذا تسبيح الجبال والطير، وقيل: وسخرها الله عز وجل لتسير معه فذلك تسبيحاً، لأنها دالة على تنزيه الله عن شبه المخلوقين. وقد مضى القول في هذا في "سبأ" وفي "سبحان" عند قوله تعالى: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً**﴾ (الإسراء:٤٤).

قوله تعالى: ﴿**وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ**﴾ أي قويناه حتى ثبت. قيل: بالهيبة وإلقاء الرعب منه في القلوب. وقيل: بكثرة الجنود. وقيل: بالتأييد والنصر. وهذا اختيار ابن العربي. فلا ينفع الجيش الكثير التفافه على غير منصور وغير معان. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان داود أشد ملوك الأرض سلطاناً. كان يحرس محرابه كل ليلة نيف وثلاثون ألف رجل فإذا أصبح قيل: ارجعوا فقد رضي عنكم نبي الله. والملك عبارة عن كثرة الملك، فقد يكون للرجل ملك ولكن لا يكون ملكاً حتى يكثر ذلك، فلو ملك الرجل داراً وامرأة لم يكن ملكاً حتى يكون له خادم يكفيه مؤنة التصرف في المنافع التي يفتقر إليها لضرورة الآدمية.

قوله تعالى: ﴿**وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ**﴾ الخصم: يقع على الواحد والاثنين والجماعة؛ لأن أصله المصدر. ولا خلاف بين أهل التفسير أنه يراد به ها هنا ملكان. وقيل: تسوروا: وإن كان اثنين حملاً على الخصم، إذ كان بلفظ الجمع ومضارعاً له، مثل الركب والصحب. تقديره للاثنين ذوا خصم. ومعنى: تسوروا المحراب: آتوه من أعلى سوره. يقال: تسور الحائط تسلقه، والسور حائط المدينة وهو بغير همز، وكذلك السور جمع سورة بسرة وبسر وهي كل منزلة من

البناء. ومنه سورة القرآن؛ لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى.

قوله تعالى: ﴿**إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ**﴾ لأنهما أتياه ليلاً في غير وقت دخول الخصوم. وقيل: لدخولهم عليه بغير إذنه. وقيل: لأنهم تسوروا عليه المحراب ولم يأتوه من الباب. قال ابن العربي: كان محراب داود عليه السلام من الامتناع في الارتفاع، بحيث لا يرتقي إليه آدمي بحيلة إلا أن يقيم إليه أياماً أو أشهراً بحسب طاقته، مع أعوان يكثر عددهم وآلات جمة مختلفة الأنواع. ولو قلنا: إنه يوصل إليه من باب المحراب لما قال الله تعالى مخبراً عن ذلك: تسوروا المحراب: إذ لا يقال تسور المحراب والغرفة لمن طلع إليها من درجها، وجاءها من أسفلها إلا أن يكون ذلك مجازاً، وإذا شاهدة الكوة التي يقال إنه دخل منها الخصمان علمت قطعاً أنها ملكان، لأنها من العلو بحيث لا ينالها إلا علوي

قوله تعالى: ﴿**قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ**﴾، قال النحاس: ويقال إن هذه كانت خطيئة داود عليه السلام؛ لأنه قال: لقد ظلمك من غير تثبت ببينة، ولا إقرار من الخصم، هل كان هذا كذا أو لم يكن، فهذا قول.

قوله تعالى: ﴿**يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾، أي ملكناك لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فتخلف من كان قبلك من الأنبياء والأئمة الصالحين. قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ**﴾ قيل: فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة، وملك بعد الفتنة عشرين سنة، ذكره الزمخشري. وفتنا: أي ابتلينا وعاقبنا.

وسبب ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: اختصم إلى سليمان عليه السلام فريقان أحدهما من أهل جرادة امرأة سليمان، وكان يحبها فهوي أن يقع القضاء لهم، ثم قضى بينهما بالحق، فأصابه الذي أصابه عقوبة لذلك الهوى. قوله

تعالى: ﴿**فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ**﴾ أي لينة مع قوتها وشدتها حتى لا تضر بأحد، وتحمله بعسكره وجنوده وموكبه. وكان موكبه فيما روي فرسخاً في فرسخ، مائة درجة بعضها فوق بعض، كل درجة صنف من الناس، وهو في أعلى درجة مع جواريه وحشمه وخدمه، صلوات الله وسلامه عليه.

قوله تعالى: ﴿**وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ**﴾ أي وسخرنا له الشياطين وما سخرت لأحد قبله. كل بناء: بدل من الشياطين أي كل بناء منهم، فهم يبنون له ما يشاء.

قوله تعالى: ﴿**وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ**﴾ أي وسخرنا له مردة الشياطين حتى قرنهم في سلاسل الحديد وقيود الحديد، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿**هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ**﴾ أي هذا الجزاء الذي وعدتم به. قوله تعالى: ﴿**هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ**﴾، قال ابن عباس: هو أن القادة إذا خلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع، قالت الخزنة للقادة: هذا فوج: يعني الأتباع والفوج الجماعة، مقتحم معكم: أي داخل النار معكم، فقالت السادة: لا مرحباً بهم: أي لا اتسعت منازلهم في النار. والرحب والسعة، ومنه رحبة المسجد وغيره. وهو في مذهب الدعاء فلذلك نصب.

قوله تعالى: ﴿**وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ**﴾ أي نبأ الذكر وهو القرآن أنه حق بعد حين، قال قتادة: بعد الموت. وقاله الزجاج. وبعد حين: أي في المستأنف أي إذا أخذتكم سيوف المسلمين. قال السدي: وذلك يوم بدر. وكان الحسن يقول: يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين. وسئل عكرمة عمن حلف ليصنعن كذا إلى حين. قال: إن من الحين ما لا تدركه كقوله تعالى: ﴿**وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ**﴾، ومنه ما تدركه، كقوله تعالى: ﴿**تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ (إبراهيم:٢٥) من صرام النخل إلى طلوعه ستة أشهر.

*****

سورة الزمر

ويقال سورة الغرف. قال وهب بن منبه: من أحب أن يعرف قضاء الله عز وجل في خلقه فليقرأ الغرف. وهي مكية، وقال ابن عباس: إلا آيتين نزلتا بالمدينة أحدهما: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾، والأخرى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾، قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ**﴾ أي هذا تنزيل الكتاب من الله وقد أنزلناه بالحق: أي بالصدق وليس بباطل وهزل: ﴿**فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً**﴾ فيه مسألتان: الأولى: (مخلصاً) نصب على الحال أي موحداً لا تشرك به شيئاً "له الدين" أي الطاعة.

وقيل: العبادة وهو مفعول به. قوله تعالى: ﴿**أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ**﴾ أي الذي لا يشوبه شيء. وفي حديث الحسن عن أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أتصدق بالشيء وأصنع الشيء أريد به وجه الله وثناء الناس. فقال رسول الله ﷺ: ((والذي نفس محمد بيده لا يقبل الله شيئاً شورك فيه)) ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿**أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**﴾.

قال ابن العربي: هذه الآية دليل على وجوب النية في كل عمل، وأعظمه الوضوء الذي هو شطر الإيمان، خلافا لأبي حنيفة، والوليد بن مسلم، عن مالك: اللذين يقولان إن الوضوء يكفي من غير نية، وما كان ليكون من الإيمان شطراً ولا ليخرج الخطايا من بين الأظافر والشعر بغير نية. قوله تعالى: ﴿**أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ**﴾.

يعني الأصنام، والخبر محذوف. أي قالوا: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**﴾ قال قتادة: كانوا إذا قيل لهم من ربكم وخالقكم؟ ومن خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء؟ قالوا: الله، فيقال لهم ما معنى عبادتكم الأصنام؟

قالوا: ليقربونا إلى الله زلفى، ويشفعون لنا عنده.

قوله تعالى: ﴿**لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ أي لو أراد أن يسمي أحداً من خلقه بهذا ما جعله عز وجل إليهم. "سُبْحَانَهُ" أي تنزيهاً له عن الولد ﴿**هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾، قوله تعالى: ﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمّىً أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ**﴾ أي هو القادر على الكمال المستغني عن الصاحبة والولد، ومن كان هكذا فحقه أن يفرد بالعبادة لا أنه يشرك به ونبه بهذا على أن له أن يتعبد العباد بما شاء وقد فعل.

وقوله تعالى: ﴿**يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ**﴾ قال الضحاك: أي يلقي هذا على هذا وهذا على هذا. وهذا على معنى التكوير في اللغة وهو طرح الشيء بعضه على بعض، يقال: كور المتاع أي ألقى بعضه على بعض، ومنه كور العمامة.

قول الله تعالى: ﴿**إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ أي أن يكفروا أي لا يحب ذلك منهم، وقال أبن عباس والسدي: معناه لا يرضى لعبادة المؤمنين الكفر، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً**﴾ (الإسراء:٦٥)، وكقوله: ﴿**عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً**﴾ (الإنسان:٦) أي: المؤمنون. وهذا على قول من لا فرق بين الرضا والإرادة. وقيل: لا يرضى الكفر وإن أراده، فالله تعالى يريد الكفر من الكافر وبإرادته كفر يرضاه ولا يصبه، فهو يريد كون ما لا يرضاه، وقد أراد الله عز وجل خلق إبليس وهو لا يرضاه، فالإرادة غير الرضا.

وهذا مذهب أهل السنة. قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ**﴾ أي يرضى الشكر لكم؛ لأن تشكروا يدل عليه. قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**﴾ يعني:

الكافر "ضر" أي شدة من الفقر والبلاء ﴿**دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ**﴾ أي راجعاً إليه مخبتاً مطيعاً له مستغيثاً به في إزالة تلك الشدة عنه: ﴿**ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ**﴾ أي أعطاه وملكه.

يقال: خولك الله شيء أي ملكك إياه. قوله تعالى: ﴿**أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ**﴾ بين تعالى أن المؤمن ليس كالكافر الذي مضى ذكره.

قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ أي قل يا محمد لعبادي المؤمنين ﴿**اتَّقُوا رَبَّكُمْ**﴾ أي اتقوا معاصيه. وقال ابن عباس: يريد جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة. ثم قال: ﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ**﴾ يعني بالحسنة الأولى الطاعة وبالثانية الثواب في الجنة. وقيل: المعنى للذين أحسنوا في الدنيا في الدنيا، ويكون ذلك زيادة على ثواب الآخرة، والحسنة الزائدة في الدنيا الصحة والعافية والظفر والغنيمة.

قال القشيري: والأول أصح، لأن الكافر قد نال نعم الدنيا. قوله تعالى: ﴿**وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ من هذه الأمة، وكذلك: إن، فإنه كان أول من خالف دين آبائه، وخلع الأصنام وحطمها، وأسلم لله وآمن به، ودعا إليه ﷺ. قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ يريد عذاب يوم القيامة. وقاله حين دعاه قومه إلى دين آبائه، قاله أكثر أهل التفسير. قوله تعالى: ﴿**فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾ أمر تهديد ووعيد وتوبيخ، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمَّنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ (فصلت:٤٠)، وقيل: منسوخة بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿**فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾، قال ميمون بن مهران عن ابن عباس: ليس من أحد إلا وقد خلق الله له زوجة في الجنة، فإذا دخل النار

خسر نفس به وأهله. قول الله تعالى: ﴿**لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ**﴾ سمى ما تحتهم ظللاً؛ لأنها تظل من تحتهم.

وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْت أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (العنكبوت:٥٥) ذلك يخوف الله به عباده، قال ابن عباس: أولياءه قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ**﴾، قال الأخفش: الطاغوت جمع ويجوز أن تكون واحدة مؤنثة. تباعدوا من الطاغوت وكانوا منها على جانب فلم يعبدوها. قال مجاهد وابن زيد: هو الشيطان. وقال الضحاك والسدي: هو الأوثان.

قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ**﴾، قال ابن عباس: هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحين وينكف عن القبيح فلا يتحدث به. وقيل: يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن. وقيل: يستمعون القرآن وأقوال الرسول فيتبعون أحسنه أي محكمه فيعملون به. وقيل: يستمعون عزماً وترخيصاً فيأخذون بالعزم دون الترخيص. وقيل: يستمعون العقوبة الواجبة لهم والعفو فيأخذون بالعفو. قول الله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ**﴾، قال عطاء وابن زيد: يرمى به مكتوفاً في النار فأول شيء تمس منه النار مغلولة يداه إلى عنقه، وفي عنقه صخرة عظيمة كالحبل العظيم من الكبريت يرمى به في النار مغلولة يداه إلى عنقه، وفي عنقه صخرة عظيمة كالجبل العظيم من المتكبرين فتشتعل النار في الحجر وهو معلق في عنقه، فحرفها ووهجها على وجه، لا يطيق دفعها عن وجهه، لا يطيق دفعها عن وجهه من أجل الأغلال.

قوله تعالى: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾، قال المبرد: أي متعاسرون من شكس يشكس شكساً بوزن قفل فهو شكس مثل عسر يعسر عسراً فهو عسر، يقال: رجل شكس وشرس وضرس وضبس. ويقال: رجل ضبس وضبيس أي شرس عسر شكس، قاله الجوهري. قال الزمخشري: والتشاكس والتشاخس الاختلاف. يقال: تشاكس أحواله وتشاخست أسنانه. ويقال: شاكسني فلان أي ماكسني وشاحني في حقي.

قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ**﴾ يعني تخاصم الكفار والمؤمن والظالم والمظلوم، قاله ابن عباس وغيره. وفي خبر فيه طول: ((إن الخصومة تبلغ يوم القيامة إلى أن يحاج الروح الجسد))، قوله تعالى: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾، حذفت الياء من (كاف) لسكونها وسكون التنوين بعدها، وكان الأصل ألا تحذف في الوقف لزوال التنوين، إلا أنها حذفت لعلم أنها كذلك في الوصول. ومن العرب من يثبتها في الوقف على الأصل فيقول: كافي.

قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾ أي ولئن سألتهم يا محمد، من خلق السماوات والأرض ليقولن الله، ببين أنهم مع عبادتهم الأوثان مقرون بأن الخالق هو الله، وإذا كان الله هو الخالق فكيف يخوفونك بآلتهم التي هي مخلوقة لله تعالى، وأنت رسول الله الذي خلها وخلق السماوات والأرض. "قل أفرأيتم" أي قل لهم يا محمد بعد اعترافهم بهذا (أفرأيتم) "إن أرادني الله بضر" بشدة وبلاء "هل هن كاشفات ضره" يعني هذه الأصنام "أو أرادني برحمة" نعمة ورخاء "هل هن ممسكات رحمته" قال مقاتل: فسألهم النبي ﷺ فسكتوا. قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾، أي على مكانتي أي على جهتي التي تمكنت عندي، فسوف تعلمون.

قول الله تعالى: ﴿**قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ نص في أن الشفاعة لله وحده كما قال: ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾.

قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُون**﴾، فأنا أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب. "وبدا لهم" أي ظهر لهم "سيئات ما كسبوا" أي عقاب ما كسبوا من الكفر والمعاصي. "وحاق بهم" أي أحاط بهم نزل "ما كانوا به يستهزئون".

قوله تعالى: ﴿**وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ**﴾ أحسن ما أنزل: هو القرآن وكله حسن، والمعنى ما قال الحسن: التزموا طاعته، واجتنبوا معصيته. وقال السدي: الأحسن ما أمر الله به في كتابه. وقال ابن زيد: يعني المحكمات، وكلوا علم المتشابه إلى عالمه. وقال: أنزل الله كتاباً التوراة والإنجيل والزبور، ثم أنزل القرآن وأمر باتباعه فهو الأحسن وهو المعجز. وقيل: هذا أحسن لأنه ناسخ قاض على جميع الكتب وجميع الكتب منسوخة. وقيل: يعني العفو؛ لأن الله تعالى خير نبيه عليه السلام بين العفو والقصاص. وقيل: ما علم الله النبي عليه السلام وليس بقرآن فهو حسن، وما أوحى إليه من القرآن فهو الأحسن. وقيل: أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية.

قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾، قيل: إن في الكلام تقديماً وتأخيراً، والتقدير: لقد أوحي إليك لئن أشركت وأوحي إلى الذين من قبلك كذلك. وقيل: وعلى بابه، قال مقاتل: أي أوحي إليك وإلى الأنبياء من قبلك بالتوحيد ولا توحيد محذوف ثم قال: لئن أشركت يا محمد "ليحبطن عملك" وهو خطاب للنبي ﷺ خاصة. وقيل: الخطاب له والمراد أمته، إذ قد علم الله أنه لا يشرك ولا يقع منه إشراك والإحباط الإبطال والفساد.

قال القشيري: فمن ارتد لم تنفعه طاعته السابقة ولكن إحباط الردة العمل مشروط بالوفاة على الكفر، ولهذا قال: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾(البقرة:٢١٧) فالمطلق هاهنا محمول على المقيد، ولهذا قلنا: من حج ثم ارتد عاد إلى الإسلام لا يجب عليه إعادة الحج.

قوله تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ قال المبرد: ما عظموه حق عظمته من قولك فلان عظيم القدر. قال النحاس: والمعنى على هذا وما عظموه حق عظمته إذا عبدوا معه غيره وهو خالق الأشياء ومالكها. ثم أخبر عن

قدرته وعظمته فقال: ﴿**وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ**﴾ ثم نزه نفسه عن أن يكون ذلك بجارحة فقال: ﴿**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ وفي الترمذي عن عبد الله قال: جاء يهودي إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد إن الله يمسك السماوات على إصبع والخلائق على إصبع ثم يقول أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قال: ((وما قدروا الله حق قدره))، قول الله تعالى: ﴿**وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾، إشراقها إضاءتهما، يقال: أشرقت الشمس إذا أضاءت وشرقت إذا طلعت. ومعنى: بنور ربها، بعدل ربها، قاله الحسن وغيره، وقال الضحاك: بحكم ربها، والمعنى واحد، أي أنارت وأضاءت بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده. والظلم ظلمات والعدل نور. وقيل: إن الله يخلق نوراً يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق الأرض به. وقال ابن عباس: النور المذكور هاهنا ليس من نور الشمس والقمر، بل هو نور يخلقه الله فيضيء به الأرض.

قوله تعالى: ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ هذا بيان توفية كل نفس عملها، فيساق الكافر إلى النار والمؤمن إلى الجنة، والزمر: الجماعات واحدتها زمرة كظلمة وغرفة.

قول الله تعالى: ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِين**﴾، يعني من الشهداء والزهاد والعلماء والقراء وغيرهم، ممن اتقى الله تعالى وعمل بطاعته. وقال في حق الفريقين: وسيق، بلفظ واحد، فيوق أهل النار طردهم إليها بالخزي والهوان، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل، وسوق أهل الجنان سوق مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك، فشتان ما بين السوقين.

*****

سـورة غــافـر

وهي مكية في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر. وعن الحسن إلا قوله: ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالأَبْكَارِ**﴾، لأن الصلوات نزلت بالمدينة. وقال ابن عباس وقتادة إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة وهما: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾، والتي بعدها، وهي خمس وثمانون آية.

وقيل: ثنتان وثمانون آية قوله تعالى: (حم) اسم من أسماء الله تعالى، وهي مفاتيح خزائن ربك، قال ابن عباس: (حم) اسم الله الأعظم. وعنه: (الر) و(حم) و(ن) حروف الرحمن مقطعة. وعنه أيضاً: اسم من أسماء الله تعالى أقسم به. قوله تعالى: ﴿**تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾ المعنى: أن القرآن أنزله الله وليس منقولاً ولا مما يجوز أن يكذب به.

قوله تعالى: ﴿**غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾، قال النحاس: وتحقيق الكلام في هذا، وتلخيصه أن: غافر الذنب وقابل التوب، يجوز أن يكونا معرفتين على أنهما لما مضى فيكونا نعتين، ويجوز أن يكونا للمستقبل والحال فيكونان نكرتين، ولا يجوز أن يكونا نعتين على هذا ولكن يكون خفضهما على البدل، وجوز النصب على الحال، ما فهو نكرة ويكون خفضه على البدل.

قال ابن عباس: ذي طول: ذي النعم. وقال مجاهد: ذي الغني والسعة، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ (النساء:٢٥)، قوله تعالى: ﴿**مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ**﴾، يسجل سبحانه على المجادلين في آيات الله بالكفر، والمراد الجدال بالباطل، من الطعن فيها، والقصد إلى إدحاض الحق، وإطفاء نور الله تعالى.

وقد دل على ذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، فأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها، وحل مشكلها، ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها، ورد أهل الزيغ بها وعنها، فأعظم جهاد في سبيل الله.

وقد مضى هذا المعنى في (البقرة)، عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:٢٥٨)، مستوفى. قوله تعالى: لا يغررك: ما هم فيه من الخير والسعة في الرزق فإنه متاع قليل في الدنيا.

قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ على تأنيث الجماعة أي كذبت الرسل. والأحزاب من بعدهم، أي والأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم بالتكذيب نحو عاد وثمود فمن بعدهم. وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه، أي ليحبسوه ويعذبوه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾، أي وجبت ولزمت، مأخوذ من الحق لأنه اللازم. قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

ويروى: أن حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلي ورؤوسهم قد خرقت العرش، وهم خشوع لا يعرفون طرفهم، وهم أشراف الملائكة وأفضلهم. ففي الحديث: ((أن الله تبارك وتعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة))، ويقال: خلق الله العرش من جوهرة خضراء، وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام. وقيل: حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين، ومن

روائهم سبعون ألف صف قيام، قد وضعوا أيديهم على عواتقهم، ورافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومن ورائهم مائة ألف صف، وقد وضعوا الأيمان على الشمائل، ما منهم أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر.

قوله تعالى: ﴿**قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ**﴾، اختلف أهل التأويل في معنى قولهم: أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين، فقال ابن مسعود وابن عباس و قتادة والضحاك: كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم، ثم أحياهم ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها في الدنيا، ثم أحياهم للبعث والقيامة، فهاتان حياتان وموتتان، وهو قوله تعالى: ﴿**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ (البقرة:٢٨).

وقال السدي: أميتوا في الدنيا ثم أحياهم في القبور للمسألة، ثم أميتوا ثم أحيوا في الآخرة. وإنما صار إلى هذا؛ لأن لفظ الميت لا ينطلق في العرف على النطفة. واستدل العلماء من هذا في إثبات سؤال القبر، ولو كان الثواب والعقاب للروح دون الجسد فما معنى الإحياء والإماتة؟ والروح عند من يقصر أحكام الآخرة على الأرواح لا تموت ولا تتغير ولا تفسد، وهو حي لنفسه لا يتطرق إليه موت ولا غشية ولا فناء.

قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾ يكون بدلاً من يوم الأول. وقيل: هم، في موضع رفع بالابتداء و (بارزون) خبره والجملة في موضع خفض بالإضافة، فلذلك حذف التنوين من (يوم)، وإنما يكون هذا عند سيبويه كان الظرف بمعنى إذ، تقول لقيتك يوم زيد أمير. فإن كان بمعنى إذا لم يجز نحو أنا ألقاك يوم زيد أمير. ومعنى: (بارزون) خارجون من قبورهم لا يسترهم شيء؛ لأن الأرض يومئذ قاع صفصف لا عوج فيها ولا أمتاً على ما تقدم في (طه) بيانه. قوله تعالى: ﴿**وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ**﴾، أي يوم القيامة. سميت بذلك لأنها قريبة، إذا كل ما هو آت قريب. وأزف فلان أي قرب يأزف أزفاً.

قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ**﴾، وهي المعجزة الظاهرة،

قالوا: اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه. قال قتادة: هذا قتل غير القتل الأول، لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الوالدان بعد ولادة موسى، فلما بعث الله موسى أعاد القتل على نبي إسرائيل عقوله لهم فيمتنع الإنسان من الإيمان، ولئلا يكثر جمعهم فيعتضدوا بالذكر من أولادهم ن فشغلهم الله عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب، كالضفادع والقمل والد والطوفان إلى أن خرجوا من مصر، فأغرقهم الله.

قول الله تعالى: ﴿**وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ**﴾ ذكر بعض المفسرين: أن اسم هذا الرجل حبيب. وقيل: شمعان بالشين المعجمية.

قال السهيلي: وهو أصح ما قيل فيه. وفي تاريخ الطبري رحمه الله: اسمه خبرك. وقيل: حزقيل؟ ويقال: إنه كان ابن عم فرعون، قاله السدي. قال: وهو الذي نجا مع موسى عليه السلام، ولهذا قال: من آل فرعون. وهذا الرجل هو المراد بقوله تعالى: ﴿**وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ**﴾ (القصص:٢٠)، وهذا قول مقاتل. وقال ابن عباس: لم يكن من آل فرعون مؤمن غيره وغير امرأة فرعون وغير المؤمن الذي أنذر موسى فقال: ﴿**وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ**﴾ (القصص:٢٠).

قول الله تعالى: ﴿**يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَاد**﴾، هذا من قول مؤمن آل فرعون، وفي قوله: (يا قوم) دليل على أنه قبطي، ولذلك أضافهم إلى نفسه فقال: (يا قوم) ليكونوا أقرب إلى قبول وعظه (لكم الملك) فاشكروا الله على ذلك، ﴿**ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ**﴾ أي غالبين، وهو نصب على الحال أي في حال ظهوركم.

والمراد بالأرض أرض مصر في قول السدي وغيره، كقوله: ﴿**وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ**

النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف:٢١) أي في أرض مصر.

قول الله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾، زاد في الوعظ والتخويف وأفصح عن إيمانه، وإما مستسلماً موطناً نفسه على القتال، وأو واثقاً بأنهم لا يقصدونه بسوء، وقد وقاه الله شرهم بقوله الحق: ﴿**فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ**﴾ (غافر:٤٥).

قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ**﴾، قيل: إن هذا من قول موسى. وقيل: هو من تمام وعظ مؤمن آل فرعون، ذكرهم قديم عتوهم على الأنبياء، وأراد يوسف بن يعقوب جاءهم بالبينات: ﴿**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ (يوسف:٣٩)، قال ابن جريج: هو يوسف بن يعقوب بعثه الله تعالى رسولاً إلى القبط بعد موت الملك من قبل موسى بالبينات وهي الرؤيا، وقال ابن عباس: هو يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نبياً عشرين سنة. وحكى النقاش عن الضحاك: أن الله تعالى بعث إليهم رسولاً من الجن يقال له يوسف.

قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ**﴾، لما قال مؤمن آل فرعون ما قال، وخاف فرعون أن يتمكن كلام هذا المؤمن في قلوب القوم، أوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد، فإن بان له صوابه لم يخفه عنهم، وإن لم يصح ثبتهم على دينهم، فأمر وزيره هامان ببناء الصرح.

قوله تعالى: ﴿**أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ**﴾، وأسباب السماء أبوابها. قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾ هذا من تمام ما قاله مؤمن آل فرعون، أي اقتدوا بي في الدين، أهدكم سبيل الرشاد: أي طريق الهدى وهو الجنة. وقيل: من قول موسى. قوله تعالى: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾ يجوز أن يكون بمعنى هو النار. والجمهور على أن هذا العرض في البرزخ. واحتج بعض أهل العلم في تثبيت عذاب القبر بقوله: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً**﴾ ما دامت الدنيا.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ**﴾، المراد موسى عليه السلام: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ**﴾ في موضع نصب عطف على الرسل، والمراد المؤمن الذي وعظ. وقيل: هو عام في الرسل والمؤمنين، ونصرهم بإعلاء الحجج وإفلاحها.

قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرائيلَ الْكِتَابَ**﴾، هذا دخل في نصرة الرسل في الدنيا والآخرة أي آتيناه التوراة والنبوة. وسميت التوراة هدى بما فيها من الهدى والنور، وفي التنزيل: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾ (المائدة:٤٤)، وأورثنا بني إسرائيل الكتاب، يعني التوراة جعلناها لهم ميراثاً.

قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ**﴾ جعل، هنا بمعنى خلق، والعرب تفرق بين جعل إذا كانت بمعنى خلق وبين جعل إذا لم تكن بمعنى خلق فإذا كانت بمعنى خلق فلا تعديها إلا إلى مفعول واحد، وإذا لم تكن بمعنى خلق عدتها إلى مفعولين، نحو قوله: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ (الزخرف:٣)، وقد مضى هذا المعنى في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**﴾، قال أكثر المفسرين: نزلت في القدرية. قال ابن سيرين: إن لم تكن هذه الآية نزلت في القديرة فلا أدرين فيمن نزلت. قال أبو قبيل: لا أحسب المكذبين بالقدر إلا بالذين يجادلون الذين آمنوا.

قوله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾، حتى يشاهدوا آثار الأمم السالفة "كانوا أكثر منهم" عدداً "وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون" من الأبنية والأموال وما أدالوا به من الأولاد والأتباع، يقال: دلوت بفلان إليك أي استشفعت به إليك.

وعلى هذا (ما) للجحد أي فلم يغن عنهم ذلك شيئاً. وقيل: (ما) للاستفهام

أي أي شيء أغنى عنهم كسبهم حين هلكوا. ولم ينصرف (أكثر)؛ لأنه على وزن أفعل. وزعم الكوفيون أن كل ما لا ينصرف فإنه يجوز أن ينصرف إلا أفعالا من كذا فإنه لا يجوز بوجه في شعر ولا غيره إذا كانت معه من. قال أبو العباس: ولو كانت من المانعة من صرفه لوجب ألا يقال: مررت بخير منك وشر منك ومن عمرو.

*****

سـورة فصـلـت

قول الله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قال الزجاج: تنزيل، رفع بالابتداء وخبره .قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، وهذا قول البصريين. وقال الفراء: يجوز أن يكون رفعه على إضمار هذا. ويجوز أن يقال: كتاب، بدل من قوله تنزيل، وقيل: نعت لقوله: تنزيل، وقيل: حم أي هذه حم، كما تقول باب كذا، أي هو باب كذا ف: حم، خبر ابتداء مضمر أي هو: حم.

وقوله: تنزيل، مبتدأ آخر، وقوله: كتاب، خبره فصلت آياته: أي بينت وفسرت. قال قتادة: ببيان حلاله من حرامه، وطاعته من معصيته. قال الحسن: بالوعد والوعيد، قال سفيان: بالثوب والعقاب. وقرئ: فصلت، أي فرقت بين الحق والباطل، أو فصلت بعضها من بعض باختلاف معانيها، من ولك فصلت أي تباعد من البلد: ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾: قال مجاهد: أي يعلمون أنه إليه واحد في التوراة والإنجيل. وقيل: يعلمون العربية فيعجزون عن مثله. ولو كان غير عربي لما علموه قلت: هذا أصح، والسورة نزلت تقريعاً وتوبيخاً لقريش في إزعاج القرآن.

قوله تعالى: ﴿بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾، حالان من الآيات والعامل فيه: فصلت، وقيل: هما نعتان للقرآن (بشيراً) لأولياء الله، نذيراً: لأعدائه. وروي أن الذيال بن حرملة قال: قال الملأ من قريش وأبو جهل قد التبس علينا أمر محمد، فول التمستم رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والشعر والسحر، وعلمت من ذلك علماً لا يخفى علي إن كان كذلك. فقالوا: أتيه فحدثه. فأتى النبي ﷺ، فقال له: يا محمد! أنت خير أم قصي بن كلاب؟ أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فبم تشتم آلهتنا، وتضلل آباءنا، وتسفه أحلامنا، وتذم ديننا؟ فإن كنت إنما تريد الرياسة عقدنا إليك ألويتنا فكنت رئسينا ما بقيت، وإن كنت تريد الباءة زوجناك عشر نساء من أي بنات قريش شئت، وإن كنت تريد المال جميعنا لك ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً من الجن قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب ما تتداوى به أو نغلب فيك. والنبي ﷺ ساكت، فلما فرغ قال: ((قد فرغت يا أبا الوليد؟)) قال: نعم. فقال: ((يا ابن أخي أسمع))، قال أسمع: قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* حم* تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم* كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إلى

قوله: ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ**﴾.

فوثب عتبة ووضع يده على فم النبي ﷺ، وناشده الله ولرحم ليسكنن، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فجاءه أبو جهل فقال: أصبوت إلى محمد؟ أم أجبك طعامه؟ فغضب عتبة وأقسم ألا يكلم محمداً أبداً، ثم قال: والله ما هو بشهر ولا كهانة ولا سحر، ثم تلا عليهم ما سمع منه إلى قوله: ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُود**﴾.

وأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فو الله لقد خفت أن ينزل بكم العذاب، يعني الصاعقة. قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ**﴾، الأكنة جمع كنان وهو الغطاء. قال مجاهد: الكنان للقلب كالجنة للنبل ﴿**وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ**﴾ أي صمم، فكلامك لا يدخل أسماعنا، وقلوبنا مستورة عن فهمه ﴿**وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ**﴾ أي خلاف في الدين؛ لأنهم يعبدون الأصنام وهو يعبد الله عز وجل.

قيل: ستر مانع عن الإجابة. وقيل: إن أبا جهل استغشى على رأسه ثوباً وقال: يا محمد بيننا وبينك حجاب. استهزاء منه. فالحجاب هنا الثوب، ﴿**فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ**﴾ أي اعمل في هلاكنا فإنا عاملون في هلاكك، قاله الكلبي. وقال مقاتل: اعمل لإلهك الذي أرسلك، فإنا نعلم لآلهتنا التي نعبدها. وقيل: اعمل بما يقتضيه دينك، فإنا عاملون بما يقتضيه ديننا ويحتمل، فاعمل لآخرتك فإنا نعلم لدنيانا.

قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ**﴾ (٦) أي ليست بملك بل أنا من بني آدم. قال الحسن: علمه الله تعالى التواضع. ﴿**يُوحَى إِلَيَّ**﴾ أي من السماء على أيدي الملائكة: ﴿**أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ (فـ) آمنوا به و" فاستقيموا إليه " أي وجهوا وجوهكم بالدعاء له والمسألة إليه، كما يقول الرجل: استقم إلى منزلك، أي لا تعرج على شيء غير القصد إلى منزلك. " واستغفروه " أي من شرككم " وويل للمشركين. قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ**﴾(٧) قال ابن عباس: لا يشهدون (أن لا إله إلا الله) وهي زكاة الأنفس. وقال قتادة: لا يقرون بالزكاة أنها واجبة. وقال الضحاك ومقاتل: يتصدون ولا ينفقون في الطاعة.

قرعهم بالشح الذي يأنف منه الفضلاء، وفيه دلالة على أن الكافر يعذب بكفره مع منـع وجوب الزكـاة عليـه. وقـال الفـراء وغيـره: كـان المشـركون ينفقـون النفقـات، ويسقون مـع منـع وجوب الزكـاة عليـه. وكـان المشـركون ينفقون النفقـات، ويسقون الحجيج ويطعمونهم، فحرموا ذلك على من آمن بمحمد ﷺ فنزلت فيهم هذه الآية: ﴿**الَّـذِينَ لا يُؤْتُـونَ الزَّكَـاةَ وَهُـمْ بِـالآخِرَةِ هُـمْ كَـافِرُونَ**﴾ (٧)، فلهذا لا ينفقـون فـي الطاعة ولا يستقيمون ولا يستغفرون. قال الزمخشري: فإن قلت لم خص من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقروناً بالكفر بالآخرة؟ قلت: لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله، وهو شقيق روحه، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته ونصوع طويته ألا ترى إلى قوله عز وجل: ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّـةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّـهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ (البقرة:٢٦٥) أي يثبتون أنفسهم ن ويدلون على ثباتها بإنفاق الأموال، وما خدع المؤلفة قلوبهم إلا بلمزة من الدنيا، فقويت عصبتهم ولانت شكيمتهم، وأهل الردة بعد رسول الله ﷺ ما تظاهر إلا بمنع الزكاة، فنصبت لهم الحروب وجهدوا. وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكـاة، وتخويف شديد من منعها، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين وقرن بالكفر بالآخرة.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾، قال ابن عباس: غير مقطوع، مأخوذ من مننت الحبل إذا قطعته. عن ابن عباس أيضاً ومقاتل: غير منقوص. ومنه المنون، لأنها تنقص نمه الإنسان أي قوته.

قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَـهُ أَنْـدَاداً ذَلِـكَ رَبُّ الْعَـالَمِينَ**﴾، (أئنكم) بهمزتين الثانية بين و(أئنكم) بألف بين همزتين وهو استفهام معناه التوبيخ. أمره بتوبيخهم، والتعجب من فعلهم، أي لم تكفرون بالله وهو خالق السماوات والأرض؟! في يومين: الأحد والاثنين ﴿**وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً**﴾ أي أضداداً وشركاء.

قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِـي أَرْبَعَـةِ أَيَّـامٍ سَوَاءً لِلسَّـائِلِينَ**﴾، أي فـي الأرض ﴿**رَوَاسِـيَ مِـنْ فَوْقِهَـا**﴾ يعنـي الجبال. وقال وهب: لما خلق الله الأرض مادت على وجه الماء، فقال لجبريل: ثبته يا جبريل. فنزل فأمسكها فغلبته الرياح، قال: يا رب أنت أعلم لقد غلبت فيها

فثبتها بالجبال وأرساها ﴿**وَبَارَكَ فِيهَا**﴾ بما خلق فيها من المنافع.

قال السدي: أنبت فيها شجرها ﴿**وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا**﴾، قال السدي والحسن: أرزاق أهلها ومصالحهم. وقال قتادة ومجاهد: خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها في يوم الثلاثاء والأربعاء. وقال عكرمة والضحاك: معنى ﴿**وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا**﴾ أي أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من التجارات والأشجار والمنافع في كل بلدة ما لم يجعله في الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلي بلد.

قال عكرمة: حتى أنه في بعض البلاد ليتبايعون الذهب بالملح مثلاً بمثل. وقال مجاهد والضحاك: السابري من سابور، والطيالسة من الري، والحبر اليمانية من اليمن، ﴿**فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ**﴾، يعني في تتمة أربعة أيام. ومثاله قول القائل: خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسة عشر يوماً، أي في تتمة خمسة عشر يوماً. قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾، أي عمد إلى خلقها وقصد لتسويتها، والاستواء من صفة الأفعال على أكثر الأقوال، يدل عليه قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾، وروى أبو صالح عن ابن عباس في قوله: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ**﴾ يعني صعد أمره إلى السماء، وقاله الحسن.

ومن قال: إنه صفة ذاتية زائدة قال: استوى في الأزل بصفاته. (ثم) ترجع إلى نقل السماء منصفة الدخان إلى حالة الكثافة، وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس، على ما مضى في (البقرة) عن ابن مسعود وغيره ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾، أي جيئا بما خلقت فيكما من المنافع والمصالح وأخرجاها لخلقي.

قال ابن عباس: قال الله تعالى للسماء: أطلعي شمسك وقمرك وكواكبك، وأجري رياحك وسحابك، وقلا للأرض: شقي أنهارك وأخرجي شجرك وثمارك طائعتين أو كارهتين: قالتا أتينا طائعين، وفي الكلام حذف أي أتينا أمرك، (**طائعين**)، وقيل: معنى هذا الأمر التسخير، أي كونا فكانتا كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ (النحل:٤٠)، فعلى هذا قال ذلك قبل خلقهما.

وعلى القول الأول قال ذلك بعد خلقهما. وهو قول الجمهور. وفي قوله تعالى لهما وجهان: أحدهم: أنه قول تكلم به. والثاني: أنها قدرة منه ظهرت لهما فقال مقام الكلام في بلوغ المراد، ذكره الماوردي: ﴿**قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾، فيه أيضاً وجهان: أحدهما: أنه ظهور الطاعة منهما حيث انقادا وأجابا فقام مقام قولهما.

قوله تعالى: ﴿**فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾، أي أكملهن وفرغ منهن. وقيل: أحكمهن كما قال: وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تبع "في يومين"، سوى الأربعة الأيام التي خلق فيها الأرض، فوقع خلق السماوات والأرض في ستة أيام، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ (الأعراف:٥٤)، وعن عبد الله بن سلام قال: خلق الأرض يوم الأحد والاثنين، وقدر فيها أقواتها في يومين، وخلق السماوات في يومين، خلق الأرض في يوم الأحد والاثنين، وقدر فيها أقواتها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، وخلق السماوات في يوم الخميس ويوم الجمعة، وآخر ساعة في يوم الجمعة خلق الله آدم في عجل، وهي التي تقوم فيها الساعة، وما خلق الله من دابة إلا وهي تفزع من يوم الجمعة إلا الإنس والجن.

قوله تعالى: ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ**﴾، هذا تفسير الصاعقة التي أرسلها عليهم، أي ريحاً باردة شديدة البرد وشديدة الصوت والهبوب. ويقال: أصلها صرر من الصر وهو البرد فأبدلوا مكان الراء الوسطى فاء الفعل، كقولهم كبكبوا أصله كببوا، وتجفجف الثوب أصله تجفف. قال أبو عبيدة: معنى صرصر: شديدة عاصفة.

قوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾، (ما) زائدة ﴿**شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ الجلود يعني بها الجلود بأعيانها في قول أكثر المفسدين.

قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ**

كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، يعني الكفار، لجلودهم لم شهدتم علينا، وإنما كنا نجادل عنكم، قالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء، لما خاطبت وخوطبت أجريت مجرى من يعقل. قوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ**﴾، يجوز أن يكون هذا من قول الجوارح لهم: ويجوز أن يكون من قول الله عز وجل أو الملائكة، وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثلاثة نفر، قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي قليل فقه قلوبهم، كثير شحم بطونهم: فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال الآخر: يسمع إن جهزنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله عز وجل: ﴿**وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ**﴾.

قوله تعالى: ﴿**وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ**﴾، قال النقاش: أي هيأنا لهم شياطين. وقيل: سلطنا عليهم قرناء يزينون عندهم المعاصي وهؤلاء القرناء من الجن والشياطين ومن الإنس أيضاً، أي سببنا لهم قرناء، يقال: قيض الله فلاناً لفلان أي جاءه به وأتاحه له، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَقَيَّضْنَا لَهُمْ**﴾ ويقال: قيض الله لي رزقاً أي أتاحه كما كنت أطلبه، والتقييض الإبدال ومنه المقايضة، قايضت الرجل مقايضة أي عاوضته بمتاع، وهما قيضان كما تقول بيعان. "فزينوا لهم ما بين أيديهم" من أمر الدنيا فحسنوه لهم حتى آثروه على الآخرة "وما خلفهم" حسنوا لهم ما بعد مماتهم ودعوهم إلى التكذيب بأمور الآخرة.

قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾، هذا توبيخ للذين تواصوا باللغو في القرآن. والمعنى: أي كلام أحسن من القرآن، ومن أحسن قولاً من الداعي إلى الله وطاعته وهو محمد ﷺ. قال الحسن: هو رسول الله ﷺ.

وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول: هذا رسول الله ﷺ، هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه. قوله تعالى: ﴿**وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ**

صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، يعني هذه الفعلة الكريمة والخصلة الشريفة "إلا الذين"، "إلا الذين صبروا"، بكظم الغيظ واحتمال الأذى ﴿**وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾، أي نصيب وافر من الخير، قاله ابن عباس. وقال قتادة: الحظ العظيم الجنة. وقال الحسن: والله ما عظم حظ قط دون الجنة. وقيل: الكناية في (يلقاها) عن الجنة، أي ما يلقاها إلا الصابرون، والمعنى متقارب.

*****

سـورة الشـورى

واختلف في سبب نزولها على أقوال ستة: الأولى: عن ابن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير أخبره: أنه قدم ركب من بني تميم على رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد، وقال عمر: أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، وقال عمر: ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾.

والثاني: ما روي أن النبي ﷺ أراد أن يستخلف على المدينة رجلاً إذ مضى إلى خيبر، فأشار عليه عمر برجل آخر فنزل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾.

الثالث: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ أنفذ أربعة وعشرين رجلاً من أصحابه إلى بني عامر فقتلوهم إلا ثلاثة تأخروا فسلموا وأنكفأوا إلى المدينة، فلقوا رجلين من بني سليم فسألوهما عن نسبهما، فقالا: من بني عامر؛ لأنهم من بني أعز من بني سليم فقتلوهما، فجاء نفر من بني سليم إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: إن بيننا عهداً، وقد قتل منا رجلان، فوداهما النبي ﷺ بمائة بعير، ونزلت عليه هذه الآية في قتلهم الرجلين.

*****

سورة الحجرات

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ**﴾، عن ابن أبى مليكة قال: حدثني عبد الله بن الزبير: أن الأقرع بن حابس قدم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: يا رسول الله استعمله على قومه، فقال عمر: لا تستعمله يا رسول الله، فتكلما عند النبي ﷺ حتى ارتفعت أصواتهما، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافك، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ**﴾، قال: فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبي ﷺ لم يسمع كلامه حتى يستفهمه.

قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾، أي يخفضون أصواتهم عنده إذا تكلموا إجلالاً له، أو كلموا غيره بين يديه إجلالاً له، قال أبو هريرة: لما نزلت: لا ترفعوا أصواتكم، قال أبو بكر رضي الله عنه: والله لا أرفع صوتي إلا كأخي السرار.

قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ**﴾، قال مجاهد وغيره: نزلت في أعراب بني تميم، قدم الوفد منهم على النبي ﷺ فدخلوا المسجد، ونادوا النبي ﷺ من وراء حجرته أن أخرج إلينا، فإن مدحنا زين وذمنا شين، وكانوا سبعين رجلاً قدموا الفداء ذراري لهم، وكان النبي ﷺ نام للقائلة.

وروي أن الذي نادى الأقرع بن حابس، وأنه القائل: إن مدحي زين وإن ذمي شين، فقال النبي ﷺ: ذاك الله. قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾، أي لو انتظروا خروجك لكان أصلح لهم في دينهم ودنياهم، وكان ﷺ لا يحتجب عن الناس إلا في أوقات يشتغل فيها بمهمات نفسه، فكان إزعاجه في تلك الحالة من سوء الأدب، وقيل: كانوا جاءوا شفعاء في أساري بني عنبر فأعتق رسول الله ﷺ نصفهم، وفادى على النصف.

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾، قيل: إن هذه الآية نزلت في الوليد

بن عقبة بن أبي معيط، في رواية: أن النبي ﷺ بعثه إلى بني المصطلق بعد إسلامهم، فلما سمعوا به ركبوا إليه، فلما سمع بهم خافهم، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره أن القوم قد هموا بقتله، ومنعوا صدقاتهم، فهم رسول الله ﷺ بغزوهم، فبينما هم كذلك إذ قدم وفدهم على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله سمعنا برسولك فخرجنا إليه لنكرمه، ونؤدي إليه ما قبلنا من الصدقة فاستمر راجعاً، وبلغنا أنه يزعم لرسول الله أنا خرجنا لنقاتله، والله ما خرجنا لذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وسمي الوليد فاسقاً أي كاذباً.

قوله تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ**﴾، أي لو تسارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر لنا لكم مشقة وإثم، فإنه لو قتل القوم الذين سعى بهم الوليد بن عقبة إليه لكان خطأ ولعنت من أراد إيقاع الهلاك بأولئك القوم لعداوة كانت بينه وبينهم، ومعنى طاعة الرسول لهم، الائتمار بما يأمر به فيما يبلغونه عن الناس والسماع منهم، والعنت الإثم، يقال: عنت الرجل، والعنت أيضاً الفجور والزنى، كما في سورة النساء، والعنت أيضاً الوقوع في أمر شاق.

وقد مضى في آخر براءة القول في (عنتم) بأكثر من هذا، ولكن الله حبب إليكم الإيمان: هذا خطاب للمؤمنين المخلصين الذين لا يكذبون النبي ﷺ ولا يخبرون بالباطل، أي جعل الإيمان أحب الأديان إليكم، وزينه: بتوفيقه، في قلوبكم: أي حسنه إليكم حتى اخترتموه، وفي هذا رد على القدرية والأمامية وغيرهم، فهو سبحانه المنفرد بخلق ذوات الخلق وخلق أفعالهم وصفاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم، ولا شريك له، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان: قال ابن عباس: يريد به الكذب خاصة.

قوله تعالى: ﴿**فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾، أي فعل الله ذلك بكم فضلاً، أي الفضل والنعمة. قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾.

روى المعتمر بن سليمان عن أنس بن مالك قال: قيل: يا نبي الله، لو أتيت

عبد الله بن أبى؟ فانطلق إليه النبي ﷺ، فركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبي ﷺ قال: إليك عني! فو الله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رجل من قومه، وغضب لكل واحد منهما أصحابه فكان بينهم حرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أنزل فيها هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ أي في الدين والحرمة لا في النسب، ولهذا قيل: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا)).

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾، قيل: عند الله، وقيل: (خيراً منهم) أي معتقداً وأسلم باطناً، والسخرية الاستهزاء، سخرت منه أسخر سخراً (بالتحريك) ومسخراً وسخراً (بالضم)، وقال الأخفش: سخرت منه وسخرت به، وضحكت منه وضحكت به وهزئت منه وهزئت به، كل يقال: والاسم السخرية والسخري.

قال ابن عباس: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس كان في أذنه وقر، فإذا سبقوه إلى مجلس النبي ﷺ أوسعوا له إذا أتى حتى يجلس إلى جنبه ليسمع ما يقول، فأقبل ذات يوم وقد فاتته من صلاة الفجر ركعة مع النبي ﷺ، فلما انصرف النبي ﷺ أخذ أصحابه مجالسهم منه، فربض كل رجل منهم بمجلسه، وعضوا فيه فلا يكاد يوسع أحد حتى يظل الرجل لا يجد مجلساً فيظل قائماً، فلما انصرف ثابت من الصلاة تخطى رقاب الناس ويقول: تفسحوا تفسحوا ففسحوا له حتى انتهى إلى النبي ﷺ وبينه وبينه رجل فقال له: تفسح، فقال له الرجل: قد وجدت مجلساً فاجلس! فجلس ثابت من خلفه مغضباً، ثم قال: من هذا؟ قالوا فلان، فقال ثابت: ابن فلانة! يعيره بها، يعني أما له في الجاهلية، فاستحيا الرجل، فنزلت.

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ**﴾، قيل: إنها نزلت في رجلين من أصحاب النبي ﷺ اغتابا رفيقهما، وذلك أن النبي ﷺ كان إذا سافر ضم الرجل المحتاج إلى الرجلين الموسرين فيخدمهما، فضم سلمان إلى رجلين، فقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام ولم يهيئ لهما شيئاً، فجاءا فلم يجدا طعاماً وأداما، فقالا له: انطلق فاطلب لنا من النبي ﷺ طعاماً وأداما، فذهب فقال له النبي ﷺ: أذهب إلى أسامة بن زيد فقل له إن كان عندك فضل من طعام فليعطك وكان أسامة خازن النبي ﷺ فذهب إليه فقال أسامة: ما عندي شيء، فرجع إليهما فأخبرهما، فقالا: قد كان عنده ولكنه بخل، ثم بعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئاً، فقالا: لو بعثنا سلمان إلى بئر سميحة لغار ماؤها، ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة شيء، فرآهما النبي ﷺ فقال: ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما، فقالا: يا نبي الله، والله ما أكلنا في يومنا هذا لحماً ولا غيره، فقال: ((ولكنكما ظلتما تأكلان لحم سلمان وأسامة))، فنزلت: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ**﴾.

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾، يعني آدم وحواء، ونزلت الآية في أبي هند، وقيل: أنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس.

قال ابن عباس: لما كان يوم فتح مكة أمر النبي ﷺ بلالاً حتى علا على ظهر الكعبة فأذن فقال عتاب بن أسيد بن أبي العيص: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لا يرى هذا اليوم، قال الحارث بن هشام: ما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً.

وقال سهيل بن عمرو: إن يرد الله شيئاً يغيره، وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به رب السماء، فأتى جبريل النبي ﷺ وأخبره بما قالوا، فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، زجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال، والازدراء بالفقراء، فإن المدار على التقوى، أي الجميع من آدم وحواء، إنما الفضل بالتقوى.

قوله تعالى: ﴿**قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾، نزلت في أعراب من بني أسد بن خزيمة قدموا على رسول الله ﷺ في سنة جدبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين في السر، وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارها، وكانوا يقولون لرسول الله: أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فأعطنا من الصدقة، وجعلوا يمنون عليه فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ أي صدقوا ولم يشكوا وحققوا ذلك بالجهاد والأعمال الصالحة، أولئك هم الصادقون: في إيمانهم، لا من أسلم خوف القتل ورجاء الكسب، فلما نزلت حلف الأعراب أنهم مؤمنون في السر والعلانية وكذبوا.

قوله تعالى: ﴿**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾، إشارة إلى قولهم: جئناك بالأثقال والعيال و(أن) في موضع نصب على تقدير لأن أسلموا، قل لا تمنوا علي إسلامكم: أي بإسلامكم، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾، قرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو بالياء على الخبر، رداً على قوله: قالت الأعراب، الباقون بالتاء على الخطاب.

*****

سورة الملك

قال تعالى: ﴿**لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾ قيل: المعنى خلقكم للموت والحياة، يعني للموت في الدنيا والحياة في الآخرة وقدم الموت على الحياة، لأن الموت إلى القهر أقر، كما قدم البنات على البنين، فقال: ﴿**لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ**﴾ (الشورى:٤٩).

وقيل: قدمه لأنه أقدم، لأن الأشياء في الابتداء كانت في حكم الموت كالنقطة والتراب ونحوه. وقال قتادة: كان رسول الله ﷺ، يقول: إن الله تعالى أذل بني آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء.

قال العلماء: الموت ليس بعدم محض ولا فناء ولا صرف، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته، وحيلولة بينهما، وتبدل حال وانتقال من دار إلى دار. والحياة عكس ذلك. وحكي عن ابن عباس والكلبي ومقاتل: أن الموت والحياة جسمان، فجعل الموت في هيئة كبش لا يمر بشيء ولا يجد ريحه إلا مات، وخلق الحياة على صورة فرس أنثى بلقاء. وهي التي كان جبريل والأنبياء عليهم السلام يركبونها. خطوتها مد البصر. فوق الحمار ودون البغل، لا تمر بشيء بجد ريحها إلا حيي، ولا تطأ على شيء إلا حي.

وفي التنزيل: ﴿**قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ* وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**﴾ (السجدة:١١/١٢) ثم قال: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (الزمر:٤٢) فالوسائط ملائكة مكرمون صلوات الله عليهم، وهو سبحانه المميت على الحقيقة، وإنما يمثل الموت بالكبش في الآخرة ويذبح على الصراط، حسب ما ورد به الخبر الصحيح.

وما ذكر عن ابن عباس يحتاج إلى خبر صحيح يقطع العذر، والله أعلم. وعن مقاتل أيضاً: خلق الموت، يعنى النطفة والعلقة والمضغة، وخلق الحياة، يعني خلق إنساناً ونفخ فيه الروح فصار إنساناً.

قال ابن عمر: تلى النبي ﷺ: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ حتى بلغ: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾، فقال: أورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله. وقيل: معنى ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور، ليعاملكم معاملة المختبر، أي ليبلو العبد بموت من يعز عليه ليبين صبره، وبالحياة ليبين شكره، وقيل: خلق الله الموت للبعث والجزاء، وخلق الحياة للابتلاء. فاللام في "ليبلوكم" تتعلق بخلق الحياة لا بخلق الموت.

والمعنى: ليبلوكم فيعلم أو فينظر أيكم أحسن عمل، "وهو العزيز" في انتقامه ممن عصاه. "الغفور" لمن تاب. قوله تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ**﴾ أي بعضها فوق بعض. والملتزق منها أطرافها، وكذا روي عن ابن عباس. و"طباقا" نعت ل "سبع" فهو وصف بالمصدر. وقيل: مصدر بمعنى المطابقة، أي خلق سبع سماوات وطبقها تطبيقاً أو مطابقة. أو على طوبقت طباقاً.

قال أبان بن تغلب: سمعت بعض الأعراب يذم رجلاً، فقال: شره طباق، وخيره غير باق. ويجوز في غير القرآن سبع سماوات طباق، بالخفض على النعت لسماوات. والمعنى: ما ترى في خلق الرحمن من اعوجاج ولا تناقص ولا تباين . بل هي مستقيمة مستوية دالة على خالقها. وإن اختلفت صوره وصفاته. وقيل: المراد بذل السماوات خاصة، أي ما ترى في خلق السماوات من عيب. وأصله من الفوت، وهو أن يفوت شئ شيئاً فيقع الخلل لقلة استوائها، يدل عليه قول ابن عباس رضي الله عنه: من تفرق. قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ**﴾، كرتين في موضع المصدر؛ لأن معناه رجعتين، أي مرة بعد أخرى. وإنما أمر بالنظر مرتين؛ لأن الإنسان إذا نظر في الشيء مرةً لا يرى عيبه ما لم ينظر إليه مرةً أخرى. فأخبر تعالى أنه وإن نظر في السماء مرتين لا يرى فيها عيباً بل يتحير بالنظر إليها، فذلك قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ**﴾ أي خاشعاً صاغراً متباعداً عن أن يرى شيئاً من ذلك. ويقال: خسأت الكلب أي أبعدته وطرته. وخسأ الكلب بنفسه، ويتعدى ولا يتعدى. وانخسأ الكلب أيضاً. وخسأ بصره خسئاً وخسوءاً أي سدر، ومنه قال ابن عباس: الخاسئ الذي لم ير ما يهوى.

قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ**﴾ جمع مصباح وهو السراج. وتسمى الكواكب مصابيح لإضاءتها. وجعلناها رجوما: أي جعلناها شهبها، فحذف المضاف. دليله: ﴿**إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ**﴾ (الصافات:١٠)، وعلى هذا فالمصابيح لا تزول ولا يرجم بها.

وقيل: إن الضمير راجع إلى المصابيح على أن الرجم من أنفس الكواكب، ولا يسقط الكوكب نفسه إنما ينفصل منه شئ يرجم به من غير أن ينقص ضوءه ولا صورته. قاله أبو علي جواباً لمن قال: كيف تكون زينة وهي رجوم لا تبقي، قال المهدوي: وهذا على أن يكون الاستراق من موضع الكواكب.

والتقدير الأول على أن يكون الاستراق من الهوى الذي هو دون موضع الكواكب، قال قتادة: خلق الله تعالى النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدي بها في البر والبحر والأوقات. فمن تأول فيها غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به، وتعدي وظلم. وقال محمد بن كعب: والله ما لأحد من أهل الأرض في السماء نجم، ولكنهم يتخذون الكهانة سبيلاً ويتخذون النجوم علة.

قوله تعالى: ﴿**إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ**﴾ يعني الكفار سمعوا لها شهيقا: أي صوتاً. قال ابن عباس: الشهيق لجنهم عند إلقاء الكفار فيها، تشهق إليهم شهقة البلغة للشعير، ثم تزفر زفرةً لا يبقى أحد إلا خاف.

وقيل: الشهيق من الكفار عند إلقائهم في النار، قاله عطاء. والشهيق في الصدور، والزفير في الحلق. قوله تعالى: ﴿**تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ**﴾، يعني تتقطع ويفصل بعضها من بعض، قاله سعيد بن جبير. وقال ابن عباس والضحاك وابن زيد: تتفرق، ومن الغيظ من شدة الغيظ على أعداء الله تعالى.

وقيل: من الغيظ من الغليان، وأصل تميز تتميز. قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾، قال ابن عباس: لو كنا نسمع الهدى أو نعلقه، أو لو كنا نسمع سماع من يعطي ويفكر، أو نعقل عقل من يميز وينظر. ودل هذا على أن الكافر لم يعط من العقل شيئاً، وقد مضى في الطور

بيانه والحمد لله. ما كنا في أصحاب السعير: يعني ما كنا من أهل النار.

قوله تعالى: ﴿**فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾، أي فبعداً لهم من رحمة الله. وقال سعيد بن جبير وأبو صالح: هو واد في جهنم يقال له السحق، وقيل: إن قوله تعالى: إن أنتم إلا في ضلال كبير: من قول خزنة جهنم لأهلها.

قوله تعالى: ﴿**وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ اللفظ الأمر والمراد به الخبر، يعني إن أخفيتم كلامكم في أمر محمد ﷺ أو جهرتم به ف "إنه عليم بذات الصدور" يعني بما في القلوب من الخير والشر. قال ابن عباس: نزلت في المشركين كانوا ينالون من النبي ﷺ، فيخبره جبريل عليه السلام، فقال بعضهم لبعض: أسروا قولكم كي لا يسمع رب محمد، فنزلت: "وأسروا قولكم أو اجهروا به".

يعني: أسروا قولكم في أمر محمد ﷺ، وقيل: في سائر الأقوال. أو اجهروا به، أعلنوه. "إنه عليم بذات الصدور: ذات الصدور ما فيها، كما يسمى ولد المرأة وهو جنين ذا بطنها. قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ**﴾ يا معشر قريش: إن أصبح ماؤكم غورا: أي غائراً ذاهباً في الأرض لا تناله الدلاء.

وكان ماؤهم من بئرين: بئر زمزم وبئر ميمون، فمن يأتيكم بماء معين: أي جار، قاله قتادة والضحاك. فلا بد لهم من أن يقولوا لا يأتينا به إلا الله،فقل لهم لم تشركون به من لا يقدر على أن يأتيكم. يقال: غار الماء يغور غوراً، أي نصب. والغور: الغائر، وصف بالمصدر للمبالغة، كما تقول: رجل عدل ورضاً.

وعن ابن عباس: بماء معين أي ظاهر تراه العين، فهو مفعول. وقيل: هو من معن الماء أي كثر، فهو على هذا فعيل. وعن ابن عباس أيضا: أن المعنى فمن يأتيكم بماء عذب، والله أعلم.

*****

سورة القلم

قوله تعالى: ﴿نْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، أدغم النون الثانية في هجائها في الواو أبو بكر والمفضل وهبيرة وورش، وابن محيص وابن عامر والكسائي ويعقوب. والباقون بالإظهار. وروى ثابت البناني أن: ن الدواة. عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((أول من خلق الله القلم ثم خلق النون ونـي الدواة، وذلك في قوله تعالى: ن والقلم. ثم قال: أكتب. قال: وما أكتب، قال: ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل أو أجل أو رزق أو أثر فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة. قال ثم ختم فما القلم قلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة. ثم خلق العقل فقال الجبار: ما خلقت خلقاً أعجب إلي منك، وعزتي وجلالي لأكملنك فيمن أحببت ولأنقصنك فيمن أبغضت. قال: ثم قال رسول الله ﷺ: أكمل الناس عقلاً أطوعهم لله وأعملهم بطاعته)).

قوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ هذا جواب القسم وهو نفي، وكان المشركون يقولون للنبي ﷺ: إنه مجنون، به شيطان. وهو قولهم: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (الحجر:٦)، فأنزل الله تعالى رداً عليهم وتكذيباً لقولهم: ما أنت بنعمة ربك بمجنون: أي برحمة ربك، والنعمة هاهنا الرحمة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾، أي ثواباً على ما تحملت من أثقال النبوة. غير ممنون: أي غير مقطوع ولا منقوص، يقال: مننت الحبل إذا قطعته. وحبل منين إذا كان غير متين.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، قال ابن عباس ومجاهد: على خلق دين عظيم من الأديان، ليس دين أحب إلى الله تعالى ولا أرضى عنده منه. وقال علي رضي الله عنه وعطية: هو أدب القرآن. وقيل: هو رفقه بأمته وإكرامه إياهم، وقال قتادة: هو ما كان يأتمر به من أمر الله وينتهي عنه مما نهى الله عنه. وقيل: أي إنك على طبع كريم.

وقال الماوردي: وهو الظاهر، وحقيقة الخلق في اللغة: هو ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب يسمى خلقاً؛ لأنه يصير كالخلقة فيه. وأما ما طبع عليه من الأدب فهو الخيم بالكسر: السجية والطبيعة لا واحد له من لفظه. وخيم: اسم

جبل. فيكون الخلق الطبع المتكلف. والخيم الطبع الغريزي.

قلت: ما ذكرته عن عائشة في صحيح مسلم أصح الأقوال. وسئلت أيضاً عن خلقه عليه السلام، فقرأت: قد أفلح المؤمنون، إلى عشر آيات وقالت: ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ، ما دعاه أحد من الصحابة ولا من أهل بيته إلا قال لبيك، ولذلك منه الحظ الأوفر. وقال الجنيد: سمي: خلقه عظيماً لأنه لم تكن له همة سوى الله تعالى.

وقيل: سمي خلقه عظيماً لإجماع مكارم الأخلاق فيه، يدل عليه قوله عليه السلام: إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق، وقيل: لأنه امتثل تأديب الله تعالى إياه بقوله تعالى: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾(الأعراف:١٩٩) عن عبد الله بن المبارك أنه وصف حسن الخلق، فقال: هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى. وعن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: ((إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً. قال: وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟)).

قول الله تعالى: ﴿**فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ**﴾، قال ابن عباس: معناه فستعلم ويعلمون يوم القيامة. وقيل: فسترى ويرون يوم القيامة حين يتبين الحق والباطل. قول الله تعالى: ﴿**بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ**﴾ الباء زائدة، أي فستبصر ويبصرون أيكم المفتون. أي الذي فتن بالجنون، كقوله تعالى: ﴿**وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ**﴾(المؤمنون:٢٠)، والمفتون: المجنون الذي فتنه الشيطان. وقيل: المفتون المعذب.

ومن قول العرب: فتنت الذهب بالنار إذا حميته، ومنه قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ**﴾(الذريات:١٣) أي يعذبون، ومعظم السورة نزلت في الوليد بن المغيرة وأبي جهل. وقيل: المفتون هو الشيطان، لأنه مفتون في دينه. وكانوا يقولون: إن به شيطاناً، وعنوا بالمجنون هذا، فقال الله تعالى: فسيعلمون غداً بأيهم المجون، أي الشيطان الذي يحصل من مسه الجنون واختلاط العقل.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِين**﴾، أي أن الله هو العالم بمن حاد عن دينه، وهو أعلم بالمهتدين: أي

الذين هم على الهدى فيجازي كلا غداً بعلمه. قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ نهاه عن ممايلة المشركين، وكانوا يدعونه إلى أن يكلف عنهم ليكفوا عنه، فبين الله تعالى أن ممايلتهم كفر.

وقال تعالى: ﴿**وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلا**﴾ (الإسراء:٧٤) وقيل: أي فلا تطع المكذبين فيما دعوتك إليه من دينهم الخبيث نزلت في مشركي قريش حين دعوه إلى دين الله.

قوله تعالى: ﴿**وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ**﴾ قال ابن عباس وعطية والضحاك والسدي: ودوا لو تكفر فيتمادون على كفرهم. وعن ابن عباس أيضاً: ودوا لو ترخص لهم فيرخصون لك. وقال مجاهد: المعنى ودوا لو ركنت إليهم وتركت الحق فيمالئونك. وقال الربيع بن أنس: ودوا لو تكذب فيكذبون. وقال قتادة: ودوا لو تذهب عن هذا الأمر فيذهبون معك. وقال الحسن: ودوا لو تصانعهم في دينك فيصانعونك في دينهم. وعنه أيضاً: ودوا لو ترفض بعض أمرك فيرفضون بعض أمرهم. قوله تعالى: ﴿**مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ**﴾ بخيل بالمال عن الحقوق (معتد) ظالم (أثيم) آثم. قوله تعالى: ﴿**عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيم**﴾، غليظ جاف (بعد ذلك زنيم) دعي في قريش وهو الوليد بن المغيرة ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة، قال ابن عباس: لا نعلم أن الله وصف أحدا بما وصفه به من العيوب فألحق به عارا لا يفارقه أبدا وتعلق بزنيم الظرف قبله.

قوله تعالى: ﴿**أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ**﴾ أي لأن وهو متعلق بما دل عليه، قوله تعالى: ﴿**إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾، القرآن (قال) هي (أساطير الأولين) أي كذب بها لإنعامنا عليه بما ذكر. قوله تعالى: ﴿**سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ**﴾، سنجعل على أنفه علامة يعير بها ما عاش فخطم أنفه بالسيف يوم بدر.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ**﴾ امتحنا أهل مكة بالقحط والجوع (كما بلونا أصحاب الجنة) البستان (إذ أقسموا ليصرمنها) يقطعون ثمرتها (مصبحين)، وقت الصباح كي لا يشعر بهم المساكين فلا يعطون منها ما كان أبوهم يتصدق به عليهم منها.

قوله تعالى: ﴿**وَلا يَسْتَثْنُونَ**﴾، في يمينهم بمشيئة الله تعالى والجملة مستأنفة

أي وشأنهم ذلك. قوله تعالى: ﴿**فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ**﴾، نار أحرقتها، (وهم نائمون).

قوله تعالى: ﴿**فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ**﴾ (القلم:٢٠) كالليل الشديد الظلمة أي سوداء، قوله تعالى: ﴿**أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِين**﴾، غلتكم تفسير لتنادوا أو أن مصدرية أي بأن (إن كنتم صارمين) مريدين القطع وجواب الشرط دل عليه ما قبله. قوله تعالى: ﴿**فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ**﴾، يتسارون. قوله تعالى: ﴿**أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ**﴾ تفسير لما قبله أو أن مصدرية أي بأن.

*****

سورة الحاقة

قول الله تعالى: ﴿**وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ**﴾، أي باردة تخرق ببردها كإحراق النار، مأخوذ من الصر وهو البرد، وقيل: إنها الشديد الصوت، وقال مجاهد: الشديد السموم. و"عاتية " أي عتت على خزنها فلم تطعهم، ولم يطيقوها من شدة هبوبها، غضبت لغضب الله.

وقيل: عتت على عاد فقهرتهم. عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما أرسل الله من نسمة من ريح إلا بمكيال ولا قطرة من ماء إلا بمكيال إلا يوم عاد، ويوم نوح فإن الماء يوم نوح طغى على الخزان فلم يكن لهم عليه سبيلا . ثم قرأ: ﴿**إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ**﴾، والريح لما كان يوم عاد عتت على الخزان فلم يكن لهم عليها سبيل، ثم قرأ: ﴿**وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ**﴾.

قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ**﴾، قال ابن عباس: هي النفخة الأولى لقيام الساعة، فلم يبق أحد إلا مات. وجاز تذكير "نفخ" لأن تأنيث النفخة غير حقيقي. وقيل: إن هذه النفخة هي الأخيرة. وقال: "نفخة واحدة" أي لا تثنى. قوله تعالى: ﴿**وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً**﴾ قراءة العامة بتخفيف الميم، أي رفعت من أماكنها. "فدكتا" أي فتتا وكسرتا. "دكة واحدة" لا يجوز في دكة إلا نصب لاتباع الضمير في دكتا.

وقال الفراء: لم يقل فدككن لأنه جعل الجبال كلها كالجملة الواحدة، والأرض كالجملة الواحدة، ومثله: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ**﴾ (الأنبياء:٣٠)، ولم يقل: كن. وهذا الدك كالزلزلة، كما قال تعالى: ﴿**إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا**﴾ (الزلزلة:١)، وقيل: دكتا أي بسطتا بسطةً واحدة، ومنه أنذاك سنام البعير إذا انفرش في ظهره. وقد مضى في سورة الأعراف القول فيه. قوله تعالى: ﴿**أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ**﴾.

قال المفسرون: كان المشركون يجتمعون حول النبي ﷺ ويستمعون كلامه فيكذبونه ويكذبون عليه، ويستهزئون بأصحابه، ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنها قبلهم، ولئن أعطوا منها شيئاً لنعطين أكثر منه، فنزلت: أيطمع الآية.

وقيل: كان المستهزئون خمسة أرهط. ثم ابتدأ فقال: ﴿**كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ**﴾ أي إنهم يعلمون أنهم مخلوقون من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، كما خلق سائر جنسهم. فليس لهم فضل يستوجبون به الجنة، وإنما تستوجب بالإيمان والعمل الصالح ورحمة الله تعالى. وقيل: كانوا يستهزئون بفقراء المسلمين ويتكبرون عليهم. فقال: ﴿**كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ**﴾ من القذر، فلا يليق بهم هذا التكبر.

وقال قتادة في هذه الآية: إنما خلقت يا ابن آدم من قذر فاتق الله. وروي أن مطرف بن عبد الله بن الشخير رأى المهلب بن أبي صفرة يتبختر في طرف خز وجبة خز فقال له: يا عبد الله، ما هذه المشية التي يبغضها الله؟! فقال له: أتعرفني؟ قال: نعم، أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة، فمضى المهلب وترك مشيته.

قوله تعالى: ﴿**فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ**﴾ أي أقسم، ولا صلة، برب المشارق والمغارب: هي مشارق الشمس ومغربها. إنا لقادرون: على أن نبدل خيرا منهم، يقول: نقدر على إهلاكهم والذهاب بهم، والمجيء بخير منهم في الفصل والطوع والمال: ﴿**عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ**﴾ (المعارج:٤١) أي لا يفوتنا شيء ولا يعجزنا أمر نريده.

*****

سورة المعارج

قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ السؤال بمعنى الدعاء، أي دعا داع بعذاب، عن ابن عباس وغيره. يقال: دعا على فلان بالويل، ودعا عليه بالعذاب. ويقال: دعوت زيداً، أي التمست إحضاره. أي التمس ملتمس عذاباً للكافرين، وهو واقع بهم لا محالة يوم القيامة. وعلى هذا فالباء زائدة، كقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ﴾(المؤمنون:٢٠)، وقوله: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾(مريم:٢٥) فهي تأكيد.

أي سأل سائل عذاباً واقعاً. "للكافرين" أي على الكافرين، وهو النضر بن الحارث حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(الأنفال:٣٢) فنزل سؤاله، وقتل يوم بدر صبراً هو وعقبة بن أبي معيط، لم يقتل صبراً غيرهما، وقيل: إن السائل هنا هو الحارث بن النعمان الفهري.

وذلك أنه لما بلغه قول النبي ﷺ في علي رضي الله عنه: من كنت مولاه ركب ناقته فجاء حتى أناخ راحلته بالأبطح ثم قال: يا محمد، أمرتنا عن الله نشهد أن لا إلا الله وأنك رسول الله فقبلناه منك، وأن نصلي خمساً فقبلناه منك، ونزكي أموالنا فقبلناه منك، وأن الصوم شهر رمضان في كل عام فقبلناه منك، وأن نحج فقبلناه منك، ثم لم ترض بهذا حتى فضلت ابن عمك علينا! أفهذا شئ منك أم من الله؟ فقال النبي ﷺ: والله الذي لا إله إلا هو ما هو إلا من الله فولى الحارث وهو يقول: اللهم إن كان ما يقول محمد حقا فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. فو الله ما وصل إلى ناقته حتى رماه الله بحجر فوقع على دماغه فخرج من دبره فقتله، فنزلت: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾.
وقيل: إن السائل هنا أبو جهل وهو القاتل لذلك، وقيل: إنه قوله جماعة من كفار قريش. وقيل: هو نوح عليه السلام سأل العذاب على الكافرين. وقيل: هو رسول الله ﷺ، أي دعا عليه السلام بالعقاب وطلب أن يوقعه الله بالكفار، وهو واقع بهم لا محالة. وامتد الكلام إلى قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً﴾، أي لا تستعجل فإنه قريب. وإذا كانت الباء بمعنى عن،ـ وهو قول قتادة . فكأن سائلاً سأل عن العذاب بمن يقع أو متى يقع.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾(الفرقان:٥٩) أي سل عنه. ويقال: خرجنا نسأل عن فلان وبفلان. فالمعنى سألوا بمن يقع العذاب ولمن يكون فقال الله: "للكافرين". قال أبو علي وغيره: وإذا كان من السؤال فأصله أن يتعدى إلى مفعولين ويجوز الاقتصار على أحدهما، وإذا اقتصر على أحدهما جاز أن يتعدى إليه بحرف جر فيكون التقدير سأل سائل النبي ﷺ أو المسلمين بعذاب أو عن عذاب.

قوله تعالى: ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ أي ذلك العذاب من الله ذي المعارج، أي ذي العلو والدرجات الفواضل والنعم، فالمعارج: مراتب إنعامه على الخلق. وقيل: ذي العظمة والعلاء. وقال مجاهد: هي معارج السماء. وقيل: هي معارج الملائكة؛ لأن الملائكة تعرج إلى السماء فوصف نفسه بذلك. وقيل: المعارج الغرف، أي إنه ذوي الغرف، أي جعل لأوليائه في الجنة غرفا. وقرأ عبد الله ذي المعاريج بالياء. يقال: معرج ومعراج ومعارج ومعاريج، مثل مفتاح ومفاتيح. والمعارج الدرجات، ومنه: ﴿وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾(الزخرف:٣٣).
قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي تصعد في المعارج التي جعلها الله لهم. وقرأ ابن مسعود وأصحابه والسلمي والكسائي يعرج بالياء على إدارة الجمع، ولقوله: ذكروا الملائكة ولا تؤنثوهم. وقرأ الباقون بالتاء على إرادة الجماعة. والروح جبريل عليه السلام، قاله ابن عباس. دليله قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾(الشعراء:١٩٣)، وقيل: هو ملك آخر عظيم الخلقة.

وقال أبو صالح: أنه خلق من خلق الله كهيئة الناس وليس بالناس. قال قبيصة بن ذؤيب: إنه روح الميت حين يقبض "إليه" أي إلى المكان الذي هو محلهم وهو في السماء؛ لأنها محل بره وكرامته. وقيل: هو كقول إبراهيم: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(الصافات:٩٩)، أي إلى الموضع الذي أمرني به. وقيل: إليه أي إلى عرشه. ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، قال وهب والكلبي ومحمد بن إسحاق: أي عروج الملائكة إلى المكان الذي ملهم في وقت كان مقداره على غيرهم لو صعد خمسين ألف سنة.

وقال وهب أيضاً: ما بين أسفل الأرض إلى العرش مسيرة خمسين ألف سنة. وهو قول مجاهد. وجمع بين هذا الآية وبين قوله: ﴿**يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**﴾(السجدة:٥)، فقال: في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، من منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق السماوات خمسون ألف سنة.

قوله تعالى في: ﴿**الم تنزيل**﴾ و: ﴿**يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**﴾(السجدة:٥) يعنى بذلك نزول الأمر من سماء الدنيا إلى الأرض، ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد فذلك مقدار ألف سنة؛ لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام. وعن مجاهد أيضاً والحكم وعكرمة: هو مدة عمر الدنيا من أول ما خلقت إلى آخر ما بقي خمسون ألف سنة، لا يدري أحد كم مضى ولا كم بقي إلا الله عز وجل.

وقيل: المراد يوم القيامة، أي مقدار الحكم فيه لو تولاه مخلوق خمسون ألف سنة، قاله عكرمة أيضاً والكلبي ومحمد بن كعب. يقول سبحانه وتعالى: وأنا أفرغ منه في ساعة. وقال الحسن: هو يوم القيامة، ولكن يوم القيامة لا نفاذ له فالمراد ذكر موقفهم للحساب فهو في خمسين ألف سنة من سني الدنيا، ثم حينئذ يستقر أهل الدارين في الدارين. وقال يمان: هو يوم القيامة، فيه خمسون موطناً كل موطن ألف سنة.

وقال ابن عباس: هو يوم القيامة، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة، ثم يدخلون النار للاستقرار. قلت: وهذا القول أحسن ما قيل في الآية إن شاء الله، بديل ما رواه قاسم بن أصبع من حديث أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: ((في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة))، فقلت: ما أطول هذا! فقال النبي ﷺ: ((والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصليها في الدنيا)).

واستدل النحاس على صحة هذا القول بما رواه سهيل عن أبيه عن أبي هريرة: عن النبي ﷺ أنه قال: ((ما من رجل لم يؤد زكاة ماله إلا جعل شجاعاً من نار تكوي به جبهته، وظهره وجنباه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي الله بين الناس)) قال: فهذا يدل على أنه يوم القيامة. وقال إبراهيم التيمي:

ما قدر ذلك اليوم على المؤمن إلا قدر ما بين الظهر والعصر.

قوله تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً**﴾ أي على أذى قومك. والصبر الجميل: هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله. وقيل: هو أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يذري من هو، والمعنى متقارب، وقال ابن زيد: هي منسوخة بآية السيف. قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً**﴾ يريد أهل مكة يرون العذاب بالنار بعيداً، أي غير كائن.

قوله تعالى: ﴿**وَنَرَاهُ قَرِيباً**﴾ لأن ما هو آت فهو قريب. وقال الأعمش: يرون البعث بعيداً لأنهم لا يؤمنون به، كأنهم يستبعدونه على جهة الإحالة. كما تقول لمن تناظره: هذا بعيد لا يكون! وقيل: يرون هذا اليوم بعيداً ونراه أي نعلمه؛ لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود. وهو كقولك: الشافعي يرى في هذه المسألة كذا وكذا.

قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ**﴾ العامل في يوم واقع، تقديره يقع بهم العذاب يوم. وقيل: نراه أو يبصرونهم أو يكون بدلاً من قريب. والمهل: ردئ الزيت وعكره، في قول ابن عباس وغيره. وقال ابن مسعود: ما أذيب من الرصاص والنحاس والفضة. وقال مجاهد: كالمهل كقيح من دم وصديد.

قوله تعالى: ﴿**وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ**﴾، أي كالصوف المصبوغ. ولا يقال للصوف عهن إلا أن يكون مصبوغاً. وقال الحسن: ﴿**وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ**﴾ وهو الصوف الأحمر، وهو أضعف الصوف. وقيل: العهن الصوف ذو الألوان، فشبه الجبال به في تلونها ألواناً. والمعنى: أنها تلين بعد الشدة، وتتفرق بعد الاجتماع. وقيل: أول ما تتغير الجبال تصير رملاً مهيلاً، ثم عهناً منفوشاً، ثم هباءً منبثا.

قوله تعالى: ﴿**وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً**﴾ أي عن شأنه لشغل كل إنسان بنفسه قاله قتادة. كما قال تعالى: ﴿**لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ**﴾(عبس:٣٧)، وقيل: لا يسأل حميم عن حميم، فحذف الجار ووصل الفعل.

قوله تعالى: ﴿**يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ**﴾ أي يرونهم، وليس في القيامة مخلوق إلا وهو نصب عين صاحبه من الجن والإنس. فيبصر الرجل أباه وأخاه وقرابته وعشيرته ولا يسأله ولا يكلمه، لاشتغالهم بأنفسهم، وقال ابن عباس: يتعارفون ساعة ثم لا يتعارفون بعد تلك الساعة. وفي بعض الأخبار: أن أهل القيامة يفرون من المعارف مخافة المظالم، وقال ابن عباس

أيضاً: "يبصرونهم" يبصر بعضهم بعضاً يتعارفون ثم يفر بعضهم من بعض. فالضمير في "يبصرونهم" على هذا للكفار، والميم للأقرباء.

وقال مجاهد: المعنى يبصر الله المؤمنين الكفار في يوم القيامة، فالضمير في يبصرونهم للمؤمنين، والهاء والميم للكفار. قال ابن زيد: المعنى يبصر الله الكفار في النار الذين أضلوهم في الدنيا، فالضمير في يبصرونهم للتابعين والهاء والميم للمتبوعين، وقيل: إنه يبصر المظلوم ظالمه والمقتول قاتله، وقيل: يبصرونهم يرجع إلى الملائكة، أي يعرفون أحوال الناس فيسوقون كل فريق إلى ما يليق بهم.

قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ**﴾ أي ويود لوفدي بهم لافتدي "ثم ينجيه" أي يخلصه ذلك الفداء. فلا بد من هذا الإضمار، كقول الله تعالى: ﴿**وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ**﴾(الأنعام:١٢١)، أي وإن أكله لفسق. وقيل: يود المجرم يقتضي جواباً بالفاء، كقول الله تعالى: ﴿**وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ**﴾ (القلم:٩) والجواب في هذه الآية ثم ينجيه لأنها من حروف العطف، أي يود المجرم لو يفتدي فينجيه الافتداء. قوله تعالى: ﴿**كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى**﴾ "كلا" تقدم القول في كلام وأنها تكون بمعنى حقاً، وبمعنى لا. وهي هنا تحتمل الأمرين، فإذا كانت بمعنى حقاً كان تمام الكلام ينجيه. وإذا كانت بمعنى لا كان تمام الكلام عليها، أي ليس ينجيه من عذاب الله الافتداء، ثم قال: "إنها لظى" أي هي جهنم، أي تتظلى نيرانها، كقوله تعالى: ﴿**فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى**﴾(الليل:١٤)، واشتقاق لظى من التلظي والتظاء النار التهابها، وتلظيها تلهبها. وقيل: كان أصلها لظظ أي ما دامت لدوام عذابها، فقبلت إحدى الظائين ألفاً فبقيت لظى. وقيل: هي الدركة الثانية من طبقات جهنم وهي اسم مؤنث معرفة فلا ينصرف.

قوله تعالى: ﴿**تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى**﴾ أي تدعو لظى من أدبر في الدنيا عن طاعة الله وتولى عن الإيمان. ودعاؤها أن تقول: إلي يا مشرك، إلي يا كافر، وقال ابن عباس: تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح: إلي يا كافر، إلي يا منافق، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحب. وقال الخليل: إنه ليس كالدعاء تعالوا ولكن دعوتها إياهم تمكنها من تعذيبهم. وقيل: الداعي خزنة جهنم، أضيف دعاؤهم إليها. وقيل: هو ضرب مثل، أي إن مصير من أدبر وتولى إليها، فكأنها

الداعية لهم. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾ يعني الكافر، عن الضحاك. والهلع في اللغة: أشد الحرص وأسوأ الجزع وأفحشه. وكذلك قال قتادة ومجاهد وغيرهما. وقد هلع بالكسر يهلع فهو هلع وهلوع، على التكثير.

والمعنى: أنه لا يصبر على خير ولا شر حتى يفعل فيهما ما لا ينبغي. قال ابن كيسان: خلق الله الإنسان يحب ما يسره ويرضيه، ويهرب مما يكرهه ويسخط، ثم تعبده الله بإنفاق ما بحب والصبر على ما يكره. قوله تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ قال المفسرون: كان المشركون يجتمعون حول النبي ﷺ ويستمعون كلامه فيكذبونه ويكذبون عليه، ويستهزئون بأصحابه، ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنها قبلهم، ولئن أعطوا منها شيئاً لنعطين أكثر منه، فنزلت: أيطمع الآية. وقيل: كان المستهزئون خمسة أرهط. قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ ثم ابتدأ فقال: إنا خلقناهم مما يعلمون: أي إنهم يعلمون أنهم مخلوقون من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، كما خلق سائر جنسهم.

فليس لهم فضل يستوجبون به الجنة، وإنما تستوجب بالإيمان والعمل الصالح ورحمة الله تعالى. وقيل: كانوا يستهزئون بفقراء المسلمين ويتكبرون عليهم. فقال: إنا خلقناهم مما يعلمون: من القذر، فلا يليق بهم هذا التكبر. وقال قتادة في هذه الآية: إنما خلقت يا ابن آدم من قذر فاتق الله.

قوله تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي ذليلة خاضعة، لا يرفعونها لما يتوقعونه من عذاب الله. "ترهقهم ذلة" المعارج: أي يغشاهم الهوان.

قال قتادة: هو سواد الوجوه. والرهق: الغشيان، ومنه غلام مراهق إذا غشى الاحتلام. رهقه بالكسر يرهقه رهقاً أي غشيه، ومنه قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(يونس:٢٦).

*****

سـورة نــوح

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، قد مضى القول في الأعراف أن نوحاً عليه السلام أول رسول أرسل. عن ابن عباس: عن النبي ﷺ قال: ((أول رسول أرسل نوح وأرسل إلى جميع أهل الأرض))، فلذلك لما كفروا أغرق الله أهل الأرض جميعاً، وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس بن يرد بن مهلايل بن أنوش بن قينان بن شيث بن آدم عليه السلام.

قال وهب: كلهم مؤمنون. أرسل إلى قومه وهو ابن سنة، وقال ابن عباس: أن أربعين سنة. وقال عبد الله بن شداد: بعث وهو ابن ثلاثمائة وخمسين سنة أن أنذر قومك: أي بأن أنذر قومك، فموضع أن نصب بإسقاط الخافض. وقيل: موضعها جر لقوة خدمتها مع أن، من قبل أن يأتيهم عذاب أليم:

قال ابن عباس: يعني عذاب النار في الآخرة. وقال الكلبي: هو ما نزل عليهم من الطوفان، وقيل: أي أنذرهم العذاب الأليم على الجملة إن لم يؤمنوا، فكان يدعو قومه وينذرهم فلا يرى منهم مجيباً، وكانوا يضربونه حتى يغشى عليه فيقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي مخوف، "مبين" أي مظهر بلسانكم الذي تعرفونه. قوله تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ وأن المفسرة على ما تقدم في أن أنذر. اعبدوا: أي وحدوا واتقوا: خافوا. "وأطيعون" أي فيما آمركم به، فإني رسول الله إليكم.

قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جزم يغفر بجواب الأمر، ومن صلة زائدة. ومعنى الكلام يغفر لكم ذنوبكم، قاله السدي: وقيل: لا يصح كونها زائدة؛ لأن من لا تزاد الواجب، وإنما هي هنا للتبعيض، وهو بعض الذنوب، وهو ما لا يتعلق بحقوق المخلوقين. وقيل: هي لبيان الجنس. وفيه بعد، إذا لم يتقدم جنس يليق به.

وقال زيد بن أسلم: المعنى يخرجكم من ذنوبكم. ابن شجرة: المعنى يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفر تموه منها: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً﴾ قال ابن عباس: أي

ينسئ في أعماركم. ومعناه: أن الله تعالى كان قضى قبل خلقهم أنهم إن آمنوا بارك في أعمارهم، وإن لم يؤمنوا عوجلوا بالعذاب.

قال مقاتل: يؤخركم إلى منتهى آجالكم في عافية، فلا يعاقبكم بالقحط وغيره. فالمعنى: على هذا يؤخركم من العقوبات والشدائد إلى آجالكم. وقال الزجاج: أي يؤخركم عن العذاب فتموتوا غير موتة المستأصلين بالعذاب. وعلى هذا قيل: أجل مسمى عندكم تعرفونه، لا يميتكم غرقاً ولا حرقاً ولا قتلاً، ذكره الفراء. وعلى القول الأول أجل مسمى عند الله: ﴿**إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾، أي إذا جاء الموت لا يؤخر بعذاب كان أو بغير عذاب، وأضاف الأجل إليه سبحانه لأنه الذي أثبته، وقد يضاف إلى القوم، كقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾(النحل:٦١) لأنه مضروب لهم، ولو بمعنى إن أي إن كنتم تعلمون.

وقال الحسن: معناه لو كنتم تعلمون لعلمتم أن أجل الله إذا جاءكم لم يؤخر. قوله تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً**﴾ أي سراً وجهراً. وقيل: أي واصلت الدعاء. قوله تعالى: ﴿**وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً**﴾، أي إلى سبب المغفرة، وهي الإيمان بك والطاعة لك. جعلوا أصابعهم في آذانهم: لئلا يسمعوا دعائي، واستغشوا ثيابهم: أي غطوا بها وجوههم لئلا يروه.

وقال ابن عباس: جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يسمعوا كلامه. فاستغشاء الثياب إذاً زيادة في سد الأذان حتى لا يسمعوا، أو لتنكيرهم أنفسهم حتى يسكت، أو ليعرفوه إعراضهم عنه. وقيل: هو كناية عن العداوة. يقال: لبس لي فلان ثياب العداوة. "وأصروا" أي على الكفر فلم يتوبوا. "واستكبروا" عن قبول الحق؛ لأنهم قالوا: ﴿**قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ**﴾(الشعراء:١١١)، "استكبارا" تفخيم.

قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً**﴾ أي لم أبق مجهوداً، وقال مجاهد: معنى أعلنت: صحت، وأسررت لهم إسراراً. بالدعاء عن بعضهم من بعض. وقيل: "وأسررت لهم" أتيتهم في منازلهم، وكل هذا من نوح عليه السلام مبالغة في الدعاء لهم. قوله تعالى: ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً**﴾ أي

سلوه المغفرة من ذنوبكم السالفة بإخلاص الإيمان. إنه كان غفارا: وهذا منه ترغيب في التوبة. وقد روى حذيفة بن اليمان: عن النبي ﷺ أنه قال: ((الاستغفار ممحاة للذنوب))، وقال الفضيل: يقول العبد أستغفر الله. قوله تعالى: ﴿**يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً**﴾ أي يرسل ماء السماء، ففيه إضمار. وقيل: السماء المطر، أي يرسل المطر. قال مقاتل: لما كذبوا نوحاً زماناً طويلاً حبس الله عنهم المطر، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة، فهلكت مواشيهم وزرعهم، فصاروا إلى نوح عليه السلام واستغاثوا به. فقال: استغفروا ربكم إنه كان غفارا: أي لم يزل كذلك لمن أناب إليه. ثم قال ترغيباً في الإيمان: يرسل السماء عليكم مدرارا.

قوله تعالى: ﴿**وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً**﴾، قال قتادة: علم نبي الله ﷺ أنهم أهل حرص على الدنيا، فقال: هلموا إلى طاعة الله فإن في طاعة الله درك الدنيا والآخرة. وفي هذه الآية والتي في هود دليل على أن الاستغفار يستنزل به الرزق والأمطار. قال الشعبي: خرج عمر يستسقي فلم يزد على الاستغفار حتى رجع، فأمطروا فقالوا: ما رأيناك استسقيت؟ فقال: لقد طلبت المطر بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر، ثم قرأ: ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً *يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً**﴾.

وقال الأوزاعي: خرج الناس يستسقون، فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: اللهم إنا سمعناك تقول: ﴿**لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾(التوبة:٩١).

وقد أقررنا بالإساءة، فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا؟! اللهم اغفر لنا وارحمنا واسقنا! فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا. وقال ابن صبيح: شكا رجل إلى الحسن الجدوبة فقال له: استغفر الله. وشكا آخر إليه الفقر فقال له: استغفر الله.

وقال له آخر: ادع الله أن يرزقني ولداً فقال له: استغفر الله. وشكا إليه آخر جفاف بستانه، فقال له: استغفر الله. فقلنا له في ذلك؟ فقال: ما قلت من عندي شيئاً. قوله تعالى: ﴿**مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً**﴾ قيل: الرجاء هنا بمعنى الخوف، أي ما لكم لا تخافون لله عظمة وقدرة على أحدكم بالعقوبة. أي عذر لكم في ترك الخوف من الله. وقال سعيد بن جبير وأبو العالية وعطاء بن أبي رباح: ما لكم لا

ترجعون لله ثواباً ولا تخافون له عقاباً. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: ما لكم لا تخشون لله عقاباً وترجون منه ثواباً. وقال الوالبي والعوفي عنه: ما لكم لا تعلمون لله عظمة. وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد: ما لكم لا ترون لله عظمة.

وعن مجاهد والضحاك: ما لكم لا تبالون لله عظمة. قوله تعالى: ﴿**وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً**﴾ أي جعل لكم في أنفسكم آية تدل على توحيده. قال ابن عباس: أطواراً يعني نطفة ثم علقة ثم مضغة، أي طوراً بعد طور إلى تمام الخلق، كما ذكر في سورة المؤمنين. والطور في اللغة: المرة، أي من فعل هذا وقدر عليه فهو أحق أن تعظموه. وقيل: أطواراً صبياناً، ثم شباباً، ثم شيوخاً وضعفاء، ثم أقوياء. وقيل: أطواراً أي أنواعا، صحيحاً وسقيماً، وبصيراً وضريراً، وغنياً وفقيرا. وقيل: إن أطواراً اختلافهم في الأخلاق والأفعال.

قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً**﴾ ذكر لهم دليلاً آخر، أي ألم تعملوا أن الذي قدر على هذا، فهو الذي يجب أن يعبد! ومعنى طباقاً بعضها فوق بعض، كل سماء مطبقة على الأخرى كالقباب، قاله ابن عباس والسدي. وقال الحسن: خلق الله سبع سماوات طباق على سبع أرضين، بين كل أرض وأرض، وسماء وسماء خلق وأمر.

وقوله: ألم تروا على جهة الإخبار لا المعاينة، كما تقول: ألم ترني كيف صنعت بفلان كذا. وطباقاً نصب على أنه مصدر، أي مطابقة طباقاً. أو حال بمعنى ذات طباق، فحذف ذات وأقام طباقاً مقامه.

قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً**﴾ أي في سماء الدنيا، كما يقال: أتاني بنو تميم وأتيت بني تميم والمراد بعضهم، قاله الأخفش. قال ابن كيسان: إذا كان في إحداهن فهو فيهن. وقال عطاء: نوراً لأهل السماء والأرض. وقال ابن عباس وابن عمرو: وجهه يضيء لأهل الأرض وظهره يضيء لأهل السماء. وجعل الشمس سراجا: يعني مصباحاً لأهل الأرض ليتوصلوا إلى التصرف لمعايشهم. قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً**﴾ يعني آدم عليه السلام خلقه من أديم الأرض كلها، وقال خالد بن معدان: خلق الإنسان من طين، فإنما تليق القلوب في الشتاء. ونباتاً مصدر على غير المصدر؛ لأن مصدره أنبت إنباتاً، فجعل الاسم الذي هو النبات في موضع المصدر. قيل: هو مصدر محمول

علـى المعنـى؛ لأن معنـى: أنبـتكم جعلكم تنبتـون نباتـاً، وقيـل: أي أنبـت لكـم مـن الأرض النبـات. فـ نباتاً علـى هذا نصب علـى المصدر الصـريح. والأول أظهـر. قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً**﴾ أي مبسوطة.

قوله تعالى: ﴿**لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً**﴾ السبل: الطرق. والفجاج جمع فج، وهو الطريق الواسعة، وقيل: الفج المسلك بين الجبلين. قوله تعالى: ﴿**قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً**﴾ شكاهم إلى الله تعالى، وأنهم عصوه ولم يتبعوه فيما أمرهم به من الإيمان.

وقال أهل التفسير: لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً داعياً لهم وهم على كفرهم وعصيانهم. وقال ابن عباس: رجا نوح عليه السلام الأبناء بعد الآباء، فيأتي بهم الولد بعد الولد حتى بلغوا سبع قرون، ثم دعا عليهم بعد الاياس منهم، وعاش بعـد الطوفـان سـتين عامـاً حتـى كثـر النـاس وفشـوا، قـال الحسـن: كـان قـوم نـوح يزرعون في الشهر مرتان. واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا: يعني كبراءهم وأغنياءهم الذين لم يزدهم كفرهم وأموالهم وأولادهم إلا ضلالاً في الدنيا وهلاكاً في الآخرة. قولـه تعـالى: ﴿**وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً**﴾ أي كبيراً عظيماً. يقـال: كبيـر وكبـار وكبار، مثل عجيب وعجاب وعجاب بمعنى، ومثله طويل وطوال وطوال. يقال: رجل حسن وحسان، وجميل وجمال.

وقـال المبـرد: كبـاراً بالتشـديد للمبالغـة. واختلـف فـي مكـرهم مـا هـو؟ فقيـل: تحريشـهم سلفتهم علـى قتل نـوح. وقيـل: هـو تعزيـزهم النـاس بمـا أوتـوا مـن الـدنيا والولد، حتى قالت الضعفة: لولا أنهم على الحق لما أتوا هذه النعم. قول الله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً**﴾.

قال ابن عباس وغيره: هي أصنام وصور، كان قوم نوح يعبدونها ثم عبدتها العـرب وهـذا قـول الجمهـور. وقيـل: إنهـا للعـرب لـم يعبـدها غيـرهم. وكانـت أكبـر أصنامهم وأعظمها عندهم، فلذلك خصوها بالذكر بعد قوله تعالى: لا تذرن آلهتكم: قالت العرب لأولادهم وقومهم: لا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً، ثم عـاد بالـذكر بعـد ذلـك إلـى قـوم نـوح عليـه السـلام. وعلـى القـول الأول، الكـلام كلـه منسوب في قوم نوح.

وقـال عـروة بـن الزبيـر وغيـره: اشـتكى آدم عليـه السـلام وعنـده بنـوه: ود،

وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر. وكان ود أكبرهم وأبرهم به. قال محمد بن كعب: كان لآدم عليه السلام خمس بنين: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، وكانوا عباداً فما واحد منهم فحزنوا عليه، فقال الشيطان: أنا أصور لكم مثله إذا نظرتم إليه ذكرتموه. قالوا: افعل. فصروه في المسجد من صفر ورصاص. ثم مات آخر، فصروه حتى ماتوا كلهم فصروهم.

وتنقصت الأشياء كما تنقص اليوم إلى أن تركوا عبادة الله تعالى بعد حين. فقال لهم الشيطان: ما لكم لا تعبدون شيئاً؟ قالوا: وما نبعد؟ قال: آلهتكم وآلهة آباءكم، ألا ترون في مصلاكم. فعبدوها من دون الله، حتى بعث الله نوحاً فقالوا: ﴿**وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً**﴾.

قوله تعالى: ﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً**﴾ دعا لنفسه ولوالديه وكانا مؤمنين، وهما لمك بن متوشلخ وشمخى بنت أنوش، وحكى الماوردي في اسم أمه منجل. وقال سعيد بن جبير: أراد بوالديه أباه وجده. وقال ابن عباس: لم يكفر لنوح والد فيما بينه وبين آدم عليهما السلام. ولمن دخل بيتي مؤمنا: أي مسجدي ومصلاي مصلياً مصدقاً بالله، وكان إنما يدخل بيوت الأنبياء من آمن منهم فجعل المسجد سبباً للدعاء بالغفرة.

*****

سورة الجن

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً﴾ أي قل يا محمد لأمتك أوحى الله إلى على لسان جبريل، أنه استمع: إلى نفر من الجن: وما كان عليه السلام عالما به قبل أن أوحي إليه، واختلف هل رآهم النبي ﷺ أم لا؟ فظاهر القرآن يدل على أنه لم يرهم لقوله تعالى: "استمع"، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾(الأحقاف:٢٩).

عن ابن عباس قال: قرأ رسول الله ﷺ على الجن وما رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب! قالوا: ما ذاك من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر الذي اخذوا نحو تهامة وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء. فرجعوا إلى قومهم، فقالوا: يا قومنا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً* يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾ (٢/١)، فأنزل الله عز وجل على نبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً﴾.

عن ابن عباس قال: قول الجن لقومهم: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ قال: لما رأوه يصلي وأصحابه يصلون بصلاته فيسجدون بسجوده، قال: تعجبوا من طواعية أصحابه له، قالوا لقومهم: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾، ففي هذا الحديث دليل على أنه عليه السلام لم ير الجن، ولكنهم حضروه وسمعوا قراءته.

وفيه دليل على أن الجن كانوا مع الشياطين حين تجسسوا الخبر بسبب الشياطين لما رموا بالشهب. وكان المرميون بالشهب من الجن أيضا، وقيل لهم: شياطين كما قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا

يَفْتَرُونَ﴾(الأنعام:١١٢)، فإن الشيطان كل متمرد وخارج عن طاعة الله.

وفي الترمذي عن ابن عباس قال: كان الجن يصعدون إلى السماء يستمعون إلي الوحي فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً، فأما الكلمة فتكون حقاً، وأما ما زادوا فيها، فيكون باطلاً. فلما بعث رسول الله ﷺ قائماً منعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك، فقال لهم إبليس: ما هذا الأمر إلا من أمر قد حدث في الأرض! فبعث جنوده فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي بن جبلين.

أراه قال بمكة. فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذي حدث في الأرض. دل هذا الحديث: على أن الجن رموا كما رميت الشياطين. وقيل: أن النبي ﷺ رأى الجن ليلة الجن وهو أثبت، روى عامر الشعبي قال: سألت علقمة هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ فقال علقمة: أنا سالت ابن مسعود، فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، قلنا أستطير أو اغتيل، قال: فبتنا بشر ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب فقلنا أستطير أو أغتيل، قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبح إذا هو يجيء من قبل حراء، فقلنا يا رسول الله! فقدناك وطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال: ((أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن))، فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد وكانوا من جن الجزيرة، فقال: ((لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما، وكل بعرة علف لدوابكم. فقال رسول الله ﷺ: ((فلا تستنجوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم الجن)) وقد قيل: أن الجن أتوا رسول الله ﷺ دفعتين: إحداهما بمكة وهي التي ذكرها ابن مسعود، والثانية بنخلة وهي التي ذكرها ابن عباس.

قال البيهقي: الذي حكاه عبد الله بن عباس إنما هو في أول ما سمعت الجن قراءة النبي ﷺ وعلمت بحاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم لم يرهم كما حكاه، ثم أتاه داعي الجن مرة أخرى فذهب معه، وقرأ عليهم القرآن كما حكاه عبد الله بن مسعود.

قال البيهقي: والأحاديث الصحاح تدل على أن ابن مسعود لم يكن مع النبي

ﷺ ليلة الجن، وإنما سار معه حين انطلق به وبغيره يريه آثار الجن و آثار نيرانهم، قال: وقد روي من غير وجه انه كان معه ليلتئذ.

روي عن ابن مسعود: أن النبي ﷺ قال: ((أمرت أن أتلو القرآن على الجن فمن يذهب معي؟ فسكتوا، ثم قال الثانية، ثم قال عبد الله بن مسعود: أنا أذهب معك يا رسول الله، فانطلق حتى جاء الحجون عند شعب أبى دب فخط على خطا فقال: ((لا تجاوزة)) ثم مضى إلى الحجون فانحدر عليه أمثال الحجل يحدرون الحجارة بأقدامهم، يمشون يقرعون في دفوفهم كما تقرع النسوة في دفوفها، حتى غشوه فلا أراه، فقمت فأومى إلى بيده أن اجلس، فتلا القرآن فلم يزل صوته يرتفع، ولصقوا بالأرض حتى ما أراهم، فلما أتفتل إلي قال: ((أردت أن تأتيني؟ قلت: نعم يا رسول الله. قال: ((ما كان ذلك لك، هؤلاء الجن أتوا يستمعون القرآن، ثم ولوا إلى قومهم منذرين فسألوني الزاد فزودتهم العظم والبعر فلا يستطيين أحدكم بعظم ولا بعر))، قال عكرمة: وكانوا اثني عشر ألفا من جزيرة الموصل.

قول الله تعالى: ﴿**يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً**﴾ أي إلى مراشد الأمور. وقيل: إلي معرفة الله تعالى، ويهدي في موضع الصفة أي هادياً. "فآمنا به" أي فاهتدينا به وصدقنا أنه من عند الله، ولن نشرك بربنا أحدا، أي لا نرجع إلى إبليس ولا نطيعه؛ لأنه الذي كان بعثهم ليأتوه بالخبر، ثم رمي الجن بالشهب. وقيل: لا نتخذ مع الله إلها آخر؛ لأنه المتفرد بالربوبية، وفي هذا تعجب المؤمنين بذهاب مشركي قريش عما أدركته الجن بتدبرها القرآن.

قول الله تعالى: ﴿**وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً**﴾ أي حسبنا، أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا، فلذلك صدقناهم في أي أن لله صاحبة وولدا، حتى سمعنا القرآن وتبينا به الحق.

قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً**﴾ هذا من قول الله تعالى للإنس، أي وأن الجن ظنوا أن لن يبعث الله الخلق كما ظننتم. قال الكلبي: المعنى: ظنت الجن كما ظنت الإنس أن لن يبعث الله رسولاً إلى خلقه يقيم به الحجة عليهم. وكل توكيد للحجة على قريش، أي إذا آمن هؤلاء الجن بمحمد، فأنتم أحق بذلك.

قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ**

شِـهَاباً رَصَـداً﴾ . منهاـ أي من السماء، ومقاعد: مواضـع يقعد في مثلها لاستماع الأخبار من السماء، يعني أن مردة الجن كانوا يفعلون ذلك ليستمعوا من الملائكة أخبـار السـماء حتـى يلقوهـا إلـى الكهنـة، فحرسـها الله تعـالى حيـث بعـث رسـوله بالشهب المحرقة، فقالت الجن حينئذ: ﴿**فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَـهُ شِـهَاباً رَصَداً**﴾ يعني بالشهاب: الكوكب المحرق، ويقال: لم يكن انقضاض الكواكب إلا بعد مبعث النبي ﷺ وهو آية من آياته.

واختلف السلف هل كانت الشياطين تقذف قبل المبعث، أو كان ذلك أمراً حدث لمبعث النبـي ﷺ؟ فقال الكلبي وقوم: لم تكن تحرس السماء في الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما وسلامة: خمسمائة عام، وإنما كان من أجل بعثة النبي ﷺ، فلما بعث محمد ﷺ منعوا من السماوات كلها، وحرست بالملائكة والشهب. وقال عبد الله بن عمرو: لما كان اليوم الذي نبئ رسول الله ﷺ منعت الشياطين ورموا بالشهب. وقال عبد الملك بن سابور: لم تكن السماء تحرس في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، فلما بعث محمد ﷺ حرست السماء، ورميت الشياطين بالشهب، ومنعت عن الدنو من السماء. وقال نافع بن جبير: كانت الشياطين في الفترة تسمع فلا ترمى، فلما بعث رسول الله ﷺ رميت بالشهب.

ونحوه عن أبي بن كعب قال: لم يرم بنجم منذ رفع عيسى حتى نبئ رسول الله ﷺ فرمى بها، وقيل: كان ذلك قبل المبعث وإنما زادت بمبعث رسول الله ﷺ إنذاراً بحاله، وهو معنى قوله تعالى: ((ملئت)) أي زيد في حرسها.

ن ابن عباس قال: بينما النبي ﷺ جالس في نفر من أصحابه إذ رمي بنجم، فقال: ((ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية؟)) قالوا: كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم. فقال النبـي ﷺ: ((إنهـا لا ترمـى لمـوت أحد ولا لحياتـه، ولكـن ربنـا سبحانه وتعالى إذا قضـى أمراً فـي السماء سبح حملـة العرش ثم سبح أهل كل سماء، حتى ينتهي التسبيح إلى هذه السماء، ويستخبر أهل السماء حملة العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه، فتتخطف الجن فيرمون فما جاءوا به فهو حق ولكنهم يزيدون فيه))، وهذا يدل على أن الرجم كان قبل المبعث.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾ أي هذا الحرس الذي حرست بهم السماء، أم أراد بهم ربهم رشدا: أي خيرا. قال ابن زيد: قال إبليس لا ندري هل أراد الله بهذا المنع أن ينزل علي أهل الأرض عذابا أو يرسل إليهم رسولا. وقيل: هو من قول الجن فيما بينهم قبل أن يسمعوا قراءة النبي ﷺ. أي لا ندري أشر أريد بمن في الأرض بإرسال محمد إليهم، فانهم يكذبونه ويهلكون بتكذيبه كما هلك من كذب من الأمم، أم أراد أن فيهتدوا، فالشر والرشد على هذا الكفر والإيمان، وعلى هذا كان عندهم علم بمبعث النبي ﷺ، ولما سمعوا قراءته علموا أنهم منعوا من السماء حراسة للوحي. وقيل: لا، بل هذا قول لقومهم بعد أن انصرفوا إليهم منذرين، أي لما آمنوا أشفقوا ألا يؤمن كثير من أهل الأرض، فقالوا: أنا لا ندري أيكفر أهل الأرض بما آمنا به أم يؤمنون؟

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً﴾ هذا من قول الجن، أي قال بعضهم لبعض لما دعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ، وإنا كنا قبل استماع القرآن منا الصالحون ومنا الكافرون. وقيل: ومنا دون ذلك: أي ومن دون الصالحين في الصلاح وهو أشبه من حمله على الإيمان والشرك.

وقال المسيب: كنا مسلمين ويهود ونصارى ومجوس. وقال السدي في قوله تعالى: طرائق قددا: قال: في الجن مثلكم قدرية، ومرجئة، وخوارج، ورافضة، وشيعة، وسنية. وقال قوم: أي وإنا بعد استماع القرآن مختلفون: من المؤمنون ومنا الكافرون، أي ومنا الصالحون، ومنا مؤمنون لم يتناهوا في الصلاح. والأول أحسن؛ لأنه كان في الجن من آمن بموسى وعيسى، وقد أخبر الله عنهم أنهم قالوا: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(الأحقاف:٣٠)، وهذا يدل على إيمان قوم منهم بالتوارة، وكان هذا مبالغة منهم في دعاء من دعوهم إلى الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبا﴾ الظن هنا بمعنى العلم واليقين وهو خلاف الظن في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾، و﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً﴾ أي علمنا بالاستدلال والتفكر في آيات الله: أنا في قبضته وسلطانه، لن نفوته بهرب ولا غيره. و"هربا" مصدر في موضع الحال أي هاربين.

قول الله تعالى: ﴿**وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً**﴾ يعني القرآن "آمنا به" وبالله، وصدقنا محمداً ﷺ على رسالته، وكان ﷺ مبعوثاً إلى الإنس والجن. قال الحسن: بعث الله محمداً ﷺ إلى الإنس والجن، ولم يبعث قط رسولاً من الجن، ولا من أهل البادية، ولا من النساء، وذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾(يوسف:١٠٩).

قول الله تعالى: ﴿**وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً**﴾ أي الجائرون عن طريق الحق والإيمان، فكانوا لجهنم حطبا: أي وقوداً.

قوله تعالى: ﴿**وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً**﴾ هذا من قول الله تعالى. أي لو آمن هؤلاء الكفار لوسعنا عليهم في الدنيا وبسطنا لهم في الرزق. وهذا محمول على الوحي، أي أوحي إلي أن لو استقاموا.

قوله تعالى: ﴿**لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً**﴾ أي لنختبرهم كيف شكرهم فيه عل تلك النعم. وقال عمر في هذه الآية: أينما كان الماء كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة. فمعنى: لأسقيناهم، لوسعنا عليهم في الدنيا، وضرب الماء الغدق الكثير لذلك مثلاً؛ لأن الخير والرزق كله بالمطر يكون، فأقيم مقامه، كقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ (الأعراف:٩٦).

وقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ**﴾ (المائدة:٦٦) أي بالمطر. وقال الحسن: كان والله أصحاب النبي ﷺ سامعين مطيعين، ففتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر والمقوقس والنجاشي ففتنوا بها، فوثبوا على إمامهم فقتلوه. يعني عثمان بن عفان.

قول الله تعالى: ﴿**وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً**﴾ يجوز الفتح أي أوحي الله إليه أنه. ويجوز الكسر على الاستئناف. وعبد الله هنا محمد ﷺ حين كان يصلي ببطن نخلة ويقرأ القرآن، يدعوه: أي يعبده. قال الزبير

بن العوام: هم الجن حين استمعوا القرآن. وقيل: كادوا يركبونه حرصا، وقال ابن عباس: رغبة في سماع الذكر.

وروي برد عن مكحول: أن الجني بايعوا رسول الله ﷺ في هذه الليلة وكانوا سبعين ألفاً، وفرغوا من بيعته عند انشقاق الفجر. وعن ابن عباس أيضاً: إن هذا من قول الجن لما رجعوا إلى قومهم اخبروهم بما رأوه من طاعة أصحاب النبي ﷺ وائتمامهم به في الركوع والسجود. وقيل: المعنى كاد المشركون يركبون بعضهم بعضا، حرضاً على النبي ﷺ. وقال الحسن وقتادة وابن زيد: يعني لما قام عبد الله، محمد بالدعوة تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه وأبى الله ألا أن ينصره ويتم نوره، واختار الطبري أن يكون المعنى: كادت العرب يجتمعون على النبي ﷺ، ويتظاهرون على إطفاء النور الذي جاء به.

وقال مجاهد: قوله: لبداً: أي جماعات، وهو من تلبد الشيء على الشيء أي تجمع، ومنه اللبد الذي يفرش لتراكم صوفه، وكل شيء ألصقته إلصاقاً شديداً فقد لبدته، وجمع اللبدة لبد مثل قربة وقرب. ويقال للشعر الذي على ظهر الأسد لبدة وجمعها لبد.

قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً**﴾ أي لا يدفع عذابه عني أحد إن استحفظته، وهذا لأنهم قالوا اترك ما تدعو إليه ونحن نجيرك. عن ابن مسعود قال: انطلقت مع النبي ﷺ ليلة الجن حتى أتى الحجون فخط علي خطا، ثم تقدم إليهم فازدحموا عليه، فقال سيد لهم يقال له وردان: أنا أزجلهم عنك، فقال: ﴿**إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ**﴾ قال: ويحتمل معنيين. أحدهما: لن يجيرني مع إجارة الله لي أحد. الثاني: لن يجيرني مما قدره الله تعالى علي أحد. ولن أجد من دونه ملتحدا: أي ملتجأ إليه.

قوله تعالى: ﴿**لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً**﴾ ليعلم: قال قتادة ومقاتل: أي ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلغ هو الرسالة. وفيه حذف يتعلق به اللام، أي أخبرناه بحفظنا الوحي ليعلم أن الرسل قبله كانوا على مثل حالته من التبليغ بالحق والصدق. وقيل: ليعلم محمد أن قد أبلغ جبريل ومن معه إليه رسالة ربه، قاله ابن جبير. قال: ولم ينزل الوحي إلا ومعه أربعة حفظة من الملائكة عليهم السلام. وقيل: ليعلم الرسل أن

الملائكة بلغوا رسالات ربهم. وقيل: ليعلم الرسول أي رسول كان أن الرسل سواه بلغوا. وقيل: أي ليعلم إبليس أن الرسل قد ابلغوا رسالات ربهم سليمة من تخليطه واستراق أصحابه.

*****

سورة المزمل

وهي سبع وعشرون آية، مكية كلها في، وقال ابن عباس وقتادة: إلا آيتين منها: ﴿**وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً**﴾ والتي تليها، قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ إلى آخر السورة، فإنه نزل بالمدينة.

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ**﴾ المزمل: أصله المتزمل فأدغمت التاء في الزاي، وكذلك: المدثر، وفي أصل المزمل، قولان: إحداهما أنه المحتمل، يقال: زمل الشيء إذا حمله، ومنه الزامله؛ لأنها تحمل القماش. الثاني: أن المزمل هو المتلفف، يقال: تزمل وتدثر بثوبه إذا تغطي. وزمل غيره إذا غطاه وكل شيء لفف فقد زمل ودثر. قوله تعلى: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ**﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ، وفيه ثلاثة أقوال: الأول قول عكرمة: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ**﴾ بالنبوة والملتزم للرسالة. وعنه أيضاً: يا أيها الذي زمل هذا الأمر أي حمله ثم فتر.

الثاني: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ**﴾ بالقرآن، قاله ابن عباس. الثالث: المزمل بثيابه، قاله قتادة وغيره. قال النخعي: كان متزملاً بقطيفة عائشة: بمرط طوله أربعة عشر ذراعاً، نصفه علي وأنا نائمة، ونصفه على النبي ﷺ وهو يصلي، والله ما كان خزاً ولا قزاً ولا مرعزاء ولا ابر يسما ولا صوفا، كان سداه شعراً، ولحمته وبراً.

قلت: وهذا القول من عائشة يدل على أن السورة مدنية؛ فإن النبي ﷺ لم يبن بها إلا في المدينة. وما ذكر من أنها مكية لا يصح. والله أعلم. وقال الضحاك: تزمل بثيابه لمنامه: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ**﴾ "و" ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ**﴾ وقيل: كان هذا في ابتداء ما أوحى إليه، فإنه لما سمع قول الملك ونظر إليه أخذته الرعدة فأتى أهله، فقال: ((زملوني دثروني)) روي معناه عن ابن عباس.

وقالت الحكماء: إنما خاطبه بالمزمل والمدثر في أول الأمر؛ لأنه لم يكن

بعد ادثر شيئاً من تبليغ الرسالة. قال ابن العربي: واختلف في تأويل: يا أيها المزمل: فمنهم من حمله على حقيقته، قيل له: يا من تلفف في ثيابه أو في قطيفته قم، قاله إبراهيم وقتادة. ومنهم من حمله على المجاز، كأنه قيل له: يا من تزمل بالنبوة، قاله عكرمة.

قال السهيلي: ليس المزمل باسم من أسماء النبي ﷺ، ولم يعرف به كما ذهب إليه بعض الناس وعدوه في أسمائه عليه السلام، وإنما المزمل اسم مشتق من حالته التي كان عليها حين الخطاب، وكذلك المدثر. وفي خطابه بهذا الاسم فائدتان: إحداهما: الملاطفة، فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه، باسم مشتق من حالته التي هو عليها، كقول النبي ﷺ لعلي حين غاضب فاطمة رضي الله عنهما، فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب فقال له: ((قم يا أبا تراب))، إشعاراً له أنه غير عاتب عليه، وملاطفة له، وكذلك قوله عليه السلام لحذيفة: ((قم يا نومان)) وكان نائماً ملاطفة له، وإشعاراً لترك العتب والتأنيب.

فقول الله تعالى لمحمد ﷺ: ((يا أيها المزمل قم)) فيه تأنيس وملاطفة، ليستشعر أنه غير عاتب عليه. والفائدة الثانية: التنبيه لكل متزمل راقد ليله ليتنبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى فيه؛ لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل واتصف بتلك الصفة. الرابعة: قوله تعالى ﴿**قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾.

وقد قيل: إن . قم.. هنا معناه صل، عبر به عنه واستعير له حتى صار عرفاً بكثرة الاستعمال. الخامسة: الليل، حد الليل: من غروب الشمس إلى طلوع الفجر. واختلف: هل كان قيامه فرضاً وحتماً، أو كان ندباً وحضا؟ والدلائل تقوى أن قيامه ليس مخصوصاً به وقتاً دون وقت.

وأيضاً فقد جاء التوقيت بذلك عن عائشة وغيرها على ما يأتي. واختلف أيضاً: هل كان فرضاً على النبي ﷺ وحده، أو عليه وعلى من كان قبله من الأنبياء، أو عليه وعلى أمته؟ ثلاثة أقوال: الأول: قول سعيد بن جبير لتوجه الخطاب إليه خاصة. الثاني: قول ابن عباس، قال: كان قيام الليل فريضة على النبي ﷺ وعلى الأنبياء قبله. الثالث: قول عائشة وابن عباس أيضاً وهو الصحيح،

كما في صحيح مسلم عن زرارة بن أوفى: أن سعد بن هشام بن عامر أراد أن يغزو في سبيل الله... الحديث.

وفيه: فقلت لعائشة: أنبئني عن قيام رسول الله ﷺ؟ فقالت: الست تقرأ: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ**﴾، قلت: بلى! قالت: فإن الله عز وجل افتراض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام ﷺ وأصحابه حولاً، وأمسك الله عز وجل خاتمتها أثنى عشر شهراً في السماء، حتى أنزل الله عز وجل في آخر السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة.

قال سعيد بن جبير: مكث النبي ﷺ وأصحابه عشر سنين يقومون الليل، فنزل بعد عشر سنين: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ فخف الله عنهم.

السادسة: قوله تعالى: إلا قليلا: استثناء من الليل، أي صل الليل كله إلا يسيراً منه؛ لأن قيام جميعه على الدوام غير ممكن، فاستثنى منه القليل لراحة الجسد. والقليل من الشيء ما دون النصف، فحكي عن وهب بن منبه أنه قال: القليل ما دون المعشار والسدس. وقال الكلبي ومقاتل: الثلث.

قال تعالى: ﴿**نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً**﴾ فكان ذلك تخفيفاً إذ لم يكن زمان القيام محدودا، فقام الناس حتى ورمت أقدامهم، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿**عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ**﴾ وقيل: نصفه: بدل من قوله: قليلاً، وكان مخيراً بين ثلاث: بين قيام النصف بتمامه، وبين الناقص منه، وبين قيام الزائد عليه، كأن تقدير الكلام: قم الليل إلا نصفه، أو أقل من نصفه، أو أكثر من نصفه.

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: كنت أجعل للنبي ﷺ حصيراً يصلي عليه من الليل، فتسامع الناس به، فلما رأى جماعتهم كره ذلك، وخشي أن يكتب عليهم قيام الليل، فدخل البيت كالمغضب، فجعلوا يتنحنحون ويتفلون خرج إليهم

فقال: ((يا أيها الناس أكلفوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل من الثواب، حتى تملوا من العمل، وإن خير العمل أدومه وإن قل)). فنزلت: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ**﴾ فكتب عليهم، فأنزل بمنزلة الفريضة، حتى إن كان أحدهم ليربط الحبل فيتعلق به، فمكثوا ثمانية أشهر، فرحمهم الله وأنزل: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾، فردهم الله إلى الفريضة، ووضع عنهم قيام الليل إلا ما تطوعوا به.

قوله تعالى: ﴿**أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً**﴾ أي لا تعجل بقراءة القرآن بل أقرأه في مهل وبيان مع تدبر المعاني. وقال الضحاك: اقرأه حرفاً حرفاً. وقال مجاهد: أحب الناس في القراءة إلى الله أعقلهم عنه. والترتيل التنضيد والتنسيق وحسن النظام، ومنه ثغر رتل ورتل، بكسر العين وفتحها: إذا كان حسن التنضيد.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً**﴾ هو متصل بما فرض من قيام الليل، أي سنلقي عليك بافتراض صلاة الليل قولاً ثقيلاً يثقل حمله لأن الليل للمنام، فمن أمر بقيام أكثره لم يتهيأ له ذلك إلا بحمل شديد على النفس ومجاهدة للشيطان، فهو أمر يثقل على العبد. وقيل: إنا سنوحي إليك القرآن، وهو قول ثقيل يثقل العمل بشرائعه.

قال قتادة: ثقيل والله فرائضه وحدوده. وقيل: ثقيلاً: أي ثابتاً كثبوت الثقيل في محله، ويكون معناه أنه ثابت الإعجاز لا يزول إعجازه أبداً. قوله تعالى: ﴿**إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً**﴾.

قال العلماء: ناشئة الليل أي أوقاته وساعاته؛ لأن أوقاته تنشأ أولاً فأولاً، يقال: نشأ الشيء ينشأ: إذا ابتدأ وأقبل شيئاً بعد شيء، فهو ناشئ وأنشأ الله فنشأ، ومنه نشأت السحابة إذا بدأت وأنشأها الله، بناشئة: فاعلة من نشأت تنشأ فهي ناشئة، ومنه قوله تعالى: ﴿**أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ**﴾

(الزخرف:١٨) والمراد أن ساعات الليل الناشئة، فاكتفي بالوصف عن الاسم، فالتأنيث للفظ ساعة؛ لأن كل ساعة تحدث. وقيل: الناشئة مصدر بمعنى قيام الليل الخاطئة والكاذبة، أي أن نشأة الليل هي اشد وطأ.

قوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً**﴾ أي ادعه بأسمائه الحسنى ليحصل لك مع الصلاة محمود العاقبة. وقيل: أي اقصد بعملك وجه ربك. وقال سهل: اقرأ باسم الله الرحمن الرحيم في ابتداء صلاتك توصلك بركة قراءتها إلى ربك، وتقطعك عما سواه. وقيل: اذكر اسم ربك في وعده ووعيده لتوفر على طاعته وتعدل عن معصيته.

وقال الكلبي: صل لربك أي بالنهار. قلت: وهذا حسن فإنه لما ذكر الليل ذكر النهار، إذ هو قسيمه، وقد قال الله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً**﴾(الفرقان:٦٢) على ما تقدم.

قوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً**﴾ التبتل: الانقطاع إلى عبادة الله عز وجل، أي انقطع بعبادتك إليه، ولا تشرك به غيره. يقال: بتلت الشيء أي قطعته، ومنه قولهم. طلقها بتة بتله، وهذه صدقة بتة بتلة، أي بائنة منقطعة عن صاحبها، أي قطع ملكه عنها بالكلية، ومنه مريم البتول لانقطاعها إلى الله تعالى، ويقال للراهب متبتل؛ لانقطاعه عن الناس، وانفراده بالعبادة.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً**﴾ يريد هذه السورة أو الآيات عظة. وقيل: آيات القرآن، إذ هو كالسورة الواحدة. فمن شاء اتخذ إلى ربه: أي من أراد أن يؤمن ويتخذ بذلك إلى ربه "سبيلا" أي طريقا إلى رضاه ورحمته فليرغب، فقد أمكن له؛ لأنه أظهر له الحجج والدلائل. ثم قيل: نسخت بآية السيف، وكذلك قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ**﴾(عبس:١٢)، قال الثعلبي: والأشبه أنه غير منسوخ.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ**

خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّـهَ إِنَّ اللَّـهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، بين سبحانه على تخفيف قيام الليل، فإن الخلق منهم المريض، ويشق عليهم قيام الليل، ويشق عليهم أن تفوتهم الصلاة، والمسافر في النجارات قد لا يطيق قيام الليل، ولا مجاهد كذلك، فخفف الله عن الكل لأجل هؤلاء.

قال ابن مسعود: أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً، فباعه بسعر يومه كان له عند الله منزلة الشهداء. وقال ابن عمر: ما خلق الله موته أموتها بعد الموت في سبيل الله أحب إلى من الموت بين شعبتي رحلي، ابتغي من فضل الله ضارباً في الأرض.

وقال طاوس: الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله وعن بعض السلف أنه كان بواسط، فجهز سفينة حنطة إلى البصرة، وكتب إلى وكيله: بع الطعام يوم تدخل البصرة، ولا تؤخره إلى غد، فوافق سعة في السعر، فقال التجار للوكيل: إن أخرته جمعه ربحت فيه أضعافه، فأخره جمعه فربح فيه أمثاله، فكتب إلى صاحبه بذلك، فكتب إليه صاحب الطعام: يا هذا!

أنا كنا قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا، وقد جنيت علينا جناية، فإذا آتاك كتابي هذا فخذ المال وتصدق به على فقراء البصرة، وليتني أنجو من الاحتكار كفافاً لا علي ولا لي.

*****

سورة المدثر

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أي يا ذا الذي قد تدثر بثيابه، أي تغشى بها ونام، وأصله المتدثر فأدغمت التاء في الدال لتجانسهما. وقال مقاتل: معظم هذه السورة في الوليد بن المغيرة. عن جابر بن عبد الله وكان من أصحاب رسول الله ﷺ كان يحدث قال: قال رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي قال في حديثه: ((فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالساً على كرسي بين السماء والأرض)) قال رسول الله ﷺ: ((فجئت منه فرقا، فرجعت، فقلت: زملوني زملوني، فدثروني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾.

قال الأوزاعي: سمعت يحي يقول: سألت أبا سلمة: أي القرآن أنزل قبل؟ قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فقلت: أو ـ اقرأ ـ فقال: سألت جابر بن عبد الله أي القرآن أنزل قبل؟ قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فقلت: أو ـ اقرأ ـ فقال جابر: أحدثكم ما حدثنا رسول الله ﷺ، قال: ((جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت بطن الوادي، فنوديت فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر أحدا، ثم نوديت فلم أر أحدا ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء ـ يعني جبريل ﷺ. فأخذتني رجفة شديدة، فأتيت خديجة فقلت دثروني، فدثروني فصبوا علي ماء، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾' قال القشيري أبو نصر: وقيل بلغه قول كفار مكة أنت ساحر، فوجد من ذلك غما وحم، فتدثر بثيابه فقال الله تعالى: قم فأنذر: أي لا تفكر في قولهم، وبلغهم الرسالة.

وقيل: اجتمع أبو لهب وأبو سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث وأمية بن خلف والعاص بن وائل ومطعم بن عدي، وقالوا: قد اجتمعت وفود العرب في أيام الحج، وهم يتساءلون عن أمر محمد، وقد اختلفتم في الإخبار عنه، فمن قائل يقول مجنون، وآخر يقول: كاهن، وآخر يقول شاعر، وتعلم العرب أن هذا كله لا يجتمع في رجل واحد، فسموا محمداً باسم واحد يجتمعون عليه، وتسمية العرب به، فقام منهم رجل فقال: شاعر، فقال الوليد: سمعت كلام أن الأبرص، وأمية بن أبى الصلت، وما يشبه كلام محمد كلام واحد منهما، فقالوا: كاهن. فقال:

الكاهن يصدق ويكذب وما كذب محمد قط، قام آخر فقال: مجنون، فقال المجنون يخنق الناس وما خنق محمد قط. وانصرف الوليد إلى بيته، فقالوا: صبأ الوليد بن المغيرة، فدخل عليه أبو جهل وقال: مالك يا أبا عبد شمس! هذه قريش تجمع لك شيئاً يعطونكه، زعموا أنك احتجت وصبأت.

فقال الوليد: مالي إلى ذلك حاجة، ولكني فكرت في محمد، فقلت: ما يكون من الساحر؟ فقيل: يفرق بين الأب وابنه، وبن الأخ وأخيه، وبين المرأة وزوجها، فقلت: أنه ساحر. شاع هذا في الناس وصاحوا يقولون: أن محمداً ساحر. ورجع رسول الله ﷺ إلي بيته محزونا فتدثر بقطيفة، ونزلت: يا أيها المدثر.

وقال عكرمة: معنى: يا أيها المدثر: أي المدثر بالنبوة وأثقالها. وقال ابن العربي: وهذا مجاز بعيد؛ لأنه لم يكن تنبأ بعد. وعلى أنها أول القرآن لم يكن تمكن منها بعد أن كانت ثاني ما نزل.

الثانية: قوله تعالى: يا أيها المدثر: ملاطفة في الخطاب من الكريم إلى الحبيب إذ ناداه بحاله، وعبر عنه بصفته، ولم يقل يا محمد ويا فلان، ليستشعر اللين والملاطفة من ربه كما تقدم في سورة . المزمل .

ومثله: قول النبي ﷺ لعلي إذ نام في المسجد: ((قم أبا تراب)) وكان خرج مغاضباً لفاطمة رضي الله عنها فسقط رداؤه وأصابه ترابه. قوله تعالى: ﴿**قُمْ فَأَنْذِرْ**﴾ أي خوف أهل مكة وحذرهم العذاب أن لم يسلموا، وقيل: الإنذار هنا إعلامهم بنبوته؛ لأنه مقدمة الرسالة. وقيل: هو دعاؤهم إلى التوحيد؛ لأنه المقصود بها. قوله تعالى: ﴿**وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ**﴾ أي سيدك ومالكك ومصلح أمرك فعظم، وصفه بأنه أكبر من أن يكون له صاحبة أو ولد. وفي حديث أنهم قالوا: بم تفتتح الصلاة؟ فنزلت: وربك فكبر: أي وصفه بأنه أكبر. قال ابن العربي: وهذا القول وإن كان يقتضي بعمومه تكبير الصلاة، فإنه مراد به التكبير والتقديس والتنزيه، لخلع الأنداد والأصنام دونه، ولا تتخذ ولياً غيره، ولا تعبد سواه، ولا ترى لغيره فعلاً إلا له، ولا نعمة إلا منه.

قوله تعالى: ﴿**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**﴾ فيه ثمانية أقوال: أحدهما: أن المراد بالثياب العمل. الثاني: القلب. الثالث: النفس. الرابع: الجسم. الخامس: الأهل. السادس: الخلق. السابع: الدين. الثامن: الثياب الملبوسات على الظاهر. فمن ذهب إلى

القول الأول قال: تأويل الآية وعملك فأصلح قاله مجاهد وابن زيد. وروى منصور عن أبى رزين قال: يقول وعملك فأصلح، قال: وإذا كان الرجل خبيث العمل، قالوا: إن فلانا خبيث الثياب، وإذا كان حسن العمل، قالوا: إن فلانا طاهر الثياب.

قوله تعالى: ﴿**وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ**﴾ قال مجاهد وعكرمة: يعني الأوثان، دليله قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ**﴾(الحج:٣٠) قاله ابن عباس وابن زيد. وعن ابن عباس أيضا: والمأثم فاهجر، أي فاترك. وكذا مغيرة عن إبراهيم النخعي قال: الرجز الإثم.

وقال قتادة: الرجز: أساف ونائلة، صنمان كانا عند البيت. وقيل: الرجز العذاب، على تقدير حذف المضاف، المعنى: وعمل الرجز فاهجر، أو العمل المؤدي إلى العذاب. واصل الرجز العذاب، قال الله تعالى: ﴿**وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائيلَ**﴾.

وقال تعالى: ﴿**فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ**﴾ (الأعراف:١٦٢)، فسميت الأوثان رجزا؛ لأنها تؤدي إلى العذاب. قوله تعالى: ﴿**وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ**﴾ فيه أحد عشر تأويلاً، الأول: لا تمنن على ربك بما تتحمله من أثقال النبوة، كالذي يستكثر ما يتحمله بسبب الغير. الثاني: لا تعط عطية تلتمس بها افضل منها، قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة. قال الضحاك: هذا حرمه الله على رسول الله ﷺ؛ لأنه مأمور بإشراف الآداب وجل الأخلاق، وأباحه لأمته، وقاله مجاهد. الثالث: عن مجاهد أيضاً: لا تضعف أن تستكثر من الخير، من قولك حبل منين إذا كان ضعيفا، ودليله قراءة ابن مسعود: ولا تمنن تستكثر من الخير. الرابع: عن مجاهد أيضاً والربيع: لا تعظم عملك في عينك أن تستكثر من الخير، فإنه مما أنعم الله عليك.

قال ابن كيسان: لا تستكثر عملك فتراه من نفسك، إنما عملك منه من الله عليك، إذ جعل الله لك سبيلا إلى عبادته. الخامس: قال الحسن: لا تمنن على الله بعملك فتستكثره. السادس: لا تمنن بالنبوة والقرآن على الناس فتأخذ منهم أجراً تستكثر به. السابع: قال القرظي: لا تعط مالك مصانعة. الثامن: قال زيد بن أسلم:

إذا أعطيت عطية فأعطها لربك. التاسع: لا تقل دعوت فلم يستجب لي. العاشر: لا تعمل طاعة وتطلب ثوابها، ولكن اصبر حتى يكون الله هو الذي ثيبك عليها.

الحادي عشر: لا تفعل الخير لترائي به الناس. الثانية: هذه الأقوال وإن كانت مراده فأظهرها قول ابن عباس: لا تعط لتأخذ أكثر مما أعطيت من المال، يقال: منت فلاناً كذا أي أعطيته.

ويقال للعطية المنة، فكأنه أمر بأن تكون عطاياه الله، لا لارتقاب ثواب من الخلق عليها؛ لأنه عليها السلام ما كان يجمع الدنيا، ولهذا قال: ((ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم))، وكان ما يفضل من نفقه عياله مصروفا إلى مصالح المسلمين، ولهذا لم يورث؛ لأنه كان لا يملك لنفسه الادخار والاقتناء، وقد عصمه الله تعالى عن الرغبة في شيء من الدنيا، ولذلك حرمت عليه الصدقة وأبيحت له الهدية، فكان يقبلها ويثبت عليها. قوله تعالى: ﴿**وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ**﴾ أي ولسيدك ومالكك فاصبر على أداء فرائضه وعبادته. وقال مجاهد: على ما أوذيت.

وقال ابن زيد: حملت أمراً عظيما، محاربة العرب والعجم، فاصبر عليه لله. وقيل: فاصبر تحت موارد القضاء لأجل الله تعالى. وقيل: فاصبر على البلوى؛ لأنه يمتحن أولياءه وأصفياءه. وقيل: على أوامره ونواهيه. وقيل: على فراق الأهل والأوطان. قول الله تعالى: ﴿**فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ**﴾ إذا نفخ في الصور. والناقور: فاعول من النقر، كأنه الذي من شأنه أن ينقر فيه للتصويت، والنقر في كلام العرب: الصوت.

قوله تعالى: ﴿**عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ**﴾ أي غير سهل ولا هين، وذلك أن عقدهم لا تنحل إلا بالى عقدة أشد منها، بخلاف المؤمنين الموحدين المذنبين فإنها تنحل إلى ما هو أخف منها حتى يدخلوا الجنة برحمة الله تعالى.

قول الله تعالى: ﴿**ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً**﴾ أي دعني، وهي كلمة وعيد وتهديد. "ومن خلقت" أي دعني والذي خلقته وحيداً والمفسرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزومي، وان كان الناس خلقوا مثل خلقه. وإنما خص بالذكر لاختصاصه بكفر النعمة وإيذاء الرسول عليه السلام، وكان يسمى الوحيد في قومه.

قال ابن عباس: كان الوليد يقول: أنا الوحيد ابن الوحيد، ليس لي في العرب نظير، ولا لأبي المغيرة نظير، وكان يسمى الوحيد، فقال الله تعالى: ﴿**ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً**﴾ "بزعمه" وحيدا" لا إن الله تعالى صدقة بأنه وحيد، وقال قوم: إن قوله تعالى: "وحيدا" يرجع إلى الرب تعالى على معنيين: أحدهما: ذرني وحدي معه فأنا أجزيك في الانتقام منه عن كل منتقم.

والثاني: أنى انفردت بخلقه ولم يشركني فيه أحد، فأنا أهلكه ولا احتاج إلى ناصر في إهلاكه، فـ . وحيداً. على هذا حال من ضمير الفاعل، وهو التاء في . خلقت والأول قول مجاهد، أي خلقته وحيدا في بطن أمه لا ما له ولا ولد، فأنعمت عليه فكفر، فقوله: وحيدا: على هذا يرجع إلى الوليد أي لم يكن له شيء فملكته. قوله تعالى: ﴿**لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ**﴾ اللام متعلقة بـ . نذير. أي نذيراً لمن شاء منكم آن يتقدم إلى الخير والطاعة، أو يتأخر إلى الشر والمعصية، نظيره: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ**﴾ (الحجر:٢٤)، أي في الخير، ولقد علمنا المستأخرين عنه. قال الحسن: هذا وعيد وتهديد وإن خرج مخرج الخبر، كقوله تعالى: ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً**﴾ (الكهف:٢٩).

قال بعض أهل التأويل: معناه لمن شاء الله أن يتقدم أو يتأخر، فالمشيئة متصلة بالله جل ثناؤه، والتقديم الإيمان، والتأخير الكفر. وكان ابن عباس يقول: هذا تهديد وإعلام أن من تقدم إلى الطاعة والإيمان بمحمد ﷺ جوزي بثواب لا ينقطع، ومن تأخر عن الطاعة وكذب محمداً ﷺ عوقب عقاباً لا ينقطع، وقال السدي: لمن شاء منكم أن يتقدم: إلى النار المتقدم ذكرها، "أو يتأخر" عنها إلى الجنة.

قوله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾ أي مرتهنة بكسبها، مأخوذة بعملها، أما خلصها وأما أوبقها. وليست رهينة. تأنيث رهين في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ**﴾(الطور:٢١) لتأنيث النفس؛ لأنه لو قصدت الصفة لقيل رهين؛ لأن فعيلا بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث. وإنما هو اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم، كأنه قيل: كل نفس بما كسبت رهين.

قوله تعالى: ﴿**إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ**﴾ فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم. واختلف في تعيينهم، فقال ابن عباس: الملائكة. وقال علي بن أبى طالب: أولاد المسلمين لم يكتسبوا فيرتهنوا بكسبهم. وقال الضحاك: الذين سبقت لهم من الله الحسنى، ونحوه عن ابن جريج، وقال الحسن وابن كيسان: هم المسلمون المخلصون ليسوا بمرتهنين؛ لأنهم أدوا ما كان عليهم. وعن أبى ظبيان عن ابن عباس قال: هم المسلمون. وقيل: إلا أصحاب الحق وأهل الإيمان. وقيل: هم الذين يعطون كتبهم بأيمانهم. وقال أبو جعفر الباقر: نحن وشيعتنا أصحاب اليمين، وكل من أبغضنا أهل البيت فهم المرتهنون. وقال الحكم: هم الذين اختارهم الله لخدمته، فلم يدخلوا في الرهن؛ لأنهم خدام الله وصفوته وكسبهم لم يضرهم. قوله تعالى: ﴿**فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ**﴾ أي نفرت وهربت، من قسورة: أي من رماة يرمونها. وقال بعض أهل اللغة: أن القسورة الرامي، وجمعه القسورة.

وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك وابن كيسان: القسورة: هم الرماة والصيادون، ورواه عطاء عن ابن عباس وأبو ظبيان عن أبى موسى الأشعري. وقيل: أنه الأسد، قاله أبو هريرة وابن عباس أيضاً. قال ابن عرفة: من القسر بمعنى القهر أين انه يقهر السباع، والحمر الوحشية تهرب من السباع. قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ**﴾، أي وما يتعظون: إلا أن يشاء الله: أي ليس يقدرون على الاتعاظ والتذكر إلا بمشيئة الله ذلك لهم.

*****

سورة القيامة

مكية، وهي تسع وثلاثون آية قوله تعالى ﴿**لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ قيل: أن . لا. صلة، وجاز وقوعها في أول السورة؛ لأن القرآن متصل بعضه ببعض، فهو في حكم كلام واحد، ولهذا قد يذكر الشيء في سورة ويجيء جوابه في سورة أخرى، كقوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**﴾ (الحجر:٦) وجوابه في سورة أخرى: ﴿**مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ**﴾ (القلم:٢).

ومعنى الكلام: أقسم بيوم القيامة، وأجمع المفسرون أن معنى: لا أقسم: أقسم. واختلفوا في تفسير: لا: قال بعضهم: لا: زيادة في الكلام للزينة، ويجري في كلام العرب زيادة: لا: كما قال في آية أخرى: ﴿**قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**﴾ (الأعراف:١٢) يعني أن تسجد، وقال بعضهم: لا: رد لكلامهم حيث أنكروا البعث، فقال: ليس الأمر كما زعمتم. قال الفراء: وكثير من النحويين يقولون: لا: صلة، ولا يجوز أن يبدأ بجحد ثم يجعل صلة؛ لأن هذا لو كان كذلك لم يعرف خبر فيه جحد من خبر لا جحد فيه، ولكن القرآن جاء بالرد على الذين تنكروا البعث والجنة والنار، فجاء الأقسام بالرد عليهم في كثير من الكلام المبتدأ منه وغير المبتدأ وذلك كقولهم لا والله لا أفعل فـ لا. رد لكلام قد مضى، وذلك كقولك: لا والله إن القيامة لحق، كأنك أكذبت قوماً أنكروه.

قول الله تعالى: ﴿**وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾ لا خلاف في هذا بين القراء، وهو أنه أقسم سبحانه بيوم القيامة تعظيماً لشأنه ولم يقسم بالنفس. وقيل: ﴿**وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾ رد آخر وابتداء قسم بالنفس اللوامة. ومعنى: بالنفس اللوامة: أي بنفس المؤمن الذي لا تراه إلا يلوم نفسه، يقول: ما أردت بكذا؟ فلا تراه إلا وهو يعاتب نفسه.

قال الحسن: هي والله نفس المؤمن، ما يرى المؤمن إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلامي؟ ما أردت بأكلي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ والفاجر لا يحاسب نفسه. وقال مجاهد: هي التي تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشر لم فعلته، وعلى الخير لم لا تستكثر منه. وقيل: أنها ذات اللوم. وقيل: أنها تلوم نفسها بما تلوم عليه غيرها، فعلى هذه الوجوه تكون اللوامة بمعنى اللائمة، وهو صفة مدح، وعلى

هذا يجيء القسم بها سائغاً حسناً.

وفي بعض التفسير: أنه آدم عليه السلام لم يزل لائماً لنفسه على معصيته التي أخرج بها من الجنة. وقيل: اللوامة بمعنى الملومة المذمومة، فهي صفة ذم وهو قول من نفى أن يكون قسماً، اذو ليس للعاصي خطر يقسم بهن فهي كثيرة اللوم. وقال الفراء: ليس من نفس الكافر يلوم نفسه، ويتحسر في الآخرة على ما فرط في جنب الله. وقال: ليس من نفس محسنة أو مسيئة إلا وهي تلوم نفسها، فالمحسن يلوم نفسه أن لو كان ازداد إحساناً والمسيء يلوم نفسه إلا يكون أرعى عن إساءته. قوله تعالى: ﴿**أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ**﴾ فنعيدها خلقاً جديداً بعد أن صارت رفاتا. قال الزجاج: أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة: ليجمعن العظام للبعث، فهذا جواب القسم. وقال النحاس: جواب القسم محذوف أي لتبعثن، ودل عليه قوله تعالى: ﴿**أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ**﴾ للإحياء والبعث. والإنسان هنا الكافر المكذب للبعث. والآية نزلت في عدي بن ربيعة، قال النبي ﷺ: ((حدثني عن يوم القيامة متى تكون؟ وكيف أمرها وحالها؟ فأخبره النبي ﷺ بذلك، فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أومن به، أو يجمع الله العظام؟! لهذا كان النبي ﷺ يقول: ((اللهم اكفني جاري السوء: عدي بن ربيعة، والأخنس بن شريق)).

وقيل: نزلت في عدو الله أبي جهل حين أنكر البعث بعد الموت. وذكر العظام والمراد نفسه كلها؛ لأن العظام قالب الخلق. قوله تعالى: ﴿**بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ**﴾ قال القتبي والزجاج: وزعموا لله لا يبعث الموتى ولا يقدر على جمع العظام، فقال الله تعالى: بلى قادرين على إن نعيد السلاميات على صغرها، ونؤلف بينها حتى تستوي، ومن قدر على هذا فهو على جمع الكبار اقدر.

وقال ابن عباس وعامة المفسرين: المعنى: على أن نسوي بنانه: أي نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخف البعير، أو كحافر الحمار، و كظلف الخنزير، ولا يمكنه أن يعمل به شيئاً، ولكنا فرقنا أصابعه حتى يأخذا بها ما شاء.

قوله تعالى: ﴿**بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ**﴾ قال ابن عباس: يعني الكافر يكذب بما أمامه من البعث والحساب. وقاله عبد الرحمن بن زيد، ودليله: ﴿**يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ**﴾ أي يسأل متى يكون! على وجه الإنكار والتكذيب. فهو لا يقنع

بما هو فيه من التكذيب، لكن يأثم لما بين يديه.

قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ**﴾ معناه: لمع بصره من شدة شخوصه، فتراه لا يطرف. قال مجاهد وغيره: هذا عند الموت. وقال الحسن: هذا يوم القيامة. وقيل: برق يبرق بالفتح: شق عينيه وفتحهما. قوله تعالى: ﴿**وَخَسَفَ الْقَمَرُ**﴾ أي ذهب ضوءه. والخسوف في الدنيا إلى انجلاء، بخلاف الآخرة، فإنه لا يعود ضوءه ويحتمل أن يكون بمعنى غاب.

ومنه قوله تعالى: ﴿**فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ**﴾ (القصص:٨١) وقال أبو حاتم محمد بن إدريس: إذا ذهب بعضه فهو الكسوف، وإذا ذهب كله فهو الخسوف.

قوله تعالى: ﴿**وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ**﴾ أي جمع بينهما في ذهاب ضوئهما، فلا ضوء للشمس كما لا ضوء للقمر بعد خسوفه. قال الفراء: ولم يقل جمعت؛ لأن المعنى جمع بينهما. وقال ابن عباس وابن مسعود: جمع بينهما أي قرن بينهما في طلوعهما من المغرب أسودين مكورين مظلمين مقرنين كأنهما ثوران عقيران.

وقال عطاء بن يسار: يجمع بينهما يوم القيامة ثم يقذفان في البحر، فيكونان نار الله الكبرى. وقال علي وابن عباس: يجعلان في نور الحجب. وقد يجمعان في نار جهنم؛ لأنهما قد عبدا من دون الله ولا تكون النار عذاباً لهما لأنهما جماد، وإنما يفعل ذلك بهما زيادة في تبكيت الكافرين وحسرتهم. عن أنس بن مالك يرفعه إلى النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الشمس والقمر ثوران عقيران في النار))، وقيل: هذا الجمع أنهما يجتمعان ولا يفترقان، ويقربان من الناس، فيلحقهم العرق لشدة الحر، فكأن المعنى يجمع حرهما عليهم وقيل: يجمع الشمس والقمر، فلا يكون ثم تعاقب ليل ولانهار.

قوله تعالى: ﴿**يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ**﴾ أي يقول ابن آدم، ويقال: أبو جهل، أي أين المهرب؟ ويحتمل هذا القول من الإنسان وجهين: أحدهما: أن يكون من الكافر خاصة في عرضة القيامة دون المؤمن، لثقة المؤمن ببشرى ربه.

الثاني: أن يكون من قول المؤمن والكافر عند قيام الساعة لهول ما شاهدوا منها. قوله تعالى: ﴿**إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ**﴾ أي المنتهى، قاله قتادة. نظيره: ﴿**وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى**﴾(النجم:٤٢)، وقال ابن مسعود: إلى ربك المصير

والمرجع. قيل: أي المستقر في الآخرة حيث يقره الله تعالى، إذ هو الحاكم بينهم. قوله تعالى: ﴿**يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ**﴾ أي يخبر ابن آدم برا كان أو فاجراً، بما قدم وأخر: أي بما أسلف من عمل سيئ أو صالح، أو آخر من سنة سيئة أو صالحة يعمل بها بعده، وروى منصور عن مجاهد قال: ينبأ أول عمله وآخره. وقال ابن عباس أيضاً: أي بما قدم من المعصية، وآخر من الطاعة. قال القشيري: وهذا الإنباء يكون في القيامة عند وزن الأعمال. ويجوز أن يكون عند الموت.

قلت: والأول أظهر، لما روي عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً علمه ونشره، وولداً صالحاً تركه، أو مصحفاً ورثه أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهرا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته)).

قول الله تعالى: ﴿**بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ**﴾ قال الأخفش: جعله هو البصيرة، كما تقول للرجل أنت حجة على نفسك. وقال ابن عباس: بصيرة: أي شاهد، وهو شهود جوارحه عليه: يداه بما بطش بهما، ورجلاه بما مشى عليهما، وعيناه بما ابصر بهما.

والبصيرة: الشاهد. وجاء تأنيث البصيرة؛ لأن المراد بالإنسان هاهنا الجوارح؛ لأنها شاهدة على نفس الإنسان، فكأنه قال: بل الجوارح على نفس الإنسان بصيرة، قال معناه القتبي وغيره. وناس يقولون: هذه الهاء في قوله: بصيرة: هي التي يسميها أهل الإعراب هاء المبالغة، كالهاء في قولهم: داهية وعلامة ورواية. و

هو قول أبى عبيد. وقيل: المراد بالبصيرة الكاتبان اللذان يكتبان ما يكون منه من خير أو شر، يدل عليه قول الله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ**﴾ فيمن جعل المعاذير الستور. وقال بعض أهل التفسير: المعنى بل على الإنسان من نفسه بصيرة، أي شاهد فحذف حرف الجر.

ويجوز أن يكون بصيرة . نعتاً لاسم مؤنث فيكون تقديره: بل الإنسان على نفسه عين بصيرة. قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ**﴾ أي ولو أرخى ستوره، والستر بلغة أهل اليمن: معذار، قال الزجاج: المعاذر: الستور، والواحد معذار، أي وأن أرخى ستره، يريد أن يخفي عمله، فنفسه شاهدة عليه. وقيل: أي ولو اعتذر فقال

لم افعل شيئاً، لكان عليه من نفسه من يشهد عليه من جوارحه، فهو وأن اعتذر وجادل عن نفسه، فعليه شاهد يكذب عذرة. والآية فيها دليل على قبول إقرار المرء على نفسه؛ لأنها بشهادة منه عليها، قال الله سبحانه وتعالى: يوم ﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾(النور:٢٤)، ولا خلاف فيه؛ لأنه إخبار على وجه تنتقي التهمة عنه؛ لأن العاقل لا يكذب على نفسه، وقد قال سبحانه في كتابه الكريم: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ**﴾(آل عمران:٨١).

قول الله تعالي: ﴿**تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ**﴾ أي توقن وتعلم، والفاقرة: الداهية والأمر العظيم، يقال: فقرته الفاقرة: أي كسرت فقار ظهره. قوله تعالى: ﴿**وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ**﴾، أي فاتصلت الشدة بالشدة، شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة، وقال الشعبي وغيره: المعنى التفت ساقا الإنسان عند الموت من شدة الكرب.

قوله تعالى: ﴿**إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ**﴾ قال مجاهد: بلاء ببلاء. يقول: تتابعت عليه الشدائد. قال الضحاك وابن زيد: اجتمع عليه أمران شديدان: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه، والعرب لا تذكر الساق إلا في المحن والشدائد العظام، ومنه قولهم: قامت الدنيا على ساق، وقامت الحرب على ساق.

قوله تعالى: ﴿**فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى**﴾ أي لم يصدق أبو جهل ولم يصل. وقيل: يرجع هذا إلى الإنسان في أول السورة، وهو اسم جنس والأول قول ابن عباس. أي لم يصدق بالرسالة. ولا صلد ودعا لربه، وصلى على رسوله.

وقال قتادة: فلا صدق بكتاب الله، ولا صلى لله. وقيل: ولا صدق بمال له، ذخراً له عند الله، ولا صلى الصلوات التي أمره الله بها. وقيل: فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه. قال الكسائي: لا: بمعنى لم ولكنه يقرن بغيره، تقول العرب: لا عبد الله خارج ولا فلان، ولا تقول: مررت برجل لا محسن حتى يقال ولا مجمل، وقوله تعالى: ﴿**فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ**﴾ (البلد:١١) ليس من هذا القبيل؛ لأن معناه أفلا اقتحم، أي فهلا اقتحم، فحذف ألف الاستفهام.

وقال الأخفش: فلا صدق: أي لم يصدق، كقوله: فلا اقتحم: أي لم يقتحم،

ولم يشترط أن يعقبه بشيء آخر، والعرب تقول: لا ذهب، أي لم يذهب، فحرف النفي ينفي الماضي كما ينفي المستقبل.

قوله تعالى: ﴿**أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى**﴾ أي أليس الذي قدر على خلق هذه النسمة من قطرة ماء، بقادر على أن يحيي الموتى، أي على أن يعيد هذه الأجسام كهيئتها للبعث بعد البلى.

*****

سـورة الإنسـان

مكية في قول ابن عباس ومقاتل والكلبي، وقال الجمهور: مدنية، وقيل: فيها مكية، من قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾ إلى آخر السورة وما تقدمه مدني، وذكر ابن وهب قال: حدثنا ابن زيد قال: إن رسول الله ﷺ ليقرأ: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ وقد أنزلت عليه وعنده رجل أسود كان يسأل النبي ﷺ، فقال له عمر بن الخطاب: لا تثقل على النبي ﷺ، قال: دعه يابن الخطاب، قال: فنزلت عليه هذه السورة وهو عنده، فلما قرأها عليه وبلغ صفت الجنان زفر زفرة فخرجت نفسه فقال رسول الله ﷺ: ((أخرج نفس صاحبكم أو أخيكم الشوق إلى الجنة)).

قال القشيري: إن هذه السورة نزلت في على بن أبى طالب رضي الله عنه، والمقصود من الصورة عام، وهكذا القول في كل ما يقال أنه نزل بسبب كذا وكذا. قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾، هل: بمعنى قد، قال الفراء: هل تكون جحدا، وتكون خبراً، فهذا من الخبر، لأنك تقول: هل أعطيتك؟ تقرره بأنك أعطيته. والجحد أن تقول: هل يقدر أحد على مثل هذا؟ وقيل: هي بمنزلة الاستفهام، والمعنى: أتى. والإنسان هنا آدم عليه السلام، وروي عن ابن عباس. حين من الدهر: قال ابن عباس في رواية أبى صالح: أربعون سنة مرت به، قبل أن ينفخ فيه الروح، وهو ملقى بين مكة والطائف. لم يكن شيئا مذكورا: قال الضحاك عن ابن عباس: لا في السماء ولا في الأرض. وقيل: أي كان جسدا مصورا ترابا وطينا، لا يذكر ولا يعرف، ولا يدري ما اسمه ولا يدري به، ثم نفخ فيه الروح، فصار مذكورا.

وقال يحي بن سلام: لم يكن شيئاً مذكورا في الخلق وإن كان عند الله شيئا مذكورا. وقيل: ليس هذا الذكر بمعنى الإخبار، فإن أخبار الرب عن الكائنات قديم، بل هذا الذكر بمعنى الخطر والشرف والقدر، تقول: فلان مذكور أي له شرف وقدر. وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾(الزخرف:٤٤) أي قد آتي على الإنسان حين لم يكن له قدر عند الخليفة. ثم لما عرف الله الملائكة أنه جعل آدم خليفة، وحمله الأمانة التي عجز عنها السماوات والأرض والجبال، ظهر فضله على الكل، فصار مذكورا.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً**﴾ أي ابن آدم من غير خلاف، من نطفة: أي من ماء يقطر وهو المني، وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة. عن ابن عباس أيضا قال: يختلط ماء الرجل وهو أبيض غليظ بماء المرأة وهو أصفر رقيق فيخلق منهما الولد، فما كان من عصب وعظم وقوة فهو من ماء الرجل، وما كان من لحم ودم وشعر فهو من ماء المرأة.

وروي عن ابن مسعود: أمشاجها عروق المضغة. وعنه: ماء الرجل وماء المرأة وهما لونان. وقال مجاهد: نطفة الرجل بيضاء وحمراء ونطفة المرأة خضراء وصفراء. وقال ابن عباس: خلق من ألوان، خلق من تراب، ثم من ماء الفرج والرحم، وهي نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظم ثم لحم ونحوه.

قال قتادة: هي أطوار الخلق: طور نطفة، وطور علقة، وطور مضغة، وطور عظام، ثم يكسو العظام لحماً، كما قال في سورة المؤمنون: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ**﴾ (المؤمنون:١٢)، وقال ابن السكيت: الأمشاج الأخلاط؛ لأنها ممتزجة من أنواع فخلق الإنسان منها ذا طبائع مختلفة.

وقال أهل المعاني: والأمشاج ما جمع وهو في معنى الواحد؛ لأنه نعت للنطفة، كما يقال: برمة أعشار وثوب أخلاق. نبتليه: أي نختبره. وقيل: نقدر فيه الابتلاء وهو الاختبار. وقيل: نبتليه: نكلفه. وفيه أيضا وجهان: بالعمل بعد الخلق، قاله مقاتل. الثاني: بالدين ليكون مأموراً بالطاعة ومنهياً عن المعاصي.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً**﴾ أي بينا له وعرفناه طريق الهدى والضلال، والخير والشر ببعث الرسل، فآمن أو كفر، كقوله تعالى: ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾ (البلد:١٠)، وقال مجاهد: أي بينا له السبيل إلى الشقاء والسعادة. وقال الضحاك وأبو صالح والسدي: السبيل هنا خروجه من الرحم. وقيل: منافعة ومضارة التي يهتدي إليها بطبعه وكما عقله. إما شاكرا وإما كفورا: أي أيهما فعل فقد بينا له. وقيل: أي هديناه الرشد، أي بينا له سبيل التوحيد بنصب الأدلة عليه، ثم إن خلقنا له الهداية اهتدى وآمن، وإن خذلناه كفر وهو كما تقول: قد نصحت لك، إن شئت فاقبل، وان شئت فاترك، أي فإن شئت، فتحذف الفاء. ويقال: هديته السبيل وللسبيل والى السبيل.

وجمع بين الشاكر والكفور، ولم يجمع بين الشكور والكفور مع اجتماعهما في معنى المبالغة نفياً للمبالغة في الشكر وإثباتاً لها في الكفر؛ لأن شكر الله تعالى لا يؤدي، فانتفت عنه المبالغة، ولم تنتف عن الكفر المبالغة، فقل شكره، لكثره النعم عليه وكثره كفره وإن قل مع الإحسان إليه.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلا وَأَغْلالاً وَسَعِيراً**﴾ بين حال الفريقين، وأنه تعبد العقلاء وكلفهم ومكنهم مما أمرهم، فمن كفر فله العقاب، ومن وحد وشكر فله الثواب. والسلاسل: القيود في جهنم طول كل سلسلة سبعون ذراعاً كما مضى في الحاقة.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً**﴾ الأبرار: أهل الصدق واحدهم بر، وهو من امتثل أمر الله تعالى. وقيل: البر الموحد والأبرار جمع بار مثل شاهد وأشهاد، وقيل: هو جمع بر مثل نهر وأنهار، وفي الصحاح: وجمع البر الأبرار، وجمع البار البررة، وفلان يبر خالقه ويتبرره أي يطيعه، والأم بره بولدها. وقال الحسن: البر الذي لا يؤذي الذر. وقال قتادة: الأبرار الذين يؤدون حق الله ويوفون بالنذر. قال ابن عباس: يريد الخمر. والكأس في اللغة: الإناء فيه الشراب: وإذا لم يكن فيه شراب لم يسم كأساً.

وقال سعيد عن قتادة: تمزج لهم بالكافور وتختم بالمسك. وقال عكرمة: مزاجها طعمها. وقيل: إنما الكافور في ريحها لا في طعمها. وقيل: أراد كالكافور في بياضه وطيب رائحته وبرده؛ لأن الكافور لا يشرب، كقوله تعالى: ﴿**آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً**﴾ (الكهف:٩٦) أي كنار.

وقال ابن كيسان: طيب بالمسك والكافور والزنجبيل. وقال مقاتل: ليس بكافور الدنيا. ولكن سمى الله ما عنده بما عندكم حتى تهتدي لها القلوب. قوله تعالى: ﴿**يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً**﴾ أي لا يخلفون إذا نذروا. وقال معمر عن قتادة: بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة وغيره من الواجبات.

وقال مجاهد وعكرمة: يوفون إذا نذروا في حق الله جل ثناؤه. والنذر: حقيقته ما أوجبه المكلف على نفسه من الطاعات ما لو لم يوجبه لم يلزمه. وقال الكلبي:

يوفون بالنذر: أي يتممون العهود والمعنى واحد، وقد قال الله تعالى: ﴿**ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ**﴾ (الحج:٢٩) أي أعمال نسكهم التي ألزموهم أنفسهم بإحرامهم بالحج. وهذا يقوي قول قتادة. وأن النذر يندرج فيه ما التزامه المرء بإيمانه من امتثال أمر الله.

قوله تعالى: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً**﴾ قال ابن عباس ومجاهد: على قلته وحبهم إياه وشهوتهم له. وقال الداراني: على حب الله. وقال الفضيل بن عياض: على حب إطعام الطعام. وكان الربيع بن خثيم إذا جاءه السائل قال: أطعموه سكراً فإن الربيع يحب السكر. مسكينا: أي ذا مسكنة.

وروى منصور عن الحسن: أن يتيماً كان يحضر طعام ابن عمر، فدعا ذات يوم بطعامه، وطلب اليتيم فلم يجده، وجاءه بعد ما فرغ ابن عمر من طعامه فلم يجد الطعام، فدعا له بسويق وعسل، فقال: دونك هذا، فو الله ما غبنت، قال الحسن وابن عمر: والله ما غبن.

قال سعيد بن جبير وعطاء: هو المسلم يحبس بحق. قال قتادة: لقد أمر الله بالأسرى أن يحسن إليهم، وان أسراهم يومئذ لأهل الشرك، وأخوك المسلم أحق أن تطعمه. وقال عكرمة: الأسير العبد. قوله تعالى: ﴿**مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً**﴾ أي في الجنة، على الأرائك: السرر في الحجال. وجاءت عن العرب أسماء تحتوي على صفات: أحدها الأريكة لا تكون إلا في حجلة على سرير، ومنها السجل، وهو الدلو الممتلئ ماء، فإذا صفرت لم تسم سجلاً، وكذلك الذنوب لا تسمى ذنوباً حتى تملأ، والكأس لا تسمى كأساً حتى تترع من الخمر.

وكذلك الطبق الذي تهدى عليه الهدية مهدى، فإذا كان فارغاً قيل طبق أو خوان؟ قوله تعالى: ﴿**وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً**﴾ أي ظل الأشجار في الجنة قريبة من الأبرار، فهي مظلة عليهم زيادة في نعيمهم وإن كان لا شمس ولا قمر ثم، كما أن أمشاطهم الذهب والفضة، وإن كان لا وسخ ولا شعث ثم. ويقال: إن ارتفاع الأشجار في الجنة مقدار مائة عام، فإذا اشتهي ولي الله ثمرتها دانت حتى يتناولها.

قوله تعالى: ﴿**وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا**﴾ أي

يدور على هؤلاء الأبرار الخدم إذا أرادوا الشرب، بآنية من فضة. قال ابن عباس: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء، أي ما في الجنة أشرف وأعلى وأنقى. ثم لم تنف الأواني الذهبية بل المعنى يسقون في أواني الفضة، وقد يسقون في أواني الذهب. وقد قال تعالى: ﴿**يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ (الزخرف:٧١).

وقيل: نبه بذكر الفضة على الذهب، كقوله: ﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ**﴾(النحل:٨١) أي والبرد، فنبه بذكر أحدهما على الثاني. والأكواب: الكيزان العظام التي لا آذان لها ولا عرى، الواحد منها كوب.

قوله تعالى: ﴿**يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً**﴾ أي يدخله الجنة راحماً له، والظالمين: أي ويعذب الظالمين فنصبه بإضمار يعذب. قال الزجاج: نصب الظالمين لأن قبله منصوب، أي يدخل من يشاء في رحمته ويعذب الظالمين أي المشركين ويكون، أعد لهم: تفسيراً لهذا المضمر.

*****

سورة المرسلات

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية منها، وهي قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ**﴾ مدنية. وقال ابن مسعود: نزلت: ﴿**وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً**﴾ على النبي ﷺ ليلة ونحن معه نسير، حتى أوينا إلى غار بمنى فنزلت، فبينا نحن نتلقاها منه، وإن فاه لرطب بها إذ وثبت حية، فوثبنا عليها لنقتلها فذهبت، فقال النبي ﷺ: ((وقيتم شرها كما وقيت شركم)).

عن كريب مولى ابن عباس قال: قرأ سورة: ﴿**وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً**﴾ فسمعتني أم الفضل امرأة العباس، فبكت وقالت: والله يا بني لقد ذكرتني بقراءتك هذه السورة إنها لآخر ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بها في صلاة المغرب. والله أعلم. وهي خمسون آية.

قوله تعالى: ﴿**وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً**﴾ جمهور المفسرين على أن المرسلات الرياح. وروى مسروق عن عبد الله قال: هي الملائكة أرسلت بالمعروف من أمر الله تعالى ونهيه والخبر والوحي. وهو قول أبي هريرة ومقاتل وأبي صالح والكلبي. وقيل: هم الأنبياء أرسلوا بلا إله إلا الله، قاله ابن عباس. وقال أبو صالح: إنهم الرسل ترسل بما يعرفون به من المعجزات. وعن ابن عباس وابن مسعود: إنها الرياح، كما قال تعالى: ﴿**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ**﴾(الحجر:٢٢)، وقال: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾(الأعراف:٥٧).

ومعنى: عرفاً، يتبع بعضها بعضاً كعرف الفرس، تقول العرب: الناس إلى فلان عرف واحد: إذا توجهوا إليه فأكثروا. والمرسلات: أي والرياح التي أرسلت متتابعة. والمرسلات بالعرف، والمراد الملائكة أو الملائكة والرسل. وقيل: يحتمل أن يكون المراد بالمرسلات السحاب، لما فيه من نعمة ونقمة، عارفة بما أرسلت فيه ومن أرسلت إليه. إنها الزواجر والمواعظ. وعرفا: على هذا التأويل متتابعات كعرف الفرس، قاله ابن مسعود. وقيل: جاريات، قاله الحسن، يعني في القلوب. وقيل: معروفات في العقول. قوله تعالى: ﴿**فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً**﴾ قيل: العاصفات الملائكة الموكلون بالرياح يعصفون بها.

وقيل: الملائكة تعصف بروح الكافر، يقال: عصف بالشيء أي أباده وأهلكه، وناقة عصوف أي تعصف براكبها، فتمضي كأنها ريح في السرعة، وعصفت الحرب بالقوم أي ذهبت بهم. وقيل: يحتمل أنها الآيات المهلكة كالزلازل والخسوف. قوله تعالى: ﴿**وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً**﴾ الملائكة الموكلون بالسحب ينشرونها. وقال: السحاب للغيث.

وروي ذلك عن أبى صالح. عنه أيضا: الأمطار، لأنها تنشر النبات، فالنشر بمعنى الإحياء، يقال: نشر الله الميت ونشره أي أحياه. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: يريد ما ينشر من الكتب وأعمال بني آدم. وقال الضحاك: إنها الصحف تنشر على الله بأعمال العباد. وقال الربيع: إنه البعث للقيامة تنشر فيه الأرواح.

قوله تعالى: ﴿**فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً**﴾ الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل، وروى الضحاك عن ابن عباس قال: ما تفرق الملائكة من الأقوات والأرزاق والآجال. وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال: الفارقات الرياح تفرق بين السحاب وتبدده. وعن سعيد عن قتادة قال: فالفارقات فرقا: الفرقان، فرق الله فيه بين الحق والباطل والحرام والحلال.

وقيل: يعني الرسل فرقوا بين ما أمر الله به ونهى عنه أبينوا ذلك. وقيل: السحابات الماطرة تشبيهاً بالناقة الفارق وهي الحامل التي تخرج وتند في الأرض حين تضع، ونوق فوارق وفرق. وربما شبهوا السحابة التي تنفرد من السحاب بهذه الناقة.

قول الله تعالى: ﴿**فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً**﴾ الملائكة بإجماع، أي تلقى كتب الله عز وجل إلى الأنبياء عليهم السلام، قاله المهدوي. وقيل: هو جبريل وسمي باسم الجميع؛ لأنه كان ينزل بها. وقيل: المراد الرسل يلقون إلى أممهم ما أنزل الله عليهم.

قوله تعالى: ﴿**عُذْراً أَوْ نُذْراً**﴾ أي تلقى الوحي اعتذرا من الله أو إنذارا إلى خلقه من عذابه. ثم بين وقت وقوعه فقال: ﴿**فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ**﴾ أي ذهب ضوءها ومحي نورها كطمس الكتاب، يقال: طمس الشيء إذا درس وطمس فهو مطموس، والريح تطمس الثر فتكون الريح طامسة والأثر طامسا بمعنى مطموس.

قول الله تعالى: ﴿**وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ**﴾ أي ذهب بها كلها بسرعة، يقال: نسفت الشيء وأنسفته: إذا أخذته كله بسرعة. وكان ابن عباس والكلبي يقول: سويت بالأرض، والعرب تقول: فرس نسوف إذا كان يؤخر الحزام بمرفقيه.

قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ**﴾ أي جمعت لوقتها ليوم القيامة والوقت الأجل الذي يكون عنده الشيء المؤخر إليه، فالمعنى: جعل لها وقت واجل للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم، كما قال تعالى: ﴿**يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**﴾ (المائدة:١٠٩) وقيل: هذا في الدنيا أي جمعت الرسل لميقاتها الذي ضرب لها في إنزال العذاب بمن كذبه بأن الكفار ممهلون.

وإنما تزول الشكوك يوم القيامة. والأول أحسن؛ لأن التوقيت قبل يوم القيامة. قال أبو علي: أي جعل يوم الدين والفصل لها وقتاً، وقيل: أقتت وعدت وأجلت، وقيل: أقتت: أي أرسلت لأوقات معلومة على ما علمه الله وأراد. قوله تعالى: ﴿**لِيَوْمِ الْفَصْلِ**﴾ أجلت.

وروى سعيد عن قتادة، قال: يفصل فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة أو إلى النار. وفي الحديث: ((إذا حشر الناس يوم القيامة قاموا أربعين عاماً على رؤوسهم الشمس شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرن الفصل))، قوله تعالى: ﴿**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**﴾ أي عذاب وخزي لم كذب بالله وبرسله وكتبه وبيوم الفصل فهو وعيد.

وكرره في هذه السورة عند كل آية لمن كذب؛ لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم فإن لكل مكذب بشيء عذاباً سوى تكذيبه بشيء آخر، ورب شيء كذب به هو أعظم جرماً من تكذيب بغيره؛ لأنه أقبح في تكذيبه، وأعظم في الرد على الله، فإنما يقسم له من الويل على قدر ذلك، وعلى قدر وفاقة وهو قوله: ﴿**جَزَاءً وِفَاقاً**﴾ (النبأ:٢٦)، قال ابن عباس: إذا خبت جهنم أخذ من جمرة فألقى عليها فيأكل بعضها بعضاً.

قول الله تعالى: ﴿**أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ**﴾ أخبر عن إهلاك الكفار من الأمم الماضيين من لدن آدم إلى محمد ﷺ. قوله تعالى: ﴿**فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ**﴾ أي في مكان حريز وهو الرحم. قوله تعالى: ﴿**إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ**﴾ قال مجاهد: إلى أن نصوره. وقيل: إلى وقت الولادة.

قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً﴾ أي ضامة تضم الأحياء على ظهورها والأموات في بطنها. وهذا يدل على وجوب مواراة الميت ودفنه، ودفن شعره وسائر ما يزيله عنه. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً﴾ أي في الأرض، رواسي شامخات: يعني الجبال، والرواسي الثوابت، والشامخات الطوال، ومنه يقال: شمخ بأنفه إذا رفعه كبراً. والفرات: الماء العذب يشرب ويسقى منه الزرع. أي خلقنا الجبال وأنزلنا لكم سقيا. والفرات: الماء العذب يشرب ويسقى منه الزرع. أي خلقنا الجبال وأنزلنا الماء الفرات، وهذه الأمور أعجب من البعث. وفي بعض الحديث قال أبو هريرة: في الأرض من الجنة الفرات والدجلة ونهر الأردن.

قول الله تعالى: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ﴾ أي دخان: ذي ثلاث شعب" يعني الدخان الذي يرتفع ثم يتشعب إلى ثلاث شعب. وكذلك شأن الدخان العظيم إذا ارتفع تشعب. ثم وصف الظل فقال: ﴿لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ أي ليس كالظل الذي يقي حر الشمس: ولا يغني من اللهب: أي لا يدفع من لهب جهنم شيئا. واللهب ما يعلو على النار إذا اضطرمت، من احمر وأصفر وأخضر. وقيل: إن الشعب الثلاث هي: الضريع، الزقوم، والغسلين.

وقيل: اللهب ثم الشرر ثم الدخان؛ لأنها ثلاثة أحوال، هي غاية أوصاف النار إذا اضطرمت واشتدت. وقيل: عنق يخرج من النار فيتشعب ثلاث شعب، فأما النور فيقف على رؤوس المؤمنين، وأما الدخان فيقف على رؤوس المنافقين، وأما اللهب الصافي فيقف على رؤوس الكافرين. وقيل: هو السرادق، وهو لسان من نار يحيط بهم ثم يتشعب منه ثلاث شعب فتظللهم حتى يفرغ من حسابهم إلى النار.

وقيل: هو الظل من يحموم. قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ الشرر: واحدته شرره. والشرار: واحدته شرارة، وهو ما تطاير من النار في كل جهة، وأصله من شررت الثوب إذا بسطته للشمس ليجف. والقصر: البناء العالي.

وقد قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ فلا نعلم شيئاً من هذا في اللغة. ووجهه عندنا أن النار خلقت من النور فهي نار مسيئة، فلما خلق الله جهنم وهي موضع النار، حشا ذلك الموضع بتلك النار، وبعث إليها سلطانه وغضبه،

فاسودت من سلطانه وازدادت حدة، وصارت أشد سواداً من النار ومن كل شيء سواداً. فإذا كان يوم القيامة وجيء بجهنم في الموقف رمت بشررها عل أهل الموقف، غضباً لغضب الله، والشرر هو أسود؛ لأنه من نار سوداء، فإذا رمت النار بشررها فإنها ترمي الأعداء به، فهن سود من سواد النار، لا يصل ذلك إلى الموحدين؛ لأنهم في سرادق الرحمة أحاط بهم في الموقف، وهو الغمام الذي يأتي فيه الرب تبارك وتعالى، ولكن يعاينون ذلك الرمي، فإذا عاينوه نزع الله ذلك السلطان والغضب عنه في رأي العين منهم حتى يروها صفراء، ليعلم الموحدون أنهم في رحمة الله لا في سلطانه وغضبه.

وكان ابن عباس يقول: الجمالات الصفر: حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى تكون كأوساط الرجال. قوله تعالى: ﴿**هَـذَا يَـوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَـاكُمْ وَالأَوَّلِينَ**﴾ أي ويقال لهم هذا اليوم الذي يفصل فيه بين الخلائق، فيتبين المحق من المبطل. جمعناكم والأولين: قال ابن عباس: جمع الذين كذبوا محمداً والذي كذبوا النبيين من قبله.

*****

سورة النبأ

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عم لفظ استفهام، ولذلك سقطت منها ألف ما ليتميز الخبر عن الاستفهام. وكذلك: فيم، ومم، إذا استفهمت. والمعنى عن أي شيء يسأل بعضهم بعضا. عن ابن عباس قال: كانت قريش تجلس لما نزل القرآن فتتحدث فيما بينها فمنهم المصدق ومنهم المكذب به فنزلت: عم يتساءلون؟ وقيل: عم، بمعنى: فيم يتشدد المشركون ويختصمون.

قوله تعالى: ﴿عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ﴾ أي يتساءلون عن النبأ العظيم، فعن ليس تتعلق بـ: يتساءلون، الذي في التلاوة؛ لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام فيكون: عن النبأ العظيم. قوله تعالى: ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ أي يخالف فيه بعضهم بعضاً، فيصدق واحد ويكذب آخر، فروى أبو صالح عن ابن عباس قال: هو القرآن، دليله قوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ (ص:٦٧/٦٨)، فالقرآن نبأ وخبر وقصص، وهو نبأ عظيم الشأن. وروى سعيد عن قتادة قال: هو البعث بعد الموت صار الناس فيه رجلين: مصدق ومكذب. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ﴾ (٥) أي حقاً ليعلمن صدق ما جاء به محمد ﷺ من القرآن ومما ذكره لهم من البعث بعد الموت. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً﴾ دلهم على قدرته على البعث، أي قدرتنا على إيجاد هذه الأمور أعظم من قدرتنا على الإعادة. والمهاد: الوطاء الفراش. وقد قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:٢٢)، معناه أنها لهم كالمهد للصبي وهو ما يمهد له فينوم عليه.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً﴾ أي أصنافاً: ذكراً وأنثى. وقيل: ألواناً. وقيل: يدخل في هذا كل زوج من قبيح وحسن، وطويل وقصير، لتختلف الأحوال فيقع الاعتبار، فيشكر الفاضل يصبر المفضول. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً﴾ جعلنا: معناه صيرنا، ولذلك تعدت إلى مفعولين. سباتا: المفعول الثاني، أي راحة لأبدانكم، ومنه يوم السبت أي يوم الراحة، أي قبل لبني إسرائيل: استريحوا في هذا اليوم، فلا تعملوا فيه شيئاً.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً﴾ أي تلبسكم ظلمته وتغشاكم. قوله تعالى:

﴿**وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً**﴾ فيه إضمار، أي وقت معاش، أي متصرفاً لطلب المعاش وهو كل ما يعاش به من المطعم والمشرب وغير ذلك ف . معاشا. على هذا اسم زمان، ليكون الثاني هو الأول. قوله تعالى: ﴿**وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً**﴾ أي سبع سماوات محكمات، أي محكمة الخلق وثيقة البنيان.

قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً**﴾ أي وقاداً وهي الشمس. وجعل هنا بمعنى خلق؛ لأنها تعدت لمفعول واحد والوهاج الذي له وهج، يقال، وهج يهج وهجا ووهجاً. ويقال للجوهر إذا تلألأ توهج. وقال ابن عباس: وهاجاً منيراً متلألئا. قوله تعالى: ﴿**وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً**﴾.

قال مجاهد: المعصرات: يقال: أعصرت الريح تعصر إعصاراً: إذا أثارت العجاج، وهي الإعصار، والسحب أيضاً تسمى المعصرات لأنها تمطر. وقال قتادة أيضاً: المعصرات السماء. قوله تعالى: ﴿**لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً**﴾ أي بذلك الماء حبا كالحنطة والشعير وغير ذلك، نباتا: من الأب، وهو ما تأكله الدواب من الحشيش. قوله تعالى: ﴿**وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً**﴾ أي بساتين، ألفافا: أي ملتفة بعضها ببعض لتشعب أغصانها، ولا واحد له كالأوزاع والأخياف. وقيل: واحد الألفاف لف بالكسر، ولف بالضم.

قال الزمخشري: ولو قيل جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد لكان وجيهاً. ويقال: شجرة لفاء وشجر لف وامرأة لفاء: أي غليظة الساق مجتمعة اللحم. وقيل: التقدير: ونخرج به جنات ألفافاً، فحذف لدلالة الكلام عليه. ثم هذا الالتفاف الانضمام معناه أن الأشجار في البساتين تكون متقاربة، فالأغصان من كل شجرة متقاربة لقوته. قوله تعالى: ﴿**إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً**﴾ أي وقتاً ومجمعاً وميعاداً للأولين والآخرين، لما وعد الله من الجزاء والثواب. وسمي يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه.

قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً**﴾ أي للبعث: فتأتون، أي إلى موضع العرض، أفواجا: أي أمما، كل أمة مع إمامهم. وقيل: زمراً وجماعات. الواحد: فوج. ونصب يوماً بدلاً من اليوم الأول. قوله تعالى: ﴿**وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً**﴾ أي لنزول الملائكة، كما قال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً**﴾(الفرقان:٢٥).

وقيل: تقطعت فكانت قطعاً كالأبواب فانتصاب الأبواب على هذا التأويل بحذف الكاف، وقيل: التقدير فكانت ذات أبواب؛ لأنها تصير كلها أبواباً. وقيل: أبوابها طرقها. وقيل: تنحل وتتناثر، حتى تصير فيها أبواب. وقيل: إن لكل عبد بابين في السماء: باباً لعمله، وباباً لرزقه، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً**﴾ مفعال من الرصد، والرصد: كل شيء كان أمامك. قال الحسن: إن على النار رصداً، لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليه، فمن جاء بجواز جاز، ومن لم يجئ بجواز حبس. قوله تعالى: ﴿**لِلطَّاغِينَ مَآباً**﴾ بدل من قوله: مرصادا، والمآب: المرجع، أي مرجعاً يرجعون إليها، يقال: آب يؤوب أوبة: إذا رجع. وقال قتادة: مأوى ومنزلاً. والمراد بالطاغين من طغى في دينه بالكفر، أو في دنياه بالظلم. قوله تعالى: ﴿**لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً**﴾ أي ماكثين في النار ما دامت الأحقاب، وهي لا تنقطع، فكلما مضى حقب جاء حقب. والحقب بضمتين: الدهر والأحقاب الدهور. والحقبة بالكسر: السنة، والجمع حقب.

قوله تعالى: ﴿**إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً**﴾ استثناء منقطع في قول من جعل البرد النوم، ومن جعله من البرودة كان بدلاً منه. والحميم: والماء الحار، وقال ابن زيد: الحميم: دموع أعينهم، تجمع في حياض ثم يسقونه. قال النحاس: أصل الحميم: الماء الحار، ومنه اشتق الحمام، ومنه الحمى، ومنه: ﴿**وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ**﴾ (الواقعة:٤٣).

قوله تعالى: ﴿**وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً**﴾ كواعب: جمع كاعب وهي الناهد، يقال: كعبت الجارية تكعب كعوبا، وكعبت تكعب تكعيبا، ونهدت تنهد نهودا. وقال الضحاك: ككواعب العذارى.

قوله تعالى: ﴿**وَكَأْساً دِهَاقاً**﴾ قال ابن عباس: مترعة مملوءة، يقال: أدهت الكأس: أي ملأتها، وكأس دهاق أي ممتلئة. قوله تعالى: ﴿**لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا كِذَّاباً**﴾ اللغو: الباطل وهو ما يلغي من الكلام ويطرح، ومنه الحديث: ((إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لغوت))، وذلك أن أهل الجنة إذا شربوا لم تتغير عقولهم، ولم يتكلموا بلغو، بخلاف أهل الدنيا.

قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ**

الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾ أي يوم لا يملكون منه خطاباً يوم يقوم الروح. قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً**﴾ أي الكائن الواقع: ﴿**فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً**﴾ أي مرجعاً بالعمل الصالح، كأنه إذا عمل خيراً رده إلى الله عز وجل، وإذا عمل شراً عده منه.

*****

سورة النازعات

قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً﴾ أقسم سبحانه بهذه الأشياء التي ذكرها، على أن القيامة حق. والنازعات: الملائكة التي تنزع أرواح الكفار، قاله علي رضي الله عنه، قال ابن مسعود: يريد أنفس الكفار ينزعها ملك الموت من أجسادهم، من تحت كل شعرة، ومن تحت الأظافر وأصول القدمين نزعاً كالسفود ينزع من الصوف الرطب، ثم يغرقها، أي يرجعها في أجسادهم، ثم ينزعها، فهذا عمله بالكفار. وقيل: يرى الكافر نفسه في وقت النزع كأنها تغرق.

وقال مجاهد: هي الموت ينزع النفوس. قال الحسن وقتادة: هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق، أي يذهب، من قولهم: نزع إليه أي ذهب، أو من قولهم: نزعت الخيل أي جرت. غرقا: أي إنها تغرق وتغيب وتطلع من أفق إلى أفق آخر. قوله تعالى: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً﴾ قال ابن عباس: يعني الملائكة تنشط نفس المؤمن، فتقبضها كما ينشط العقال من يد البعير: إذا حل عنه.

وعن ابن عباس أيضاً: هي أنفس المؤمنين عند الموت تنشط للخروج، وذلك أنه ما من مؤمن يحضره الموت إلا وتعرض عليه الجنة قبل أن يموت، فيرى فيها ما أعد الله له من أزواجه وأهله من الحور العين، فهم يدعونه إليها، فنفسه إليهم نشطة أن تخرج فتأتيهم.

وعنه أيضاً قال: يعني انفس الكفار والمنافقين تنشط كما ينشط العقب، الذي يعقب به السهم. والعقب بالتحريك: العصب الذي تعمل منه الأوتار، الواحدة عقبة، تقول منه: عقب السهم والقدح والقوس عقباً: إذا لوى شيئاً منه عليه. والنشط: الجذب بسرعة، ومنه الأنشوطة: عقدة يسهل انحلالها إذا جذبت مثل عقدة التكة.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً﴾ قال علي رضي الله عنه: هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين. قال الكلبي: هي الملائكة تقبض أرواح المؤمنين، كالذي يسبح في الماء، فأحياناً ينغمس وأحياناً يرتفع، يسلونها سلا رفيقاً بسهولة، ثم يدعونها حتى تستريح. وقال مجاهد وأبو صالح: هي الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله، كما يقال للفرس الجواد سابح: إذا أسرع في جريه. قوله تعالى: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً﴾ قال علي رضي الله عنه: هي الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء عليهم السلام. وعن مجاهد أيضاً وأي روق: هي الملائكة

سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح. وقيل: تسبق بني آدم إلى العمل الصالح فتكتبه.

وقال ابن مسعود: هي أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة الذين يقبضونها وقد عاينت السرور، شوقاً إلى لقاء الله تعالى ورحمته. قوله تعالى: ﴿**فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً**﴾ قال القشيري: أجمعوا على أن المراد الملائكة. وقال الماوردي: فيه قولان: أحدهما: الملائكة، قاله الجمهور.

والقول الثاني: هي الكواكب السبعة. وفي تدبيرها الأمر وجهان: أحدهما: تدبير طلوعها وأفولها. الثاني: تدبيرها ما قضاه الله تعالى فيها من تقلب الأحوال. وأن الله تعالى علق كثيراً من تدبير أمر العالم بحركات النجوم، فأضيف التدبير إليها وإن كان من الله، كما يسمى الشيء باسم ما يجاوره. وعلى أن المراد بالمدبرات الملائكة، فتدبيرها نزولها بالحلال والحرام وتفصيله، قاله ابن عباس وقتادة وغيرهما. هو إلى الله جل ثناؤه، ولكن لما نزلت الملائكة به سميت بذلك، كما قال عز وجل: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ**﴾ (الشعراء:١٩٣) محمد ﷺ، والله عز وجل هو الذي أنزله.

وروى عطاء عن ابن عباس: فالمدبرات أمرا: الملائكة وكلت بتدبير أحوال الأرض في الرياح والأمطار وغير ذلك. قال عبد الرحمن بن سابط: تدبير أمر الدنيا إلى أربعة، جبريل وميكائيل وملك الموت واسمه: عزائيل، وإسرافيل، فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود، وأما مكائيل فموكل بالقطر والنبات، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأنفس في البر والبحر، وأما إسرافيل فهو يتنزل بالأمر عليهم، وليس من الملائكة أقرب من إسرافيل، بينه وبين العرش مسيرة خمسمائة عام. قوله تعالى: ﴿**قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ**﴾ أي خائفة وجلة، قاله ابن عباس وعليه عامة المسفرين. وقال السدي: زائلة عن أماكنها. والمعنى متقارب، والمراد قلوب الكفار، يقال: وجف القلب يجف وجيفا إذا خفق، كما يقال: وجب يجب وجيبا، ومنه وجيف الفرس والناقة في العدو، والإيجاف حمل الدابة على السير السريع. قوله تعالى: ﴿**يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ**﴾ أي يقول هؤلاء المكذبون المنكرون للبعث، إذا قيل لهم إنكم تبعثون، قالوا منكرين متعجبين: أنرد بعد موتنا إلى أول الأمر فنعود أحياء كما كنا قبل الموت؟ وهو كقولهم: ﴿**وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً**﴾ (الإسراء:٤٩) يقال: رجع فلان في

حافرته، وعلى حافرته، أي رجع من حيث جاء. وقيل: الحافرة العاجلة، أي أئنا لمردودون إلى الدنيا فنصير أحياء كما كنا؟

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي رجعة خائبة، كاذبة باطلة، أي ليست كائنة، والمعنى أهلها خاسرون، كما يقال: تجارة رابحة أي يربح صاحبها. ولا شيء أخسر من كرة تقتضي المصير إلى النار. قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ أي الخلائق أجمعون، بالساهرة: أي على وجه الأرض، بعد ما كانوا في بطنها.

قال الفراء: سميت بهذا الاسم؛ لأن فيها نوم الحيوان وسهرهم. والعرب تسمي الفلاة ووجه الأرض ساهرة، بمعنى ذات سهر؛ لأنه يسهر فيها خوفاً منها، فوصفها بصفة ما فيها. وقيل: الساهرة اسم الأرض السابعة يأتي بها الله تعالى فيحاسب عليها الخلائق، وذلك حين تبدل الأرض غير الأرض.

قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ أي ناداه ربه فحذف؛ لأن النداء قول، فكأنه، قال له ربه: اذهب إلى فرعون. إنه طغى: أي جاوز القدر في العصيان. وعن مجاهد قال: كان من أهل إصطخر. وعن الحسن أيضاً قال: من أهل أصبهان، يقال له ذو ظفر، طوله أربعة أشبار.

قوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ أي أخرج من الأرض: ماءها: أي العيون المتفجرة بالماء. ومرعاها: أي النبات الذي يرعى. قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ أي الداهية العظمى، وهي النفخة الثانية، التي يكون معها البعث، وعن ابن عباس: أنها القيامة، سميت بذلك لأنها تطم على كل شيء، فتعم ما سواها لعظم هولها، أي تقبله. قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ أي حذر مقامه بين يدي ربه. وقال الربيع: مقامه يوم الحساب. وكان قتادة يقول: إن لله عز وجل مقاماً قد خافه المؤمنون.

وقال مجاهد: هو خوفه في الدنيا من الله عز وجل عند مواقعة الذنب فيقلع. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ أي مخوف، وخص الإنذار بمن يخشى؛ لأنهم المنتفعون به، إن كان منذراً لكل مكلف، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ (يّس:١١).

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ يعني

الكفار يرون الساعة، لم يلبثوا: أي في دنياهم، إلا عشية: أي قدر عشية، أو ضحاها: أي أو قدر الضحا الذي يلي تلك العشية، والمراد تقليل مدة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ (الأحقاف:٣٥).

******

سـورة عبـس

مكيـة فـي قـول الجميـع، وهـي إحـدى وأربعون آيـة، فيـه ست مسـائل: قولـه تعالى: ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّى**﴾ أي كلح بوجهه، يقال: عبس وبسر. وتولى: أي أعرض بوجهه. قوله تعالى: ﴿**أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى**﴾ أن: في موضع نصب؛ لأنه مفعول له، والمعنى لأن جاءه الأعمى، أي الذي لا يبصر بعينيه.

فروى أهل التفسير أجمع: أن قول قوماً من أشراف قريش كانوا عند النبي ﷺ وقد طمع في إسلامهم، فأقبل عبد الله بن أم مكتوم، فكره رسول الله ﷺ أن يقطع عبد الله عليه كلامه، فأعرض عنه، ففيه نزلت هذه الآية. قال مالك: إن هشام بن عروة حدثه عن عروة، أنه قال: نزلت عبس وتولى: في ابن أم مكتوم، جاء إلى النبي ﷺ فجعل يقول: يا محمد استدنني، وعند النبي ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل النبي ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول: ((يا فلان، هل ترى بما أقول بأساً)) فيقول: لا والدمى ما أرى بما تقول بأساً، فأنزل الله:عبس وتولى)) ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب تأنيساً له فقال: ﴿**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى**﴾ أي يعلمك، لعله: يعني ابن أم مكتوم، وزوال ظلمة الجهل عنه.

وقيل: الضمير في: لعله، للكافر يعني إنك إذا طمعت في أن يتزكى بالإسلام أو يذكر، فتقربه الذكرى إلى قبول الحق وما يدريك أن ما طمعت فيه كائن. والتقدير: أن جاءه أعرض عنه وتولى؟ نظير هذه الآية في العتاب قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿**وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ (الأنعام:٥٢)، وكذلك قوله في سورة الكهف: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً**﴾(الكهف:٢٨) وما كان مثله، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿**أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى**﴾ يتعظ بما تقول، فتنفعه الذكرى: أي العظة. قوله تعالى: ﴿**فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى**﴾ أي تعرض له، وتصغي لكلامه. والتصدي: الإصغاء، وقيل: من الصدى وهو العطش. أي تتعرض له كما يتعرض العطشان للماء، والمصاداة: المعارضة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى﴾ أي لا يهتدي هذا الكافر ولا يؤمن، إنما أنت رسول، ما عليك إلا البلاغ. قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ يطلب العلم لله. قوله تعالى: ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ أي تعرض عنه بوجهك وتشغل بغيره. وأصله تتلهى، يقال: لهيت عن الشيء ألهي: أي تشاغلت عنه والتلهي: التغافل. ولهيت عنه وتلهيت: بمعنى. قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ كلا: كلمة ردع وزجر، أي ما الأمر كما تفعل مع الفريقين، أي لا تفعل بعدها مثلها: من إقبالك على الغني، وإعراضك عن المؤمن الفقير. والذي جرى من النبي ﷺ كان ترك الأولى كما تقدم، ولو حمل على صغيرة لم يبعد. قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ أي أتعظ بالقرآن. قال الجرجاني: إنها، أي القرآن، والقرآن مذكر إلا انه لما جعل القرآن تذكرة، أخرجه على لفظ التذكرة، ولو ذكره لجاز، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ (المدثر:٥٤)، ويدل على أنه أراد القرآن قوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾، أي كان حافظاً له غير ناس، وذكر الضمير؛ لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ. ثم أخبر عن جلالته فقال: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ جمع صحيفة، مكرمة: أي عند الله.

قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ أي الملائكة الذين جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله، فهم بررة لم يتدنسوا بمعصية. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: هي مطهرة تجعل التطهير لمن حملها، بأيدي سفرة. قال: كتبة. وهم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد في الأسفار، التي هي الكتب، واحدهم: سافر، كقولك: كاتب وكتبة. ويقال: سفرت أي كتبت، والكتاب: هو السفر، وجمعه أسفار.

قول الله تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ قتل: أي لعن. وقيل: عذب. والإنسان الكافر. روى الأعمش عن مجاهد قال: ما كان في القرآن قتل الإنسان، فإنما عني به الكافر. وروي الضحاك عن ابن عباس قال: نزلت في عتبة بن أبي لهب، وكان قد آمن، فلما نزلت والنجم ارتد، وقال: آمنت بالقرآن كله إلا النجم، فأنزل الله جل ثناؤه فيه: قتل الإنسان، أي لعن عتبة حيث كفر بالقرآن، ودعا عليه رسول الله ﷺ فقال: ((اللهم سلط عليه كلبك أسد الغاضرة))، فخرج من فوره بتجارة إلى الشام، فلما انتهى إلى الغاضرة تذكر دعاء النبي ﷺ، فجعل لمن معه ألف دينار إن هو أصبح حيا، فجعلوه في وسط الرفقة، وجعلوا المتاع حوله، فبينما هو على ذلك أقبل الأسد، فلما دنا من الرحال وثب فإذا هو فوقه فمزقه، وقد كان أبوه

ندبه وبكى وقال: ما قال محمد شيئاً قط إلا كان.

قول الله تعالى: ﴿كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ قال مجاهد وقتادة: لما يقض: لا يقضي أحد ما أمر به، وكان ابن عباس يقول: لما يقض ما أمره: لم يف بالميثاق الذي أخذ عليه في صلب آدم. ثم قيل: كلا: ردع وزجر، أي ليس الأمر كما يقول الكافر، فإن الكافر إذا أخبر بالنشور قال: **﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾** (فصلت:٥٠) ربما يقول قد قضيت ما أمرت به. فقال: كلا لم يقض شيئاً بل هو كافر بي وبرسولي.

*****

سورة التكوير

قول الله تعالى:﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ تكويرها: إدخالها في العرش، وقال الحسن: ذهاب ضوئها. وقال أبو عبيدة: كورت مثل تكوير العمامة، تلف فتمحي. وقال الربيع بن خيثم: كورت: رمى بها، ومنه: كورته فتكور، أي سقط. قلت: أصل التكوير: الجمع، مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها أي دلائها وجمعها فهي تكور ويمحى ضوءها، ثم يرمى بها في البحر. والله أعلم.

وعن أبي صالح: كورت: نكست. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أي تهافتت وتناثرت. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: تساقطت، وذلك أنها قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور، وتلك السلاسل بأيدي ملائكة من نور، فإذا جاءت النفخة الأولى مات من في الأرض ومن في السماوات، فتناثرت تلك الكواكب وتساقطت السلاسل من أيدي الملائكة؛ لأنه مات من كان يمسكها. ويحتمل أن يكون انكدارها طمس آثارها. وسميت النجوم نجوماً لظهورها في السماء بضوئها. وعن ابن عباس أيضاً: انكدرت تغيرت فلم يبق لها ضوء لزوالها عن أماكنها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ يعني قلعت من الأرض، وسيرت في الهواء، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾(الكهف:٤٧) وقيل: سيرها تحولها عن منزلة الحجارة، فتكون كثيباً مهيلا، أي رملاً سائلا، وتكون كالعهن، وتكون هباء منثوراً، وتكون سراباً، مثل السراب الذي ليس بشيء. وعادت الأرض قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا.

قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ أي النوق الحوامل التي في بطونها أولادها، الواحدة عشراء، أو التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع، وبعد ما تضع أيضاً. ومن عادة العرب أن يسلموا الشيء باسمه المتقدم وإن كان قد جاوز ذلك، يقول الرجل لفرسه وقد قرح: هاتوا مهري، وقربوا مهري يسميه بمتقدم اسمه. وقيل: العشار: السحاب يعطل مما يكون فيه وهو الماء فلا يمطر، والعرب تشبه السحاب بالحامل. وقيل: الديار تعطل فلا تسكن. وقيل: الأرض التي يعشر زرعها تعطل فلا تزرع. والأول أشهر، وعليه من الناس الأكثر.

قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ**﴾ أي جمعت. والحشر: الجمع.

وقال ابن عباس: حشرها: موتها. وحشر كل شيء: الموت غير الجن والإنس، فإنهما يوافيان يوم القيامة. وعن ابن عباس أيضاً قال: يحشر كل شيء حتى الذباب. قال ابن عباس: تحشر الوحوش غداً: أي تجمع حتى يقتص لبعضها من بعض، فيقتص للجماء من القرناء، ثم يقال لها كوني تراباً فتموت. وقيل: عني بهذا أنها مع نفرتها اليوم من الناس وتنددها في الصحاري، تنضم غداً إلى الناس من أهوال ذلك اليوم.

قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ**﴾ أي ملئت من الماء، والعرب تقول: سجرت الحوض أسجرة سجرا: إذا ملأته، وهو مسجور، والمسجور والساجر في اللغة: الملآن. وقيل: أرسل عذبها على مالحها، ومالحها على عذبها، حتى امتلأت. عن مجاهد: أي فجرت فصارت بحراً واحداً. وقال القشيري: وذلك بأن يرفع الله الحاجز الذي ذكره في قوله تعالى: ﴿**بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ**﴾ (الرحمن:٢٠) فإذا رفع ذلك البرزخ تفجرت مياه البحار، فعمت الأرض كلها، وصارت البحار بحراً واحدا. وقيل: صارت بحراً واحداً من الحميم لأهل النار.

قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ**﴾ قال النعمان بن بشير: قال النبي ﷺ: وإذا النفوس زوجت، قال: ((يقرن كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون كعمله)) وقال عمر بن الخطاب: يقرن الفاجر مع الفاجر، ويقرن الصالح مع الصالح، وقال ابن عباس: ذلك حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة، السابقون زوج، يعني صنفاً. وأصحاب اليمين زوج، وأصحاب الشمال زوج.

وعنه أيضاً قال: زوجت نفوس المؤمنون بالحور العين، وقرن الكافر بالشياطين، وكذلك المنافقون. وعنه أيضاً: قرن كل شكل بشلكه من أهل الجنة وأهل النار، فيضم المبرز في الطاعة إلى مثله، والمتوسط إلى مثله، وأهل المعصية إلى مثله، فالتزويج أن يقرن الشيء بمثله، والمعنى: وإذا النفوس قرنت إلى أشكالها في الجنة والنار. وقيل: يضم كل رجل إلى من كان يلزمه من ملك وسلطان، كما قال تعالى: ﴿**احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ**﴾ (الصافات:٢٢) أي أشكالهم. وقال عكرمة: ﴿**وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَت**﴾ قرنت الأرواح بالأجساد، أي ردت إليها.

وقال الحسن: ألحق كل امرئ بشيعته: اليهود باليهود، والنصارى بالنصارى، والمجوس بالمجوس، وكل من كان يعبد شيئاً من دون الله يلحق بعضهم ببعض، والمنافقون بالمنافقين، والمؤمنون بالمؤمنين. وقيل: يقرن الغاوي بمن أغواه من شيطان أو إنسان، على جهة البغض والعداوة، ويقرن المطيع بمن دعاه إلى الطاعة من الأنبياء والمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ*بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ**﴾ (٨/٩) الموءودة المقتولة، وهي الجارية تدفن وهي حية، سميت بذلك لم يطرح عليها من التراب، فيؤودها أي يثقلها حتى تموت، ومنه قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾(البقرة:٢٥٥) أي لا يثقله. وكانوا يدفنون بناتهم أحياء لخصلتين، إحداهما: كانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات به. والثانية: إما مخافة الحاجة الإملاق، وإما خوفاً من السبي والاسترقاق. قال تعالى: ﴿**يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ (النحل:٥٩)، وقد كان ذوو الشرف منهم يمتنعون من هذا، ويمنعون منه.

قال ابن عباس: كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت حفرت حفرة، وتمخضت على رأسها، فإن ولدت جارية رمت بها في الحفرة، وردت التراب عليها، وإن ولدت غلاماً حبسته. قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ**﴾ أي فتحت بعد أن كانت مطوية، والمراد صحف الأعمال التي كتبت الملائكة فيها ما أهلها من خير وشر تطوى بالموت، وتنشر في يوم القيامة، فيقف كل إنسان على صحيفته، فيعلم ما فيها، فيقول: ﴿**وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً**﴾(الكهف:٤٩) قال مقاتل: إذا مات المرء طويت صحيفة عمله، فإذا كان يوم القيامة نشرت.

وعن عمر رضي الله عنه أنه كان إذا قرأها قال: إليك يساق الأمر يا بن آدم. قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ**﴾ الكشط: قلع عن شدة التزاق، فالسماء تكشط كما يكشط الجلد عن الكبش وغيره، وكشطت البعير كشطاً: نزعت جلده، ولا

يقال سلخته؛ لأن العرب لا تقول في البعير إلا كشطته أو جلدته، وانكشط: أي ذهب، فالسماء تنزع من مكانها كما ينزع الغطاء عن الشيء. وقيل: تطوى كما قال تعالى: ﴿**يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾(الأنبياء:١٠٤)، فكأن المعنى: قلعت فطويت.

قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ**﴾ أي أوقدت فأضرمت للكفار وزيد في إحمائها. يقال: سعرت النار وأسعرتها. قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ**﴾ أي دنت وقربت من المتقين. قال الحسن: إنهم يقربون منها، لا أنها تزول عن موضعها. وكان عبد الرحمن بن زيد يقول: زينت: أزلفت؟ والزلفى في كلام العرب: القربة، قال الله تعالى: ﴿**وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾(الشعراء:٩٠) وتزلف فلان تقرب. قوله تعالى: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ**﴾ قال الفراء: أجمع المفسرون على أن معنى عسعس أدبر، حكاه الجوهري.

وقال بعض أصحابنا: إنه من أوله وأظلم وكذلك السحاب إذا دنا من الأرض. قوله تعالى: ﴿**وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ**﴾ أي امتد حتى يصير نهاراً واضحاً، يقال للنهار إذا زاد: تنفس. وكذلك الموج إذا نضح الماء. ومعنى التنفس: خروج النسيم من الجوف. وقيل: إذا تنفس: أي انشق وانفلق، ومنه تنفست القوس أي تصدعت.

قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ**﴾ أي رأى جبريل في صورته، له ستمائة جناح. بالأفق المبين: أي بمطلع الشمس من قبل المشرق؛ لأن هذا الأفق إذا كان منه تطلع الشمس فهو مبين. أي جهته ترى الأشياء. وقيل: الأفق المبين: أقطار السماء ونواحيها.

*****

سـورة الانـفـطـــار

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ أي تشققت بأمر الله، لنزول الملائكة، كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً﴾(الفرقان:٢٥) وقيل: تفطرت لهيبة الله تعالى. والفطر: الشق، يقال: فطرته فانفطر، ومنه فطر ناب البعير: طلع، فهو بعير فاطر، وتفطر الشيء: شقق، وسيف فطار أي فيه شقوق.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ أي تساقطت، نثرت الشيء أنثره نثراً فانتثر، والاسم: النثار. والنثار بالضم: ما تناثر من الشيء، ودر منثر، شدد للكثرة. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي فجر بعضها في بعض، فصارت بحراً واحداً.

قال الحسن: فجرت: ذهب ماؤها ويبست، وذلك أنها أولا راكدة مجتمعة، فإذا فجرت تفرقت، فذهب ماؤها. وهذه الأشياء بين يدي الساعة. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ أي قلبت وأخرج ما فيها من أهلها أحياء، يقال: بعثرت المتاع: قلبته ظهراً لبطن، وبعثرت الحوض وبحثرته: إذا هدمته وجعلت أسفله أعلاه.

وقال قوم منهم الفراء: بعثرت: أخرجت ما في بطنها من الذهب والفضة. وذلك من أشراط الساعة: أن تخرج الأرض ذهبها وفضتها.

قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ مثل: ﴿يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ وهذا جواب: إذا السماء انفطرت؛ لأنه قسم في قول الحسن وقع على قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ يقول: إذا بدت هذه الأمور من أشراط الساعة ختمت الأعمال فعلمت كل نفس ما كسبت، فإنها لا ينفعها عمل بعد ذلك.

وقيل: أي إذا كانت هذه الأشياء قامت القيامة، فحوسبت كل نفس بما عملت، وأوتيت كتابها بيمينها أو بشمالها، فتذكرت عند قراءته جميع أعمالها. وقيل: هو خبر، وليس بقسم، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ خاطب بهذا منكري البعث. وقال ابن عباس: الإنسان هنا: الوليد بن الغيرة. وقال عكرمة: أبى بن خلف. وقيل: نزلت في أبي الأشد بن كلدة الجمحي. عن ابن عباس أيضا: ما غرك بربك الكريم، أي ما الذي غرك حتى كفرت؟ بربك الكريم، أي المتجاوز

عنك. قال قتادة: غره شيطانه المسلط عليه.

قوله تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ**﴾ أي قدر خلقك من نطفة، فسواك: في بطن أمك، وجعل لك يدين ورجلين وعينين وسائر أعضائك، فعدلك: أي جعلك معتدلاً سوي الخلق، كما يقال: هذا شيء معدل. قوله تعالى: ﴿**فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ**﴾ إن شاء صورة إنسان، وإن شاء صورة حمار، وإن شاء صورة قرد، وإن شاء في صورة خنزير.

وقال مكحول: إن شاء ذكراً، وإن شاء أنثى. قوله تعالى: ﴿**كِرَاماً كَاتِبِينَ**﴾ أي علي، كقوله: ﴿**كِرَامٍ بَرَرَةٍ**﴾(عبس:١٦) روي عن رسول الله ﷺ: ((أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين: الخراءة أو الجماع، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجرم حائط أو بعيره، أو ليستره أخوه))، وروي عن علي رضي الله عنه قال: لا يزال الملك مولياً عن العبد ما دام بادي العورة.

قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ**﴾ قيل: إن هذه الأشياء تكون يوم، أو على معنى يدانون يوم؛ لأن الدين يدل عليه، أو بإضمار اذكر.

*****

سورة المطففين

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك. قال الفراء: فهم من أوفى الناس كيلا إلى يومهم هذا. وعن ابن عباس أيضاً قال: هي أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ ساعة نزل المدينة، وكان هذا فيهم، كانوا إذا اشتروا استوفوا بكيل راجح، فإذا باعوا بخسوا المكيال والميزان، فلما نزلت هذه السورة انتهوا، فهم أوفى الناس كيلا إلى يومهم هذا. وقال قوم: نزلت في رجل يعرف بأبي جهينة، واسمه عمرو، كان له صاعان يأخذ بأحدهما، ويعطي بالآخر.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ قال الفراء: أي من الناس، يقال: أكتلت منك: أي استوفيت منك، ويقال اكتلت ما عليك: أي أخذت ما عليك. والمعنى: الذين إذا استوفوا أخذوا الزيادة، وإذا أوفوا أو وزنوا لغيرهم نقصوا، فلا يرضون للناس ما يرضون لأنفسهم. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ أي كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذفت اللام، فتعدى الفعل فنصب، ومثله نصحتك ونصحت لك، وأمرتك به وأمرتكه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنكم معاشر الأعاجم وليتم بهما هلك من كان قبلكم: المكيال والميزان. وخص الأعاجم؛ لأنهم كانوا يجمعون الكيل والوزن جميعاً، وكانا مفرقين في الحرمين، كان أهل مكة يزنون، وأهل المدينة يكيلون. قال مالك بن دينار: دخلت على جار لي قد نزل به الموت، فجعل يقول: جبلين من نار! جبلين من نار! فقلت: ما تقول؟ أتهجر؟ قال: يا أبا يحي، كان لي مكيالان، أكيل بأحدهما، وأكتال بالآخر، فقمت فجعلت أضرب أحدهما بالآخر، حتى كسرتهما، فقال: يا أبا يحي، كلما ضربت أحدهما بالآخر ازداد عظما، فمات من وجعه. قوله تعالى: ﴿أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ إنكار وتعجيب عظيم من حالهم، في الاجتراء على التطفيف، كأنهم لا يخطرون التطفيف ببالهم، ولا يخمنون تخمينا، أنهم مبعوثون: فمسؤولون عما يفعلون.

والظن هنا بمعنى اليقين، أي ألا يوقن أولئك، ولو أيقنوا ما نقصوا في الكيل والوزن. وقيل: الظن بمعنى التردد، أي إن كانوا لا يستيقنون بالبعث، فهلا ظنوه،

حتى يتدبروا ويبحثوا عنه، ويأخذوا بالأحوط.

قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ العامل في يوم فعل مضمر، دل عليه مبعوثون.

والمعنى يبعثون يوم يقوم الناس لرب العالمين. ويجوز أن يكون بدلاً من يوم في ليوم عظيم، وهو مبني. وقيل: هو في موضع خفض، لأنه أضيف إلى غير متمكن. وقيل: هو منصوب على الظرف أي في يوم، ويقال: أقم إلى يوم يخرج فلان، فتنصب يوم، فإن أضافوا إلى الاسم فحينئذ يخفضون ويقولون: أقم إلى يوم خروج فلان.

وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، التقدير: إنهم مبعوثون يوم يقوم الناس لرب العالمين ليوم عظيم، وعن عبد الملك بن مروان: أن أعرابياً قال له: قد سمعت ما قال الله تعالى في المطففين أراد بذلك أن المطففين قد توجه عليهم هذا الوعيد العظيم الذي سمعت به، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن.

وفي هذا الإنكار والتعجيب وكلمة الظن، ووصف اليوم بالعظيم، وقيام الناس فيه لله خاضعين، ووصف ذاته برب العالمين، بيان بليغ لعظم الذنب، وتفاقم الإثم في التطفيف، وفيما كان في مثل حاله من الحيف، وترك القيام بالقسط، والعمل على التسوية والعدل، في كل اخذ وإعطاء بل في كل قول وعمل.

قوله تعالى: ﴿**كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ**﴾ قال قوم من أهل العلم بالعربية: "كلا": ردع وتنبيه، أي ليس الأمر على ما هو عليه من تطفيف الكيل والميزان، أو تكذيب بالآخرة، فليرتدعوا عن ذلك. فهي كلمة ردع وزجر، ثم استأنف فقال: ﴿**إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ**﴾.

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهدة قال: سجين صخرة تحت الأرض السابعة، تقلب فيجعل كتاب الفجار تحتها. وقال كعب: تحتها أرواح الكفار تحت خذ إبليس. وعن كعب أيضاً قال: سجين صخرة سوداء تحت الأرض السابعة، مكتوب فيها اسم كل شيطان، تلقى أنفس الكفار عندها. وقال سعيد بن جبير: سجين تحت خد إبليس. وقال يحي بن سلام: حجر أسود تحت الأرض، يكتب فيه أرواح الكفار. وقال عطاء الخراساني: هي الأرض السابعة السفلى، وفيها إبليس وذريته.

قوله تعالى: ﴿**كِتَابٌ مَرْقُومٌ**﴾ أي مكتوب كالرقم في الثوب، لا ينسى ولا يمحي. وقال قتادة: مرقوم أي مكتوب، رقم لهم بشر، لا يزاد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحد. قوله تعالى: ﴿**كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ كلا: ردع وزجر، أي ليس هو أساطير الأولين.

وقال الحسن: معناها حقاً، ران على قلوبهم. وكذا قال المفسرون: هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب. قال مجاهد: هو الرجل يذنب الذنب، فيحيط الذنب بقلبه، ثم يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه، حتى تغشي الذنوب قلبه.

قوله تعالى: ﴿**كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ**﴾ أي حقاً إنهم، يعني الكفار، عن ربهم يومئذ: أي يوم القيامة، لمحجوبون. وقيل: كلا، ردع وزجر، أي ليس كما يقولون، بل إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. قال الزجاج: في هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يرى في القيامة، ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة، ولا خست منزلة الكفار بأنهم يحجبون. قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ**﴾ أي ملازموها، ومحترقون فيها غير خارجين منها: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً**﴾ (النساء:٥٦)، و: ﴿**وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً**﴾ (الإسراء:٩٧) ويقال: الجحيم الباب الرابع من النار.

قوله تعالى: ﴿**كِتَابٌ مَرْقُومٌ**﴾ وقيل: إن كتاب مرقوم، ليس تفسيراً لعليين، بل تم الكلام عند قوله: عليون، ثم ابتدأ وقال: كتاب مرقوم، أي كتاب الأبرار كتاب مرقوم، ولهذا عكس الرقم في كتاب الفجار. وروي أن الملائكة تصعد بعمل العبد فيستقلونه، ويحتقرونه. فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله من سلطانه أوحى إليهم: إنكم الحفظة على عبدي، وأنا الرقيب على ما في قلبه، وإنه أخلص لي عمله، فاجعلوه في عليين، فقد غفر له، وإنها لتصعد بعمل العبد، فيتركونه فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله أوحى إليهم: أنتم الحفظة على عبدي وأنا الرقيب على ما في قلبه، وإنه لم يخلص لي عمله، فاجعلوه في سجين.

قوله تعالى: ﴿**يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ**﴾ أي يشهد عمل الأبرار مقربو كل سماء من

الملائكة. وقال وهب وابن إسحاق: المقربون هنا إسرافيل عليه السلام، فإذا عمل المؤمن عمل البر، صعدت الملائكة بالصحيفة وله نور يتلألأ في السماوات كنور الشمس في الأرض، حتى ينتهي بها إلى إسرافيل، فيختم عليها ويكتب فهو قوله: يشهده المقربون، أي يشهد كتابتهم.

قوله تعالى: ﴿**تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ**﴾ أي بهجته وغضارته ونوره، يقال: نضر النبات: إذا أزهر ونور. قوله تعالى: ﴿**يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ**﴾ أي من شراب لا غش فيه. وقيل: الرحيق الخمر الصافية.

قوله تعالى: ﴿**وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ**﴾ أي ومزاج ذلك الرحيق، من تسنيم، وهو شراب ينصب عليهم من علو، وهو أشرف شراب في الجنة. وأصل التسنيم في اللغة: الارتفاع، فهي عين ماء تجري من علو إلى أسفل، ومنه سنام البعير لعلوه من بدنه، وكذلك تسنيم القبور. قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ**﴾ عند إتيانهم رسول الله ﷺ يتغامزون: يغمز بعضهم بعضاً، ويشيرون بأعينهم. وقيل: أي يعيرونهم بالإسلام ويعيبونهم به.

*****

سـورة الانشقــاق

قـول الله تعـالى: ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انْشَـقَّتْ**﴾ أي انصـدعت، وتفطـرت بالغمـام، والغمام مثل السحاب الأبيض. وروى عن علي عليه السلام قال: تشق من المجرة. وقال: المجرة باب السماء، وهذا من أشراط الساعة وعلاماتها.

قوله تعالى: ﴿**وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ**﴾ أي سمعت، وحق لها أن تسمع. وقيل: المعنـى وحقـق الله عليهـا الاسـتماع لأمـره بالانشـقاق. وقـال الضـحاك: حقـت: أطاعت، وحق لها أن تطيع ربها؛ لأنه خلقها، يقال: فلان محقوق بكذا. وطاعة السماء: بمعنى أنها لا تمتنع مما أراد الله بها، ولا يبعد خلق الحياة فيها حتى تطيع وتجيب. وقال قتادة: حق لها أن تفعل ذلك.

قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ**﴾ أي بسطت ودكت جبالها، قال ابن عباس وابن مسعود: ويزاد، وسعتها كذا وكذا، لوقوف الخلائق عليها للحساب حتى لا يكون لأحد من البشر إلا موضع قدمه، لكثرة الخلائق فيها.

قوله تعالى: ﴿**وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ**﴾ أي أخرجت أمواتها، وتخلت عنهم، وقال ابن جبير: ألقت ما في بطنها من الموتى، وتخلت ممن على ظهرها من الأحياء. وقيل: ألقت ما في بطنها من كنوزها ومعادنها، وتخلت منها. أي خلا جوفها، فليس في بطنها شيء، وذلك يؤذن بعظم الأمر، كما تلقي الحامل ما في بطنها عند الشدة. وقيل: تخلت مما على ظهرها من جبالها وبحارها. وقيل: ألقت ما استودعت، وتخلت مما استحفظت؛ لأن الله تعالى استودعها عباده أحياء وأمواتاً، وستحفظها بلاده مزارعة وأقواتاً. قوله تعالى: ﴿**وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ**﴾ أي في إلقاء موتاها، وحقت: أي وحق لها أن تسمع أمره. قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ**﴾ وهو المؤمن، فسوف يحاسب حسابا يسيرا، لا مناقشة فيه.

قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ**﴾ نزلت في الأسود بن عبد الأسد أخي أبي سلمة، قاله ابن عباس. ثم هي عامة في كل مؤمن وكافر. قال ابن عباس: يمد يده اليمنى ليأخذ كتابه فيجذبه ملك، فيخلع يمينه، فيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره. وقال قتادة ومقاتل: يفك ألواح صدره وعظامه ثم تدخل يده وتخرج من ظهره، فيأخذ كتابه كذلك.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّـهُ كَـانَ فِـي أَهْلِـهِ مَسْرُوراً**﴾ قال ابن زيد: وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء والشفقة في الدنيا، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، وقرأ قول الله تعالى: ﴿**قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَـا عَـذَابَ السَّمُومِ**﴾(الطور:٢٦-٢٧) قال: ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحك فيها والتفكه. فقال: إنه كان في أهله مسرورا.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ**﴾ أي لن يرجع حياً مبعوثاً فيحاسب، ثم يثاب أو يعاقب. يقال: حار يحور إذا رجع. وقال ابن عباس: ما كنت أدري: ما يحور؟ حتى سمعت أعرابية تدعو بنية لها: حوري، أي ارجعي إلي، فالحور في كلام العرب الرجوع، ومنه قوله عليه السلام: ((اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور))، يعني: من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة، وكذلك الحور بالضم.

قول الله تعالى: ﴿**فَـلا أُقْسِـمُ بِالشَّـفَقِ**﴾ أي فأقسم ولا صلة. بالشفق: أي بالحمرة التي تكون عند مغيب الشمس حتى تأتي صلاة العشاء الآخرة. قال أشهب وعبد الله بن الحكم ويحي بن يحي وغيرهم، كثير عددهم، عن مالك: الشفق الحمرة التي في المغرب، فإذا ذهبت الحمرة فقد خرجت من وقت المغرب ووجبت صلاة العشاء. وروى ابن وهب قال: أخبرني غير واحد عن علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وشداد بن أوس وأبي هريرة: أن الشفق الحمرة، وبه قال مالك بن أنس. وذكر غير ابن وهب من الصحابة: عمر وابن عمر وابن مسعود وابن عباس وأنساً وأبا قتادة وجابر بن عبد الله وابن الزبير، من التابعين: سعيد بن جبير، وابن المسيب وطاووس، وعبد الله بن دينار، والزهري، وقال به من الفقهاء الأوزاعي ومالك والشافعي وأبو يوسف وأبو ثور وأبو عبيد وأحمد وإسحاق. وقيل: هو البياض. قوله تعالى: ﴿**وَاللَّيْلِ وَمَـا وَسَقَ**﴾ أي جمع وضم ولف، أصله من سورة السلطان وغضبه، فلولا أنه خرج إلى العباد من باب الرحمة ما تمالك العباد لمجيئه، ولكن خرج من باب الرحمة فمزح بها، فسكن الخلق إليه ثم أذعروا والتقوا وانقبضوا، ورجع كل إلى مأواه فسكن فيه من هوله وحشا، وهو قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ (القصص:٧٣) أي بالليل.

قولـه تعـالى: ﴿**وَالْقَمَـرِ إِذَا اتَّسَـقَ**﴾ أي تـم واجتمـع واسـتوى. قـال الحسـن: اتسق: أي امتلأ واجتمع. قال ابن عباس: استوى. وقال قتادة: استدار. وقال

الفراء: اتساقه: امتلاؤه واستواؤه ليالي البدر، وهو افتعال من الوسق الذي هو الجمع، يقال: وسقته فاتسق، كما يقال: وصلته فاتصل، ويقال: أمر فلان متسق: أي مجتمع على الصلاح منتظم. ويقال: اتسق الشيء: إذا تتابع.

قوله تعالى: ﴿**لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ**﴾ أي لتركبن يا محمد حالاً بعد حال، قاله ابن عباس. قال الشعبي: لتركبن يا محمد سماء بعد سماء، ودرجة بعد درجة، ورتبة بعد رتبة، في القربة من الله تعالى. قال ابن مسعود: لتركبن السماء حالاً بعد حال، يعني حالاتها التي وصفها الله تعالى بها من الانشقاق والطي وكونها مرة كالمهل ومرة كالدهاء.

قوله تعالى: ﴿**فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**﴾ يعني أي شيء يمنعهم من الإيمان بعد ما وضحت لهم الآيات وقامت الدلالات. وهذا استفهام إنكار، وقيل: تعجب أي اعجبوا منهم في ترك الإيمان مع هذه الآيات.

قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ**﴾ أي لا يصلون. وفي الصحيح إن أبا هريرة قرأ: إذا السماء انشقت، فسجد فيها، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها. وقد قال مالك: إنها ليست من عزائم السجود؛ لأن المعنى لا يذعنون ولا يطيعون في العمل بواجباته.

قال ابن العربي: والصحيح أنها منه، وهي رواية المدنيين عنه، وقد اعتضد فيها القرآن والسنة. قال ابن العربي: لما أممت بالناس تركت قراءتها، لأني إن سجدت أنكروه، وإن تركتها كان تقصيراً مني، فاجتنبتها إلا إذا صليت وحدي، وهذا تحقيق وعد الصادق بأن يكون المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، ولقد كان شيخنا أبو بكر الفهري يرفع يديه عند الركوع، وعند الرفع منه، وهو مذهب مالك والشافعي ويفعله الشيعة، فحضر عندي يوماً في محرس ابن الشواء بالثغر، موضع تدريسي عند صلاة الظهر، ودخل المسجد من المحرس المذكور، فتقدم إلى الصف وأنا في مؤخرة قاعداً على طاقات البحر، أتنسم الريح من شدة الحر، ومعي في صف واحد أبو ثمنة رئيس البحر وقائده، مع نفر من أصحابه ينتظر الصلاة، ويتطلع على مراكب تحت الميناء فلما رفع الشيخ يديه في الركوع وفي رفع الرأس منه.

قال أبو ثمنة وأصحابه: ألا ترون إلى هذا المشرقي كيف دخل مسجدنا؟ فقوموا إليه فاقتلوه وارموا به إلى البحر، فلا يراكم أحد. فطار قلبي من بين

جوانحي، قلت: سبحان الله هذا الطرطوشي فقيه الوقت. فقالوا لي: ولم يرفع يديه؟ فقلت: كذلك كان النبي ﷺ يفعل، وهذا مذهب مالك، في رواية أهل المدينة عنه وجعلت أسكنهم وأسكتهم حتى فرغ من صلاته، وقمت معه إلى المسكن من المحرس، ورأى تغير وجهي، فأنكره، وسألني فأعلمته، فضحك وقال: ومن أين لي أن أقتل على سنة؟ فقلت له: ولا يحل لك هذا، فإنك بين قوم إن قمت بها قاموا عليك وربما ذهب دمك. فقال: دع هذا الكلام، وخذ في غيره.

*****

سـورة البــــروج

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ قسم أقسم الله به جل وعز. وهي اثنا عشر برجاً، وهي منازل الكواكب والشمس والقمر. يسير القمر في كل برج منها يومين وثلث يوم، فذلك ثمانية وعشرون يوما، ثم يستسر ليلتين، وتسير الشمس في كل برج منها شهراً. وهي: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، والبروج في كلام العرب: القصور، قال الله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾ (النساء:٧٨)، وقوله تعالى: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ أي الموعود به. وهو قسم آخر، وهو يوم القيامة، من غير اختلاف بين أهل التأويل. قال ابن عباس: وعد أهل السماء وأهل الأرض أن يجتمعوا فيه.

قول الله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ اختلف فيهما، فقال علي وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة رضي الله عنهم: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة. قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ أي لعن. قال ابن عباس: كل شيء في القرآن قتل: فهو لعن. وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي قتل أصحاب الأخدود والسماء ذات البروج.

قوله تعالى: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ أي الذين خددوا الأخاديد وقعدوا عليها يلقون فيها المؤمنين، وكانوا بنجران في الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ. عن صهيب: أن رسول الله ﷺ قال: كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إلي غلاماً أعلمه السحر، فبعث إليه غلاماً يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك، راهب، فقعد إليه وسمع كلامه، فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي. وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر.

فبينما هو كذلك إذا أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم اعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها

ومضى الناس. فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وأنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علي. وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء. فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتني. فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله. فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربي.

قال: ولك رب غيري؟! قال: ربي وربك الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام فقال له الملك: أي بني! أقد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل؟! قال: أنا لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه. ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه.

ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته رجع عن دينه وإلا فاطرحوه فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال اللهم أكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل، فسقطوا.

وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللهم اكفينهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا. وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به.

قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه، في موضع السهم،

فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام! آمنا برب الغلام! آمنا برب الغلام! فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود فيها- أو قيل له اقتحم- ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمة اصبري فإنك على الحق.

قوله تعالى: ﴿**وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ**﴾ أي حضور: يعني الكفار، كانوا يعرضون الكفر على المؤمنين، فمن أبي ألقوه في النار وفي ذلك وصفهم بالقسوة ثم بالجد في ذلك. قوله تعالى: ﴿**وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾ أي ما نقم الملك وأصحابه من الذين حرقهم: إلا أن يؤمنوا: أي إلا أن يصدقوا: بالله العزيز: أي الغالب المنيع: الحميد: أي المحمود في كل حال.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ**﴾ أي حرقوهم بالنار. والعرب تقول: فتن فلان الدرهم والدينار، إذا أدخله الكور، لينظر جودته. ودينار مفتون. ويسمى الصائغ الفتان، وكذلك الشيطان، وورق فتين، أي فضة محترقة. ويقال للحرة فتين، أي كأنها أحرقت حجارتها بالنار، وذلك لسوادها. ثم لم يتوبوا: أي من قبيح صنيعهم مع ما أظهره الله لهذا الملك الجبار الظالم وقومه من الآيات والبينات على يد الغلام. قوله تعالى: ﴿**إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ**﴾ أي أخذه الجبابرة والظلمة، كقوله جل ثناؤه: ﴿**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾(هود:١٠٢) المعنى: والسماء ذات البروج إن بطش ربك، وما بينهما معترض مؤكد للقسم.

قوله تعالى: ﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ**﴾ أي قد أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم، يؤنسه بذلك ويسليه. قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ**﴾ أي يقدر على أن ينزل بهم ما أنزل بفرعون. والمحاط به كالمحصور. وقيل: أي والله عالم بهم فهو يجازيهم. قوله تعالى: ﴿**بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ**﴾ أي متناه في الشرف والكرم والبركة، وهو بيان ما بالناس الحاجة إليه من أحكام الدين والدنيا، لا كما زعم المشركون، وقيل: مجيد: أي غير مخلوق. قوله تعالى: ﴿**فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ**﴾ أي مكتوب في لوح. وهو محفوظ عند الله تعالى من وصول الشياطين إليه. وقيل: هو أم الكتاب، ومنه انتسخ القرآن والكتب.

*****

سورة الطارق

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ قسمان: السماء قسم، والطارق قسم، والطارق: النجم. وقد بينه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ* النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ (٣/٢) واختلف فيه، فقيل: هو زحل: الكوكب الذي في السماء السابعة، النجم الثاقب: نجم في السماء السابعة، لا يسكنها غيره من النجوم، فإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء، هبط فكان معها، ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة، وهو زحل، فهو طارق حين ينزل، وطارق حين يصعد.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ قال قتادة: حفظة يحفظون عليك رزقك وعملك وأجلك. وعنه أيضاً قال: قرينه يحفظ عليه عمله، من خير أو شر. وهذا هو جواب القسم. وقيل: المعنى إن كل نفس إلا عليها حافظ: يحفظها من الآفات، حتى يسلمها إلى القدر.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ أي ابن آدم مم خلق؟ وجه الاتصال بما قبله توصية الإنسان بالنظر في أول أمره وسنته الأولى، حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء، ولا يملي على حافظة إلا ما يسره في عاقبة أمره. و: مما خلق؟ استفهام، أي من أي شيء خلق؟ ثم قال: ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ وهو جواب الاستفهام، من ماء دافق: أي من المني.

والدفق: صب الماء، دفقت الماء أدفقه دفقاً: صببته، فهو ماء دافق، أي مدفوق، كما قالوا: سر كاتم: أي مكتوم؛ لأنه من قولك: دفق الماء، على ما لم يسم فاعله. ولا يقال: دفق الماء. ويقال دفق الله روحه، إذا دعي عليه بالموت.

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ أي هذا الماء: من بين الصلب، أي الظهر. وفيه لغات أربع: صلب، وصلب. وقرئ بهما. وصلب (بفتح اللام)، وصالب (على وزن قالب)، ومنه قول العباس: تنقل من صالب إلى رحم، والترائب: أي الصدر، الواحدة: تريبة، وهي موضع القلادة من الصدر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ أي إن الله جل ثناؤه، على رجعه: أي على رد الماء في الأحليل. وعنهما أيضاً أن المعنى: إنه على رد الماء في

الصلب، وعن الضحاك أيضاً أن المعنى: إنه على رد الإنسان ماء كما كان لقادر. وعنه أيضاً أن المعنى: إنه على رد الإنسان من الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الكبر، لقادر.

قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ**﴾ قال الماوردي: ويحتمل أنه على أن يعيده إلى الدنيا بعد بعثه في الآخرة؛ لأن الكفار يسألون الله تعالى فيها الرجعة. قوله تعالى: ﴿**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ**﴾ أي ذات المطر. ترجع كل سنة بمطر بعد مطر. وقال أهل اللغة: الرجع: المطر.

قوله تعالى: ﴿**وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ**﴾ قسم آخر، أي تتصدع عن النبات والشجر والثمار والأنهار، نظيره: ﴿**ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً**﴾(عبس:٢٦) والصدع: بمعنى الشق؛ لأنه يصدع الأرض، فتنصدع به. وكأنه قال: والأرض ذات النبات؛ لأن النبات صادع للأرض. وقال مجاهد: والأرض ذات الطرق التي تصدعها المشاة. وقيل: ذات الحرث؛ لأنه يصدعها. وقيل: ذات الأموات: لا بصداعها عنهم للنشور.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ**﴾ على هذا وقع القسم. أي إن القرآن يفصل بين الحق والباطل. وقيل: المراد بالقول الفصل: ما تقدم من الوعيد في هذه السورة، من قول الله تعالى: ﴿**إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ**﴾(الطارق:٩)، قوله تعالى: ﴿**وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ**﴾ أي ليس القرآن بالباطل واللعب. والهزل: ضد الجد، وقد هزل يهزل. قوله تعالى: ﴿**وَأَكِيدُ كَيْداً**﴾ أي أجازيهم جزاء كيدهم. وقيل: هو ما أوقع الله بهم يوم بدر من القتل والأسر. وقيل: كيد الله: استدراجهم من حيث لا يعلمون. قوله تعالى: ﴿**فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً**﴾ أي أخرهم، ولا تسأل الله تعجيل إهلاكهم، وارض بما يدبره في أمورهم. ثم نسخت بآية السيف: ﴿**فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ (التوبة:٥) أمهلهم: تأكيد. ومهل وأمهل: بمعنى، مثل نزل وأنزل، وأمهله: أنظره، ومهله تمهيلاً، والاسم: المهلة. والاستمهال: الاستنظار، وتمهل في أمره أي اتأد. واتمهل اتمهلالا: أي اعتدل وانتصب.

*****

سورة الأعلى

قوله تعالى: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى**﴾ أن يقول عقبه: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى**﴾ قاله النبي ﷺ، وقاله جماعة من الصحابة والتابعين. روى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده، قال: إن له تعالى ملكاً يقال له حزقيائيل، له ثمانية عشر ألف جناح، ما بين الجناح إلى الجناح مسيرة خمسمائة عام، فخطر له خاطر: هل تقدر أن تبصر العرش جميعه؟ فزاده الله أجنحة مثلها، فكان له ستة وثلاثون ألف جناح، ما بين الجناح إلى الجناح خمسمائة عام.

ثم أوحى الله إليه: أيها الملك، أن طر، فطار مقدار عشرين ألف سنة، فلم يبلغ رأس قائمة من قوائم العرش. ثم ضاعف الله له في الأجنحة والقوة، وأمره أن يطير، فطار مقدار ثلاثين ألف سنة أخرى، فلم يصل أيضاً، فأوحى الله إليه، أيها الملك، لو طرت إلى نفخ الصور مع أجنحتك وقوتك لم تبلغ ساق عرشي.

فقال الملك: سبحان ربي الأعلى، فأنزل الله تعالى: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى**﴾، فقال النبي ﷺ: ((اجعلوها في سجودكم)) قال ابن عباس: معنى سبح اسم ربك الأعلى: أي عظم ربك الأعلى. والاسم صلة قصد بها تعظيم المسمى. وقيل: نزه تسمية ربك وذكرك إياه، أن تذكره إلا وأنت خاشع معظم، ولذكره محترم. وجعلوا الاسم بمعنى التسمية، والأولى أن يكون الاسم هو المسمى.

عن عيسى بن عمر، عن أبيه، قال: قرأ علي بن أبي طالب عليه السلام في الصلاة: ((سبح اسم ربك الأعلى)) ثم قال: سبحان ربي الأعلى، فلما انقضت الصلاة قيل له: يا أمير المؤمنين، أتزيد هذا في القرآن؟ قال: ما هو؟ قالوا: سبحان ربي الأعلى. قال: لا، إنما أمرنا بشيء فقلته، وعن عقبة بن عامر الجهني، قال: لما نزلت: سبح اسم ربك الأعلى، قال رسول الله ﷺ: ((اجعلوها في سجودكم)). وهذا كله يدل على أن الاسم هو المسمى؛ لأنهم لم يقولوا: سبحان اسم ربي الأعلى.

قوله تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى**﴾ أي سوى ما خلق، فلم يكن في خلقه تثبيج. وقال الزجاج: أي عدل قامته. وعن ابن عباس: حسن ما خلق. وقال الضحاك: خلق آدم فسوى خلقه. وقيل: خلق في أصلاب الآباء، وسوى في أرحام الأمهات. وقيل: خلق الأجساد، فسوى الإفهام. وقيل: أي خلق الإنسان وهيأه للتكليف.

قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى**﴾ أي قدر ووفق لكل شكل شكله. فهدى:

أي أرشد. قال مجاهد: قدر الشقاوة والسعادة، وهدى للرشد والضلالة. وعنه قال: هدى الإنسان للسعادة والشقاوة، وهدى الأنعام لمراعيها. وقيل: قدر أقواتهم وأرزاقهم، وهداهم لمعاشهم إن كانوا إنسا، ولمراعيهم إن كانوا وحشاً.

قال عطاء: جعل لكل دابة ما يصلحها، وهداها له. وقيل: خلق المنافع في الأشياء، وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها؟ وقيل: قدر فهدى: قدر لكل حيوان ما يصلحه، فهداه إليه، وعرفه وجه الانتفاع به.

قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى**﴾ أي النبات والكلأ الأخضر. قوله تعالى: ﴿**فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى**﴾ الغثاء: ما يقذف به السيل على جوانب الوادي من الحشيش والنبات والقماش، قال قتادة: الغثاء: الشيء اليابس. ويقال للبقل والحشيش إذا تحطم ويبس: غثاء وهشيم، قوله تعالى: ﴿**سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى**﴾ أي القرآن يا محمد فنعلمكه، فلا تنسى: أي فتحفظ. قال مجاهد والكلبي: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي، لم يفرغ جبريل من آخر الآية، حتى يتكلم النبي ﷺ بأولها، مخافة أن ينساها، فنزلت: ﴿**سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى**﴾ بعد ذلك شيئاً، فقد كفيتكه.

قوله تعالى: ﴿**سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى**﴾ أي من يتق الله ويخافه. عن ابن عباس قال نزلت في ابن أم مكتوم، قال الماوردي: قد يذكر من يرجوه، لا أن تذكرة الخاشي أبلغ من تذكرة الراجي، فلذلك علقها بالخشية دون الرجاء، وإن تعلقت بالخشية والرجاء. وقيل: أي عمم أنت التذكير والوعظ، وإن كان الوعظ إنما ينفع من يخشى، ولكن يحصل لك ثواب الدعاء.

قوله تعالى: ﴿**وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**﴾ أي ذكر ربه. وروى عطاء عن ابن عباس قال: يريد ذكر ميعاده وموقفه بين يدي الله جل ثناؤه، فعبده وصلى له، وقيل: ذكر اسم ربه بالتكبير في أول الصلاة؛ لأنها لا تنعقد إلا بذكره، وهو قول: الله أكبر: وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح، وعلى أنها ليست من الصلاة؛ لأن الصلاة معطوفة عليها.

قوله تعالى: ﴿**صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى**﴾ يعني الكتب المنزلة عليهما. ولم يرد أن هذه الألفاظ بعينها في تلك الصحف، وإنما هو على المعنى، أي إن معنى هذا الكلام وراد في تلك الصحف.

*****

سورة الغاشية

قوله تعالى: ﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ**﴾ (هل) بمعنى قد، كقوله: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً**﴾ (الإنسان:١)، أي قد جاءك يا محمد حديث الغاشية، أي القيامة التي تغشى الخلائق بأهوالها وأفزاعها، وقال سعيد بن جبير ومحمد بن كعب: الغاشية: النار تغشى وجوه الكفار. وقيل: المراد النفخة الثانية للبعث؛ لأنها تغشى الخلائق. وقيل: الغاشية: أهل النار يغشونها، ويقتحمون فيها. وقيل: معنى هل أتاك: أي هذا لم يكن من علمك، ولا من علم قومك. قوله تعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ**﴾ أي يوم القيامة. خاشعة: قال سفيان: أي ذليلة بالعذاب، وكل متضائل ساكن خاشع. يقال: خشع في صلاته: إذا تذلل ونكس رأسه. وخشع الصوت: خفي.

قال الله تعالى: ﴿**يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً**﴾ (طه:١٠٨)، والمراد بالوجوه أصحاب الوجوه. وقال قتادة وأبن زيد: خاشعة: أي في النار. والمراد وجوه الكفار كلهم. وقيل: أراد وجوه اليهود والنصارى.

قوله تعالى: ﴿**عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ**﴾ فهذا في الدنيا؛ لأن الآخرة ليست دار عمل، فالمعنى: وجوه عاملة ناصبة في الدنيا، خاشعة في الآخرة. قال أهل اللغة: يقال للرجل إذا دأب في سيره: قد عمل يعمل عملاً. ويقال للسحاب إذا دام برقة: قد عمل يعمل عملا، وذا سحاب عمل. وقال سعيد عن قتادة: عاملة ناصبة، قال: تكبرت في الدنيا عن طاعة الله عز وجل، فأعملها الله وأنصبها في النار، بجر السلاسل الثقال، وحمل الأغلال، والوقوف حفاة عراة في العرصات، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

قال الحسن: لم تعمل لله في الدنيا، ولم تنصب له، فأعملها وأنصبها في جهنم. وقال الكلبي: يجرون على وجوهم في النار. وعنه وعن غيره: يكلفون ارتقاء جبل من حديد في جهنم، فينصبون فيها أشد ما يكون من النصب، بمعالجه السلاسل والأغلال والخوض في النار، كما تخوض الإبل في الوحل، وارتقائها في صعود من نار، وهبوطها في حدور منها، إلى غير ذلك من عذابها.

قوله تعالى: ﴿**تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً**﴾ أي يصيبها صلاؤها وحرها. حامية:

شديدة الحر، أي قد أوقدت وأحميت المدة الطويلة. ومنه حمي النار بالكسر، وحمي التنور حمياً فيهما، أي اشتد حره. قال الماوردي: فإن قيل فما معنى وصفها بالإحماء وهي لا تكون إلا حامية، وهو أقل أحوالها، فما وجه المبالغة بهذه الصفة الناقصة؟ قيل: قد اختلف في المراد بالحامية هاهنا على أربعة أوجه: أحدها: أن المراد بذلك أنها دائمة الحمى، ليست كنار الدنيا التي ينقطع حميها بانطفائها. الثاني: أن المارد بذلك أنها دائمة الحمى، ليست كنار الدنيا التي ينقطع حميها بانطفائها.

الثالث: أن المراد بالحامية أنها حمى من ارتكاب المحظورات، وانتهاك المحارم، كما قال النبي ﷺ: ((إن لكل ملك حمى، وإن حمى الله محارمه. ومن يرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه))، الثالث: أنها تحمي نفسها عن أن تطاق ملامستها، أو ترام مماستها، كما يحمي الأسد عرينه. ولم يرد حمى جرم وذات، كما يقال: قد حمي فلان: إذا اغتاظ وغضب عند إرادة الانتقام.

قوله تعالى: ﴿**تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ**﴾ الآني: الذي قد انتهى حره، من الإيناء، بمعنى التأخير. ومنه: آنيت وآذيت: وآناه إيناء، أي أخره وحبسه وأبطأه. قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ**﴾ أي لأهل النار. طعام إلا من ضريع: لما ذكر شرابهم ذكر طعامهم. قال عكرمة ومجاهد: الضريع: نبت ذو شوك لاصق بالأرض، تسمية قريش الشبرق إذا كان رطبا، فإذا يبس فهو الضريع: لا تقربه دابة ولا بهيمة ولا ترعاه، وهو سم قاتل، وهو أخبث الطعام وأشنعه، على هذا عامة المفسرين.

قوله تعالى: ﴿**لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ**﴾ يعني الضريع لا يسمن آكله. وكيف يسمن من يأكل الشوك! قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية قال المشركون: إن إبلنا لتسمن بالضريع، فنزلت: ﴿**لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ**﴾، قوله تعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ**﴾ أي ذات نعمة، وهي وجوه المؤمنين، نعمت بما عاينت من عاقبة أمرها وعملها الصالح.

قوله تعالى: ﴿**لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ**﴾ أي لعملها الذي عملته في الدنيا. راضية: في الآخرة حين أعطيت الجنة بعملها. ومجازة: لثواب سعيها راضية. وفيها واو مضمرة. المعنى: ووجوه يومئذ، للفصل بينها وبين الوجوه المتقدمة. والوجوه عبارة

عن الأنفس. قوله تعالى: ﴿**فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ**﴾ أي مرتفعة؛ لأنها فوق السماوات حسب ما تقدم. وقيل: عالية القدر؛ لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. وهم فيها خالدون.

*****

سورة الفجر

قول الله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ أقسم بالفجر ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ (٢/٤)، واختلف في الفجر، فقال قوم: الفجر هنا: انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم. وعن ابن عباس أيضاً أنه النهار كله، وعبر عنه بالفجر لأنه أوله. وقال ابن عباس: يعني فجر يوم المحرم. قال قتادة: هو فجر أول يوم من المحرم. منه تتفجر السنة. وعنه أيضا: صلاة الصبح.

وعن ابن عباس قال: الفجر: يريد صبيحة يوم النحر؛ لأن الله تعالى جل ثناؤه جعل لكل يوم ليلة قبلة، إلا يوم النحر لم يجعل له ليلة قبلة ولا ليلة بعده؛ لأن يوم عرفة له ليلتان: ليلة قبله وليلة بعده، فمن أدرك الموقف ليلة بعد عرفة، فقد أدرك الحج طلوع الفجر، فجر يوم النحر. وليال عشر: أي ليال عشر من ذي الحجة، وكذا قال مجاهد في قوله: وليال عشر: هو عشر ذي الحجة. وقال مسروق: هي العشر التي ذكرها الله في قصة موسى عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف:١٤٢) وهي أفضل أيام السنة. قوله تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ الشفع: الاثنان، والوتر: الفرد.

واختلف في ذلك، فروي مرفوعاً عن عمران بن الحصين عن النبي ﷺ أنه قال: ((والشفع والوتر: الصلاة، منها شفع، ومنها وتر))، وقيل: الشفع: درجات الجنة، وهي ثمان. والوتر، دركات النار؛ لأنها سبعة. وهذا قول الحسين بن الفضل، كأنه أقسم بالجنة والنار. وقيل: الشفع: الصفا والمروة، والوتر: الكعبة.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ هذا قسم خامس. وبعد ما أقسم بالليالي العشر على الخصوص، أقسم بالليل على العموم. ومعنى: يسري: أي يسر فيه، كما يقال: ليل نائم، ونهار صائم. قال:

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت وما ليل المطي بنائم

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ

وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(سبأ:٣٣)، قال أكثر المفسرين: معنى (يسرى): سار فذهب.

وقال قتادة وأبو العالية: جاء وأقبل. وروي عن إبراهيم: (والليل إذا يسر)، قال: إذا استوى. ومعنى: لذي حجر: أي لذي لب وعقل. قال الفراء: الكل يرجع إلى معنى واحد: لذي حجر، ولذي عقل، ولذي حلم، ولذي ستر، الكل بمعنى العقل. وأصل الحجر: المنع. يقال لمن ملك نفسه ومنعها: إنه لذو حجر، ومنه سمي الحجر، لامتناعه بصلابته، ومنه حجر الحاكم على فلان، أي منعه وضبطه عن التصرف، ولذلك سميت الحجرة حجرة، لامتناع ما فيها بها.

قول الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ**﴾ أي مالكك وخالقك. وإرم اسم القبيلة، وجعله بدلاً منه، أو عطف بيان. ومن قرأه بالإضافة ولم يصرفه جعله اسم أمهم، أو اسم بلدتهم. وتقديره: بعاد أهل إرم. كقوله: ﴿**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**﴾(يوسف:٨٢) ولم تنصرف قبيلة كانت أو أرضاً، للتعريف والتأنيث.

قول الله تعالى: ﴿**إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ**﴾ الإرم: قيل: هو سام بن نوح، قال ابن إسحاق: كان سام بن نوح له أولاد، منهم إرم بن سام، وأرفخشد بن سام. فمن ولد إرم بن سام العمالقة والفراعنة والجبابرة والملوك الطغاة والعصاة. وزعم قتادة: أن طول الرجل منهم اثنا عشر ذراعا. قال أبو عبيدة: ذات العماد: ذات الطول. يقال: رجل معمد إذا كان طويلاً. وعن قتادة أيضا: كانوا عماداً لقومهم، يقال: فلان عميد القوم وعمودهم: أي سيدهم. وعنه أيضا: قيل لهم ذلك، لأنهم كانوا ينتقلون بأبياتهم للانتجاع، وكانوا أهل خيام وأعمدة، ينتجعون الغيوث، ويطلبون الكل ثم يرجعون إلى منازلهم. وقيل: ذات العماد: أي ذات الأبنية المرفوعة على العمد. وكانوا ينصبون الأعمدة، فيبنون عليها القصور.

قول الله تعالى: ﴿**الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ**﴾ الضمير في (مثلها) يرجع إلى القبيلة. أي لم يخلق مثل القبيلة في البلاد: قوة وشدة، وعظم أجساد، وطول قامة. واختار ابن العربي أنها دمشق؛ لأنه ليس في البلاد مثلها. ثم أخذ ينعتها بكثرة مياهه وخيراتها. ثم قال: وإن الإسكندرية لعجائب، لو لم يكن إلا المنارة، فإنها مبنية الظاهر والباطن على العمد، ولكن لها أمثال، فأما دمشق فلا مثل لها.

قوله تعالى: ﴿**وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ**﴾ ثمود: هم قوم صالح. و"جابوا": قطعوا. ومنه: فلان يجوب البلاد، أي يقطعها. وإنما سمي جيب القميص لأنه جيب، أي قطع.

قوله تعالى: ﴿**فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ**﴾ أي أفرغ عليهم وألقى، يقال: صب على فلان خلعة، أي ألقاها عليه. قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**﴾ أي يرصد عمل كل إنسان حتى يجازيه به. وقيل: أي على طريق العباد لا يفوته أحد. والمرصد والمرصاد: الطريق عن ابن عباس قال: إن على جهنم سبع قناطر، يسأل الإنسان عند أول قنطرة عن الإيمان، فإن جاء به تاماً جاز إلى القنطرة الثانية، ثم يسأل عن الصلاة، فإن جاء بها جاز إلى الثالثة، ثم يسأل عن الزكاة، فإن جاء بها جاز إلى الرابعة ثم يسأل عن صيام شهر رمضان، فإن جاء به جاز إلى الخامسة. ثم يسأل عن الحج والعمرة، فإن جاء بهما جاز إلى السادسة. ثم يسأل عن صلة الرحم، فإن جاء بها جاز للناس منه، ويقتص له من الناس، فذلك قوله عز وجل: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**﴾ وقال الثوري: بالمرصاد: يعني جهنم عليها ثلاث قناطر: قنطرة فيها الرحم، وقنطرة يسمع ويرى: قلت: هذا قول حسن، (يسمع) أقوالهم ونجواهم، (ويرى) أي يعلم أعمالهم وأسرارهم، فيجازي كلا بعمله. وعن بعض العرب أنه قيل له: أين ربك؟ فقال: بالمرصاد. قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ**﴾ يعني الكافر. قال ابن عباس: يريد عتبة بن ربيعة وأبا حذيفة بن المغيرة. وقيل: أمية بن خلف. وقيل: أبي بن خلف. قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ**﴾ أي امتحنه بالفقر واختبره. فقدر: أي ضيق عليه رزقه، على مقدار البلاغة. فيقول ربي أهانن: أي أولاني هوانا.

وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث. وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ في الدنيا وقلته. فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقه، المؤدي إلى حظ الآخرة، وإن وسع عليه في الدنيا حمده وشكره.

قوله تعالى: ﴿**وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً**﴾ أي كثيراً، حلاله وحرامه. والجم الكثير. يقال: جم الشيء يجم جموماً، فهو جم وجام. ومنه جم الماء في الحوض: إذا اجتمع وكثر، قوله تعالى: ﴿**كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً**﴾ كلا: أي ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر. فهو رد لانكبابهم على الدنيا، وجمعهم لها، فإن من فعل

ذلك يندم يوم تدك الأرض، ولا ينفع الندم. والدك: الكسر والدق. أي زلزلت الأرض، وحركت تحريكاً بعد تحريك.

قوله تعالى: ﴿**وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى**﴾ قال ابن مسعود ومقاتل تقاد جهنم بسبعين ألف زمام، كل زمام بيد سبعين ألف ملك، لها تغيظ وزفير، حتى تنصب عن يسار العرش. عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (يؤتى بجهنم يومئذ، لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، يجرونها)).

قوله تعالى: ﴿**يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي**﴾ أي في حياتي. فاللام بمعنى في، وقيل: أي قدمت عملاً صالحاً لحياتي، أي لحياة لا موت فيها، وقيل: حياة أهل النار ليست هنيئة، فكأنهم لا حياة لهم فالمعنى: يا ليتني قدمت من الخير لنجاتي من النار، فأكون فيمن له حياة هنيئة.

قوله تعالى: ﴿**فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ**﴾ أي لا يعذب كعذاب الله أحد، ولا يوثق كوثاقه أحد. والكناية ترجع إلى الله تعالى. قوله تعالى: ﴿**وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ**﴾ ولا يوثق كما يوثق الكافر. والمراد إبليس؛ لأن الدليل قام على أنه أشد الناس عذاباً، لأجل إجرامه، فأطلق الكلام لأجل ما صحبة من التفسير.

وقيل: إنه أمية بن خلف، حكاه إجرامه، فأطلق الكلام لأجل ما صحبه من التفسير. وقيل: إنه أمية بن خلف. يعني أنه لا يعذب كعذاب هذا الكافر المعين أحد، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد، لتناهيه في كفره وعناده.

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ**﴾ لما ذكر حال من كانت همته الدنيا فاتهم الله في إغنائه وإفقاره، ذكر حال من اطمأنت نفسه إلى الله تعالى، فسلم لأمره، واتكل عليه. وقيل: هو من قول الملائكة لأولياء الله عز وجل. والنفس المطمئنة: الساكنة الموقنة، أيقنت أن الله ربها، فأخبتت لذلك. قال ابن عباس: أي المطمئنة بثواب الله.

*****

سورة البلد

قوله تعالى: ﴿**لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ**﴾ يجوز أن تكون لا زائدة، أي أقسم؛ لأنه قال: ﴿**وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ**﴾(التين:٣) فكيف يجحد القسم به وقد أقسم به. ومنه قوله تعالى: ﴿**قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**﴾(الأعراف:١٢)، وقيل: ليست بنفي القسم، وإنما هو كقول العرب: لا والله لا فعلت كذا، بهذا البلد إذا لم تكن فيه، بعد خروجك منه.

قوله تعالى: ﴿**وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ**﴾ يعني في المستقبل، مثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**﴾(الزمر:٣٠) ومثله واسع في كلام العرب. تقول لمن تعده الإكرام والحباء: أنت مكرم محبو، وهو في كلام الله واسع؛ لأن الأحوال المستقبلة عنده كالحاضرة المشاهدة، وكفاك دليلاً قاطعا على أنه للاستقبال، وأن تفسيره بالحال محال: أن السورة باتفاق مكية قبل الفتح.

قوله تعالى: ﴿**وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ**﴾ قال مجاهد: ووالد آدم عليه السلام. وما ولد: أي وما نسل من ولده. أقسم بهم لأنهم أعجب ما خلق الله تعالى على وجه الأرض، لما فيهم من التبيان والنطق والتدبير، وفيهم الأنبياء والدعاة إلى الله تعالى. وقيل: هو أقسام بآدم والصالحين من ذريته، وأما غير الصالحين فكأنهم بهائم.

قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ**﴾ إلى هنا انتهى القسم، وهذا جوابه. ولله أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته لتعظيمها، والإنسان هنا ابن آدم. في كبد: أي في شدة وعناء من مكابدة الدنيا، وأصل الكبد الشدة. ومنه تكبد اللبن: غلظ وخثر واشتد. ومنه الكبد؛ لأنه دم تغلظ واشتد. قال يمان: لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم، وهو مع ذلك أضعف الخلق.

قوله تعالى: ﴿**أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ**﴾ أي أيظن: أن لم يره، أي أن لم يعاينه، أحد: بل علم الله عز وجل ذلك منه، فكان كاذباً في قوله: أهلكت ولم يكن أنفقه. روى أبو هريرة قال: وقف العبد، فيقال ماذا عملت في المال الذي رزقتك؟ فيقول: أنفقته وزكيته. فيقال: كأنك إنما فعلت ذلك ليقال سخي، فقد قيل ذلك. ثم يؤمر به إلى النار.

قولـه تعـالى: ﴿**وَلِسَـاناً وَشَـفَتَيْنِ**﴾ ينطـق بـه وشـفتين: يسـتر بهمـا ثغـرة. والمعنى: نحن نقدر على أن نبعثه ونحصي عليه ما عمله. والشفة: أصلها شفهة، فحذفت منها الهاء، وتصغيرها: شفيهة، والجمع: شفاه. ويقال: شفهات وشفوات، والهاء أقيس، والواو أعم، تشبيهاً بالسنوات.

قولـه تعـالى: ﴿**وَهَـدَيْنَاهُ النَّجْـدَيْنِ**﴾ يعنـي الطـريقين: طريـق الخيـر وطريـق الشر. أي بيناهما له بما أرسلناه من الرسل. والنجد: الطريق في ارتفاع. وروي عن عكرمة قال: النجدان: الثديان. قوله تعالى: ﴿**فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ**﴾ أي فهلا أنفق مالـه الـذي أنفقـه فـي عداوة محمـد، هـلا أنفقـه لاقتحـام العقبـة فيـأمن! والاقتحـام: الرمـي بالنفس في شيء من غير روية، يقال منه: قحم في الأمر قحوماً: أي رمى بنفسه فيه من غير روية. وقحم الفرس فارسه تقحيماً على وجهه: إذا رماه. وتقحيم النفس في الشيء: إدخالها فيه من غير روية. قوله تعالى: ﴿**فَكُّ رَقَبَـةٍ**﴾ فكها: خلاصها من الأسر. وقيل: من الرق. قولـه تعالى: ﴿**أَوْ إِطْعَامٌ فِـي يَـوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ**﴾ أي مجاعة. والسغب: الجزع. والساغب: الجائع.

قوله تعالى: ﴿**يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ**﴾ أي قرابة. يقال: فلان ذو قرابتي وذو مقربتي. يعلمك أن الصدقة على القرابة أفضل منها على غير القرابة، كما أن الصدقة على اليتيم الذي لا كافل له أفضل من الصدقة على اليتيم الذي يجد من يكفله.

قولـه تعالى: ﴿**أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَـةٍ**﴾ أي لاشـيء لـه، حتـى كأنـه قد لصـق بـالتراب من الفقر، ليس لـه مأوى إلا التراب. قال ابن عباس: هو المطروح على الطريـق، الـذي لا بيـت لـه. قولـه تعـالى: ﴿**وَالَّـذِينَ كَفَـرُوا بِآياتِنَـا هُـمْ أَصْـحَابُ الْمَشْأَمَةِ**﴾ أي القرآن. هم أصحاب المشأمة: أي يأخذون كتبهم بشمائلهم، قال يحي بن سلام: لأنهم مشائيم على أنفسهم.

*****

سورة الشمس

قول الله تعالى: ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا**﴾، قال مجاهد: وضحاها: أي ضوءها وإشراقها. وهو قسم ثان. وأضاف الضحى إلى الشمس؛ لأنه إنما يكون بارتفاع الشمس. قوله تعالى: ﴿**وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا**﴾ أي تبعها: وذلك إذا سقطت رئي الهلال. يقال: تلوث فلانا: إذا تبعته. قال قتادة: إنما ذلك ليلة الهلال، إذا سقطت الشمس رئي الهلال. وقال ابن زيد: إذا غربت الشمس في النصف الأول من الشهر، تلاها القمر بالطلوع، وفي آخر الشهر يتلوها بالغروب.

قوله تعالى: ﴿**وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا**﴾ أي كشفها. فقال قوم: جلى الظلمة، وإن لم يجر لها ذكر، كما تقول: أصبحت باردة، تريد أضحت غداتنا باردة. وقيل: جلى الدنيا. وقيل: جلى الأرض، وإن لم يجر لها ذكر، ومثله قوله تعالى: ﴿**فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ**﴾(صّ:٣٢). قوله تعالى: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا**﴾ أي يغشى الشمس، فيذهب بضوئها عند سقوطها، وقيل: يغشى الدنيا بالظلم، فتظلم الآفاق. فالكناية ترجع إلى غير مذكور. قوله تعالى: ﴿**وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا**﴾ أي وبنيانها. وقيل: المعنى ومن بناها، أي ومن خلقها ورفعها، وهو الله تعالى. وحكي عن أهل الحجاز: سبحان ما سبحت له، أي سبحان من سبحت له.قوله تعالى: ﴿**وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا**﴾ أي وطحوها. وقيل: ومن طحاها، على ما ذكرناه آنفا. أي بسطها، والطحو: البسط، طحا يطحو طحوا، وطحى يطحي طحياً، وطحيت: اضطجعت.

قوله تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا**﴾ قيل: المعنى وتسويتها. وقيل: المعنى ومن سواها، وهو الله عز وجل. وفي النفس قولان: أحدهما: آدم. الثاني: كل نفس منفوسة، وسوى: بمعنى هيأ. قوله تعالى: ﴿**فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ أي عرفها، أي عرفها طريق الفجور والتقوى، وعن مجاهد أيضاً: عرفها الطاعة والمعصية. وعن محمد بن كعب قال: إذا أراد الله عز وجل بعبده خيراً، ألهمه الخير فعمل به، وإذا أراد به السوء، ألهمه الشر فعمل به.

قوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا**﴾ هذا جواب القسم، بمعنى: لقد أفلح. وقيل: الجواب محذوف، أي والشمس وكذا وكذا لتبعثن. قوله تعالى: ﴿**وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾ أي خسرت نفس دسها الله عز وجل بالمعصية. وقال ابن عباس:

خابت نفس أضلها وأغواها. وقيل: أفلح من زكى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال، وخاب من دس نفسه في المعاصي.

قوله تعالى: ﴿**كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا**﴾ أي بطغيانها، وهو خروجها عن الحد في العصيان، وعن ابن عباس: بطغواها: أي بعذابها الذي وعدت به. قال: وكان اسم العذاب الذي جاءها الطغوى؛ لأنه طغى عليهم.

قوله تعالى: ﴿**إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا**﴾ أي نهض. أشقاها: لعقر الناقة. واسمه قدار بن سالف. قوله تعالى: ﴿**فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا**﴾ يعني صالحاً. وقيل: ذروا ناقة الله، كما قال: ﴿**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ (الأعراف:٧٣)، وسقياها: أي ذروها وشربها. قوله تعالى: ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا**﴾، أي كذبوا صالحاً عليه السلام في قوله لهم: إنكم تعذبون إن عقرتموها. فعقروها: أي عقرها الأشقى. وأضيف إلى الكل، لأنهم رضوا بفعله.

قوله تعالى: ﴿**وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا**﴾ أي فعل الله ذلك بهم غير خائف أن تلحقه تبعة الدمدمة من أحد، قال السدي: ترجع إلى العاقر، أي لم يخف الذي عقرها عقبى ما صنع.

*****

سورة الليـــــل

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ أي يغطي. وقيل: يغشى النهار. وقيل: الأرض. وقيل: الخلائق. وقيل: يغشى كل شيء بظلمته. قوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ أي إذا انكشف ووضح وظهر، وبان بضوئه عن ظلمة الليل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾ قال الحسن: معناه والذي خل الذكر والأنثى، فيكون قد أقسم بنفسه عز وجل. وقيل: معناه وخلق الذكر والأنثى. قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ هذا جواب القسم. والمعنى: إن عملكم لمختلف.

قال عكرمة وسائر المفسرين: السعي: العمل، فساع في فكاك نفسه، وساع في عطبها. قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ قال ابن مسعود: يعني أبا بكر رضي الله عنه، فروى عن عامر بن عبد الله بن الزبير، قال: كان أبو بكر يعتق على الإسلام عجائز ونساء، قال: فقال له أبوه قحافة: أي بني! لو أنك أعتقت رجالاً جلداً يمنعونك ويقومون معك؟ فقال: يا أبت إنما أريد ما أريد.

قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أي بلا إله إلا الله، قال مجاهد: بالجنة، دليله قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(يونس:٢٦)، وقال قتادة: بموعود الله الذي وعده أن يثيبه. قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ أي نرشده لأسباب الخير والصلاح، حتى يسهل عليه فعلها. قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾ أي ضن بما عنده، فلم يبذل خيراً. قول الله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ أي بالخلف، قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ أي نسهل طريقه. للعسرى: أي للشر. وعن ابن مسعود: للنار. وقيل: أي فسنعسر عليه أسباب الخير والصلاح حتى يصعب عليه فعلها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ أي مات. يقال: ردي الرجل يردى ردى: إذا هلك. قال: صرفت الهوى عنهن من خشية الردى. قوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى﴾ أي حذرتكم وخوفتكم. نارا تلظى: أي تلهب وتتوقد.

قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى﴾ أي يكون بعيداً منها. الأتقى: أي المتقي الخائف. قال ابن عباس: هو أبو بكر رضي الله عنه، يزحزح عن دخول النار. قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ أي سوف يعطيه في الجنة ما يرضى، وذلك أنه يعطيه أضعاف ما انفق.

سورة الضحى

قوله تعالى: ﴿**وَالضُّحَى* وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى**﴾(١-٢) المراد به النهار، لقوله: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى**﴾ فقابله بالليل. وقال قتادة: أقسم بالضحى الذي كلم الله فيه موسى، وبليلة المعراج. وقيل: هي الساعة التي خر فيها السحرة سجداً.

قوله تعالى: ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**﴾ عن جندب بن سفيان البجلي، قال: رمي النبي ﷺ في إصبعه بحجر، فدميت، فقال: هل أنت إلا إصبع دميت، وفي سبيل الله ما لقيت. فمكث ليلتين أو ثلاثا لا يقوم الليل. فقالت له أم جميل امرأة أبي لهب: ما أرى شيطانك إلا قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث فنزلت: والضحى.

قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى**﴾ عدد سبحانه منن على نبيه محمد ﷺ فقال: ألم يجدك يتيما، لا أب لك قد مات أبوك، فآوى: أي جعل لك مأوى تأوي إليه عند عمك أبي طالب، فكفلك. قوله تعالى: ﴿**وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى**﴾ أي غافلا عما يراد بك من أمر النبوة، فهداك: أي أرشدك. والضلال هنا بمعنى الغفلة، كقوله جل ثناؤه: ﴿**قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى**﴾ (طه:٥٢) أي لا يغفل. وقال في حق نبيه: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**﴾(يوسف:٣).

قوله تعالى: ﴿**وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى**﴾ أي فقيراً لا مال لك. فأغنى: أي فأغناك بخديجة رضي الله عنها، يقال: عال الرجل يعيل عيلة: إذا افتقر. قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ**﴾ أي لا تسلط عليه بالظلم، ادفع إليه حقه، واذكر يتمك.

قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ**﴾ أي لا تزجره، فهو نهي عن إغلاظ القول، ولكن رده ببذل يسير، أو رد جميل، واذكر فقرك. قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ أي انشر ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء. والتحدث بنعم الله والاعتراف بها شكر.

*****

سورة الشرح

قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**﴾ شرح الصدر: فتحه، أي ألم نفتح صدرك للإسلام. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: ألم نلين لك قلبك. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله، أينشرح الصدر؟ قال: نعم وينفسح. قالوا: يا رسول الله، وهل لذلك علامة؟ قال: نعم التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاعتداد للموت، قبل نزول الموت.

قوله تعالى: ﴿**وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ**﴾ أي حططنا عنك ذنبك. هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً**﴾(الفتح:٢)، قيل: الجميع كان قبل النبوة. والوزر: الذنب، أي وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية؛ لأنه كان النبي ﷺ في كثير من مذاهب قومه، وإن لم يكن عبد صنماً ولا وثناً. قال قتادة والحسن الضحاك: كانت للنبي ﷺ ذنوب أثقلته، فغفرها الله له.

قوله تعالى: ﴿**الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ**﴾ أي أثقله حتى سمع نقيضه، أي صوته وأهل اللغة يقولون: أنقض الحمل ظهر الناقة: إذا سمعت له صريراً من شدة الحمل. وكذلك سمعت نقيض الرحل، أي صريره. قوله تعالى: ﴿**وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**﴾، قال مجاهد: يعني بالتأذين.

عن ابن عباس، قال: يقول له لا ذكرت إلا ذكرت معي في الأذان، والإقامة والتشهد، ويوم الجمعة على المنابر ويوم الفطر، ويوم الأضحى، وأيام التشريق، ويوم عرفة، وعند الجمار، وعلى الصفا والمروة، وفي خطبة النكاح، وفي مشارق الأرض ومغاربها. ولو أن رجلاً عبد الله جل ثناؤه، وصدق بالجنة والنار وكل شيء ولم يشهد أن محمد رسول الله، لم ينتفع بشيء وكان كافراً.

وقيل: أي أعلينا ذكرك، فذكرناك في الكتب المنزلة على الأنبياء قبلك، وأمرناهم بالبشارة بك، ولا دين إلا ودينك يظهر عليه. قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً**﴾ أي إن مع الضيقة والشدة يسراً، أي سعة وغنى، قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ**﴾ قال ابن عباس وقتادة: فإذا فرغت من صلاتك، فانصب: أي بالغ في الدعاء وسله حاجتك، وقال ابن مسعود: إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل.

*****

سـورة الـتـيـن

قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ قال ابن عباس: هو تينكم الذي تأكلون، وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت، قال الله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ﴾(المؤمنون:٢٠)، وقال الضحاك: التين: المسجد الحرام، والزيتون: المسجد الأقصى.

قوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ قال مجاهد: وطور، قال: جبل. وعن عكرمة قال: الجبل الذي نادى الله جل ثناؤه منه موسى عليه السلام. وقال مقاتل والكلبي: سنين، كل جبل فيه شجر مثمر، فهو سنين وسيناء، بلغة النبط.

قوله تعالى: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ يعني مكة. سماه أميناً لأنه آمن، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾(العنكبوت:٦٧) فالأمين: بمعنى الآمن، وبهذا احتج من قال: إنه أراد بالتين دمشق، وبالزيتون بيت المقدس. فأقسم الله بجبل دمشق؛ لأنه مأوى عيسى عليه السلام، وبجبل بيت المقدس؛ لأنه مقام الأنبياء عليهم السلام، وبمكة لأنه أثر إبراهيم ودار محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ هذا جواب القسم، وأراد بالإنسان: الكافر. قيل: هو الوليد بن المغيرة. وقيل: كلدة بن أسيد. فعلى هذا نزلت في منكري البعث، قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي إلى أرذل العمر، وهو الهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوة، حتى يصير كالصبي في الحال الأول. وقيل: لما وصفه الله بتلك الصفات الجليلة التي ركب الإنسان عليها، طغى وعلا، حتى قال: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾(النازعات:٢٤).

وحين علم الله هذا من عبده، وقضاؤه صادر من عنده، رده أسفل سافلين، بأن جعله مملوءاً قذراً، مشحوناً نجاسة، وأخرجها على ظاهره إخراجاً منكرا، على وجه الاختيار تارة وعلى وجه الغلبة أخرى، حتى إذا شاهد ذلك من أمره، رجع إلى قدره.

قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ قيل: الخطاب للكافر، توبيخاً وإلزاماً للحجة. أي إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم، وأنه يردك إلى

أرذل العمر، وينقلك من حال إلى حال، فما يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء، وقد أخبرك محمد ﷺ به.

قوله تعالى: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ**﴾ أي أتقن الحاكمين صنعاً في كل ما خلق. وقيل: بأحكم الحاكمين، قضاء بالحق، وعدلاً بين الخلق، وفيه تقدير لمن اعترف من الكفار بصانع قديم.

*****

سـورة الـعلــق

قول الله تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾، هذه السورة أول ما نزل من القرآن، في قول معظم المفسرين. نزل بها جبريل على النبي ﷺ وهو قائم على حراء، فعلمه خمس آيات من هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿**خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ**﴾ يعني ابن آدم. من علق: أي من دم، جمع علقة والعلقة الدم الجامد وإذا جرى فهو المسفوح، وقال: من علق، فذكره بلفظ الجمع؛ لأنه أراد بالإنسان الجمع، وكلهم خلقوا من علق بعد النطفة. والعلقة: قطعة من دم رطب، سميت بذلك لأنها تعلق لرطوبتها بما تمر عليه، فإذا جفت لم تكن علقة.

قول الله تعالى: ﴿**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ**﴾، اقرأ: تأكيد، وتم الكلام، ثم استأنف فقال: ﴿**وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ**﴾ أي الكريم. وقال الكلبي: يعني الحليم عن جهل العباد، فلم يعجل بعقوبتهم. والأول أشبه بالمعنى؛ لأنه لما ذكر ما تقدم من نعمة، دل بها على كرمه. وقيل: اقرأ وربك: أي اقرأ يا محمد وربك يعينك ويفهمك، وإن كنت غير القارئ.

قوله تعالى: ﴿**الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**﴾ الذي علم بالقلم، يعني الخط والكتابة، أي علم الإنسان الخط بالقلم. وروى سعيد عن قتادة قال: القلم نعمة من الله تعالى عظيمة، لولا ذلك لم يقم دين، ولم يصلح عيش. فدل على كمال كرمه سبحانه، بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة، التي لا يحيط بها إلا هو.

وما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، لو لا هي ما استقامت أمور الدين والدنيا. وسمي قلما لأنه يقلم، أي يقطع، ومنه تقليم الظفر. قوله تعالى: ﴿**عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾، قيل: الإنسان هنا آدم عليه السلام. علمه أسماء كل شيء، حسب ما جاء به القرآن في قوله تعالى: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾(البقرة: ٣١)، فلم يبق شيء إلا وعلم سبحانه آدم اسمه بكل لغة، وذكره آدم للملائكة وحجتهن وامتثلت الملائكة الأمر لما رأت من شرف الحال، ورأت من جلال القدرة، وسمعت من عظيم الأمر. ثم

توارثت ذلك ذريته خلفاً بعد سلف، وتناقلوه قوماً عن قوم.

قوله تعالى: ﴿**كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى**﴾ قيل: إنه نزل في أبي جهل. وقيل: نزلت السورة كلها في أبي جهل، نهى النبي ﷺ وهو عن الصلاة، فأمر الله نبيه ﷺ وهو أن يصلي في المسجد ويقرأ باسم الرب. وعلى هذا فليست السورة من أوائل ما نزل. ويجوز أن يكون خمس آيات من أولها أول ما نزلت، ثم نزلت البقية في شأن أبي جهل، وأمر النبي ﷺ وهو بضم ذلك إلى أول السورة؛ لأن تأليف السور جرى بأمر من الله.

قوله تعالى: ﴿**فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ**﴾ أي أهل مجلسه وعشيرته، فليستنصر بهم. سندع الزبانية: أي الملائكة الغلاظ الشداد. عن ابن عباس وغيره. واحدهم زبني. وقيل: هو اسم للجمع، كالأبابيل والعباديد.

وقال قتادة: هم الشرط في كلام العرب. وهو مأخوذ من الزبن وهو الدفع، ومنه المزابنة في البيع. وقيل: إنما سموا الزبانية لأنهم يعملون بأرجلهم، كما يعملون بأيديهم. وفي الأخبار أن الزبانية رؤوسهم في السماء وأرجلهم في الأرض، فهم يدفعون الكفار في جهنم. وقيل: إنهم أعظم الملائكة خلقا، وأشدهم بطشاً.

*****

سـورة القــدر

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ يعني القرآن وإن لم يجر له ذكر في هذه السورة؛ لأن المعنى معلوم، والقرآن كله كالسورة الواحدة. قال الشعبي: المعنى إنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر. وقيل: بل نزل به جبريل عليه السلام جملة واحدة في ليلة القدر، من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، إلى بيت العزة، وأملاه جبريل على السفرة، ثم كان جبريل ينزله على النبي ﷺ وهو نجوماً نجوما. وكان بين أوله وآخره ثلاث وعشرون سنة. وحكى الماوردي عن ابن عباس قال: نزل القرآن في شهر رمضان، وفي ليلة القدر، في ليلة مباركة، جملة واحدة من عند الله، من اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا، فنجمته السفرة الكرام الكاتبون على جبريل عشرين سنة، ونجمة جبريل على النبي ﷺ وهو عشرين سنة.

والمعنى ليلة القدير سميت بذلك؛ لأن الله تعالى يقدر فيها ما يشاء من أمره، إلى مثلها من السنة القابلة، من أمر الموت والأجل والرزق وغيره. ويسلمه إلى مدبرات الأمور، وهو أربعة من الملائكة: إسرافيل، وميكائيل، وعزرائيل، وجبريل، عليهم السلام.

وعن ابن عباس قال: يكتب من أم الكتاب ما يكون في السنة من رزق ومطر وحياة وموت، حتى الحاج. وعن ابن عباس أيضاً: أن الله تعالى يقضي الأقضية في ليلة نصف شعبان، ويسلمها إلى أربابها في ليلة القدر. وقيل: إنما سميت بذلك لعظمها وقدرها وشرفها، من قولهم: لفلان قدر، أي شرف ومنزلة. وقيل: سميت بذلك لأنه أنزل فيها كتاباً ذا قدر، على رسول ذي قدر، على أمة ذات قدر، وقيل: لأنه ينزل فيها ملائكة ذوو قدر وخطر.

وقيل: لأن الله تعالى ينزل فيها الخير والبركة والمغفرة، وقال سهل: سميت بذلك لأن الله تعالى قدر فيها الرحمة على المؤمنين. وقال الخليل: لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة، كقوله تعالى: ﴿**لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً**﴾ (الطلاق:٧).

قول الله تعالى: ﴿**لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ**﴾ بين فضلها وعظمها. وفضيلة الزمان إنما تكون بكثرة ما يقع فيه من الفضائل. وفي تلك الليلة يقسم

الخير الكثير الذي لا يوجد مثله في ألف شهر. والله أعلم. وقال كثير من المفسرين: أي العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر. وقال أبو العالية: ليلة القدر خير من ألف شهر لا تكون في ليلة القدر. وقيل: عنى بألف شهر جميع الدهر؛ لأن العرب تذكر الألف في غاية الأشياء، كما قال تعالى: ﴿**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ**﴾ (البقرة:٩٦)، يعني جميع الدهر.

وقيل: إن العابد كان فيما مضى لا يسمى عابدا حتى يعبد الله ألف شهر، ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر، فجعل الله تعالى لأمة محمد ﷺ وهو عبادة ليلة خيراً من ألف شهر، ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر، فجعل الله تعالى لأمة محمد عبادة ليلة خيراً من ألف شهر كانوا يعبدونها. وقال أبو بكر الوراق: كان ملك سليمان خمسمائة شهر، وملك ذي القرنين خمسمائة شهر فصار ملكهما ألف شهر، فجعل الله تعالى العمل في هذه الليلة لمن أدركها خيراً من ملكهما.

قوله تعالى: ﴿**تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ**﴾، أي تهبط من كل سماء، ومن سدرة المنتهى، ومسكن جبريل على وسطها. فينزلون إلى الأرض ويؤمنون على دعاء الناس، إلى وقت طلوع الفجر، فذلك قوله تعالى: تنزل الملائكة. والروح فيها بإذن ربهم: أي جبريل عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿**سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ**﴾ روي ذلك عن نافع وغيره، أي ليلة القدر سلامة وخير كلها لا شر فيها. حتى مطلع الفجر: أي إلى طلوع الفجر. قال الضحاك: لا يقدر الله في تلك الليلة إلا السلامة، وفي سائر الليالي يقضي بالبلايا والسلامة. وقيل: أي هي سلام، أي ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان في مؤمن ومؤمنة.

وكذا قال مجاهد: هي ليلة سالمة، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً ولا أذى. وقال الشعبي: هو تسليم الملائكة على أهل المساجد، من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر، يمرون على كل مؤمن، ويقولون: السلام علك أيها المؤمن. وقيل: يعني سلام الملائكة بعضهم على بعض فيها.

****

سورة البينة

قول الله تعالى: ﴿**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ**﴾ يعني اليهود والنصارى. قال ابن عباس: أهل الكتاب: اليهود الذين كانوا بيثرب، وهم قريظة والنضير وبنو قينقاع. والمشركون: الذين كانوا بمكة وحولها، والمدينة والذين حولها، وهو مشركو قريش. منفكين: أي منتهين عن كفرهم، مائلين عنه. حتى تأتيهم: أي أتتهم البينة، أي محمد ﷺ وهو. قوله تعالى: ﴿**فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ**﴾ أي مستقيمة مستوية محمكة، من قول العرب: قام يقوم: إذا استوى وصح.

وقال بعض أهل العلم: الصحف هي الكتب، فكيف قال في صحف فيها كتب؟ فالجواب: أن الكتب هنا: بمعنى الأحكام، قال الله عز وجل: ﴿**كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾(المجادلة:٢١) بمعنى حكم.

قوله تعالى: ﴿**وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ**﴾ أي من اليهود والنصارى. خص أهل الكتاب بالتفريق دون غيرهم، وإن كانوا مجموعين مع الكافرين؛ لأنهم مظنون بهم علم، فإذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل في هذا الوصف. إلا من بعد ما جاءتهم البينة: أي أتتهم البينة الواضحة. والمعنى به محمد ﷺ وهو، أي القرآن موافقاً لما في أيديهم من الكتاب بنعته وصفته. وذلك أنهم كانوا مجتمعين على نبوته، فلما بعث جحدوا نبوته وتفرقوا، فمنهم من كفر بغياً وحسداً، ومنهم من آمن.

كقوله تعالى: ﴿**وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ**﴾(الشورى:١٤)، قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ**﴾ معطوف على الذين، أو يكون مجروراً معطوفاً على أهل، في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. قال الفراء: إن أخذت البرية من البرى، وهو التراب، فأصله غير الهمز، تقول منه: براه الله يبروه برواً، أي خلقه. قوله تعالى: ﴿**جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ**﴾ أي ثوابهم. عند ربهم: أي خالقهم ومالكهم. جنات: أي

بساتين. عدن: أي إقامة. والمفسرون يقولون: جنات عدن: بطنان الجنة أي وسطها، تقول: عدن بالمكان يعدن عدنا وعدونا: أقام. ومعدن الشيء: مركزه مستقره.

*****

سورة الزلزلة

قول الله تعالى: ﴿**إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا**﴾ أي حركت من أصلها، قوله تعالى: ﴿**وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا**﴾، قال أبو عبيدة والأخفش: إذا كان الميت في بطن الأرض، فهو ثقل لها. وإذا كان فوقها، فهو ثقل عليها. وقال ابن عباس ومجاهد: أثقالها: موتاها، تخرجهم في النفخة الثانية، ومنه قيل للجن والإنس: الثقلان.

قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا**﴾ أي ابن آدم الكافر. فروى الضحاك عن ابن عباس قال: هو الأسود بن عبد الأسد. وقيل: أراد كل إنسان يشاهد ذلك عند قيام الساعة في النفخة الأولى: من مؤمن وكافر. وهذا قول من جعلها في الدنيا من أشراط الساعة؛ لأنهم لا يعلمون جميعاً من أشراط الساعة في ابتداء أمرها، حتى يتحققوا عمومها، فلذلك سأل بعضهم بعضاً عنها.

قوله تعالى: ﴿**يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا**﴾، وقيل: بقوله: تحدث أخبارها: أي تخبر الأرض بما عمل عليها من خير أو شر يومئذ. ثم قيل: هو من قول الله تعالى. وقيل: من قول الإنسان، أي يقول الإنسان مالها تحدث أخبارها، متعجباً.

قوله تعالى: ﴿**بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا**﴾ أي إنها تحدث أخبارها بوحي الله (لها)، أي إليها. وقيل: المعنى يوم تكون الزلزلة، وإخراج الأرض أثقالها، تحدث الأرض أخبارها، ما كان عليها من الطاعات والمعاصي، وما عمل على ظهرها من خير وشر. قوله تعالى: ﴿**يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ**﴾ أي فرقا، جمع شت. قيل: عن موقف الحساب، فريق يأخذ جهة اليمين إلى الجنة، وفريق آخر يأخذ جهة الشمال إلى النار، كما قال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ**﴾ (الروم:١٤).

*****

سورة العاديات

قوله تعالى: ﴿**وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً**﴾ أي الأفراس تعدو. كذا قال عامه المفسرين وأهل اللغة، أي تعدو في سبيل الله فتضبح. قال قتاده: تضبح إذا عدت، أي تحمحم. وقال الفراء: الضبح:صوت أنفاس الخيل إذا عدون. قال أبو عبيدة: ضبحت الخيل ضبحاً مثل ضبعت، وهو السير. وقال أبو عبيدة: الضبح والضبع: بمعنى العدو والسير.

قوله تعالى: ﴿**فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً**﴾ قال عكرمة وعطاء والضحاك: هي الخيل حين توري النار بحوافرها، وهي سنابكها، وروي عن ابن عباس: أورت بحوافرها غبارا. وهذا يخالف سائر ما روي عنه في قدح النار، وإنما هذا في الإبل. عن ابن مسعود: هي الإبل تطأ الحصى، فتخرج منها النار. وأصل القدح الاستخراج، ومنه قدحت العين: إذا أخرجت منها الماء الفاسد. واقتدحت بالزند.

قوله تعالى: ﴿**فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً**﴾ الخيل تغير على العدو عند الصبح، عن ابن عباس وأكثر المفسرين. وكانوا إذا أرادوا الغارة سروا ليلاً، ويأتون العدو صبحا؛ لأن ذلك وقت غفلة الناس. ومنه قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ**﴾ (الصافات:١٧٧)، وقيل: لعزهم أغاروا نهارا، وصبحا على هذا، أي علانية، تشبيهاً بظهور الصبح.

وقال ابن مسعود وعلي رضي الله عنهما: هي الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من منى إلى جمع. والسنة ألا تدفع حتى تصبح. قوله تعالى: ﴿**فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً**﴾ أي غباراً، يعني الخيل تثير الغبار بشدة العدو في المكان الذي أغارت به. قال عبد الله بن رواحة: عدمت بنيتي إن لم تروها تثير النقع من كنفي كداء والكناية في (به) ترجع إلى المكان أو إلى الموضع الذي تقع فيه الإغارة.

وإذا علم المعنى جاز أن يكنى عما لم يجر له ذكر بالتصريح، كما قال: ﴿**فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ**﴾(صّ:٣٢).

قول الله تعالى: ﴿**فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً**﴾، وقال ابن مسعود: يعني مزدلفة، وسميت جمعاً لاجتماع الناس. ويقال: وسطت القوم أسطهم وسطاً وسطةً، أي صرت وسطهم.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ**﴾ هذا جواب القسم، أي طبع الإنسان على كفران النعمة، قوله تعالى: ﴿**أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ**﴾ أي ابن آدم، إذا بعثر: أي أثير وقلب وبحث، فأخرج ما فيها. قال أبو عبيدة: بعثرت المتاع: جعلت أسفله أعلاه.

قوله تعالى: ﴿**وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ**﴾ أي ميز ما فيها من خير وشر، كذا قال المفسرون. وقال ابن عباس: أبرز.

*****

سورة القارعة

قول الله تعالى: ﴿**الْقَارِعَةُ*مَا الْقَارِعَةُ** ﴾(٢/١) أي القيامة والساعة، كذا قال عامة المفسرين. وذلك أنها تقرع الخلائق بأهوالها وأفزاعها، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ**﴾(الرعد:٣١) وهي الشديدة من شدائد الدهر. ما القارعة: استفهام، أي أي شيء هي القارعة؟

قول الله تعالى: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ**﴾ كلمة استفهام على جهة التعظيم والتفخيم لشأنها، كما قال: ﴿**الْحَاقَّةُ *مَا الْحَاقَّةُ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ**﴾(١-٣)، قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ**﴾، قال قتادة: الفراش الطير الذي يتساقط في النار والسراج. الواحدة فراشة.

قوله تعالى: ﴿**وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ**﴾ أي الصوف الذي ينفش باليد، أي تصير هباء وتزول، كما قال جل ثناؤه في وضع. آخر: ﴿**فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً**﴾ (الواقعة:٦)، وأهل اللغة يقولون: العهن الصوف المصبوغ.

قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ**﴾ قد تقدم القول في الميزان في. الأعراف والكهف والأنبياء. وأن له كفه ولساناً توزن فيه الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات. ثم قيل: إنه ميزان واحد بيد جبريل يزن أعمال بين آدم، فعبر عنه بلفظ الجمع. وقيل: إن الموازين الحجج والدلائل.

قوله تعالى: ﴿**فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ**﴾ أي عيش مرضي، يرضاه صاحبه، وقيل: عيشة راضية: أي فاعلة للرضا، وهو اللين والانقياد لأهلها. فالفعل للعيشة لأنها أعطت الرضا من نفسها، وهو اللين والانقياد. فالعيشة كلمة تجمع النعم التي في الجنة، فهي فاعلة للرضا، كالفرش المرفوعة، وارتفاعها مقدار مائة عام، فإذا دنا منها ولي الله اتضعت حتى يستوي عليها، ثم ترتفع كهيئتها، ومثل الشجرة فرعها، كذلك أيضاً من الارتفاع، فإذا اشتهي ولي الله ثمرتها تدلت إليه، حتى يتناولها ولي الله قاعداً وقائماً.

وذلك قوله تعالى: ﴿**قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ**﴾(الحاقة:٢٣)، وحيثما مشى أو ينتقل من مكان إلى مكان، جرى معه نهر حيث شاء، علوا وسفلاً، وذلك قوله تعالى: ﴿**عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً**﴾(الإنسان:٦)، فيروى في الخبر: أنه يشير بقضيبه فيجري من غير أخدود حيث شاء من قصوره وفي مجالسه. فهذه الأشياء كلها عيشة قد أعطت الرضا من نفسها، فهي فاعلة للرضا، وهي أذلت وانقادت بذلاً وسماحة قول الله تعالى: ﴿**فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ**﴾ يعني جهنم، وسماها أما، لأنه يأوي إليها كما يأوي إلى أمه.

*****

سورة التكاثر

قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ألهاكم: شغلكم. قال: فألهيتها عن ذي تمائم مغيلأي شغلكم المباهاة بكثرة المال والعدد عن طاعة الله، حتى متم ودفنتم في المقابر. وقيل: ألهاكم: أنساكم. التكاثر: أي من الأموال والأولاد. قال قتادة: أي التفاخر بالقبائل والعشائر. وقال الضحاك: أي ألهاكم التشاغل بالمعاش والتجارة. يقال: لهيت عن كذا بالكسر، ألهي لهيا ولهيانا: إذا سلوت عنه وتركت ذكره، وأضربت عنه. وألهاه: أي شغله. ولهاه به تلهيه أي علله. والتكاثر: المكاثرة. قال مقاتل وقتادة وغيرهما: نزلت في اليهود حين، قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، ألهاكم ذلك حتى ماتوا ضلالاً.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي حتى أتاكم الموت، فصرتم في المقابر زواراً، ترجعون منها كرجوع الزائر إلى منزله من جنة أو نار. يقال لمن مات: قد زار قبره. وقيل: أي ألهاكم التكاثر حتى عددتم الأموات، وقيل: هذا وعيد. أي اشتغلتم بمفاخرة الدنيا، حتى تزوروا القبور، فتروا ما ينزل بكم من عذاب الله عز وجل. قوله تعالى: المقابر: جمع مقبرة ومقبرة. بفتح الباء وضمها. والقبور: جمع القبر، قال: أرى أهل القصور إذا أميتوا بنوا فوق المقابر بالصخور أبوا إلا مباهاة وفخرا على الفقراء حتى في القبور.

قوله تعالى: ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، قال الفراء: أي ليس الأمر على ما أنتم عليه من التفاخر والتكاثر والتمام على هذا: ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي سوف تعلمون عاقبة هذا: ﴿ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعيد بعد وعيد، ويحتمل أن يكون تكراره على وجه التأكيد والتغليظ.

قوله تعالى: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أعاد (كلا) وهو زجر وتنبيه، لأنه عقب كل واحد بشيء آخر، كأنه قال: لا تفعلوا، فإنكم تندمون، لا تفعلوا، فإنكم تستوجبون العقاب. وإضافة العلم إلى اليقين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾(الواقعة:٩٥)، وقيل: اليقين ها هنا: الموت.

قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ هذا وعيد آخر. وهو على إضمار القسم، أي لترون الجحيم في الآخرة. والخطاب للكفار الذين وجبت لهم النار. وقيل: هو عام، كما قال: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً﴾(مريم:٧١)، فهيئ

للكفار دار، وللمؤمنين ممر.

قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ**﴾ أي مشاهدة. وقيل: هو إخبار عن دوام مقامهم في النار، أي هي رؤية دائمة متصلة. والخطاب على هذا للكفار. قول الله تعالى: ﴿**ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**﴾، عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: ((ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟))، قالا: الجوع يا رسول الله. قال: ((وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخركما، قوما، فقاما معه، فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة، قالت: مرحباً وأهلاً.

فقال لها رسول الله ﷺ: ((أين فلان؟)) قالت: يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله! ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني. قال: فانطلق، فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه. وأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ: ((إياك والحلوب))، فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: ((والذي نفسي بيده لتسألن عن نعيم هذا اليوم، يوم القيامة)).

*****

ســورة العصـــر

قوله تعالى: ﴿**وَالْعَصْرِ**﴾ فيه مسألتان: الأولى: والعصر: أي الدهر، قاله ابن عباس وغيره. فالعصر مثل الدهر، وقيل: العصر: الليل والنهار. عن قتادة: هو آخر ساعة من ساعات النهار، وقيل: قسم بصلاة العصر، وهو الوسطى؛ لأنها أفضل الصلوات، يقال: أذن للعصر، أي لصلاة العصر. وصليت العصر، أي صلاة العصر. قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾ هذا جواب القسم. والمراد به الكافر، وروى الضحاك، قال: يريد جماعة من المشركين: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبدا لعزى، والأسود بن عبد يغوث. وقيل: يعني بالإنسان جنس الناس لفي خسر: لفي غبن.

قوله تعالى: ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ استثناء من الإنسان، إذ هو بمعنى الناس على الصحيح. وعملوا الصالحات: أي أدوا الفرائض المفترضة عليهم، وهم أصحاب رسول الله ﷺ.

*****

سورة الهمزة

قول الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ قد تقدم القول في الويل في غير موضع، ومعناه الخزي والعذاب والهلكة. وقيل: واد في جهنم. لكل همزة لمزة: قال ابن عباس: هم المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب هذا هما بمعنى.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾ أي أعده . زعم . لنوائب الدهر، مثل كرم أكرم. وقيل: أحصى عدده، وقال الضحاك: أ ي أعد ماله لمن يرثه من أولاده. وقيل: أي فاخر بعدده وكثرته. والمقصود الذم على إمساك المال عن سبيل الطاعة. كما قال: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾(القلم:١٢).

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ أي يظن: أن ماله أخلده، أي يبقيه حياً لا يموت، وقال عكرمة: أي يزيد في عمره. وقيل: أحياه فيما مضى، وهو ماض بمعنى المستقبل. يقال: هلك والله فلان ودخل النار، أي يدخل.

قوله تعالى: ﴿كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ رد لما توهمه الكافر، أي لا يخلد ولا يبقى له مال. وقد مضى القول في – كلا– فإنه يقول كذبت، لينبذن: أي ليطرحن وليلقين. قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ على التعظيم لشأنها، والتفخيم لأمرها. ثم فسرها ما هي فقال: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ أي التي أوقد عليها ألف عام، وألف عام، فهي غير خامدة، أعدها الله للعصاة، قوله تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ أي التي أوقد عليها ألف عام، وألف عام، فهي غير خامدة، أعدها الله للعصاة، قوله تعالى: ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ قال محمد بن كعب: تأكل النار جميع ما في أجسادهم، حتى إذا بلغت إلى الفؤاد، خلقوا خلقاً جديداً، فرجعت تأكلهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ﴾ أي مطبقة، وقد تقدم في سورة . البلد . القول فيه. وقيل: مغلقة، بلغة قريش. يقولون: آصدت الباب: إذا أغلقته قاله مجاهد، قوله تعالى: ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ الفاء بمعن الباء، أي موصدة بعمد ممددة، قاله ابن مسعود.

وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: ((ثم إن الله يبعث إليهم ملائكة بأطباق من نار، ومسامير من نار وعمد من يبقى فيها خلل يدخل فيه روح، ولا يخرج منه

غم، وينساهم الرحمن على عرشه، ويتشاغل أهل الجنة بنعيمهم، ولا يستغيثون بعدها أبداً، وينقطع الكلام، فيكون كلامهم زفيراً وشهيقاً، فذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ* فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ**﴾.

*****

سورة الفيل

قول الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ**﴾، فيه خمس مسائل: الأولى: قوله تعالى: ألم تر: أي ألم تخبر. وقيل: ألم تعلم. وقال ابن عباس: ألم تسمع؟ واللفظ استفهام، والمعنى تقرير. والخطاب للنبي ﷺ، ولكنه عام، أي ألم تروا ما فعلت بأصحاب الفيل، أي قد رأيتم ذلك، وعرفتم موضع منتي عليكم، فما لكم لا تؤمنون؟

وقوله تعالى: بأصحاب الفيل: الفيل معروف، والجمع أفيال: وفيول، وفيلة. في قصة أصحاب الفيل، وذلك أن أبرهة بنى القليس بصنعاء، وهي كنيسة لم ير مثلها في زمانها بشيء من الأرض، وكان نصرانياً، ثم كتب إلى النجاشي: إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي، غضب رجل من النسأة، فخرج حتى أتى الكنيسة، فقعد فيها، أي أحدث. ثم خرج فلحق بأرضه فأخبر بذلك أبرهة، قال: من صنع هذا؟ فقيل: صنعه رجل من أهل هذا البيت، الذي تحج إليه العرب بمكة، لما سمع قولك: أصرف إليها حج العرب، غضب، فجاء فقعد فيها.

أي أنها ليست لذلك بأهل. فغضب عند ذلك أبرهة، وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه، وبعث رجلاً كان عنده إلى بني كنانة يدعوهم إلى حج تلك الكنيسة، فقتلت بنو كنانة ذلك الرجل، فزاد أبرهة ذلك غضباً وحنقا، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت، ثم سار وخرج معه بالفيل، وسمعت بذلك العرب، فأعظموه وفظعوا به، ورأوا جهاده حقاً عليهم، حين سمعوا أنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام. فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم، يقال له ذو نفر، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة، وجهاده عن بيت الله الحرام، وما يريد من هدمه وخرابه، فأجابه من أجابه إلى ذلك، ثم عرض له فقاتله، فهزم ذو نفر وأصحابه، وأخذ له ذو نفر فأتي به أسيراً، فلما أراد قتله قال له ذو نفر: أيها الملك لا تقتلني، فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من قتلي، فتركه من القتل، وحبسه عنده في وثاق.

وكان أبرهة رجلاً حليماً ثم مضى أبرهة على وجهة ذلك، يريد ما خرج له،

حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتي خثعم: شهران وناهس، ومنه تبعه من قبائل العرب، فقاتله فهزمه أبرهة، وأخذ له نفيل أسيراً، فأتي به، فلما هم بقتله قال له نفيل: أيها الملك لا تقتلني، فإني دليلك بأرض العرب، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم: شهران وناهس، بالسمع والطاعة، فخلى سبيله. وخرج به معه يدله، حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن متعب في رجال من ثقيف، فقالوا له: أيها الملك، إنما نحن عبيدك، سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد. يعنون اللات إنما تريد البيت الذي بمكة، نحن نبعث معك من يدلك عليه، فتجاوز عنهم، وبعثوا معه أبا رغال، حتى أنزله المغمس فلما أنزله به مات أبو رغال هناك، فرجمت قبره العرب، فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس. نزل أبرهة بالمغمس، بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على خيل له، حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها، فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك.

وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة، وقال له: سل عن سيد هذا البلد وشريفهم، ثم قل له: إن الملك يقول: إني آت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا لي بحرب، فلا حاجة لي بدمائكم، فإذا هو لم يرد حربي فأتني به. فلما دخل حناطة مكة، سأل عن سيد قريش وشريفها، فقيل له: عبد المطلب بن هاشم، فجاءه فقال له أمره به أبرهة.

فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك منه طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليلة إبراهيم عليه السلام، أو كما قال، فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته، وإن يحل بينه وبينه، فو الله ما عندنا دفع عنه. فقال له حناطة: فانطلق إليه، فإنه قد أمرني أن آتيه بك، فانطلق معه عبد المطلب، ومعه بعض بنيه، حتى أتى العسكر، فسأل عن ذي نفر، وكان صديقا له، حتى دخل عليه وهو في محبسه، قال له: يا ذا نفر، هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفر: وما غناء رجل أسير بيدي ملك، ينتظر أن يقتله غدوا وعشيا!

ما عندي غناء في شيء مما نزل بك، إلا أن أنيساً سائس الفيل صديق لي، فسأرسل إليه، وأوصيه بك، وأعظم عليه حقك، وأسأله أن يستأذن لك على الملك،

فتكلمه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك، فقال حسبي. فبعث ذو نفر إلى أنيس، فقال له: إن عبد المطلب سيد قريش، وصاحب عين مكة، ويطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير، فاستأذن له عليه، وانفعه عنده بما استطعت، فقال: أفعل. فكلم أنيس أبرهة، فقال له: أيها الملك، هذا سيد قريش ببابك، يستأذن عليك، وهو صاحب عين مكة، يطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال، فأذن له عليك، فيكلمك في حاجته.

قال: فأذن له أبرهة. وكان عبدا المطلب أوسم الناس، وأعظمهم وأجملهم، فلما رآه أبرهة أجله، وأعظمه عن أن يجلسه تحته، فنزل أبرهة عن سريره، فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه. ثم قال لترجمانه: قل له: حاجتك؟ فقال له ذلك الترجمان، فقال: حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي.

فلما قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قل له لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصنها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك، قد جئت لهدمه؟ لا تكلمني فيه! قال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه. قال: ما كان ليمتنع مني! قال: أنت وذاك. فرد عليه إبله. وانصرف عبد المطلب إلى قريش، فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعف الجبال والشعاب، تخوفاً عليهم معرة الجيش. ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقه باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش، يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده.

قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ**﴾ أي في إبطال وتضييع؛ لأنهم أرادوا أن يكيدوا قريشاً بالقتل والسبي، والبيت بالتخريب والهدم، فحكي عن عبد المطلب أنه بعث ابنه عبد الله على فرس له، ينظر ما لقوا من تلك الطير، فإذا القوم مشدخين جميعاً، فرجع يركض فرسه، كاشفاً عن فخذه، فلما رأى ذلك أبوه قال: إن ابني هذا أفرس العرب. وما كشف عن فخذه إلا بشيراً أو نذيراً. فلما دنا من ناديهم بحيث يسمعهم الصوت، قالوا: ما وراءك؟ قال: هلكوا جميعاً. فخرج عبد المطلب وأصحابه، فأخذوا أموالهم. وكانت أموال بني عبد المطلب منها، وبها تكاملت رياسة عبد المطلب؛ لأنه احتمل ما شاء من صفراء وبيضاء، ثم خرج أهل مكة بعده ونهبوا. قوله تعالى: ﴿**وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ**﴾ قال سعيد بن جبير:

كانت طيراً من السماء لم ير قبلها ولا بعدها مثلها. قوله تعالى: ﴿**تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ**﴾، في الصحاح: حجارة من سجيل، قالوا: حجارة من طين، طبخت بنار جهنم، مكتوب فيها أسماء القوم، لقوله تعالى: ﴿**لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ**﴾ (الذريات:٣٣).

قال عبد الرحمن بن أبزي: من سجيل: من السماء، وهي الحجارة التي نزلت على قوم لوط. وقيل: من الجحيم، وهي سجين ثم أبدلت اللام نوناً، كما قالوا في أصيلان أصيلال.

قوله تعالى: ﴿**فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ**﴾ أي جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدواب، فرمت به من أسفل. شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزائه. ويروي أن الحجر كان يقع على أحدهم فيخرج كل ما في جوفه، فيبقى كقشر الحنطة إذا خرجت منه الحبة.

*****

سـورة قــريــش

قوله تعالى: ﴿**لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ**﴾ قيل: إن هذه السورة متصلة بالتي قبلها في المعنى. يقول: أهلكت أصحاب الفيل لإيلاف قريش، أي لتأتلف، أو لتتفق قريش، أو لكي تأمن قريش فتؤلف رحلتيها. وممن عد السورتين واحدة أبي بن كعب، ولا فصل بينهما في مصحفه.

وقال سفيان بن عيينة: كان لنا إمام لا يفصل بينهما، ويقرؤهما معا: ﴿**لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ**﴾: أي فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش. وذلك أن قريشاً كانت تخرج في تجارتها، فلا يغار عليها ولا تقرب في الجاهلية. يقولون: هم أهل بيت الله جل وعز، حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة، يأخذ حجارتها، فيبني بها بيتاً في اليمن يحج الناس إليهن فأهلكهم الله عز وجل، فذكرهم نعمته. أي فجعل الله ذلك لإيلاف قريش، أي ليألفوا الخروج ولا يجترأ عليهم.

قول الله تعالى: ﴿**إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ**﴾ روى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿**إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ**﴾ قال: لا يشق عليهم رحلة شتاء ولا صيف، منة منه على قريش. وقال الهروي وغيره: وكان أصحاب الإيلاف أربعة أخوة: هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل، بنو عبد مناف. فأما هاشم فإنه كان يؤلف ملك الشام، أي أخذ منه حبلا وعهدا يأمن به في تجارته إلى الشام. وأخوه عبد شمس كان يؤلف إلى الحبشة. والمطلب إلى اليمن. ونوفل إلى فارس.

ومعنى يؤلف: يجير. فكان هؤلاء الأخوة يسمون المجيرين. فكان تجار قريش يختلفون إلى الأمصار بحبل هؤلاء الأخوة، فلا يتعرض لهم. والتأويل: أن قريشاً كانوا سكان الحرم، ولم يكن لهم زرع ولا ضرع، وكانوا يميرون في الشتاء والصيف آمنين، والناس يتخطفون من حولهم، فكانوا إذا عرض لهم عارض، قالوا: نحن أهل حرم الله فلا يتعرض الناس لهم.

عن ابن عباس، في قول الله عز وجل: ﴿**لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ**﴾ إلفهم رحلة الشتاء والصيف. وذلك أن قريشاً كانوا إذا أصابت واحداً منهم مخمصة، جرى هو وعياله إلى موضع معروف فضربوا على أنفسهم خباء فماتوا، حتى كان عمرو بن عبد مناف، وكان سيداً في زمانه، وله ابن يقال له: أسد، وكان له ترب من بني

مخزوم، يحبه ويلعب معه. وتأويله على ما أظنه: ذهابهم إلى ذلك الخباء، وموتهم واحداً بعد واحد. قال: فدخل أسد على أمه يبكي، وذكر ما قاله تربة. قال: فأرسلت أم أسد إلى أولئك بشحم ودقيق، فعاشوا به أياماً.

قوله تعالى: ﴿**الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**﴾ أي بعد جوع. وآمنهم من خوف: قال ابن عباس: ذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ (البقرة:١٢٦).

*****

سـورة الـمـاعـون

قوله تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ**﴾ أي بالجزاء والحساب في الآخرة، و: أرأيت: بإثبات الهمزة الثانية، إذ لا يقال في أرأيت: أريت، ولكن ألف الاستفهام سهلت الهمزة ألفاً، وفي الكلام حذف، والمعنى: أرأيت الذي يكذب بالدين: أمصيب هو أم مخطئ. واختلف فيمن نزل هذا فيه، فذكر أبو صالح عن ابن عباس قال: نزلت في العاص بن وائل السهمي.

قوله تعالى: ﴿**فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ**﴾ أي يدفعه عن حقه. قال قتادة: يقهره ويظلمه. وفي سورة النساء: أنهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار، ويقولون: إنما يحوز المال من يطعن بالسنان، ويضرب بالحسام، قوله تعالى: ﴿**وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ**﴾ أي لا يأمر به، من أجل بخله وتكذيبه بالجزاء. وهو مثل قوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿**وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ**﴾، وليس الذم عاما حتى يتناول من تركه عجزاً، ولكنهم كانوا يبخلون ويعتذرون لأنفسهم، ويقولون: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**﴾ (يّس:٤٧)، فنزلت هذه الآية فيهم، وتوجه الذم إليهم. فيكون معنى الكلام: لا يفعلونه إن قدروا، ولا يحثون عليه إن عسروا. قوله تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ**﴾ أي عذاب لهم. عن ابن عباس قال: هو المصلى الذي إن صلى لم يرج لها ثواباً، وإن تركها لم يخش عليها عقاباً، وعن أيضاً: الذين يؤخرونها عن أوقاتها.

وكذا روى المغيرة عن إبراهيم، قال: ساهون بإضاعة الوقت. وعن أبي العالية: لا يصلونها لمواقيتها ولا يتمون ركوعها ولا سجودها. قلت: ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً**﴾(مريم:٥٩)، قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ**﴾ أي يري الناس أنه يصلي طاعة وهو يصلي تقية، كالفاسق، يري أن يصلي عبادة وهو يصلي ليقال: إنه يصلي وحقيقة الرياء طلب ما في الدنيا بالعبادة، وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس. وأولها تحسين السمت، وهو من أجزاء النبوة، ويريد بذلك الجاه والثناء. وثانيها: الرياء بالثياب القصار والخشنة، ليأخذ بذلك هيئة الزهد في الدنيا. وثالثها: الرياء بالقول، بإظهار التسخط على أهل الدنيا، وإظهار الوعظ والتأسف على ما

يفوت من الخير والطاعة. ورابعها: الرياء بإظهار الصلاة والصدقة أو بتحسين الصلاة لأجل رؤية الناس، وذلك يطول، وهذا دليله، قاله ابن العربي، وقد تقدم في سورة النساء وهود وآخر (الكهف) القول في الرياء وأحكامه وحقيقته بما فيه كفاية. والحمد لله. الخامسة: ولا يكون الرجل مرائياً بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة، فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها.

*****

سـورة الـكــوثـــر

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ الكوثر: فوعل من الكثرة، مثل النوفل من النفل، والجوهر من الجهر. والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد والقدر والخطر كوثرا. قال سفيان: قيل لعجوز رجع ابنها من السفر: بم آب ابنك؟ قالت: بكوثر، أي بمال كثير. والكوثر من الرجال: السيد الكثير الخير.

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: ((الكوثر: نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، ماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج)). قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ فصل: أي أقم الصلاة المفروضة عليك. وقال قتادة: فصل لربك، صلاة العيد يوم النحر. وانحر: نسكك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ أي مبغضك، وهو العاص بن وائل. وكانت العرب تسمي من كان له بنون وبنات، ثم مات البنون وبقي البنات: أبتر، فيقال: إن العاص وقف مع النبي ﷺ يكلمه، فقال له جمع من صناديد قريش: مع من كنت واقفاً؟ فقال: مع ذلك الأبتر. وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله ابن رسول الله ﷺ، وكان من خديجة، فأنزل الله جل شأنه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ أي المقطوع ذكره من خير الدنيا والآخرة. وذكر عكرمة عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية إذا مات ابن الرجل، قالوا: بتر فلان. فلما مات إبراهيم ابن النبي ﷺ خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال: بتر محمد، فأنزل الله جل ثناؤه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ يعني بذلك أبا جهل.

*****

سورة الكافرون

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ روى جبير بن مطعم: أن النبي ﷺ قال: ((أتحب يا جبير إذا خرجت سفراً أن تكون من أمثل أصحابك هيئة وأكثرهم زاداً؟ قلت: نعم. قال: فاقرأ هذه السور الخمس من أول: قل يا أيها الكافرون إلى قل أعوذ برب الناس وافتتح قراءتك: ببسم الله الرحمن الرحيم، قال: فو الله لقد كنت غير كثير المال، إذا سافرت أكون أبدهم هيئة، وأقلهم زاداً، فمذ قرأتهن صرت من أحسنهم هيئة، وأكثرهم زاداً، حتى أرجع من سفري ذلك))،

قوله تعالى: ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ قيل: إنهم كانوا يعبدون الأوثان، فإذا ملوا وثناً، وسئموا العبادة له، رفضوه، ثم أخذوا وثناً غيره بشهوة نفوسهم، فإذا مروا بحجارة تعجبهم ألقوا هذه، ورفعوا تلك، فعظموها ونصبوها آلهة يعبدونها، فأمر عليه السلام أن يقول لهم: ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ اليوم من هذه الآلهة التي بني أيديكم. ثم قال: ولا أنا عابد ما عبدتم، أي بالأمس من الآلهة التي رفضتموها، وأقبلتم على هذه. ولا أنتم عابدون ما أعبد: فإني أعبد إلهي.

قوله تعالى: ﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ على نفي العبادة منه لما عبدوا في الماضي. ثم قال: ﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ على التكرير في اللفظ دون المعنى، من قبل أن التقابل يوجب أن يكون: ولا أنتم عابدون ما عبدت، فعدل عن لفظ عبدت إلى أعبد، إشعاراً بأن ما عبد في الماضي هو الذي يعبد في المستقبل، مع أن الماضي والمستقبل قد يقع أحدهما موقع الآخر. قيل: إن معنى الآيات وتقديرها: قل يا أيها الكافرون لا أعبد الأصنام التي تعبدونها، ولا أنتم عابدون الله عز وجل الذي أعبده، لإشراككم به واتخاذكم الأصنام، فإن زعمتم أنكم تعبدونه، فأنتم كاذبون، لأنكم تعبدونه مشركين. فأنا لا أعبد ما عبدتم، أي مثل عبادتكم، فما: مصدرية.

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فيه معنى التهديد، وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾(القصص:٥٥)، أي إن رضيتم بدينكم، فقد رضينا بديننا. وكان هذا قبل الأمر بالقتال، فنسخ بآية السيف.

*****

سورة النصر

قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ النصر: العون، مأخوذ من قولهم: قد نصر الغيث الأرض: إذا أعان على نباتها، من قحطها. يقال: نصره على عدوه ينصره نصراً، أي أعانه. والاسم النصرة. واستنصره على عدوه: أي سأله أن ينصره عليه. وتناصروا: نصر بعضهم بعضا. ثم قيل: المراد بهذا النصر نصر الرسول على قريش، وقيل: نصره على من قاتله من الكفار، فإن عاقبة النصر كانت له: وأما الفتح: فهو فتح مكة.

قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾ ورأيت الناس: أي العرب وغيرهم. يدخلون في دين الله أفواجا: أي جماعات: فوجاً بعد فوج، وذلك لما فتحت مكة، قالت العرب: أما إذا ظفر محمد بأهل الحرم، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان. فكانوا يسلمون أفواجا: أمة أمة. قال الضحاك: والأمة: أربعون رجلاً.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ أي إذا صليت فأكثر من ذلك. وقيل: معنى سبح: صل، عن ابن عباس. بحمد ربك: أي حامداً له على ما آتاك من الظفر والفتح، واستغفره: أي سل الله لغفران. قال مقاتل: لما نزلت قرأها النبي ﷺ على أصحابه، ومنهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبى وقاص، ففرحوا واستبشروا، وبكى العباس، فقال له النبي ﷺ: ما يبكيك يا عم؟ قال: نعيت إليك نفسك. قال: إنه لكما تقول: فعاش بعدها ستين يوما، ما رئي فيها ضاحكاً مستبشراً.

فوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ أي على المسبحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم، ويقبل توبتهم. وإذا كان عليه السلام وهو معصوم يؤمر بالاستغفار، فما الظن بغيره؟

*****

سورة المسد

قوله تعالى: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**﴾ عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**﴾(الشعراء:٢١٤)، ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه! فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. فاجتمعوا إليه. فقال: ((يابني فلان، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني مناف، يا بني عبد المطلب!)) فاجتمعوا إليه. فقال: ((أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك!، أما جمعتنا إلا لهذا! ثم قام، فنزلت هذه السورة: تبت يدا أبي لهب وتب.

قوله تعالى: ﴿**مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ**﴾ أي ما دفع عنه عذاب الله ما جمع من المال، ولا ما كسب من جاه. وقال مجاهد: من الولد، وولد الرجل من كسبه. قوله تعالى: ﴿**سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ**﴾ أي ذات اشتعال وتلهب، قوله تعالى: ﴿**وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ**﴾ وامرأته: أم جميل. قال ابن العربي: العوراء أم قبيح، وكانت عوراء. حمالة الحطب: قال ابن عباس: كانت تمشي بالنميمة بين الناس. قال مرة الهمداني: كانت أم جميل تأتي كل يوم ببالة من الحسك، فتطرحها على طريق المسلمين، فبينما هي حاملة ذات يوم حزمة أعيت، فقعدت على حجر لتستريح، فجذبها الملك من خلفها فأهلكها.

قوله تعالى: ﴿**فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ**﴾ في جيدها: أي عنقها. قال الحسن: هي حبال من شجر تنبت باليمن تسمى المسد، وكانت تفتل. قال الضحاك وغيره: هذا في الدنيا، فكانت تعير النبي ﷺ بالفقر وهي تحتطب في حبل تجعله في جيدها من ليف، فخنقها الله جل وعز به فأهلكها، وهو في الآخرة حبل من نار.

*****

سورة الإخلاص

قال تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ أي الواحد الوتر، الذي لا شبيه له، ولا نظير ولا صاحبة، ولا ولد ولا شريك، قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ الصَّمَدُ**﴾ أي الذي يصمد إليه في الحاجات عن ابن عباس، قال: الذي يصمد إليه في الحاجات، كما قال عز وجل: ﴿**وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ**﴾ (النحل:٥٣). قال أهل اللغة: الصمد: السيد الذي يصمد إليه في النوازل والجوائح.

قوله تعالى: ﴿**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ**﴾ قال أبى بن كعب: الصمد: الذي لا يلد ولا يولد؛ لأنه ليس شيء إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا يورث وقال علي وابن عباس أيضاً وأبو وائل شقيق بن سلمة وسفيان: الصمد: هو السيد الذي قد انتهى سؤدده في أنواع الشرف والسؤدد.

قوله تعالى: ﴿**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ**﴾ قال: لم يكن له شبيه ولا عدل، وليس كمثله شيء. وروي عن أبي العالية: إن النبي ﷺ ذكر آلهتهم، فقالوا: انسب لنا ربك. قال: فأتاه جبريل بهذه السورة، ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ وقيل: إن القرآن أنزل أثلاثاً، ثلثاً منه أحكام، وثلثاً منه وعد ووعيد، وثلثا منه أسماء وصفات وقد جمعت: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ أحد الأثلاث، وهو الأسماء والصفات. ودل على هذا التأويل ما في صحيح مسلم، من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ، قال: ((إن الله جل وعز جزأ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل: قل هو الله أحد، جزءا من أجزاء القرآن))،وهذا نص، وبهذا المعنى سميت سورة الإخلاص.

*****

سورة الفلق

قيل: إن المعوذتين كان يقال لهما المقشقشتان، أين تبرئان من النفاق. وزعم ابن مسعود أنهما دعاء تعوذ به، وليستا من القرآن، خالف به الإجماع من الصحابة وأهل البيت. قال ابن قتيبة: لم يكتب عبد الله بن مسعود في مصحفه المعوذتين؛ لأنه كان يسمع رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين رضي الله عنهما بهما، فقدر أنهما بنزلة: أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة.

قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ قيل: هو إبليس وذريته. وقيل: جهنم. وقيل: هو عام، أي من شر كل ذي شر خلقه الله عز وجل. قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ اختلف فيه، فقيل: هو الليل. والغسق: أول ظلمة الليل، يقال منه: غسق الليل يغسق أي أظلم. ووقب: على هذا التفسير: أظلم. قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ يعني الساحرات اللائى ينفثن في عقد الخيط حين يرقين عليها شبه النفخ كما يعمل من يرقين.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أنه تمني زوال نعمة المحسود إن لم يصر للحاسد مثلها. والمنافسة هي تمني مثلها وإن لم تزل. فالحسد شر مذموم. والمنافسة مباحة وهي الغبطة. قال العلماء: الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود، فيتبع مساوئه ويطلب عثراته.

قال بعض الحكماء: بارز الحاسد ربه من خمسة أوجه: أحدها: أن أبغض كل نعمة ظهرت على غيره. وثانيها: أنه ساخط لقسمة ربه، كأنه يقول: لم قسمت هذه القسمة؟ وثالثها: أنه ضاد فعل الله، أي أن فضل الله يؤتيه من يشاء، وهو يبخل بفضل الله. ورابعها: أنه خذل أولياء الله، أو يريد خذلانهم وزوال النعمة عنهم. وخامسها: أنه أعان عدوه إبليس. وقيل: الحاسد لا ينال في المجالس إلا ندامة، ولا ينال عند الملائكة إلا لعنة وبغضاء، ولا ينال في الخلوة إلا جزعاً وغماً، ولا ينال في الآخرة إلا خزناً واحتراقاً، ولا ينال من الله إلا بعداً ومقتاً.

*****

سورة النـــاس

عن عقبة بن عامر الجهني: عن النبي ﷺ قال: ((لقد أنزل الله علي آيات لم ير مثلهن: قل أعوذ برب الناس، إلى آخر السورة، و: قل أعوذ برب الفلق)) إلى آخر السورة. قوله تعالى: ﴿**مَلِكِ النَّاسِ* إِلَـهِ النَّاسِ**﴾ (٢ -٣)، لأن في الناس ملوكاً يذكر أنه ملكهم، وفي الناس من يعبد غيره، فذكر أنه إلههم ومعبودهم، وأنه الذي يجب أن يستعاذ به، ويلجأ إليه، دون الملوك والعظماء.

قول الله تعالى: ﴿**مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ**﴾ يعني من شر الشيطان. والمعنى: من شر ذي الوسواس، فحذف المضاف، قال الفراء: وهو: بفتح الواو، بمعنى الاسم، أي الموسوس. و: بكسر الواو، المصدر، يعني الوسوسة. وكذا الزلزال والزلزال. والوسوسة: حديث النفس. يقال: وسوست إليه نفسه وسوسة ووسوسة: بكسر الواو. قيل: إن الوسواس الخناس ابن لإبليس، جاء به إلى حواء، ووضع بين يديها وقال: اكفليه. فجاء آدم عليه السلام فقال: ما هذا يا حواء! قالت: جاء عدونا بهذا، وقال لي: اكفليه، فقال: ألم أقل لك لا تطيعيه في شيء، هو الذي غرنا حتى وقعنا في المعصية؟ وعمد إلى الولد فقطعة أربعة أرباع، وعلق كل ربع على شجرة، غيظاً له فجاء إبليس، فقال: يا حواء أين ابني؟ فأخبرته بما صنع به آدم عليه السلام، فقال: يا خناس، فحيي فأجابه.فجاء به إلى حواء، وقال: اكفليه، فجاء آدم عليه السلام فحرقه بالنار، وذر رماده في البحر، فجاء إبليس عليه اللعنة، فقال: يا حواء، أين ابني، فأخبرته بفعل آدم إياه، فذهب إلى البحر، فقال: يا خناس فحيي فأجابه فجاء به إلى حواء الثالثة، وقال: اكفليه. فنظر إليه آدم فذبحه وشواه، وأكلاه جميعاً. فجاء إبليس فسألها فأخبرته حواء. فقال: يا خناس فحيي فأجابه فجاء به من جوف آدم وحواء. فقال إبليس: هذا الذي أردت، وهذا مسكنك في صدر ولد آدم، فهو ملتقم قلب ابن آدم ما دام غافلاً يوسوس، فإذا ذكر الله لفظ قلبه وانخنس. ذكر هذا الخبر الحكيم في نوادر الأصول بإسناد عن وهب بن منبه.

قوله تعالى: ﴿**الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ**﴾ قال مقاتل: إن الشيطان في صورة خنزير، يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق، سلطه الله على ذلك، قوله تعالى: ﴿**مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ**﴾ أخبر أن الموسوس قد يكون من الناس. قال

الحسن: هما شيطانان، أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس فيأتي علانية. وقال قتادة: إن من الجن شياطين، إن من الإنس شياطين، فتعوذ بالله من شياطين الإنس والجن.

*****

وكان الفراغ من هذا الكتاب في التاسع عشر من شعبان سنة ١٤٤٢ من هجرة أبي القاسم ﷺ، الموافق: ١٤من أبريل سنة ٢٠٢١ ميلادي، وليس لفضيلة الشيخ الشعرلوي أي عمل في الكتاب، ووضعنا صورته للتبرك، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، الراجي عفو ربه: الشيخ / كامل بن محمد بن محمد بن عويضة المنصوري المصري الشافعي، والحمد لله رب العالمين، أسأل الله تعالى أن يفرغ عليَّ صبراً، وأن يحشرني مع الصديقين والصالحين والمرسلين، وأن يحسن عملي، ويطيل عمري، وأن يبارك لي في ولدي: عبد الله، وأحمد، وأن ييسر لهما تتمة حفظ كتابك، وأن يجعلهما من العلماء الصالحين العاملين، بكتابك، وسنة نبيك محمد ﷺ، وأن تحفظهما من كل شر، وتصرف عنهما كل ضر، وأن تطيل عمرهما، إنك على كل شئ قدير، وبالإجابة جدير، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسام، والحمد لله رب العالمين.

****

فهرس الكتاب